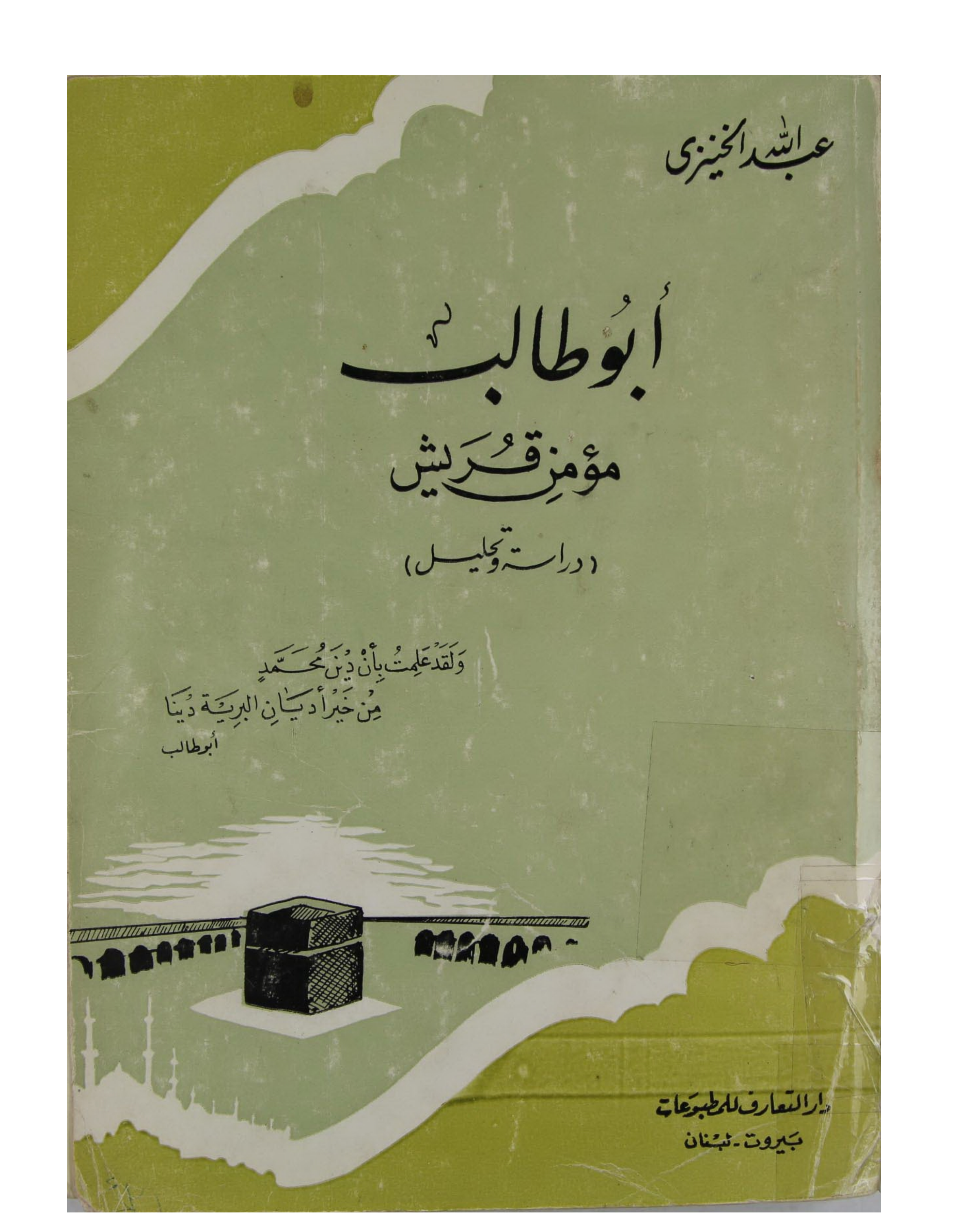


عبد الله الخنيزي
أبو طالب
مؤمن قريش
(دراسة وتحليل)
ولقد علمت بأن دين محمد
من خير أديان البرية دينا
أبو طالب
دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

ابوطالب

مؤمن قريش



عبدالله الشيخ علي الخنيزي

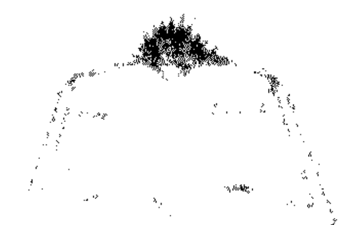
ابوطالب

مؤمن قريش

(دراسة وتحليل)

الطبعة الرابعة
١٣٩٨ هـ
١٩٧٨ م



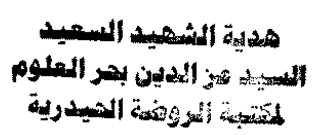


دار التعارف للمطبوعات

الطبعة الأولى : منشورات دار مكتبة الحياة — ١٣٨١ هـ — ١٩٦١ م .
الطبعة الثانية : منشورات دار مكتبة الحياة — ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢ م .
الطبعة الثالثة : منشورات المؤسسة الثقافية للنشر — ١٣٨٤ — ١٩٦٤ م.
الطبعة الرابعة : منشورات دار التعارف للمطبوعات ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م



المؤلف





مؤمن آل فرعون

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، يَكْتُمُ إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً ، أَنْ يَقُولَ : « رَبِّيَ اللهُ » وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ؟ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً ، فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ... وَإِنْ يَكُ صَادِقاً ، يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ. إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ . (٢٨)

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ : يَا قَوْمِ ! اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ ! إِنَّمَا هَـذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ . مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً ــ مِنْ ذَكَرٍ ، أَوْ أُنْثَى ــ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ ، يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَيَا قَوْمِ ! مَالِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ ، وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ؟!. تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللهِ ، وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي

هذا الكتاب

سلختُ مِنْ عمري — في سبيل إيجاد هذا الكتاب — عاماً ، أو ما يقرب مِنَ العام ، منذ أوّل حرفٍ حبَّرته منه ، حتى آخر نقطةٍ منه[1] . وبين هذه الفسحة مِنَ الوقت ، كان شيءٌ كثيرٌ ، مِنْ نصيب البحث والتنقيب . كما كان شيءٌ ليس بالقليل — مِنَ الوقت — يمرّ دَونَ أنْ أخطّ فيه حرفاً ، أو أن أُنقّب عن شيءٍ ...

وبالإضافة إلى هذا ... وذاك ... فقد كان الوقت اليوميُّ ، المخصّص في سبيل هذا الكتاب : ما لا يتجاوز الساعةَ كلَّ يومٍ .

ليس مهمّاً ما عرضتُ له ، ولم يكن مِنْ قصدي ...

إنما أودُّ أن أُشير إلى : أني في صيف عام ٧٥—٧٦ هـ [٥٦م] زرتُ لبنان الجميل ، فقدّمتُ هذا الكتاب لصديقي الأستاذ بولس سلامة ليقدّم له مقدّمةً ، مجرّدةً مِنْ كلّ صلةٍ ، غير ناظرٍ لسوى الأثر — وهكذا اتفقنا في الرأي — فوضع هذه المقدّمة ، التي بين يدي القارىء الكريم ، فأشار فيها إلى نقطة الضعف ، في هذا الكتاب ، وهي ممَّا يتّصل باللغة .

والنقد النزيه ، لا يأتي بسوى الخيّر مِنَ الثمار .

---

(١) كان أول حرفٍ خُطّ في مسوّدة الكتاب في ٧٣/٨/٩ هـ — ٥٤/٤/١٤ م . وآخر حرفٍ مِنْ مسودته — أيضاً — في ١٣٧٤/٨/٢ هـ — ١٩٥٥/٣/٢٧ م .

لذلك ــ وقد رأيتُ المنفسح مِنَ الوقت ــ ألقيتُ عليه نظرةً فاحصةً ، تداركت فيها شيئاً مِنَ الأخطاء ، التي وفقتُ لاكتشافها . وعدتُ على بعض النقاط بالصقل والتشذيب . كما زدتُ شيئاً مِنَ المصادر التي وقفتُ عليها ، خلال هذا المنفسح مِنَ الوقت . وكذلك زدتُ في بعض المواضع ، ما وقفتُ عليه ــ بعد ذلك ــ ممّا رأيت الفائدة والتمام يتطلبانه ، ولا سيما في [على العتبة] .

وقبل هذا وذاك... فإني لا أدّعي لنفسي : العصمة والكمال . وحسبي منه : أنْ يكون غاية الجهد ، وأنَّ الخلل ــ إنْ وجد فيه ــ فما هو عن تقصيرٍ... والله مِنْ وراء القصد .

١٣٧٧/٥/٢٧ هـ
١٩٥٧/١٢/٢٠ م

المؤلف

المقدمة

بقلم الاستاذ الكبير بولس سلامة

بين القطيف وبيني صلةٌ ، سببها ملحمة « عيد الغدير » ، التي أدرتها على الإمام أبي الحسن . وهذا كتابٌ موضوعه والد الإمام . وقد نوّهتُ ــ في الملحمة ــ بفضل كفيل النبيّ ، وجيه قريش وشيخها ، فبقي أنْ أُصدّر هذا المؤلّف بكلمةٍ خاطفةٍ ، تنظر إلى الكتاب نفسه .

لقد استهلّ المؤلّف كتابه بعرض جرائم بني أُمية ، وتفنيد التهم التي ألصقوها بأهل بيت الرسول ، فما قصّر ولا ارتبك قلمه . ولا غرو فإنّ مَنْ يأخذ جانب [أبي تراب] ، يستقوي . ولقد عرف ابن قلعة القطيف : أنه في حصنٍ نشطت عليه العوادي ، فكانت هي الواهية ، وكان هو القائم أبد الدهر .

ولا يخفى أنَّ المؤلّف يرصف التهم الباطلة رصفاً بارعاً ، ويكثّفها ليزيد في شناعتها ، وفي تهجين كلام المفترين على أهل البيت . ولم يفتْهُ الإسناد والأخذ بقول أساطين التاريخ ، وأعلام البيان والحديث ، على ما في اندفاعه مِنْ حماسة الشباب وتوثّب القلم .

وأحسب أنَّ المقدّمة ــ (على العتبة) ــ هي خطُّ النار ، والجبهة الدفاعية ــ الهجومية معاً . فبحسْب المؤلّف أنْ يحشد فيها الفِرى ، التي تتهافت ، ويُظهر الخصوم كعصبةٍ مِنْ أقزام الزنج والأنباط ، لتظهر عظمة الإمام ، كما يبزغ الضياء بعد ارفضاض الغيوم .

أمّا الفصل الذي يلي المقدمة ـــ وعنوانه (بيت) ـ فقد أعاد فيه المؤلف قولاً معروفاً . وانما يُعذر على الكلام المكرور ، لأنه تمهيدٌ لعرض شخصية أبي طالب . ولقد أبرزها على أنها مركز « الدائرة » في قريش ـــ وإنهـا لكذلك .

وحبذا لو أُسعفته اللغة بأفضل مِنَ الديباجة التي أسبغها على تلك الصُّوَر المتعدِّدة مِنْ حياة الرجل ، فإنَّ إنشاء صاحبنا لم يستقم ، بعد ، فيضـَّلع ، شأنه في ذلك شأن سواد الشباب الطالع . بيد أنَّ هذا الفرع ، الذي نمته دوحةٌ وفتّ قسطها للضاد ، يعِد الثمار الناضجة ، في المستقبل القريب ـــ إنْ شاء الله .

ولقد أحسن المؤلف إذ أبرز شخصية سيد البطحاء ـــ ابن شيبة الحمد ـــ فجلاها ، ثم بسطها على فصول الكتاب جميعاً فنما فضل كفيل الرسول ومربيه وحاميه ، بنمو الرسول نفسه ، فكان أنَّ اليتيم اســتظلَّ في كنف عمه صبيّاً ويافعاً . فلمّا بزغت شمس اليتيم مشى العم في نورها ، وفاء الى ظل ابن عبدالله مجاهداً ، يفديه بماله ونفسه وولده .

ومِنَ الإنصاف للسيد الخنيزي ، قولنا : إنه بارعٌ في التحليل ، وليس أدلَّ على ذلك مِنْ وقفته على الأبيات ، التي تثبت إيمان أبي طالب ـــ وإنْ كان قد نال فيها مِنَ الشعراء ، الذين تسوقهم الضرورة الشعرية ، فتقولهم ما لا يريدون . وإنه ليحتجّ بقول واحدٍ منهم « لأنْ يروا حسناً ما ليس بالحسن » .

بيد أنَّ فضل الشعر يظهر في ما اختاره مِنْ شعر والد أبي تراب ، في فصل « الشّعب والصحيفة » ، حيث يقول أبو طالب :

يرجّون منّا خطةً دون نيلها ضرابٌ وطعنٌ بالوشيج المقوّم

ـــ إلى آخر هذه الأبيات ، التي يختلج فيها الإيمان المكين ، والقلب المضطرم ، والسيف المحتدم .

ولا يفوت صاحبنا التبويب العلميُّ . فتراه يفصّل الأدلة على فضل أبي طالب : حيّاً ، فمحتضراً ، فميتاً . ثم يتطرق إلى ما بعد الموت . ويقيم البرهان بشهادة الرسول ، ثم الإمام ، ثم أهل البيت .

وأحسب أنه لو امتهن المحاماة ، لما جاء في الرعيل الأخير ؟ فإنَّ له مِنْ خصائص الاستدلال والقياس ، والخلوص مِنَ المقدمات إلى النتائج ، مـا يكفل له النجاح .

* *

وبعد فلستُ هنا في مقام دراسةٍ وتحليلٍ ، فذلك مِنْ شأنِ القراء والنقاد . بل في مقام التصدير بكلمةٍ موجزةٍ ، مؤدّاها : أنَّ المؤلف أدرك الغاية فيما قصد اليه ، فتحرّى واستقرأ ، وفنّد ودافع .

وإنَّ الحسنات الكثيرة ، لتشفع ببعض الهنات ، التي وقعت في الصياغة ، وما كان العرض لينال مِنَ الجوهر . وفي هذا الكتاب كثيرٌ مِنَ اللؤلؤ ، وقليلٌ مِنَ الأصداف .

وأحسبني في رأيي هذا أقرب إلى القسوة العادلة مني إلى المجاملة . فبيني وبين القطيف صداقةٌ ـــ ولكن الحق أولى أنْ يُقال .

بيروت : ٢٥ صفر ١٣٧٦ هـ

بولس سلامة

على العتبة

أنا ــ الآن ــ أمام سيرة رجلٍ ، لعبت فيها الاهواء دوراً كبيراً ، ومشت بها الأقلام المأجورة ، ناكبةً عن صراط الحق ، ملقيةً على الحقيقية ستاراً صفيقاً ... شأنها مع كلِّ حقيقةٍ صارخةٍ ناصعةٍ ، تصدُّها عن الهوى الجموح، والعاطفة الرعناء ، فتعمل فيها مسخاً وتشويهاً لتجعل منها متداعي الستر ، ومنهار الكن .

رجلٌ خطَّ بسيرته ــ في التأريخ ــ سطوراً . على إشراق حرفٍ ، فكان مِنَ المجاهدين في الطليعة ، وكان مِنْ أنصار المبادىء القويمة ، ورسل الإنسانية وهداتها ــ في الرعيل الأوَّل .

رجلٌ فصر المبدأ القويم ، وكلُّ القلوب له جافيةٌ ، وكلُّ العيون تنظر اليه نظرةً شزراء ، يتطاير منها الحقد ، وترفُّ بالعداء المستفحل ، وتنـــذر بالمقاومة والعصيان ، والثورة لإطفاء هذه الشعلة المتقدة... فتمتدُّ منها أيدٍ ، لتعصف بهذا « النبيِّ الجديد » ذي القبس البهيِّ ، الذي عشىٰ بشعاعه العيون الرمداء .

ولكن هذا الحصن المنيع ، يقف ــ أمامها ــ شامخاً ، مدلاً بقوته ، متحدياً لها في إرادتها الهوجاء... فترتدُّ هذه الأيدي ، وقد ظنَّت : أنها ستنال ما تُريد ، وهي أفرغ ما تكون فتنفيض القلوب بالحقد ، على هـــذا النصير ــ أيضاً ــ وتغضب...! ولكن « غضب الخيل على اللجم » ؟.

رجل سقى الإسلام بذرةً ، في حقلٍ مجدبٍ... ورعاه أملوداً ليناً ، في مهبِّ

الإعصار ... ووليداً نعيم الظفر ، فاشتدَّ وقوي ، وانتشر منه نورٌ ، دون أن ينال منه عدوٌّ ما أراد ، حتى جفَّ هذا النبع الدفّاق ، والراعي المخلص الأمين ...

رجلٌ كان له في الإسلام شأنٌ ، وأبقى أثراً جميلاً ، وفضلاً باقياً . ولكن شاءتِ الأهواء أن تزوي عنه العيون ، وتنظر إليه نظرةً ظالمةً ، فراحت تنال منه ، وتضع في حقه الأراجيف ، لتنال مِنْ جوهر الحق ، ورواء الفضيلة .

* *

مرَّ عصر الخلافة الراشدة ، وهو يحفل بمآثر أبي طالب: رجل الاسلام الفذ ــ ويسجّل مآثره الغر ــ وأياديه البيض ، ليوفيه بعض حقّه له عليه .

وجاء عصر الملكية ، والسلطة الجائرة ، وهي لا تستقيم إلاَّ بالنيل مِنْ بطل الاسلام عليٍّ « عليه السلام » ــ لأنها قَدِ اغتصبته حقَّه ، مع بنيه الشرعيين ــ فكانت سيرة أبيه إحدى الجوانب ، التي أعملت تلك السلطة فيهـا معاول الهدم ، وهي تظن : أنها ستأتي على شخصية هذا الإمام ، التي هي اليوم في سبيل صرف الأنظار عن اغتصابها حقَّه .

عندئذٍ راحت تستأجر ذوي الضمائر الزنخة ، والقلوب القلّب ، التي تلبس لكلِّ ساعةٍ لبوسَها ... فلا تعرف للفضيلة معنىً ، ولا للرذيلة حدّاً ... فهي متاجرةٌ وصوليةٌ ، تبيع الذمم ، وتخفر العهود ، وتنقض المواثيق ، وتقلب الحق باطلاً ، وتموه الباطل حقّاً ، وتبيع دينها بالثمن البخس الزهيد : بدينارٍ زائفٍ ، ودرهمٍ مسروقٍ ، ومالٍ مغصوبٍ ، لتحقق غايتها الدون ، وترضي ضميرها السافل ، وتحوز رضى السلطة القائمة .

ولن يكون لها مجال البقاء والحياة ، إلاَّ تحت راية الظلام السوداء .. فالخفاشة لا تجد لها في النهار مَدَّة جناحٍ ، ولا يمتدُّ لعينها منه بصيص نورٍ ! فهي تودُّ الليل أن تطول منه الرقعة ، ليبقى الفضاء مسرحاً لها ــ وحدها لا يشاركها فيه ذو جناح !.

— ٢ —

قامتِ الأهواء بدورها ، فغيَّرت مجرى التأريخ ، وأرادت أن تقلب الوضع القائم ، فسخَّرتِ الضمائر في ركابها ، فوضعتِ الأحاديث ، لتساير رغبتها ، حتى صار وضع الأحاديث واختلاقها : سلعةً رائجة السوق ! فكثر الوضّاعون الذين يريدون هدم الدين ، الذي لم يكن في قلوبهم على قرارٍ ، ولم تخلص نفوسهم مِنْ عقابيل الجاهلية .

قامت هذه السوق السوداء ، على ثلاث أثافي: إخفاء فضائل عليٍّ ــ مِنْ ناحيةٍ ــ ووضع الأحاديث الكاذبة ضده ، وتحويل تفسير الآيات مِنْ غيره إليه ، ومنه لغيره ــ في الطرف الثاني ــ واختلاق الفضائل والمحاسن ، لغيره مِنَ الصحابة ــ مِنْ ناحيةٍ ثالثةٍ .

وقَدْ شجّع التاجر معاوية هذه السوق ، وهي تعمل في صالحه ، فهي حجر الأساس في ملكه ، فافتنَّ في ذلك ، حسب ما شاء ، وقَدْ رأى مقالته ناجحةً ، بعدما ذلّل منها كلَّ صعبٍ ، فأسلست له المِقود ، ولم تكن تلك الجموح .

فالعقيدة على رجراجٍ ، والدين لعقٌ على الألسنة ، لم تتمثّله هـذه الروح الجاهلية تمثلاً عميقاً ، والأهواء متحفِّزةٌ في الصـدور ، والأغراض تتوثّب للانطلاق ، والذهب البرّاق ــ الذي يرين على القلب ، في ما هو يخطف الأبصار ــ يعمل عمله السيء المشين .

اتخذ أصحاب الأغراض السود ، والأهواء الشائنة ، هذا الطريق ، وقد رأوه يرضي منهم مطمعهم الجشع .

ورأى منهم معاوية النهّاز : تلك المطية الذلول ، فحمل على ظهرهم تلك

الأحمال الثقال ... فكانوا لما يريد مطيعين ، وإن لم يرد ، فهم إليه متقربون.

* *

يكتب إلى عماله :

« أن برئت الذمة ، ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته »(1) .

ــ وإذا بالخطباء لذلك مستجيبون ، ليقوموا بلعن علي «ع» ، في كل كورة ، وعلى كل منبر ، ويبرأوا منه ، ويقعوا فيه وفي أهل بيته ، حتى أن المنابر ، التي يُلعن عليها علي ــ عند أدنى مناسبة ــ لتربو على السبعين ألف منبر .

والعامة للخطباء مستجيبون ، ولهم مصدقون .

فماذا تقدر ــ من العامة ــ تحت كل منبر ، من هذه السبعين ألفا ؟!
وكم وراء هذا العامي من نساء وأطفال ، يأخذون قوله ، مثلما يأخذ هو قول الخطيب ، حتى ينشأ على ذلك لحمهم ، ويجري به الدم في العروق .؟!.

ثم يعود ليكتب إلى عماله جميعاً :

[ألا تجيزوا لأحد ، من شيعة علي وأهل بيته ، شهادة](2) .

ــ ليأخذ بخناق الشيعة ، وينال من كرامتهم ، ويدعهم عرضة لمكاره أعدائهم ، وهدفاً لسهامهم .

ثم يخصص ــ في قبال هذا ــ لمن يروي في فضائل عثمان وشيعته : عطاءً وفيراً ، ومنزلة عالية...!

ولا يلبث أن يكتب لعماله ــ مرة ، الله وحده أعلم بموقعها من الحساب:

(إن الحديث في عثمان قد كثر ، وفشا في كل مصر ، وفي كل وجه وناحية . فإذا جاءكم كتابي ــ هذا ــ فادعوا الناس إلى الرواية في

(1) و (2) شرح النهج ص 15 : 3 .

فضائل الصحابة والخلفاء الأولين . ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب ، إلا وأتوني بمناقب له في الصحابة مفتعلة...! فإن هذا أحب إلي ، وأقر لعيني ، وأدحض لحجة أبي تراب ، وأشد إليهم من مناقب عثمان وفضله)(1) .

ولا يكاد الكتاب يصل الأسماع ، إلا والخيال يحلق ، فينشيء الأخبار، ويكثر ... ويأتي بالأحاديث ، ويسرف ... بعضها مناقب مفتعلة للصحابة ، والبعض الآخر: في النيل من علي «عليه السلام» ــ وهو الغاية من هذا الوضع.

ولسنا نرى حاجة للقول ، أو الإشارة إلى مقدار قيمة هذه الوفرة من الأحاديث في الفضائل ، أو التي تنال علياً وآله ؛ وما في تلك من: الغلو المفرط ، والجهل المضحك ؛ وما في هذه من: البغض القتّال ، والعداء الخبيث الأسود... حيث لم يبق لهذه أو تلك قيمة أو وزن ، وليست تثبت تحت مطرقة النقد لحظة ، لأنها ولدت من زني ، وبنيت على أساس ملح ، ما لبث أن نالته الرطوبة فذاب .

ولكن موقف السلطة الحاكمة ــ آنذاك ــ وما يصدره الحاكم بأمره ، التاجر معاوية ، كان السبب الفعال في تقوية رواج هذه السوق ، التي ليس لبضاعتها من كساد ، ولا يرجى منها سوى الربح المادي الوفير ... فتلقى هذه الأحاديث المفتعلة ، من ذرى المنابر ، وتعطى لمعلمي الكتاتيب ، لتعطى الأطفال ، فيحفظونها كما يحفظون القرآن الكريم ، أو أتقن حفظاً .

وبهذا تكون هذه الأحاديث أوسع انتشاراً ، وأكثر تداولاً ، وأمضى أثراً ــ هذا من ناحية ... ومن ناحية أخرى : يكون الربح والمصلحة أكثر شمولاً ، فينال منه صاحب المصنع ، والمصدّر ، والمستورد ــ حسب اللغة التجارية ، وهي صبغة هــذه الاحاديث ــ يشترك في الربح: خالق الحديث ،

(1) المصدر 16 : 3 .

ومنتجه ، وملقيه ومعلمه ، ومَنْ لفّ لفهم ...

ويعود التاجر الكبير معاوية ، ليكتب لعمّاله ، في جميع البلاد :

(انظروا إلى مَنْ قامت عليه البينة : إنه يحب علياً وأهل بيته ، فامحوه مِنَ الديوان ، وأسقطوا عطاءه ورزقه)[1] .

ولا يكتفي بهذه المطاردة العنيفة ، وهذا التحدّي الصارخ ، وهذه الحرب الاقتصادية الخانقة ، حتى يشفع كتابه ذاك بآخر :

(مَن اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم ، فنكّلوا به واهدموا داره)[2] .

فيضيق ــ بذلك ــ الحصار ، أشدّ منه مِنْ ذي قبلُ بكثيرٍ وكثيرٍ ، فيهدّد كلّ مَنْ يحفل قلبه ، بذرةٍ مِنْ حبٍّ ، لهذا الرجل ، أو هؤلاء القوم . فمجرد تهمة رجلٍ بحبهم ، مهدّدٌ بالحرب الحامية الأوار : فالذمة منه بريئة ، فهو عرضةٌ وهدفٌ لكلّ سوءٍ وعدوٍّ... وهو ممحوٌّ مِنَ الديوان ، ومسقطٌ عطاؤه ورزقه ، فلا يقف وبقية المواطنين على قدم المساواة ، وهو مخنوق الحرية ، لا يفكّر بعقله ، بل عليه أن يكون دميةً تسيّر وتوجّه ، بدون إرادةٍ أو تفكيرٍ... وهو ــ إلى ذلك ــ مهدور الكرامة والعزة ، محاط بالخطر ، يرتقبه بين اللحظة وأختها ، ينتظر التنكيل به ، وأنْ تُسقط عليه داره .

وهو لا يكتفي بإصدار هذه الأوامر الجائرة الظالمة ، والتي تخنق العدالة الإجتماعية ، وتلاشيها ــ لا يكتفي بهذا ، بل يختار مَنْ يقوم بتطبيق هذا الجور ، فيولّي على العراق صنيعته ، ولحيق نسبه ــ زياد بن أبيه ! ــ لتشتدّ الوطأة على الشيعة منهم ، وهو بهم خبيرٌ ، وبمكامنهم فطينٌ ، حيث كان

---

(١) و (٢) المصدر ذاته .

إليهم قريباً ، قبل أن يرين على قلبه العمى[1] .

---

(١) ما كنت أحسب أن أقف على قولةٍ يفوه بها أديبٌ ، يعيش في القرن العشرين ، حيث يظن فيه انه تخلّص مِنْ رواسب ذلك العهد البغيض المظلم ، وما فيه مِنْ: بيع الضمائر ، ومسخ الحقائق ؛ لولا وجود أشخاصٍ ، لا يزالون ــ كما يظهر ــ يعيشون برواسب ذلك التاريخ المظلم ، فيبثون سمومه بين المجتمع .

وإلّا فما كنت أظن أن يقول حسن السندوبي في شرحه للبيان والتبيين ، ص ٢٠٤ : ١ عند ترجمته لزياد ــ مثل هذه القولة النابية الخبيثة :

(ولست آخذ زياداً بتركه علياً ، والتحاقه بمعاوية ، ولا أرى في ذلك ما يطعن في عقله وفضله وكفاياته ــ كلا !! ــ لأنّ معاوية اعترف له بأخوّته ، مِنْ أبي سفيان ، وليس بعد اطمئنان الانسان على نسبه شيءٌ) .

ولو كان لدينا مجال التعليق على هذه القولة المائنة ، لكشفنا عمّا شُحنت به هذه الكلمات القليلة ، مِنْ : هدمٍ وتضليلٍ ، وتزويرٍ وافتراءٍ ، ومسخٍ وتشويهٍ لقداسة التعاليم الإسلامية والإنسانية ، ففيها ما فيها مِنْ : تحدٍّ للرسول « ص » في حديث : « الولد للفراش » ، وتحبيذٍ لإلحاق ولد الزنى بالزاني ، وعدم عدّ الخروج على الإمام الشرعيّ ايّ ذنبٍ او جرمٍ...!

لا ! بل إن كلّ هذه الأعمال الشائنة ، ممّا يدعّم عقل وفضل « ! » وكفايات زيادٍ ! ويا للعار !!! .

وشتان بين السندوبي هذا ، وبين الجاحظ ،حول هذه الخزية ــ استلحاق زياد بن أبيه ! .

فهذا يعدّها مِنْ عقل وفضل كفايات زياد..!

وذاك يستدلّ بها دعماً لتقريرٍ يثبته بناصع الأدلة ، بحيث يخرج معاوية مِنَ الفجار ، ليلحقه بالكفار ، في كلمةٍ سنأتي بها ، بعد خطوات قليلةٍ عند ←

. . . .

← وقوفنا حول فرية « عام الجماعة » !.

ولقد تضاءل عجبي واستغرابي ودهشتي ، مِنْ هذه القولة النابية – للسندوبي – بعد أن خطوت في قراءة شرحه هذا خطوات ، فوقفت مشدوهاً ، أمام تعليقةٍ ، سوّدت سبعة سطورٍ–ص ١٨٣ و ١٨٤: ٢ – هي لطخةٌ سوداء في شرحه ، حيث قام فيها بالدفاع ، عنِ « الأباضية » ، مراغمةً للأحاديث الكثر المتواترة ، والمخرجة في جميع الصحاح ، والمسلمة لدى جميع المسلمين عن الرسول « ص » في أنّ الخوارج « قومٌ يمرقون من الدّين ، كما يمرق السهم من الرمية » – حسب التعبير النبويّ الأقدس .

إلاّ أن هذا السندوبيّ اعتبرهم : (مِنْ أفاضل أهل القبلة ، وممَّنْ ينفرون منَ البدع التي ليست مِنَ الدّين في شيءٍ ، ومِنْ هنا يتهمهم بعض المسلمين بالتشدد وبعدم مسايرتهم للتقدم ، بل يرمونهم بما هم منه براء) .

أرأيت كيف تجنّى على جلّ المسلمين ، الذين يخضعون لما جاء في الخوارج ، على لسان الرسول الاعظم ؟!.

ولا يقف عند هذا الحد !. بل يضيف :
(وقَدْ كنتُ خدعتُ بقول خصومهم فيهم ، فرددتُ مجمل ما يتهمونهم به في بعض هوامش الجزء الأوّل . ثم تبيّن ليَ اليقين فيهم، فعلمتُ أنهم مِنْ خيار المسلمين، وممَّنْ يرجعون في كلّ أُمورهم، مِنْ عبادةٍ ومعاملةٍ، إلى الكتاب والسنة . ولا يرعك تنديد الجاحظ بهم، فإنهم كانوا فيما سلف خصوماً للمعتزلة . رضي الله تعالى عنِ المسلمين كافة) .

انه ليترضّى عمَّنْ مرق مِنَ الإسلام ، وهو يعتبرهم مِنَ المتمسكين بالسنة.

ولا أدري ما رأيه فيما ورد في حقهم في السنة الثابتة ، المسلمّة بين المسلمين جميعهم !.

وكيف يجمع بين ذلك، وبين ترضيه عن المسلمين جميعهم ، إذا كانتِ الخوارج منهم ، بعد مروقهم مِنَ الدّين ، مروق السهم مِنَ الرمية ، حيث بقية المسلمين – عدا مَنْ ينتمي للخوارج في الراي ، وعدا مَنْ يخالف السنة الثابتة – على يقينٍ وتسليمٍ بما جاء فيهم عنِ الرسول ، ولا ينظرون إليهم ، إلاّ بنظرة النبي الكريم لهم ، فهم ليسوا سوى خارجين مِنَ الدّين ، وأن صلاتهم ليست سوى مكاءٍ وتصديةٍ ، يقرأون القرآن ، لا يبلغ تراقيهم–وهي صفاتٌ أضفاها عليهم ←

← الرسول الأعظم – وما هم سوى صورةٍ مكبرةٍ للنفاق الدينيّ الماكر ، الخادع للأغرار : أمثال هذا الشارح الفيمر !.

ولقد لحظتُ فيه ميلاً « خارجياً »قبل حاشيته التي عرضناها هنا : فانه عندما يترجم خارجياً ، نجده يحشو الترجمة بالثناء ، ويُضفي عليه حلل المدح ، وأهازيج الاطراء . . .

وإنه لعلى العكس ، عندما يترجم لمَنْ يرى فيه ميلاً شيعياً ، فانه إن لم يهمله ، أو لم ينل منه ، يقتضب ويختصر ، مهما وجد لذلك سبيلاً ، ومهما كانت شخصية المترجم ، عدا النزر القليل ، ممَّنْ يفرض عليه القول فيه فرضاً ، فلا يستطيع تخطيه .

والسبب في موقفه هذا كلّه ، بالنسبة لزياد ، وللخوارج ، وللشيعة – السبب في ذلك كله واحدٌ . فهو – في جميعه – لا يصدر إلاّ عن شيءٍ في قلبه تجاه الإمام علي . . .

وما هي سوى ثمرةٍ مِنْ بذرة معاوية ، لمناهضة الإمام للانتزاء على المسلمين .

— ٣ —

لقد تفنّن معاوية في بيع هذه السلع وشرائها،وهو ذلك التاجر النهاز ، الذي لا يدع فرصةً ، إلّا اهتبلها في صالحه الفردي ، وأنانيته التافهة .

وما الرشوة ، وتقسيم الأموال ، والترشيح للرئاسة،إلّا أثمانٌ زهيدةٌ لديه ... وإنها لكفيلةٌ بشراء الوفر العديد ، مِنَ الضمائر المعروضة ، في هذه السوق السوداء !.

لذلك ... فإنه لَمِنَ السهل جداً : أن يعقد — في كلّ يومٍ — صفقةً ، ليشتري ضميراً،ويبيع ذمةً ، ويقضي على معتقدٍ .

ولمّا كانتِ الغاية مِنْ كلّ هذا ، هي محاربة عليٍّ ، في سبيل التغلّب على حقه ، والانتزاء على الأُمّة ، فإنه ليوجّه عنايته للنيل مِنْ علي ذاته ، ويرتكب مِنْ أجل غايته ، حتى ما لا يعقل... فهو لا يتورّع أن يذيع بين أهل الشام — ممّنْ لا يفرّق بين:الناقة،والجمل(1) — بأن « عليّاً لا يُصلّي » . وأن عليّاً هو مهريق دم عثمان ، وأن عليهم أن يطلبوا ذاك الدم المطلول ، مِنْ هذا السفّاك...

وليس ثمة مِنْ دينٍ ، أو خُلُقٍ قويمٍ ، أو إنسانيةٍ رفيعةٍ ، تقف في وجه هذا الرجل — القاحل منها — لتحدّ مِنْ طغيان شهوته ، أو تردّ شيئاً مِنْ جماحها ، بل أُطلق لشهوته العنان ، وأُسلس لها المِقوَد ، فأخذت شوطها

(1) إشارةٌ لحادثةٍ تأريخيةٍ مشهورةٍ .

البعيد... تتفنّن في المنكر ، وليس مَنْ يزع ؛ وتوغل في الأراجيف ، وليس مَنْ ينكر ؛ وتبعد في الكذب ، وليس مَنْ ينهى ؛ وتفاخر بالباطل،وليس مَنْ يغضب ! :

إذا رُزق الفتى وجهاً وقاحاً   تقلّب في الأُمور كما يشاء

* *

دعا إليه سمرة بن جندب — وسمرة أحد تجّار الحديث(1) — فبذل معاوية

(1) لعلّ مِنَ الخير : أن نضع — هنا ، أمام القارىء الكريم — صورةً مصغّرةً ، تعرض جانبا مِنْ جرائم سمرة الشنيعة :

جاء في ص ٢٥ ج١،مِنْ مسند الامام احمد ، مسنداً عن ابن عباس :
[ذُكر لعمر رضي الله عنه ان سمرة — وقال مرّةً : بلغ عمر أن سمرة باع خمراً ، قال : قاتل الله سمرة . إن رسول الله صلى الله عليه « وآله »(*) وسلم ، قال : لعن اللهُ اليهود حرمت عليهمُ الشحوم فجملوها فباعوها] .

ولسمرة جرائم وآثام ، تندى لها الصمُّ الصِّلاد : حياءً وخجلاً ، حيث قتل مِنَ البصرة — وقد استخلفه عليها زياد اللعين ! ونعمّا الخلف والمستخلف — قتل فيها ثمانية آلاف !.

وإنه لرقمٌ يشبه الخيال !،ويصور الدمار الذي حلّ بالأُمّة مِنْ جرّاء حكام الجور !.فثمانية آلاف بريءٍ ، يقضي عليهم سمرة ، وما هو الا أميرٌ مؤقتٌ ... وليس يتحرّج أو يتأثم منها ،بل يقول جواباً لزياد الذي سأله ، ليصل إلى دخيلة نفسه :

[هل تخاف أن تكون قد قتلت احداً بريئاً ؟] . ←

(*) أضفنا في الصلاة على الرسول ، الصلاة على « آله »،وجعلناها بين قوسين ، فلسنا ممّنْ يصلّي على الرسول « الصلاة البتراء » التي نهى عنها «ص». غير أن أمانة النقل ، دعتنا لاضافتها بين القوسين . وهذا ما سنسلكه فيماياتي.

إليه مئة ألف درهمٍ ، كما يروي أن هذه الآية نزلت في عليّ :

[وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ، وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ، وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ — واللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ](1) .

← ولكنه يجيب بما هو بنتن زياد شبيهٌ ، ليكون قريباً مِنْ سقوط نفسيته :

[لو قتلتُ إليهم مثلهم ما خشيتُ !] .

فهو ليس يرى للأمّة أية كرامةٍ أو قيمةٍ ...وإنما هي في ملكٍ ، كهذا ، مهدورة القيم ، لا تساوي قتلة الرجل ان يمرّ موكب أميرٍ — كسمرة — فيقضي على مَنْ يقضي ، بدون ذنبٍ أو جرم.. .!

وإذ يمر سمرة على مَنْ أوجر بحربةٍ ، مِنْ طلائع خيله ، فيراه متشحّطا بدمه ، لا يندم ولا يأسف ، بل يقول هذه القولة ، التي تعبّر عن اللا مبالاة :

[إذا سمعتم بنا قد ركبنا ، فاتقوا أسنتنا] .

وهو — بجميع جرائمه وأحداثه — لا يعدو ان يكون واحداً ممّنْ سبر غورهم ، ودرس نفسيتهم معاوية ، فرآهم ممّنْ يرضون شهوات نفسه ،ويسيرون في ركاب هواه . وإن مثل سمرة ليعترف بذلك،فلنسمع له قولته :

[والله لو أطعتُ الله ، كما أطعت معاوية ، ما عذبني أبداً] .

ولكنه ، وقد أطاع معاوية في معصية الله ، فيا له مِنْ عذابٍ يقاسي حرّه وويلاته !.

وقد رأينا الاكتفاء بهذا العرض الموجز ، عن جرائم سمرة،وهي أكثر مِنْ أن يحوط بها العرض الموجز . وليرجع لها القاريء في مصادرها مِنَ التأريخ — كتأريخ الطبري ص ١٧٦:٤ ، والكامل ٢٢٩ : ٣ — أحداث سنة ٥٠ والغدير ٢٩ ، ٣٠ : ١١ .

(1) البقرة : ٢٠٤ و ٢٠٥ .

وأنّ هذه الآية نزلت في ابن ملجم ، وهي :

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ)(1) .

ولعلّ سمرة ، رأى في هذا الثمن ما لا يفي بتفسيرٍ منحرفٍ لآيةٍ واحدةٍ ، فكيف بآيتين ؟! وراح معاوية يُساومه ، فزاده مئة ألفٍ أخرى ... وليست المئتا ألفٍ ، سوى ثمن تحريفٍ لتفسير آيةٍ واحدةٍ ... فراحا يتساومان ، حتى تمّتِ الصفقة بأربعمئة ألف درهمٍ ، فروى سمرة ذلك...!(2)

وهكذا بمال الله ، يُحارب أولياء الله ! وبمال الاسلام يجهز عليه به ! وبمال المسلمين ، تشوه قداسة مبدئهم الرفيع !.

* *

شاء معاوية : أن يستأجر قوماً ، لوضع الأحاديث المنتقصة مِنْ عليّ... فاختار بعضاً مِنَ الصحابة والتابعين ، الذين لهم في نفوس العامة ثقة ، وقداسة خلعت عليهم ، لتكون عماد ما يرفعون مِنْ واهي البناء(3) .

---

(1) البقرة : ٢٠٧ .

(2) ص ٣٦١ م١ — الشرح الحديدي ، والغدير ١٠١ : ٢ و ٣٠ : ١١ .

(3) لقد كانت الحيرة تنتابني ، والعجب يأخذ مني ، أن أجد مَنْ يخلع على جميع الصحابة صفة القداسة والتنزيه،وأن لا يوجه إليهم أيّ لوم على ما يفتريه بعضهم ، أو يقترفه...! وكيف يجمعون بين هذا ، وبين دلالة القرآن والسنة التي تعارض رأيهم ، ما دام في القرآن والسنة عدّة آياتٍ وأحاديث ، تدلّ على النفاق المتفشّي بين المسلمين في عهد الرسول (ص) .

ولو لم يكن لدينا مِنْ ذلك ، سوى « آية الانقلاب » و «منافقي المدينة» ، و «الأعراب» ، وسورة المنافقين ، وما جاء في الصحاح مِنْ أحاديث الحوض وغيرها — ممّا ذكرتها الصحاح ...

بل لو لم يكن هذا..لما وجدنا السبيل إلى تطهيرهم وتقديسهم،وأخذ ←

وكان مِمَّنْ عقد معه تلك الصفقة ـ الرابحة مادياً والخاسرة في ما عدا ذلك ـ قومٌ ، عُدَّ منهم : أبو هريرة • وعمرو بن العاص • والزاني المغيرة ابن شعبة • وعروة بن الزبير[1] ـ فاختلقوا الأخبار القباح ، التي تحمل بين حروفها : الطعن على عليٍّ عليه السلام ، والبراءة منه ، في قبال جُعْلٍ يتقاضونه مِنْ معاوية ، يرضي مطامعهم، و « يُرغب في مثله » ـ على حدِّ تعبير الحديدي •

فافتنَّ كلٌّ منهم في الوضع والافتراء ، حتى أنَّ الزهري، حدثه عروة بن الزبير ، أنه قال :

حدثتني عائشة • قالت : كنت عند رسول الله ، إذ أقبل العباس وعلي ، فقال : يا عائشة ! إن هذين يموتان على غير ملّتي ـ أو قال: ديني ! .

← أعمالهم حجةً مسلّمةً ، وسيرة بعضهم تنقض عرى الإسلام عروةً عروةً ، كمعاوية ومَنْ هو في سلسلته ••• فكيف وهذه الآيات تفضحهم ، وهذه الأحاديث تحذر منهم وتكشفهم ؟!، فكيف الجمع بين هذا وذاك ، وهما على طرفي نقيض•••؟ وهذا لا يعني كلَّ الصحابة ـ طبعاً ـ لأن بينهم مَنْ هو مثال العدالة والحق ، ويحاط بالتقديس والإجلال •

ولكن فقد وضح أنَّ ذاك كان حجر الأساس ، في هذه الحرب الجائرة ، المشبوبة الأوار ، تشنُّ ضدَّ إمام المتقين ، الحدِّ الفاصل بين الإيمان والنفاق ـ كما جعله الرسول (ص) في المستفيض مِنْ أحاديثه •

ففي سبيل حربه ، وفي سبيل الطعن عليه ، مِنْ أجل أن تأتي النتيجة المرجوة ، مِن استئجار هذه الفئة مِنْ بعض الصحابة ـ كانت هذه الفرية الكاذبة ، وصُيِّرَ منها المدماك الأوّل في هذا البناء الظلوم •

(١) ص ٣٥٨ م١ ـ النهج • ولسنا نريد العرض ـ بالتفصيل ـ لواقعة زنى المغيرة • ولها في التأريخ سطورٌ سود • فَمَنْ شاءها ـ وهي أشهر ما تكون ـ فليرجع لها في مصادرها •

وحديثٌ ثانٍ عنه : أن النبي قال لعائشة : إن سرَّك أن تنظري إلى رجلين من أهل النار ، فانظري إلى هذين قد طلعا • فنظرت، فاذا العباس وعلي![1].

وروى عمر بن العاص ـ وهو خدن معاوية وشريكه في أعماله ـ روى في ما روى : أنه سمع النبي (ص) يقول :

(إنَ آل أبي طالب،ليسوا لي بأولياء•إنما وليِّيَ الله وصالح المؤمنين)[2]•

وقال أبو جعفرٍ الإسكافي ـ في روايته عن الأعمش :

لَمّا قدم أبو هريرة العراق ، مع معاوية ـ عام الجماعة[3] ـ جاء إلى مسجد

---

(١) تجد الحديثين « ! » في الشرح الحديدي ص ٣٥٨ م١.

(٢) المصدر ذاته ص ٣١٨ م ١ ، وص ١١ م ٣، وصحيح مسلم ١٣٦ : ١ ،وفيه: (آل أبيَ يعني فلاناً) ••!

(٣) هكذا حلا لبعض المؤرخين المأجورين أن يسمُّوا هذا العام ، وهو أسمٌ لا يعبِّر عن واقع ذلك العام،الذي انتزى فيه معاوية على الحكم الإسلاميِّ، إلاَّ تعبيراً عكسيّاً ! فهو عام التفرقة والتباعد والتنافر ، وليس فيه أثرٌ للجماعة والاجتماع !!.

وقد قدِّر لي ـ بعد مدَّةٍ مِنْ كتابة هذه السطور ـ أن أقف على كتاب « معاوية بن أبي سفيان في الميزان » وقرأتُ فيه ما علق على تسمية هذا العام بهذا الاسم ، فوجدتُ فيه تحرياً للوزن بالقسط ، وإن كان الكتاب ـ في بعض نقاطه ـ قد بخس فيه الميزان ، فحاف ومال ، مراتٍ ومراتٍ ، حيفاً وميلاً بارزاً ، تلمسه اليد ، وتحسُّه العين ، إلاّ أن هذا لا يعنينا في موضوعنا هذا •

جاء في ص ٦٦ قوله :

(ولو حاسبه التأريخ حسابه الصحيح ، لَمّا وصفه بغير مفرّق الجماعات ،

الكوفة ، فهاله ما رأى مِنْ كثرة مستقبليه فجثا على ركبتيه ، ثم ضرب « صلعته » ، مراراً ــ ولعله يستوحيها ! ــ وقال :

[ولكن العبرة لقارىء التاريخ في زنة الأعمال والرجال : أن تجد مِنَ المؤرخين مَنْ يسمِّي عامه ــ حين انفرد بالدولة ــ عام الجماعة ، لأنه فرَّق الأمة شيعاً شيعاً ، فلا تعرف كيف تتفق إذا حاولتِ الاتفاق ، وما لبث أن تركها بعده تختلف في عهد كلّ خليفةٍ شيعاً شيعاً بين ولاة العهود !) .

وضرب كثيراً مِنَ الأمثلة عن خطط هذه التفرقة ، حتى عاد ــ في ص ١٨٨ ــ ليقول :

[فليس أضل ضلالاً ولا أجهل جهلاً مِنَ المؤرخين الذين سمَّوا سنة « إحدى واربعين هجرية » بعام الجماعة ، لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة ، فلم يشاركه أحدٌ فيها ، لأن صدر الاسلام لم يعرف سنةً تفرقت فيها الأمة كما تفرّقت في تلك السنة ، ووقع فيها الشتات بين كل فئةٍ مِنْ فئاتها كما وقع فيها] .

وراح ــ بعد ذلك ــ يعرض نماذج أُخرى مِنْ أعماله المفرّقة ، التي فتّت الوحدة الإسلامية المتماسكة ، وهدّت دعامتها المكينة ، ولا يزال المسلمون يجنون مِنْ شجي ثمارها ، ويشربون مِنْ مائها العكر ، فيصطاد فيه مَنْ لا يعيش إلا في الوسط الموبوء ، حاملاً معول الهدم والتفرقة ، سائراً في ملتوي الطريق المنآد ، الذي سلكه معاوية .

وللجاحظ كلمةٌ قيمةٌ ، تتصل بهذه النقطة ، التي مشت فيها الأقلام المأجورة ، ونرى ــ لزاماً ــ عرضها هنا ، حيث أنها تعرض هذه الناحية عرضاً مدعماً بالدليل ، فقال في رسالته في بني أمية ــ ص ٢٩٣ و ٢٩٤ مِنْ رسائله ــ بعد عرضٍ موجزٍ عن بعض الأحداث التي أفسحتِ المجال لانتزاء معاوية ، على الأمة الاسلامية « العظمى » :

[فعندها استوى معاوية على الملك ، واستبدّ على بقية الشورى وعلى جماعة

المسلمين مِنَ الأنصار والمهاجرين ، في العام الذي سمّوه « عام الجماعة » ؛ وما كان عام جماعة ، بل كان عام فرقةٍ وقهرٍ ، وجبريةٍ وغلبةٍ ، والعام الذي تحوّلت فيه الإمامة ملكاً كسروياً والخلافة منصباً قيصرياً ، ولم يعد ذلك « أجمع » الضلال والفسق (*) ثم ما زالت معاصيه من جنس ماحكينا وعلى منازل ما رتبنا حتى ردّ قضية رسول الله صلى الله عليه « وآله » وسلم ردّاً مكشوفاً ، وجحد حكمه جحداً ظاهراً في ولد الفراش وما يجب للعاهر ، مع اجماع الأمة على أنّ سمية لم تكن لأبي سفيان فراشاً ، وأنه إنما كان بها عاهراً . فخرج بذلك مِنْ حكم الفجار إلى حكم الكفار .

وليس قتل حجر بن عدي ، وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر ، وبيعة يزيد الخليع ، والاستئثار بالفيء ، واختيار الولاة على الهوى ، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة ، مِنْ جنس جحد الأحكام المنصوصة ، والشرائع المشهورة ، والسنن المنصوبة . وسواء في باب ما يستحق مِنَ الكفار : جحد الكتاب ، ورد السنّة ، إذا كانت السنّة في شهرة الكتاب وظهوره ، إلاّ أن أحدهما أعظم ، وعقاب الآخرة عليه أشد .

فهذه أول كفرةٍ كانت مِنَ الأمة ، ثم لم تكن إلاّ في مَنْ يدعي إمامتها والخلافة عليها . على أن كثيراً مِنْ أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره . وقد أربَتْ عليهم نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا فقالت : لا تسبّوه فإن له صحبة ، وسبّ معاوية بدعةٌ ، ومَنْ يبغضه فقد خالف السنّة . فزعمت أن مِنَ السنّة : ترك البراءة مِمَّنْ جحد السنة !] .

ونكتفي بعرض هذه القولة ــ أمام القارىء ــ وهي تصوِّر أحد جوانب معاوية المنهارة ــ مِنْ ناحيةٍ . وتصوِّر إلى ذلك : انحطاط القيم ، حيث مُسخت الحقائق ، وشوّه رواء الحق ، وقُلبتِ المفاهيم والمقاييس .

وتزداد أهمية هذه القولة ، وتتضاعف قيمتها : أن يكون قائلها الجاحظ .

(*) كذا في النسخة ولعل الصحة : (أن جمع الضلال) الخ .

نفسي بالنار ؟!(1) .

والله لقد سمعت رسول الله « صلّى الله عليه وآله » يقول :

إن لكلِّ نبيٍّ حرماً ، وإن حرمي بالمدينة ، ما بين عير إلى ثور(2) فَمَنْ أحدث فيها حدثاً ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، واشهد بالله أن عليّاً أحدث فيها .

وما بلغ معاوية قوله ، حتى أجازه وأكرمه ، وولّاه المدينة .

وتحضر حريز بن عثمان الوفاة ، ويذكر علياً — حينذاك — فيقول ليختتم به عمله :

[ذاك الذي حلَّ حَرَمَ رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، حتى كاد يقع](3) .

وليس هذا بغريبٍ منه ، بعد قوله :

[إن النبيّ — وقد حضرته الوفاة — أُوصى بأن تقطع يد عليّ](4) .

---

(1) إن هذا مِنْ أبي هريرة — اعترافٌ ، فرضه عليه تداعي الخواطر ، والحديث الباطن .

(2) غلّط ابن أبي الحديد — في شرحه ص ٣٦٠ م١ — بعد ذكره هذا الافتراء : رواية « ما بين عير إلى ثور »، وصوّبه بأنه « ما بين عير إلى أُحد ».

ثم قال : وأما قول أبي هريرة : إن عليّاً عليه السلام أحدث في المدينة ، فحاشى لله ! كان عليٌّ عليه السلام أتقى لله مِنْ ذلك . والله لقد نصر عثمان نصراً ، لو كان المحصور جعفر بن أبي طالب ، لم يبذل له إلا مثله .

وأردف ذلك بأقوالٍ ، لا ترتضي أبا هريرة، وسيكون لنا عندها وقفةٌ ، في ما سيمرّ بنا مِنْ فصول الكتاب .

(3) و (4) ص ٣٦٠ م١ شرح النهج .

ولا نعلم ! فلعل علياً — عند حريز — كان مِنْ لصوص الليل ، كما شهد عليه بذلك الملك الخليع « الوليد بن عبد الملك » ، وقد ذكر علياً فقال :

[لعنَهُ اللهِ — بالجر — كان لصَّ بن لصٍّ] — بالرفع طبعاً ! .

فعجب الناس مِنْ لحنه الفاضح ، ومِنْ نسبته علياً — عليه السلام — للصوصية ، وقالوا : [ماندري أيهما أعجب ؟](1) .

← وفي الغدير-٢٥١ : ٥ـ شيءٌ مِنْ أعمال حريز القباح ، وتحريفه الوقح ، تجاه الإمام الأعظم عليه السلام .

ونحن لا نستغرب كلَّ ما يختلقه حريز ، بعد أن نعرف عنه أنه كان ممَّنْ يلعن علياً — عليه السلام — ولا يكتفي بذلك ، حتى تبلغ لعناته — وتُردَّد عليه مضاعفةً — سبعين لعنة [الغدير ٢٥٠ : ٥، و ٨٧ : ١١]. ولا نحتاج ، بعد ذلك ، لنعرف أن الحاكم أشار إلى شهرة حريز بالنصب [المصدر ٨٧:١١].

ولكن — مع كلِّ هذا — نجده أحد رجال صحيح البخاري — ويا للأسف!.

(1) الشرح الحديدي ص ٣٥٦ م١ .

وذكرها الجاحظ في البيان والتبيين — ص ٢٠٩ : ٢ـ وفيه :

[علي بن أبي طالب لص بن لص ، صبَّ عليه شؤبوب عذابٍ] ، بحيث اعتبر جهله في ضم اللام — في لص — وأنه جهل ما لم يجهله أحدٌ — على حدِّ تعبيره — إلَّا أن هذا لا يستقيم مع نص أرباب اللغة على تثليث لام اللص ، فينتفي الجهل ، حينئذٍ ، باللغة ، ولكن الجهل المفضوح في رواية الحديدي .

ومجرى حديث الجاحظ ، أنه يعني بقائل هذا اللغو : الوليد ، إلاَّ أن السندوبي الشارح ، اشتهى صرف هذا عن الوليد ، إلى أحد ولاته ، حيث علّق على الضمير العائد للوليد : « ومع هذا أنه »، فقال : [هو يزيد بن أبي مسلم] .

وممَّا يدعم أن الجاحظ يعني الوليد : أن الحديث — قبل هذه القصة ←

وهكذا ينحدر هؤلاء بالقمم الشامخة ، إلى أحط منحدرٍ !.

وإننا لنسأل حريزاً — لو كان له سمعٌ ولسانٌ — عماذا يرى في أبي بكر — وهو أوّل خليفةٍ تولّى المسلمين ، بعد الرسول — إذ لم ينفذ وصية الرسول ، فلم يقطع يد عليٍّ...؟!

← يدور حوله ؛ وبعدها — أيضاً — قصصٌ مِنْ لحن الوليد — خليفة المسلمين وجهله باللغة العربية ، كجر المنصوب — تارةً — ورفعه أُخرى — حتى بلغ تحريفه المخزي إلى بعض الآيات الكريمة ، في قصصٍ مضحكةٍ مبكيةٍ...! وحتى أن أباه عبدالملك قال : [أضرَّ بالوليد حبنا له ، فلم نوجهه للبادية] — ومِنَ الحب ما يقتل !.

وقد علّق السندوبي — على ذلك — موضّحاً — النقاط الملحونة ، في هذر الوليد ، حتى أنه أُوضح بأن الولد هو « أحد الأخوين اللحّانين ، وهما : الوليد ومحمد » . كما أشار لذلك الجاحظ ، أيضاً .

وبعد هذا ، ليس بخفيٍّ عليك ما أراده مِنْ صرفه لحنه في سباب عليٍّ ، لأحد ولاته ، صرفاً صدر عن قصدٍ مفضوحٍ ، وغايةٍ معروفةٍ...

وليس هذا، سوى دعمٍ لما سبق إيضاحه ، عما لمسناه في نفسية السندوبي ، وميله الجارف ، وهواه الجموح، نحو كلِّ منحرفٍ عن الإمام علي عليه السلام!.

— ٤ —

كانت هذه الحرب الدنيئة ، يسعر أوارها معاوية ، ويمدّ وقودها بمال الإسلام والمسلمين... يغتصبه وينتزعه مِنْ أهله ، ليغدقه على آخرين ، في قبالة حديثٍ ينتحلونه ، أو منقبةٍ يفتعلونها ، وأُخرى يسدلون عليها ستاراً ، أو آيةٍ يحرفونها عما أنزلها الله ، فيحرفون الكلم عن مواضعه...

وكانت — إلى جانب هذه — حربٌ أُخرى، هي: المطاردة لكلِّ مَنْ يحفل قلبه بحب عليٍّ عليه السلام ، ويختلج لسانه بحمده وذكْره الطيب . ومَنْ عُثر عليه مِنْ هؤلاء ، فبين اثنتين : البراءة ، أو السيف الذي لا يرحم !.

وقد ضرب حُجر بن عدي وأصحابه ، المثلَ للتضحية في سبيل المبدأ الرسيخ ، والإيمان الصليب ، الذي لا يميله إعصارٌ ، ولا يخيفه سيفٌ بطّاشٌ!.

ولم يكن معاوية ، وقد اشترى ملك المسلمين ، وحوّل الخلافة للملك العضوض ، بالذي يحدُّ مِنْ غلوائه في سبِّ عليٍّ شيءٌ ، فقد شاءها أن تكون بدعةً باقيةً ، يُسجلها الدهر — في كلِّ يومٍ — سطراً فاحم الحرف ، في تأريخ هذا الجائر الغدور .

رووا : إن قوماً أُمويين ، نصحوا لمعاوية ، فقالوا :

إنك قد بلغتَ ما أمّلتَ ، فلو كففتَ عن لعن هذا الرجل !.

فقال :

لا والله ! حتى يربو عليها الصغير ، ويهرم الكبير ، ولا يذكر له ذاكرٌ فضلاً[1]...

ولم يقف معاوية ، في النيل مِنْ عليٍّ، عند هذا الحد ، فحسب ! بل تخطَّاه ، حتى نال مِنْ قداسة الرسول ، ومقام النبوة .

وحسبنا مِنْ ذلك ما قصَّه مطرف بن المغيرة بن شعبة ، فقد قال :

وفدتُ ــ مع أبيُ المغيرة ــ إلى معاوية ، فكان أبي يأتيه ، فيتحدَّث معه ، ثم ينصرف إليَّ فيذكر معاوية ، ويذكر عقله ، ويعجب ممَّا يرى منه . إذ جاء ذات ليلةٍ ، فأمسك عن العشاء ، فرأيته مغتمّاً ، فانتظرته ساعةً ، وظننتُ أنه لشيءٍ حدث فينا ، أو في عملنا ، فقلتُ له :

ما لي أراك مغتمّاً ، منذ الليلة ؟!.

فقال : يا بنيَّ ! إني جئتُ مِنْ أخبث الناس وأكفرهم !.

قلتُ له : وما ذاك ؟.

قال : قلتُ له ، وقد خلوتُ به :

إنك قد بلغتَ مناك ــ يا أمير المؤمنين !ــ فلو أظهرتَ عدلاً ، وبسطتَ خيراً ؟ فإنك قد كبرت !. ولو نظرتَ إلى إخوتك مِنْ بني هاشم ، فوصلتَ أرحامهم ، فوالله ما عندهم ــ اليوم شيءٌ تخافه !.

فقال لي :

هيهات ! هيهات ! ملك أخو تيمٍ فعدل ، وفعل ما فعل ، فوالله ما عدا أن هلك ، فهلك ذكره ، إلاَّ أن يقول قائل : « أبو بكر » . ثم ملك أخو

(1) ص ٢٥٦ : الشرح الحديدي ، والغدير ١٠٢ : ٢ — عن الجاحظ .
وفي الغدير ٢٥٧ــ٢٧١ : ١٠ عرضٌ مبسطٌ لبدعة معاوية في سبِّ عليٍّ ولعنه عليه السلام ، ودراسةٌ تعقيبيةٌ ممتعةٌ .

عديٍّ، فاجتهد ، وشمَّرَ عشر سنين ، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره ، إلاَّ أن يقول قائل : « عمر » . ثم ملك أخونا عثمان ، فملك رجلٌ لم يكن أحدٌ في مثل نسبه ، فعمل ما عَمل وعُمل به ، فوالله ما عدا أن هلك ، فهلك ذكره ، وذِكرُ ما فُعلَ به .

وإن أخا هاشم يُصرخ به ــ في كلِّ يومٍ ، خمس مراتٍ ــ « أشهد أنَّ محمَّداً رسول الله » ! . فأيُّ عملٍ يبقى بعد هذا ــ لا أُمَّ لك ! ــ إلاَّ دفناً دفناً[1] ؟!.

وهل لنا أن نقول شيئاً ، بعد هذه القولة مِنْ معاوية ، الذي يؤلمه أشد الألم ، ويقضّ مضجعه ــ كالسهم النافذ ــ ذكْرُ الرسول الأعظم « ص » ، على المآذن ؟! في حين أنه يتحكم في المسلمين ، ويبتزّهم حقوقهم ، متستراً باسم الخلافة الإسلامية ، التي حوّلها للملك العضوض الغاشم !!.

وما عسانا أن نعجب مِنْ رجلٍ ، أو مِنْ قولٍ ، نال مِنَ المغيرة الزاني الغدور[2] ، ما ظهرت شاراته على وجهه ، ولمس ذلك منه ابنه ، كما لو حدث عليهم ــ أو في عملهم ــ شيءٌ ذو بالٍ...! وليس يؤثّر على مثل المغيرة شيءٌ ، كما يؤثّر عليه خلعه مِنْ عملٍ ، أو خسرانه في مالٍ...! ولكنه ــ وهو

(1) صلح الحسن ص ٢٢٥ــعن مروج الذهب للمسعودي [ص٣٤٢ : ٢] والنهج [٣٥٧ : ٢] ــ وبرجوعنا لها للنهج ــ ٤٦٢ : ١ ــ وجدنا بينها وبين هذه الصورة بعض اختلافٍ ، مثل : « وإن ابن أبي كبشة » ــ بدل : « وإن أخا هاشم» . وتجدها في الحسن بن علي ص ٢١٢ والغدير ٢٨٣ ، ٢٨٤ : ١٠ . كما أن سدنا الوالد ، أشار لها ــ مرتين ــ في كتابه « الدعوة ... »ص٢٧٣ و ٣١٢ : ١

(2) في النهج ص ١م٧٧ : إن المغيرة كان يقول : والله ما نصحتُهــيعني عليّاً ــ قبلها ، ولا أُنصحه بعدها ، ما بقيتُ .
فحبذا الصحابي العدل ! « والدِّين النصيحة !» .

الشرير — لم يطق صبراً على كفر معاوية ، ونيله من الرسول « ص » — فما حال مَن كفّره النمرود كما يقولون ؟!.

* *

وليس لنا أن يمتدّ بنا السير في تقصّي أقوال معاوية وأفعاله ، التي يُناهض فيها الرسول ، ويُخالفه بقصدٍ ، وإصرارٍ ، ممّا يخرج به عن حظيرة الإسلام — والإسلام : قولٌ ، وعقيدةٌ ، وعملٌ — ومعاوية يُناهضه في جميع ذلك ، غير مكتفٍ بناحيةٍ دون أخرى .

ونحن لو أُطعنا اليراع ، وشئنا هذا التقصي ، لخرجنا بموضوع الكتاب ، إلى جادةٍ غير هذه .

ولكننا نرى أن نرجع القارىء الكريم ، إلى الموسوعة الضخمة : الغدير ، ولا سيما جزئه العاشر ، ففيه : عرضٌ شاملٌ ، ورائعٌ حقاً ، وتقصٍ لنواحٍ عدةٍ ، من هذه المخالفات ، التي أشرنا إليها ، والتي يأتي بها معاوية قولاً وعملاً ، وعن عنادٍ مقصودٍ ، وإصرارٍ مفضوحٍ ، وتحدٍ لاذعٍ ، وتهكمٍ ساخرٍ ، يدفع كلّ ذلك : حقدٌ دفينٌ ، وشركٌ رسيخٌ موروثٌ ، وسياسةٌ مكيافيليةٌ وصوليةٌ ، وعداءٌ سافرٌ ، ورثه من البيت الأموي والبيئة الجاهلية الموبوءة ، لهذا البيت الهاشمي الكريم ، في أشخاص زعمائه وقادته الهداة البررة .

— ٥ —

مضى هذا العصر المظلم ، ليعقبه عصرٌ أشدُّ ظلمةً ، وأحلك رقعةً . وعلى المدلج في العتمة : أن تشتدّ عليه وطأة الظلام الثقيل ، قبل أن يزيح نور الفجر ، عن عينيه ، تلك الغشاوة الفاحمة .

جاء عصرٌ ، أخذوا فيه لعن عليٍّ « سنّةً » ! ، وقد أخذت في القلوب مكاناً ، عمقته الأهواء ، وأفسحت إليه ، ليكون على قرارٍ .

فإن سها على الخطيب أو إمام الجماعة لعْنُ عليٍّ عليه السلام — مرّةً واحدةً — أخذته الجلبة الصاعدة إليه من كلّ مكانٍ ، تطالبه ، هاتفة : السنّة! السنّة !. فيعرف — حينذاك — أيّ خطإٍ ارتكب ، وأية سنة ترك !.

فمعاوية قد حفر في كلّ قلبٍ أمويٍّ — نسباً ، أو نزعةً — هذه الكلمة ، التي تتصدّع لهولها الجبال ، وتنفطر السماوات — فكانوا بها يختمون خطبة الجمعة :

[اللّهمّ إن أبا ترابٍ قد ألحد في دينك ، وصدّ عن سبيلك ، فالعنه لعناً وبيلاً ، وعذبه عذاباً أليماً][1] .

ولم تكد تُمحى من القلوب ، وتُنسى من الأفواه ، إلّا في عصر عمر بن

(١) ص ٣٥٦ م١ من النهج ، والغدير ١٠٢ : ٢ عنه وعن الجاحظ و٢٩٠ : ١٠ والدعوة ١٥٥ : ١ .

عبد العزيز ــ الخليفة الزاهد .

غير أن بين العصرين ، مساوىء ، تندى لها الجباه ، وتأريخاً مسودّ الجبين ، قاتم الحرف ، فعلتْ فعلها السيىء ، فغيّرت مجرى التأريخ ، ودنّست نضارة الحق .

وليس عصر الحجاج الطاغية الغدور ــ في إمارته ــ وهو التلميذ النبيغ لمعاوية ... (١)

ليس هذا العصر ، بالذي يُنسى ، وهو الحفيل بكلِّ سوءٍ . فقد دعّم مِنْ بناء معاوية ، وأضاف إلى ذلك الصرح الظلوم لبناتٍ ، رفعت مِنْ عالي بنائه الطاغي .

ففي عصر هذا الطاغية ، أُعمل السيف في رقاب الشيعة ، وقتل صبراً ، وعلى الظِنَّة والتهمة ، ما هو بالأساطير أشبه !.

وما هو سوى دعوةٍ ، مِنْ دعوات الإمام عليٍّ عليه السلام[٢] على أهل العراق ، الذين ودَّ لو يصارفهم بغيرهم ، مصارفة الدرهم بالدينار !.

وكان الحجاج ذا نقمةٍ ، فأرضى سفالة ضميره ، وفائر حقده ، ومستفحل بغضائه . فكان يلعن عليّاً ــ كما كان سلفه معاوية ــ ويأمر بلعنه !.

استعرضه ــ يوماً ــ رجلٌ ، وكان راكباً ، فقال له :

أيها الأمير ! إن أهلي عقوني ، فسمّوني عليّاً ، وإني فقيرٌ بائسٌ ، وأنا إلى

(١) نُريد بهذه التلمذة : انتهاج سيرة معاوية .

(٢) إشارة إلى دعوات الإمام عليه السلام الكثيرة على أهل العراق، كقوله: « اللهم سلّط عليهم غلام ثقيف ، يسقيهم كأساً مصبّرة » ، وغيرها . وما دعوات السبط الحسين ــ يوم الطف ــ ببعيدةٍ ، ولا سيما قوله : « ولا تُرضِ الولاةَ عنهم أبداً » الخ .

صلة الأمير محتاجٌ !.

فبلغ لطف هذا التوسل ــ لدى الحجاج ــ ما أثار كوامن حقده ، ورواسب نفسه اللئيمة ، فبدّل أسمه وولّاه عملاً ، وأشخصه إليه[١] .

* *

وأراد الحجاج أن يكافىء عبدالله بن هانىء ، حيث قد شهد معه مشاهده، فشاء أن يزوجه مِن ابنة سيد فزارة : أسماء بن خارجة ، وابنة رئيس اليمانية : سعيد بن قيسٍ الهمداني .

وإذ لم يقبلا عبدالله زوجاً ، دعا للأوّل بالسياط، وللآخر بالسيف ، فأطاعا ! وزوّجاه ابنتيهما «؟!» ــ ونعم هذا الزواج الشرعي ، يقوم بــه أمير المسلمين ؟!.

حينذاك أخذ الحجاج يمنُّ على عبدالله ــ هذا ــ بما أنعم عليه. وإذا بهذا يقف في وجهه ليردّ عليه هذه المنة بقوله :

ــ لا تقل ــ أصلح اللهُ الأميرُ ! ــ ذاك ! فإنّ لنا مناقب، ليست لأحدٍ مِنَ العرب .

ــ وما هي ؟.

ــ ما سُبَّ أمير المؤمنين عبدالملك ، في نادٍ لنا قط .

ــ منقبةٌ والله !.

ــ وشهد منّا صفين ــ مع أمير المؤمنين معاوية ! ــ سبعون رجلاً . ما شهد منّا مع أبي ترابٍ ، إلّا رجلٌ واحدٌ ، وكان ، والله ، ما علمته ، إمرأ سوءٍ.

ــ منقبةٌ والله !.

ــ وما منّا رجلٌ ، عُرض عليه شتم أبي ترابٍ ، ولعْنُه ، إلّا فعل ،

(١) ص ٣٥٦ م١ و١٦٦م٣ من شرح ابن أبي الحديد .

وزاد ابنيه : حسناً وحسيناً ، وأُمهما فاطمة !٠

ــ منقبةٌ والله !.

ــ وما أحدٌ مِنَ العرب ، له مِن الصباحة والملاحة ما لنا ٠

غير أنَّ هذه لم يعدَّها الحجاج مِنَ المناقب ، ووجّه قائلها الذميم ، الشديد الأدمة ، المجدور ، العجزُ الرأس[1] ، المائل الشدق ، الشديد الحول ، القبيح الوجه[2] ٠

إن هذا الوجه شاهدٌ عكسيٌّ ، على هذه المنقبة ، التي ضنَّ بها عليه الحجاج ، فضحك في وجهه :

ــ أمّا هذه ــ يا أبا هانيء إ فدعها ![3] ٠

✲ ✲

لقد بلغ معاوية ما أمّل ، إذ أبقى شتم عليٍّ ولعْنَه بدعةً ، ربى عليهـــا الصغير ، وهرم الكبير ٠ ولكن دون أن ينال مِنْ جوهر الحق ما أراد ــ فالله متمٌّ نورَه ، ولو كره الكافرون ٠

جاء الخلف الآثم ، لذلك السلف الشرير ، فافتنَّ في تلك البدع ، حسب ما شاءت له سفالة ضميره ٠

يصعد المنبر ــ في العراق ــ خالد بن عبدالله القسري ــ وكان أميراً في ملك هشام ــ ويلعن عليّاً عليه السلام ، فيقول :

اللّهمّ العن عليَّ بن أبي طالب ، ابن عبدالمطلب ، بن هاشم ، صهرَ رسول الله « صلى الله عليه وآله » على ابنته ، وأبا الحسن والحسين ٠

(١) العجزُ : مصدرٌ ، وهو ــ هنا ــ بمعنى « النتوء » ٠

(٢) كذا سجل وصفه التاريخ ٠ فلعله مِنْ فصيلة القرود والخنازير !٠

(٣) ص ٣٥٧ م١ مِنُ النهج الحديدي ، والدعوة ص ٢١٠ : ١

ويُقبِل على الناس ، وقد أخذ منه الجذل محلاًّ عميقاً ، فقد أتى ببدعـــةٍ جديدةٍ ، إذ لعن عليّاً « عليه السلام » ، لعناً ، لا يقبل التأويل والصرف ، فلا كنية فيه ، ولا غموض ، ويُسائلهم حينئذ :

هل كنّيتُ ؟![1]

ومرةً أُخرى يعيد تلك الصورة البشعة مِنْ معاوية ، في نيله مِنَ الرسول الأعظم « ص » ، وهو على بدعه يسير ، وبضلاله ينتهج ، وفي تلك التربة الخبيثة ، التي طلعت فيها تلك الشجرة الملعونة ــ أمية السوء ــ نشأ واستعبد ٠

إنه ليقول ــ مرّةً أُخرى ــ بعد أنِ انتهى مِنْ شتمه لعليٍّ ، حيث خطب الناس ، في يوم جمعةٍ ، فلم يكتفِ بالقربى مِنَ الله ــ في هذا اليوم الفاضل ــ بشتم عليٍّ ، دون النيل مِنَ الرسول الأعظم « ص » ، فقال :

(والله إنْ كان رسول الله ليستعمله ــ يعني عليّاً ــ وإنه ليعلم ما هو ، ولكنه كان ختنه) ٠

أرأيت كيف بلغ مساسه للرسول ، وقدسية الرسالة ، وطهارة النبوة ، حيث جعل مِنَ الرسول رجلاً عاطفياً ، يدور مع الهوى والعاطفة ، مجانبـــاً للحق والصدق ، بحيث يخرج قائلها ــ كما كان قبله معاوية ــ مِنْ حظـــيرة الإسلام ، بعد النيل الشائن مِنْ نبي الإسلام ٠

وقد كان سعيد بن المسيب ، المشهور بانحرافه عن عليٍّ حاضراً ، وقد نعس لحظة أُلقى فيها خالد قولته ، ففتح عينيه مذعوراً ، وسأل :

(١) النهج ٣٥٦ : ١، والكامل للمبرد ٦٧٧و٦٧٨ : ٢، بزيادة توضيح، وهي: بن عبد مناف ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه « وآله » وسلم ، وزوج ابنته فاطمة». وقد استكبر المؤلف ذكْر اللعن ، فعبر عنه بقوله : « فعل الله على علي » الخ ٠

ويحكم ! ما قال هذا الخبيث ! رأيتُ القبر انصدع ، ورسول الله يقول : كذبتَ يا عدوّ الله ![1]

(١) أعيان الشيعة ٧٨ : ٣٥ و ص ١٥ من رسـائل الجـاحظ في نقض العثمانية لأبي جعفر الإسكافي .

- ٦ -

بهذه الأعمال القباح ، وبهذا الأُسلوب البذيء ، المقصى فيه العنصر الأخلاقيُّ ، والممحل مِنَ الإنسانية ــ بكلّ هذا قاوموا الحق ، وقد رأوه لا يُرضي منهم المطمع الجشع ، ويحرّم عليهم مقاعد ، تبوئهم مقاعد مِنْ جهنم .

والتأريخ بمثل هذه الأعمال ، مسودّةٌ منه الصحائف ، والكاتب ينال منه العجز ، لو شاء الحصر !.

ولكن ما يُثير الألم : أن نجد مثل هذه الأعمال السود ، يقوم بها أناسٌ هم رعاة الأُمّة ، ونُسمّيهم : أُمراء المؤمنين ــ تارةً ــ وخلفاء الرسول ــ مرّةً ثانيةً ــ فلا نرى فيهم غير : طليقٍ ، ومنافقٍ ، وسارقٍ ، وزانٍ وجـائرٍ ، وسكيرٍ ، ووزغٍ ، وفاجرٍ .. إلى آخر هذه الحلقة المفرغة ، مِنَ النتن الخنّاق ، المنبعث مِنْ صفات هؤلاء الوُلاة الدُّون .

فمعاوية الطليق المنافق : أمير المؤمنين . ويزيد السكير العربيد : خليفة الرسول . ومروان الوزغ بن الوزغ ، خليفة المسلمين . و ... و ... إلى أن تطوف بمثل الطاغية عبد الملك ، أوِ الناقص يزيد ، أوِ الحمار مروان .

ثم نعود ... فنرى هذه الأقوال المفتعلة ، والأحاديث المختلقة ، والكلم المحرّف ، والتفاسير المغرضة ، تنبعث مِنْ شفاهٍ ، تقول: « سمعنا رسول الله يقول ... »

ونبحث عن أُصحاب هذا الزورِ المفتعل ، والبهتان الآثم ، فنجدهم

ـ ويا للألم الكاسف ! ـ أُولئك الذين تُخلع عليهم صفة أصحاب الرسول ... ثم يتخذ مِنْ صفة « الصحبة » : سياجاً منيعاً ، يحوط هذا الزور ، ويرعى ذلك البهتان ، وستراً واقياً على هذه المساوىء ، وتلك المناكير ! .

ومَنْ حاول تخطّي هذا السياج ، أو إزاحة هذا الستر ، فإنه للرجل المتخطّي ـ في رأي أصحاب هذا الفن مِنَ التجارة ـ للحق ، والقائل في أصحاب الرسول ما لا يجوز ، والحسود الشانىء لهم ، إذ يغمطهم حقّ هـذه الصحبة المقدّسة ، ولا يرفعهم عن بشريتهم التي هووا بها ـ هم أنفسهم ـ إلى درجة الحيوانية البهيمية الحمقاء ، وهدّوا ـ بأيديهم ـ أسس ذلك البناء الشموخ ... وحطّموا ـ بمعاولهم ـ ذلك السياج الذي شيّد لهم ، ومزّقوا بأناملهم ـ تلك الستر البالية ، بما أجرموا وخانوا ، وراءها،بعيداً عن العيون، ظانين أنّ عيون الرقباء عنهم غافية ساهية ...

وهم يعملون ما يعملون ، ويتقاضون عليه ـ مِنْ مال الله ، ومال الامة ـ ما يشعل قبورهم ناراً ، وتكوى به جباههم وجنوبهم ، وتبدّل جلودهم غير تلك الجلود .

إنهم لينالون هذا المال ، الذي تُبعثره أيدي أُولئك ، الذين يسيّرون دفّة الملك ، ولا يهمهم سوى بقاء العرش تحتهم ، فيبذلون ـ في سبيل حماية العرش ـ كلّ وسيلةٍ ، وكلّ غالٍ ومرتخصٍ ، ولا تهمّهم سوى النتيجة ، بدون مبالاةٍ أو اختيارٍ للوسيلة ، ما دامت « الغاية تبرّر الواسطة ». ولكنهم ـ مع هذا ـ يُعتبرون : أئمة المسلمين ، وخلفاء الرسول !.

وهكذا ساروا بالأمة إلى مهاوي الضلال ، مجهزين على الضمير الحي ، ساخرين مِنَ العدالة ، مجانبين للحق ، قائلين للزور ، أكّالين للسحت ، سمّاعين للكذب ، لا تهمّهم سوى أنانيتهم الحمقاء ، ونهمهم البشع .

هذا يكذب ويختلق ، ويفتري ويزوّر ، ليأخذ أجر اتعابه : ذهباً مسروقاً، وفضة منهوبة ، في رشواتٍ مخزيةٍ مخجلةٍ...!

وذاك يدفع هذا بسخاءٍ مدرارٍ ، وما هو لديه ، سوى الطعم الحقير ، في سبيل السيطرة على الدست ، وسوم الأُمّة ألوان العذاب ، وأنماط الهوان والتنكيل .

وبين هذا وذاك دماءٌ مطلولة ، وحقوق مهدورةٌ ، وكراماتٌ مستباحةٌ ، وظلمٌ فاشٍ ، ومناكيرُ معلنةٌ ، وفقرٌ أسودُ كفور .

وليس هذا سوى النتيجة الطبيعية المحتومة ، لهذا العصر المظلم الجائر .

— ٧ —

يمضي هؤلاء ، وقد دسُّوا في الدِّين ، وعاثوا حسب ما شاءت الأهواء الدُّون ، وأفسدوا حسب ما شتهت الأغراض السودُ والمطامع البهيمية •••

يمضي هؤلاء ، ليجيء — بعدهم — أُناسٌ ، يتقبلون ما جاء ، ويأخذونه على أنه حقٌّ !•

ولو أمعنوا قليلاً ، وأعملوا شيئاً مِنْ فكرهم ، وقاموا بمهمة الباحث ، لتكشّف لهم هؤلاء عن مساوىء وعوراتٍ ، ليس لها سوى الرغام ، تُدسُّ فيه ، فلا تعكِّر مِنْ صفاء الجو ، ولا ينبعث منها ما يسوِّد صفحة الدِّين البيضاء •

يمضي أُولئك ، وقد دنّسوا الصفحات • وسوّدوا التأريخ ، ليخلف مِنْ بعدهم خلفٌ ، يزيد في الطين بلّةً ، ويضيف إلى المناكير ، ما يزيد في بنائها •

وإن مِنْ هذا الخلف الآثم ، مَنْ لا يقف عند حدٍّ مِنَ الإسفاف والزور ، بل يمضي سادراً في الغي والإفتراء ، فلا رقيب مِنْ دينٍ ولا محاسب مِنْ ضميرٍ ، ولا رادع مِنْ حقٍّ ، ولا خوف مِنْ عقابٍ •

وقد كنتُ أظنّ أنْ أقف على الكثير مِنَ الكذب والزور في نيل عليٍّ عليه السلام مِنْ عصر معاوية ، ومَنْ خلَف بعده مِنْ ملوك الشجرة الملعونة في القرآن ، ومَنْ هم منهم في الهوى والنزعة ، مِنَ المأجورين الآثمين •

ولكن لم أتصور ، أو أظن : أن أُقف على مثل هذه الفرية ، يأتي بها السيوطيُّ : سبباً في نزول هذه الآية الكريمة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ »[1] •

فيأتي بهذه الفرية ، ويُضاعفها أُن ينسبها لعليٍّ نفسه إذ ينسب إليه أُنه قال — وهو ، يقيناً ، لم يقل :

(صنع لنا عبدالرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا مِنَ الخمر ، فأخذتِ الخمر منّا ، وحضرتِ الصلاة فقدّموني ، فقرأتُ : « قل يا أيها الكافرون لا أُعبدما تعبدون ، ونحن نعبد ما تعبدون » فأنزل الله : « يا أيها الذين آمنوا »)[2] •

ونحن لا نريد أن نُناقش السيوطيَّ في السند ، وما في الافتراء ذاته مِنْ تناقضٍ في الروايات ، وتحريف اسم المصلّي — هنا — وإقحام اسم عليٍّ ، هذا الإقحام الشائن ، رغم أُن بعضها يُهمل الاسم ، ولا يذكر عليّاً بشيءٍ ، وبعضها يعين غيره مِنَ الصحابة •••

نحن لا نُريد العرض بشيءٍ مّا ، لهذه المناقشة ••• بل نكتفي بالإشارة إلى تهافت محتوى هذا الافتئات • في تناقضه المكشوف ، مع صريح القرآن ، والأحاديث الثابتة ، في حق عليٍّ « عليه السلام » •

فشرب الخمر نقيضٌ ، لآية التطهير ، التي لا يتطرّق الريب ولا الشك ، في أن عليّاً ضمن نطاقها ، بل هو أول المنطبقة عليهم ، ونقيضٌ لكونه نفس الرسول ، في آية المباهلة ، اللّهمّ إلّا أن لا يأبى المفتئت : أُن ينال الرسول بمثل ما نال به نفسه ! ، وهو عليٌّ « عليه السلام » •

---

(١) النساء : ٤٣

(٢) اسباب النزول ٦٣

وهي — مِن نظرةٍ أخرى لجوانب هذا الافتئات — نقيض للثابت مِنْ سيرة عليٍّ، التي لم يختلف فيها اثنان ، مِنْ أن علياً لم يشرك بالله ، طرفة عينٍ، منذ وُجد ، فكيف يُمكن الجمع بين هذا ، وبين قراءته المحرّفة — وأستغفر الله ! — للآية : « ونحن نعبد ما تعبدون » — وهي خطاب للكفار ؟! .

وليس لنا أن نُناقش مثل هذا الافتئات المفضوح ، بأكثر مِنَ الإشارة للشاطيء مِنْ بعيدٍ . إذ لو شئنا البسط والتقصي . والإحاطة الشاملة ، لَمَا اتّسع لنا مجال الوصول للهدف مِنْ هذا الكتاب .

ولكن يجب أن نُشير الى : أن هناك مَنْ ذكر حادثةً ، كهذه ، سبباً لنزول هذه الآية ، وذكر شخصاً ، غير عليٍّ هو الذي صلّى بالسكارى ... فجاء مَنْ جاء ، واسدل الستار على ذلك الصحابي الكبير ، ليُقيم مقامه علياً ، دون أن يخشى عاقبة الكذب ، وما ينتج عنه من نيل للرسول « ص » في ما ينال به علياً ، نفس الرسول !.

على أن مِنَ المفسرين مَنْ ذهب إلى ان هذا السكر ، الذي جاء في الآية ، ليس سكر الخمرة،وإنما سكر النوم خاصّة(1) .

* *

وتتبع شيئاً ، ممّا أتى به هذا الخلف ، الذي باعد بين الشقّة ، ووسّع في هوّة التفرقة والنفار ، بما أتى به مِنَ الطامات ، التي لا ترتكز على شيءٍ مِنْ صدقٍ أو حقٍّ ، أو على حسن قصدٍ ، فقط .

نتتبع شيئاً مِنْ ذلك ، ونطالع بعض ما سطّروه مِنْ أمثال ما عرضنا نماذجه ، فنعجب لما يجيب به « الغزالي » سائلاً ، سأله عن لعن يزيد :

— هل مَنْ صرّح بلعن يزيد ، يكون فاسقاً ؟ويجوز الترحم عليه ؟

(1) مجمع البيان : ١١٢ : ٥ والكشاف : ٣٩٧ : ١.

فكان هذا جوابه :

إن مَنْ لعنه يكون فاسقاً عاصياً — كذا ؟! — لأنه لا يجوز لعن المسلم ، ولا يجوز لعن البهائم ، فقد ورد النهي عن ذلك ، وحرمة المسلم أعظم مِنْ حرمة الكعبة ، بنص النبي صلى الله عليه « وآله » وسلم.ويزيد صحّ إسلامه، وما صحّ أمره بقتل الحسين ، ولا رضاه بقتله،وما لم يصحّ منه ذلك،لا يجوز أن يظن به ذلك . فإن إساءة الظن بالمسلم حرامٌ . وإذا لم يعرف حقيقة الأمر ، وجب إحسان الظن به . ومع هذا فالقتل ليس بكفرٍ، بل هو معصيةٌ . وأمّا الترحم عليه ، فهو جائزٌ !. بل هو مستحبٌّ ، لأنه داخلٌ في المؤمنين ، في قولنا في كلّ صلاةٍ : اللّهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات(1).

أرأيتَ هذا التناقض ، وما وراءه مِنْ تدليس ؟!فإساءة الظن بالمسلم حرامٌ . وقتل الحسين ليس بكفرٍ، وحرمة المسلم أعظم مِنْ حرمة الكعبة — بنص الرسول — فيحرم لعن يزيد !؟ولكن لا حرمة للحسين ، ولا كرامة لدمه ، ولا قيمة لما جاء به الرسول في حقّه ، فليس في قتله ما ينال مِنْ كرامة يزيد : خليفة الرسول ، وأمير المؤمنين ؟ بل ولا ما يخدش في إيمانه ؛ بل هو مندرجٌ تحت عموم قول المصلّي : « اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات » .

وليس القول بإيمان مَنْ قتل أباه ، ونكح أُمه ، وشرب الخمر في رأس أبيه ، مِنْ حيث شذوذ هذا القول ، وتجنّيه على الحق والصدق ، إلا دون القول — بله الاعتقاد والدفاع بحرارةٍ — بإيمان يزيد الخمور والفجور ، السكر والعربدة ، الاستهتار والتهتك .

ولكن قتل يزيد للحسين « عليه السلام » ، كان هو الدافع الأوّل لهذا الموقف المخزي مِنَ الغزالي ، في جانب يزيد مدافعاً دفاع المستميت .

ويظهر أنّ للغزالي ، حول هذا الموضوع — الدفاع عن إمامه يزيد بن

(1) السيرة الحلبية : ١٩٥ : ١

معاوية ــ عدّة مواقف ، تتكرّر حسب الحاجة ، أو بدونها...! فهو يقول ، مرةً أُخرى :

[فإن قيل : هل يجوز لعن يزيد ، لأنه قاتل الحسين ، أو آمرٌ به ؟.قلنا: هذا لم يثبت أصلاً ، فلا يجوز أن يقال إنه قتله أو أمر به،ما لم يثبت « كذا ؟! » فضلاً عن اللعنة،لأنه لا يجوز نسبة مسلمٍ إلى كبيرةٍ،منْ غير تحقيق][2] .

ويعود ، ليصرّح عن مكنون ضميره ، إذ لا يكتفي بهذا الدفاع عن يزيد ، بإنكاره الوقائع المسلّمة ، التي لا يشك فيها إلّا عنودٌ مكابرٌ،أو جهولٌ معتوهٌ ... فتبرئته يزيد منْ قتل الحسين ، ليس بكافٍ لديه ، لأنه عارفٌ مقدار ما احتمله منَ التضليل ، وإنكار « أن الواحد نصف الإثنين » .

يعود،فيحاول الدفاع منْ بابٍ آخر..الدفاع عن قتلة الحسين جميعهم، حتى ولو سلّم أن يزيد منهم ، في رأيه الفائل ... فهو لم يستمت في دفاعه عن يزيد ، لو لم يكن قاتلاً للحسين ، آمراً به ، راضياً شامتاً ... يقول :

[فإن قيل : هل يجوز أن يقال : قاتل الحسين لعنه الله ؛ أو:الآمر بقتله لعنه الله ؟.قلنا : الصواب أن يقال : قاتل الحسين، إن مات قبل التوبة،لعنه الله ، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة][2] .

وراح يستدلُّ بفرية توبة وحشي ، قاتل حمزة ، وعدم جواز لعنه ! ، مع أن وحشياً لم يمرّ به يومٌ ، تخلّى فيه عن وحشيته ، وقد اختتم حياته

(1) إحياء العلوم 121 ج 3 وإن للغزالي رأياً آخر ينقض هذا الرأي ، حيث عاد إلى رشده ، وذلك في ص 10 منْ (سر العالمين)... وهذه الآراء تصدر عن : الدافع لوضع هذا الكتاب ، أو ذاك ...
(2) احياء العلوم 122ج3 .

بمعاقرة الخمرة ، مدمناً لها ، حتى غلبت عليه،فلا يكاد يصحو منها[1] .

ولكنّ الغزاليّ ، وموقفه هذا ، في محاولته أن لا تنال كافراً ، أوفاسقاً ــ كيزيد ، ووحشي ، ومَنْ إليهما ــ لعنة لاعنٍ ...

... إن هذا الذي وقف مدافعاً عن يزيد ووحشي،بل حتى عن زعيمهما إبليس ، لعنه الله ، إذ يقول :

[ولا خطر في السكوت عن لعن إبليس،فضلاً عن غيره][2] .

... إن هذا ــ بكلّ هذه المواقف الشائنة ، التي لا يريد أن تنال اللعنة، حتى إبليس وحفدته . لا يتأثم ولا يتحرّج أن يقول ، مثل هذه الطامة :

[الثانية : اللعن بأوصافٍ أُخص منه،كقولك:لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس ، وعلى القدرية والخوارج والروافض ، أو على الزناة والظلمة وآكلي الربا ، وكلٌّ ذلك جائزٌ][3] .

وقد يُظن أن بين الموقفين كثيراً منْ تناقضٍ... فهو يجيز ــ هنا ــ لعنْ هؤلاء الطوائف ! بينما هو ــ هناك يدافع عن مثل يزيد وطغمته،منْ قتلة الحسين ، بعد أن لم يرَ أيَّ بأسٍ في السكوت عن لعن سيدهم إبليس !.

ولكن نظرة،فيها شيءٌ منْ رويةٍ وعمقٍ ، تجعلنا لا نجد شيئاً منْ هذا التناقض ، بل تربط بينهما الربط الموثّق . لأن إجازته لعن الروافض ــ هذا النبز للطائفة الشيعية الحقة ــ يتّحد والدفاع عن يزيد ، في المرمى والهدف والغاية . فالجميع نتيجةٌ حتميةٌ ، وثمرةٌ مريرةٌ ، منْ بذرة الكره للعترة الطاهرة ، آل رسول الله « ص ».

(1) الاستيعاب : 61 : 3 .
(2) احياء العلوم : 121 : 3 .
(3) الاحياء 120 : 3

ولسنا نستغرب ـ بعد كلّ هذا ـ أن يصفّ الشيعة ـ أتباع آل البيت « عليهم السلام » ـ مع الخوارج والقدرية ، في صفٍّ واحدٍ ، وجواز لعن الجميع لديه ، لأن الكل ـ لديه ـ مارقٌ مِنَ الدين ، لا يرجى لهم خيرٌ ، ولا تُقبل منهم توبةٌ .

بل لو صرّح عن رواسب مكنونه ، لفضّل جميع الفِرق والطوائف والمِلل الباطلة ، على الفرقة الشيعية ، لأن ذنبها الوحيد : أنها شيعة لعليٍّ وبنيه ـ هذه الجريمة التي لا تُغتفر ، والدرن الذي لا يُغسل !.

وفرقٌ كبيرٌ جداً ، بين موقف الغزالي في دفاعه عن يزيد الرذيلة ، وقتلة السبط الحسين ، وبين موقف الجاحظ ، مِنْ هذه النقطة بالذات .

ولعلَّ مِنَ الخير أن نأتي بمقطعٍ مما قاله الجاحظ ، حول ذلك ، وهذا المقطع حلقةٌ متصلةٌ بما سبق أن استشهدنا به مِنْ قول الجاحظ ، حول فرية « عام الجماعة » :

[ثم الذي كان مِنْ يزيد ابنه ، ومِنْ عماله وأهل نصرته ، ثم غزو مكة ورمي الكعبة واستباحة المدينة ، وقتل الحسين رضي الله عنه في أكثر أهل بيته : مصابيح الظلام ، وأوتاد الاسلام ، بعد الذي أُعطي مِنْ نفسه ومِنْ تفريق أتباعه ، والرجوع إلى داره وحرمه ، أو الذهاب في الأرض حتى لا يُحسّ به ، أو المقام حيث أمر به ، فأبوا إلاّ قتله والنزول على حكمهم][1] .

ثم راح يستدلّ بأعمالٍ قام بها يزيد ، ممّا تُثبت كفره ، حتى قال :

[واحسبوا ما رووا عليه مِنَ الأشعار ، التي قولها شركٌ ، والتمثل بها كفرٌ ، شيئاً مصنوعاً ، كيف نصنع بنقر القضيب بين ثنيتي الحسين رضي الله عنه ! وحمّل بنات رسول الله صلى الله عليه « وآله » وسلم حواسر على الأقتاب العارية ، والإبل الصعاب ، والكشف عن عورة علي بن الحسين عند الشك في بلوغه ؟

(1) رسائل الجاحظ ٢٩٤ .

على أنهم إن وجدوه وقد أنبت قتلوه ، وإن لم يكن انبت حملوه ، كما يصنع أمير جيش المسلمين بذراري المشركين ؟!. وكيف تقولون في قول عبيد الله بن زياد لإخوته وخاصته : دعوني أقتله ، فإنه بقية هذا النسل ، فأحسم به هذا القرن ، وأُميت به هذا الداء ، وأقطع به هذه المادة...!؟

خبرونا : على مَ تدلّ هذه القسوة وهذه الغلظة ، بعد أن شفوا أنفسهم بقتلهم ، ونالوا ما أحبوا فيهم ؟. أتدلّ على نصبٍ وسوءِ رأيٍ وحقدٍ وبغضاء ونفاقٍ ، وعلى يقينٍ مدخولٍ وإيمانٍ مخروجٍ ؟!. أم تدل على الإخلاص وعلى حب النبي صلى الله عليه « وآله » وسلم والحفظ له ، وعلى براءة الساحة ، وصحة السريرة ؟.! فإن كان على ما وصفنا لا يعدو الفسق والضلال ، وذلك أدنى منازله . فالفاسق ملعونٌ ، ومن نهى عن شتم الملعون ملعونٌ][1] .

ولا نرى حاجةً في تعليقٍ على هذه القولة مِنَ الجاحظ ، فإنّ فيها ، وفي ما تلاها مِنْ هذه الرسالة ، للردّ المفحم ـ سواءً كان بقصدٍ أو بغير قصدٍ ـ على الموقف المشين ، الذي وقفه الغزالي ، في دفاعه عن عصبة الجور والآثام ، مجموعة الرذائل ، الشجرة الملعونة في القرآن .

* *

وبعد أن نقف على تلك القولات المائنة ، يفوه بها الغزالي ـ وهو المعطى لقب « حجة الإسلام » ! ـ غير متأثمٍ ولا متحرّجٍ... فإننا لا نرى أية غرابةٍ ، إذا قرأنا له قوله :

[يحرم على الواعظ وغيره رواية مقتل الحسين وحكايته ، وما جرى بين الصحابة مِنَ التشاجر والتخاصم ، فإنه يهيج بغض الصحابة والطعن فيهم ، وهم أعلام الدين ، وما وقع بينهم مِنَ المنازعات ، فيحمل على محامل صحيحة ، ولعل

(1) المصدر ص ٢٩٥ .

ذلك لخطأٍ في الإجتهاد،لا لطلب الرياسة والدنيا كما لا يخفى][1] .

وغير خفيٍ،ما يعنيه دفاعه هذا ، وما شحن مِنْ تضليلٍ وتزويرٍ ، مِنْ تحريم ذكر فاجعةٍلم تمرَّ بالإنسانية مثلها،ومأساةٍ لم ولن يشاهد بنوالإنسان نظيرها ، وقد عدَّ ــ مِنْ أجل ذلك ــ يزيد وطغمته مِنْ أعلام الدِّين ، الذين لا يستقيم إلاَّ بهم ، فلا يجرحهم إلاَّ مرتابٌ أو مبطلٌ .

وهو ــ هنا ــ شمل بالدفاع كلَّ مبطلٍ غشومٍ ، حيث تناول بالدفاع ، حتى عن معاوية في موقفه مِنْ حرب الإمام عليٍ« عليه السلام »،لاجتهاده في ذلك ، وأنه ليس لطلب الرياسة والدنيا ، وإن كذبه أبو يزيد ، وابن أبي سفيان ، وحفيد أمية ذاته ، في خطابه لأهل الكوفة :

[يا أهل الكوفة! أتُراني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ؟ وقد علمت أنكم تُصلّون وتُزكّون وتحجّون .ولكنني قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابكم ، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون ، ألا إن كلَّ مالٍ أو دمٍ أُصيب في هذه الفتنة فمطلولٌ ، وكلَّ شرطٍ شرطته فتحت قدميَّ هاتين][2] .

وليس لنا أن نطيل الوقوف ، عند كلِّ فرية أتى بها الغزالي ، وكتابه « إحياء العلوم » ــ هذا الكتاب الذي سُمّي بضدِّه ! ، وكثيرةٌ هي الأسماء المضادَّة للمسمَّيات ! ــ وكتابه هذا مشحونٌ بالتفاهة والمين ، والغشّ والتضليل . وما عرضْنا هذا ، سوى نماذج تُعطي الصورة الواضحة ، لما ابتلت به الأمّة الإسلامية ، مِنْ رجال سوءٍ ، هم تجّار الدنيا باسم الدين . إذ لولا ذلك ، لَمَا جاء مَنْ يقول : « إن الحسين قُتل بشرع جده»[3]

(١) الغدير ٢١١ : ١٠ عن تفسير روح البيان ١٤٢ : ٤ لاسماعيل البروسوي .

(٢) الحديدي : ٦ : ٤ والغدير ٣٢٦ : ١٠ مسنداً .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص٢١٧ عن« العواصم والقواصم »لابن العربي.

ــ وهو أبو بكر بن العربي ــ ذلك أن يزيد « إمام زمانه » ، والحسين خارجٌ عليه ! ، وقتْله هو الجزاء الشرعيّ ، الذي يستحقّه في دِين جده .

وابن العربي يمتاز على الغزالي ، في صراحته ، فهما متفقان في الرأي والغاية ؛ ولكن الثاني ، قدَّم السم ممزوجاً بما ظنّه عسلاً .. أما الآخر فقدَّمه صرفاً ، يبين ظاهره عما في باطنه مِنْ خبثٍ ، وما يحمل مِنْ سوءٍ ...

* *

وليس يرضى المؤرخ ابن خلدون : أن ينال واحداً مِنْ أهل البيت المطهر، دون آخر ، فأرسل هذه القولة الراعدة :

[وشذَّ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها ، وفقهٍ انفردوا به ــ إلى أن قال : وهي كلّها أصولٌ واهيةٌ . وشذَّ بمثل ذلك الخوارج . ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم . بل أوسعوها جانب الإنكار والقدح ، فلا نعرف شيئاً مِنْ مذاهبهم ، ولا نروي كتبهم ، ولا أثر لشيءٍ منها ، إلا في مواطنهم . فكتُب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمةً في المغرب والمشرق واليمن ، والخوارج كذلك . ولكلٍّ منهم كتبٌ وتآليف وآراءٌ في الفقه غريبة][1] .

وإنها لمفخرةٌ لابن خلدون : أن يدع فقه أهل البيت !؛ولكن الأئمة مِنْ أهل البيت « عليهم السلام » ، لم يبتدعوا شيئاً . وإن تكن أقوالهم مذاهب مبتدعةً ــ كما يقول ابن خلدون ــ فإنها راجعةٌ للقرآن العظيم « الذي جاء بتطهيرهم » .. فليكنِ القرآن ينبوع بِدَع أهل البيت وأصلها ! .

ومفخرةٌ أُخرى له : أن يضعهم في قبال الخوارج،ويقيس شذوذ هؤلاء بأولئك ! فتكون النتيجة المريرة،هي : مروق أهل البيت مِنَ الاسلام،كمروق الخوارج مِنَ الاسلام ، في نصوص الرسول « ص » .

ومفخرةٌ ثالثة:أن يوسع مذهب أهل البيت ــ وهو صميم الإسلام ــ جانب

(١) المقدمة ص ٤٤٦ .

الإنكار والقدح والازدراء !.

ولقد أسرف البعض في ذلك، حتى اضطر لمخالفة السنة ــ الثابتة لديه ــ لأن شيعة أهل البيت تعمل بها ، فرغبةً في البعد المنفسح عن التشبّه بالشيعة، عدل عن الثابت مِنَ السنّة ، إلى ما يخالفها] .

ولابدّ ــ هنا ــ مِنَ الإشارة إلى نماذج هذه المخالفة ، التي ارتكبت عمداً ، لمجرّد أخذ الشيعة بها ، كسنّةٍ نبويةٍ :

إن السنة في القبر هو التسطيح ــ كما هو الراجح مِنْ مذهب الشافعي ــ إلّا أن هناك مَنْ نصّ على [أن التسنيم أَوْلى ، لأن التسطيح صار شعاراً للشيعة][1]

وقال الغزالي والماوردي ، حول ذلك :

[إن تسطيح القبور هو المشروع ، لكن لمّا جعلته الرافضة شعاراً لهم عدلنا عنه إلى التسنيم][2] .

وكذلك التختم حيث أن السنة تنص عليه في اليمين ، ولكنا نجد من يقول :

[إن المشروع التختم في اليمين ، ولكن لما اتخذته الرافضة جعلناه في اليسار][3] .

وفي هذا الخلاف ، قصد به خلافَ الشيعة المتبعة للسنّة ، بالاضافة إلى اتباع معاوية ، مبتدع هذا الخلاف للسنّة ، لأنه أول متخذٍ للتختم في اليسار !.

وكثيراً ما تجد مثل هذه الجملة الوقحة :

(١) و (٢) ص ٢٠٩ و ٢١٠ : ١٠ من الغدير .
(٣) الغدير ص ٢٠٩ ــ ٢١١ : ١٠ .

[إلّا أنه صار شعاراً للإمامية فينبغي تجنبه][1] !.

[ولأنه يؤدي إلى الإتهام بالرفض][2] .

[ولا ينبغي للمؤمن أن يتشبّه بيزيد الملعون في بعض الأفعال ، وبالشيعة والروافض والخوارج أيضا][3] .

وكثيراً ما نجد تعليل ترك السنة ، « لكونه شعاراً للرافضة » !؟ [فإن ترك السنّة سنّة إذا كان شعاراً لأهل البدعة ، كالتختم باليمين، فإنه في الأصل سنّة، لكنه لما كان شعار أهل البدعة والظلمة صارت السنّة : أن يجعل الخاتم في خنصر اليد اليسرى، في زماننا][4] .

وهكذا صار الخلاف للشيعة أصلاً معمولاً به ، وبدعةً تخالَف بها السنّة الثابتة ، وليس مِنْ نكرٍ حول ذلك ، حتى أن هناك مَنْ قال عند « بيان التشبّه بالروافض » :

[ومِنْ هنا ذهب مَنْ ذهب مِنَ الفقهاء، إلى ترك بعض المستحبات، إذا صارت شعاراً لهم ، فإنه وإن لم يكن الترك واجباً لذلك ، لكن في إظهار ذلك مشابهةٌ لهم، فلا يتميّز السني مِنَ الرافضي ، ومصلحة التميز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم، أعظم مِنْ مصلحة هذا المستحب][5] .

وتزدحم الأسئلة ، وتكثر علامات الإستفهام ، حول هذه الآراء المخالفة للسنّة ، والمناهضة للشرع ، والجانية على حق طائفةٍ حقةٍ، لا ذنب لها ، إلّا أنها أخذت تعاليم الدين الحنيف ، وأوامر القرآن الكريم ، وسنّة الرسول الأعظم ، مِنْ ينابيعها الصافية العذبة ، وخضعت لما جاء به هؤلاء ، في حق العترة الطاهره .

هل مِنَ السنّة : هذه المخالفة ؟!. وهل يجب في نظر هؤلاء المخالفة في

(١) و (٢) و (٣) و (٤) و (٥) الغدير ص ٢٠٩ــ٢١١ : ١٠ .

كلّ عملٍ يأتي به كلُّ مَنْ لم يسايرهم في رأيهم ، وأقوالهم هذه ؟!. أم يختص هذا الخلاف بالشيعة فقط — أو بعبارةٍ أصح : بمخالفة أهل البيت ، وحدهم، أحد الثقلين اللذين خلّفهما الرسول الأعظم ، ليهتدي مَنْ تمسّك بهما،وينجو مَنْ تعلّق بحبلهما ، ويهلك ويغرق مَنْ خالفهما ، إن تقدم عليهما،أو تأخر ؟!.

وهل أن سنة محمدٍ بن عبدالله ، قابلةٌ للتحريف والتغيير ؟!.أليس حلاله حلالاً ، وحرامه حراماً ، إلى يوم القيامة ؟.وما جزاء مَنْ يجرؤ على القول: بأن هذا العمل مِنْ سنة الرسول ، وأنا محرّمه — أو ، وأنا مخالفه ، مِنْ أجل أن أتميز عن شيعة أهل البيت ؟!.

إن الشيعة تقيم الصلاة،وتُؤتي الزكاة ، وتُؤدي ليس الواجبات الشرعية فحسب ، بل الكثير مِنَ المندوب ، ابتغاء مرضاة الله — فهل يجب على مَـنْ يُريد مخالفتهم : أن يدع ما تُقيم وتُؤتي وتُؤديه الشيعة ؟!.أم عليه — على الأقل — أن يأتي بشيءٍ يخالف به السنة الثابتة ، في سبيل أن لا يأتي بهـذا العمل المماثل لما تأتي به الشيعة ؟!.

وبعد أن نقف على هذا الاعتراف السافر،في تجويز مخالفة السنة الثابتة ، لا نلبث أن نجد مَنْ يرمي الشيعة بمثل هذا ، فيصدق المثل العربيُّ الصائب :
« رمتني بدائها وانسلّت » .
ودائما نجد مصداق ذلك ، في موقف أعداء أهل البيت مِنْ شيعتهم !.

وهكذا بُليت الأُمّة الإسلامية ، بأناسٍ لم يستخدموا المعرفة،في سبيل الحقّ،وإسعاد البشرية ، بلِ استخدموها : معولاً للهدم ، وبذاراً تُؤتي ثمار التفرقة المرّة...ولم يوجّهوا عقولهم مِنْ أجل توضيح الحقائق ، والبحث عنها، بل في سبيل إضاعتها وتشويهها ، كلُّ ذلك طمعاً في منصبٍ ، أو رتبةٍ ، أو جاهٍ ، أو مالٍ !.

فنحن ، إن كنّا نعجب لأُولئك ، الذين اختلقوا الأحاديث ، وافتعلوا

الأكاذيب ، وأتوا بالمنكر مِنَ القول ، والزور مِنَ الحديث...!

... أو مِن معاوية — ومَنْ إليه — مِمَّن اشترى الضمائر ، وخان العهود، ونقض الميثاق ، وخضم مال الله « خضمة الإبل نبتة الربيع » ، وخفر الذمم واستعلى على الأُمة ، وانتزى على حقوقها...

أقول : إن كنّا نعجب لأُولئك،لأفاعيلهم المنكرة ، وأقاويلهم المفتعلة... فإن عجبنا لهؤلاء ، الذين زادوا الطين بلّةً ، وفي المزمار نغماتٍ، وأخذوا تلك المناكير على أنها أعمالٌ ، لا يُوجَّه إليها ذرّةٌ مِنْ نقدٍ ، ونقلوا ذلك الزور المفتعل ، على أنه أحاديث موثوقة السند ، وقد ندّت بها شفتا رسول الله « ص » — واستغفر الله !.

إن عجبنا مِنْ هؤلاء ، لا ينتهي لحدٍّ، فهو جارفٌ مشتدٌّ . ذلك أن أُولئك ، اختلقوا ما اختلقوا ، بعدما باعوا آخرتهم بدنياهم ، وضميرهم وإنسانيتهم ، وقبضوا الثمن البخس : ذهباً وهّاجاً ، وفضّةً ناصعة البياض — وإن كانت قيمة ضمائر مسودّة الدخلة ...

وأما المشتري ، فهو : رجلٌ متاجرٌ ، لا يعرف فضيلةً ، ولا يُقيم لها وزناً لا يعرف سوى الغاية الدون ، التي ينشدها ، ويعدو خلفها ، فيتّخذ كلّ وسيلةٍ جسراً لها — مهما كلّف الثمن ، ومهما كان خسرانه في ميزان القيم...!

إن الغاية — لديه — تبرّر الواسطة ، حتى ولو كانتِ الواسطة : تقويض أركان الدّين ، وطعنه في الصميم ، والإجهاز على آخر رمقٍ مِنَ الضمير الإنساني !،والخنق لصوت العدالة الحقة ، وتلاشي أصدائها المرّة !.

إن السياسة الميكافيلية — التي يتّبعونها — كفيلةٌ بأن تقتلع كلّ القيم والمفاهيم — مهما كانت — التي تحاول تأخير سيرها إلى هدفها الدون ...

وإن قولة الملك العباسي ، عند قبر الرسول « ص » : إن الملك عقيم ، ولو نازعني صاحب هذا القبر ، لضربت خيشومه بالسيف !.

ــ في الوقت الذي يملك فيه أزمة الأُمور ، وينتزي على حقوق الأُمة ، ويُهدِّد كرامتها ، باسم الخلافة الإسلامية ، هذه التي يبرأ منها الدِّين الإسلاميُّ الحنيف ، ويدعو لجهادها ، والقضاء عليها ، وإعادتها لمَنْ تتوفر فيه كلُّ المميزات لهذا المنصب الخطير !.

إن هذه القولة ، تعبر أُصدق تعبيرٍ عن أُسلافه ، وعن خلفائه ــ وإن لم ينطق بها لسان غيره...غير أن القلوب تخفق بها ، والأعمـــال تنتهج ما جاءت به ...

ــ ٨ ــ

إن ما ينفطر له القلب ألمـاً : أن نغوص في بطون الكتب ، وقد وُضعت لتؤرِّخ حقبةً مِنْ حقب التأريخ ، أو لتجمع بين الشتيت مِنَ الاحاديث ، التي رواها الرواة عن الرسول « ص » لتجمع تراثاً باقياً ...

... أن نرجع إليها لنبحث عن موضوعٍ، نريد أن نزيل ما علق به مِنْ أوضارٍ وما ناله مِنْ وضع الوضّاعين ، فنعرف زيفه مِنْ صحيحه ، وجوهره مِنْ مرذوله ــ فنجد أنفسنا : كغريقٍ، أخذه الموج مِنْ جميع نواحيه ، وغشاه الظلام ، فسدَّ عليه النور ، فلا يلمح حتى إشاعةً، تريه بريق أمـلٍ في الحياة...!

نجد الكتب حافلةً بالأراجيف الموضوعة ، والخرافـات المضحكـة ، والأحاديث المختلقة... وإن واضعها ليعرف حقيقتها ويعلم بواقعها المشين... غير أنه ألّف كتابه ــ مثلاً ــ لذلك الوزير ، أو لهذا الملك ، أو ليقـدمه لذلك الوجيه الكبير ــ لينال ما يرضي شهوته الحمقاء ، ويشبع نهمه الماديَّ المسعور !.

فهو يحاول شحنه ، بكلِّ ما يرضي به رغبات هذا الذي ألَّفه مِنْ أجله ، ويرضي نزواته وشهواتـه لينال أجره غير منقوصٍ !،فانه إن لم يُرضِ هذا ــ وإن أسخط في سبيله الحقَّ والله ــ لم يُرضِ مطامعه ، ولم يحقق آماله .

وهذا هو السبب المباشر ، لما نتج مِنِ اضطرابٍ وتخبُّطٍ ،حين ما نرجع

لموضوع ، فنجده في كتابٍ ، نقيضه في آخر ، حتى يكاد يعمى على الباحث ، طريقه الألحب !.

ومِنْ هنا... نجد بعض المؤلفين ، يأتي بالفكرة ــ أوِ الرأي ــ في هذا الكتاب ، في حين أنه يخالفها ، أشدَّ المخالفة ، وينقضها ، أبشع النقض ، في كتابه الآخر ، ذلك أن كلَّ كتابٍ سار فيه حسب الهوى الجارف ، الذي ينشده مَنْ وُضع له الكتاب الأوّل[1] وإذ يضع الكتاب الثاني ، لِمَنْ تخالف رغبته وهواه ، تلك الرغبة وذاك الهوى... فإن الموضوع يختلف هنا ، عنه هناك ، والحق الواضح هناك ، باطلٌ لا ريب فيه ، هنا...!

ولو شئنا أن نضرب الأمثال ، لطال بنا السير ، ولخرجنا عن دائـرة موضوعنا ، الذي نحاول اجتياز هذه « العتبة » إليه .

* *

ولكن فخذ هذا المثل ، على الاضطراب والتخبُّط ، في سبيل إرضاء الشهوات والأغراض ، ولو بمسخ الحقائق ، ونكران الواقع ، والتجني على الحق .

فليس مَنْ ينكر : أن النبي « ص » ، قد لعن الحكم بن أبي العاص وَمن ينتج مِنْ سلالته ــ وهل تنتج الجيفة غير النتن الخناق ــ وأنه « ص » وقد أتى الحكم بابنه مروان ــ في ولادته ــ قد قال « ص » :

« إنه الوزغ بن الوزغ، الملعون بن الملعون »[2] .

(1) لنا أن نستشهد ــ هنا ــ بموقف الغزالي ، مِنْ يزيد وقتله للحسين «عليه السلام » ، وتناقضه في ذلك ، بين كتابيه : « إحياء العلوم » و «سر العالمين» ، حيث سبق أن أشرنا إليه ...

(2) ينابيع المودة ص ٢٥٦ ، والنزاع والتخاصم ص٥ ، وشرح النهج ١:٥٥ ، ←

وأنه « ص » لعنه ، ومروان في صلبه ، فمروان فضضٌ مِنْ لعنة رسول الله ــ كما عبَّرت بذلك السيدة عائشة .

وأنه « ص » قد طرد الحكم ، مِنَ المدينة ، حتى لحق الرسول بربه ، فولي أبو بكر وعمر ، وجاء إليهما مَنْ تشفع فيه ، فأبيا عليه ، وثارا في وجهه ، مغلظين له ، قائلين :

« أنجير طريد رسول الله ؟، أو نحلُّ عقدةً عقدها ؟»[1] .

وكان مما أجاب به عمر ، حين طلب عثمان له الشفعة ، قال :

« يُخرجه رسول الله صلى الله عليه « وآله » وسلم ، وتأمروني أن أُدخله ؟! . والله ! لو أُدخلته لم آمن أن يقول قائل : غيَّر عهد رسول الله صلى الله عليه « وآله » وسلّم ! . والله لئن أُشقّ باثنتين ــ كما تشقّ الأبلمة [2] ــ أحبّ إلي مِنْ أن أخالف لرسول الله أمراً !. وإياك ــ يا ابن عفان ! ــ أن تعاودني فيه ، بعد اليوم[3] .

وليس يظن واحدٌ ــ بعد هذا ــ أن يجيء الشهاب الخفاجي ، فيقول بتوبة

← وكشف الأستار ٨٥ ، وأبو هريرة ١٢٦ ، والدعوة ١٨٩ :١ ، والغدير ٥:١٣٠ و٢٥٢ و٢٦٦ : ٨ مسنداً لعدة مصادر ، وذكر ــ في الجزء الخامس ــ أن الحاكم جمع هذه الأحاديث ، المتصلة بالموضوع ، وصححها في مستدركه ص ٤٧٩ــ٤٨٢ : ٤ .

(1) شرح النهج ١:٦٦ ، والغدير ٢٥٠ و٢٦٠ : ٨ ، وأُشير لذلك في ص٨٠ مِنْ رسائل الجاحظ .

(2) يقال : المال بيننا شق الأُبلمة ــ بضم الهمزة ــ أي : نصفين .

(3) شرح النهج ٢٣٢ : ١ .

الحكم ، وخلوص طوينه(١) !.

* *

ثم مَنْ ذا — لولا مال معاوية ! — يقول بإسلام — بله إيمان — أبي سفيان ، وهو العدوُّ الألدُّ للمسلمين ، ورسول الإسلام ، والذي لم يُسلم إلّا مكرهاً !.

جاء به العباس — وقد أمّنه — للرسول ، فقال له :

ويحك — يا أبا سفيان ! — أما آن لك أن تعلم أن لا إله إلّا الله ؟!.

أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ! ما أوصلك ، وأحلمك ، وأكرمك ! .
والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغنى عني شيئاً !.

الرسول : ويحك يا أبا سفيان ! — أما يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟!.

أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ! ما أوصلك ، وأحلمك ، وأكرمك !.
أما هذه ، ففي النفس منها شيء ! .

العباس : ويلك : اشهد شهادة الحق ، قبل أن تضرب عنقك(٢) !

هذه هي صورة إسلام أبي سفيان — كما يرويها التاريخ ! — وما هذا ، سوى استسلام ، قبل أن تضرب عنقه...

وإنه لا يلبث — بين حين وآخر — أن يظهر ما في خفايا نفسه ، وطوايا ضميره ، مِن رواسب الشرك الرسيخ ، والحقد الدفين .

(١) السيرة النبوية : ٢٢٩ : ١.

(٢) ارجع للاستيعاب ٨٦ : ٤ والشرح الحديدي ٢٠٨ : ٤ والغدير ص ٢٢٣ : ٣ .
وأشار إلى ذلك الجاحظ ، في كتابه [فضل هاشم على عبد شمس] ←

رأى الناس يطأون عقب رسول الله « ص » ، فحسده ، هامساً لنفسه :

« لو عاودتُ الجمع ، لهذا الرجل ؟! » .

وإذا بالرسول يضربه في صدره : « إذن يخزيك الله » !.

فاستمع لجوابه ، الذي يُصوِّر لك كوامن نفسه ، ورواسبها :

« ما أيقنت أنك رسول الله ، حتى الساعة »(١) .

ولكنه حتى بعد هذه الساعة ، لم يتيقّن ، ولم يعرف اليقين إلى قلبه باباً فيلجه ، فكان أشد ما يؤذيه : أن يعبر بما يشتمُّ منه رائحة الإعتراف بنبوة محمد « ص » . فاسمعه كيف يعبر عن ذلك ، مخاطباً العباس بن عبد المطلب — وقد رأى الرسول ، في جيشه الخضم ، وكتائب الأنصار تحف به — فيقول :

[والله — يا أبا الفضل ! — لقد أصبح « ملك » ابن أخيك ، اليوم ، عظيما](٢) .

وينظر أبو سفيان للنبي — وهو بالمسجد — نظرةً تتمثل فيها كلُّ ماتحمله نفسه مِنْ : ضعةٍ وحقدٍ ، وضغينةٍ وكيدٍ ، وأسفٍ قتّالٍ ، أن لم ينل مِنَ الرسول ما يُلاشي دعوته ، وأن لم يتغلّبِ الباطل ، الذي كافح عنه ونافح ، — حتى استخذى وفشل — على ذلك الحقّ الأبلج المتلألأ ، في دعوة محمد بن عبدالله يخاطب نفسه ، عاتباً لائماً آسيفا :

→ رسائل الجاحظ ص ٧٨ — وقد أشار لكلمات الكفر والنفاق مِنْ أبي سفيان ، بعد إظهاره للإسلام ، ولكنها إشارة مِن الشاطيء البعيد ، يعرفها المتتبع .

(١) الاصابة ١٧٢ : ٢ والغدير ٢٨٥ : ٨ ، و ٨٣ : ١٠

(٢) الامام علي صوت العدالة ٢٠٧ و ٢٠٨ (٧٧١ : ٤) .

« ليت شعري ! بأي شيءٍ غلبني ؟! » .

فلم يمهله الرسول في موازنته التجارية المادية هذه ، حين يقيس الغلبة بالكثرة ، والهزيمة بالقلة ، بل أقبل عليه ضارباً بيده بين كتفيه ، مجيباً له بما يفحمه ، وبما يتحداه ، فيهيز منه القوى ، ويقلب عليه موازين النصر والغلبة ، في عرفه المادّي :

« بالله غلبتك — يا أبا سفيان ! »[1] .

* *

ولا يصل لسمعه نبأُ بيعة عثمان ، حتى يدخل عليه ، فيسأل :

« أفيكم أحدٌ مِنْ غيركم ؟ » .

فما استيقن صفاء الجو ، حتى راح يقول :

(قد صارت إليك بعد تيم وعديٍّ ، فأدرها كالكرة . واجعل أوتادها بني أُمية . فوالذي يحلف به أبو سفيان [2] ما زلتُ أرجوها لكم ... ولتصيرنَّ إلى صبيانكم وراثةً ، وإنما هو الملك ، ولا أدري ما جنّةٌ ولا نارٌ[3]) .

ثم يتجه نحو قبر الحمزة ، ليطفيء لهبةً مِنَ الحقد ، لا تزال تستعر في داخله . وها هي ذي — اليوم — قد أخذت لهبتها تنطفيء ، فَرَكَلَ القبر برجله ، وفحَّ صوته البغيض الحقود :

---

(١) المصدر ص ٢٠٨ (٧٧١ : ٤) .

(٢) ليس يجهل القارىء ما يحلف به أبو سفيان ! ، وفي أُذنــه أصداءٌ ، لكلمته — في إحدى حروبه للرسول : « اعل هبل ! » — أي : أظهر دينك . وختام قولته هذه ، تحمل ألف دليلٍ ودليلٍ : « ولا أدري » — الخ .

(٣) الاستيعاب ٨٧ و٨٨ ج٤ ، وشرح النهج ١٣٠ : ١ ، والامام علي ٣١٩ : ١ والنزاع والتخاصم ٥ و٢٧ ، ومعجم القبور ١٩٣ : وأصل الشيعة ٥٥ و٥٦ ، والغدير ٢٨٥ و٣٣٩ قارب (٢٧٨ و٣٣١) : ٨ ، و٨٣ : ١٠ ، والإمام علي صوت العدالة ٢٤٩ باختلاف يسير ، وفيه أيضاً ص ٩١٥ : ٤ .

« يا أبا عمارة ! إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف ، أمسى في يد غلماننا يتلعّبون به »[1] .

ورضيت نفسه — اليوم — بما فعل ، أكثر منها في يوم «وحشي» ، وما قامت به « آكلة الاكباد » مِنْ عملٍ شنيعٍ ...!

* *

ولكن ... فإنك وأنت تبحث في كتب الحــديث — ستجد فصلاً معقوداً ، لفضائل أبي سفيان...!

ثم لم يرضَ هؤلاء الوضّاعون ، بفضائل أبي سفيان المختلَقة — بعد ادعائه الإسلام ، أو نسبته إليه — حتى رأوا له الفضل على الإسلام ! ولعلَّ ذلك في ابتغائه الغوائل للإسلام ، ومناهضته للرسول في حروبه الدامية الحقود !. لم يرضَ هؤلاء ، حتى جاءوا بهذه الكذبة الصلعاء — ولاكصلعة أبي هريرة :

[ومَنْ مثل أبي سفيان ؟! لم يزل الدّين به مؤيّداً قبل أن يسلم وبعدما أسلم . ومَنْ مثل أبي سفيان ؟! إذا أقبلت مِنْ عند ذي العرش ، أُريد الحساب ، فإذا أنا بأبي سفيان معه كأسٌ مِنْ ياقوتةٍ حمراء يقول : اشرب يا خليلي !. أعار بأبي سفيان ، وله الرضا بعد الرضا ، رحمه الله][2] .

---

(١) النزاع والتخاصم ٢٧ ، وشرح النهج ٥١ ٤ ، ومروج الذهب ٣٥١ ، ٣٥٢ ج٢ ، والامام علي ٣٢٢ : ٦ ، والغدير ٨٣ ج١٠ ، والإمام علي صوت العدالة ص ٢٠٩ (٧٧٢ ج٤) كلمةٌ تشبه هذه ، ولعلّها أشدُّ مرارةً وحقداً في التعبيرعن دخيلة نفسه السوداء :

« انهض ! فقد صار إلينا الملك ، الذي حاربتنا عليه! » .

(٢) الغدير ٧٩ و ٨٠ ج ١٠ مسنداً .

ونحن إذ ندع التعليق على هذه الفرية الفاضحة ، فلأنّ في حياة أبي سفيان ــ الحافلة بكلّ ما يؤكّد هذه الفرية!ــ ما يصدّنا عن التعليق ... وفي صفحات التأريخ ــ على ما سارت به الأغراض ، وما أملته الشهوات ــ ما يحول بيننا وبين القول ، وفيه ما يكفينا مؤونة الحكم...!

* *

وكما تجد مثل هذا الفصل ، بين طيات كتب الحديث ــ مثلاً ــ فإنك تجد الكتب مزدحمةً بالثناء على الزاني المغيرة بن شعبة ، والوزغ الملعون مروان بن الحكم ، وإمامَي الضلال ــ كما يقول ابن أبي الحديد[1] ــ عمرو بن العاص ، وابن آكلة الأكباد معاوية ــ ومَنْ إليهم ، مِن الطلقاء ، وأبناء الزنى ، وأصحاب الأعلام مِنَ البغايا ...

(١) شرح النهج ١٥ : ٣ ، حيث استنتج ابن أبي الحديد ، ذلك في شرحه لخطبة الإمام عليّ « عليه السلام » ، جاء فيها ذكر أئمة الضلال ، فرآه يعني هذين ، ومَنْ شايعهما على الضلال .

— ٩ —

ليس يرضى ابن حجر ، بما ختم به « صواعقه المحرقة » ، التي حاول فيها ، أن يحقّ خلافة معاوية ــ كما يقول ! ــ حتى ألّف كتاباً ، شاء أن يضع له هذا الإسم الضخم :

[كتاب تطهير الجنان واللسان ، عن الخطور والتفوّه بثلب « سيدنا » ــ كذا ؟! ــ معاوية بن أبي سفيان][1] .

أرأيت هذا العنوان المرعب ؟! .

فيجب عليك : أن تطهّر جنانك ولسانك ، عن خطر التفوّه ، بذكر ما يشين الطاهر ، سليل الأطهار ، معاوية ، سيد ابن حجر ، ومَنْ إليه مِنَ التجار باسم المعرفة !.

أما حربه لعليّ ، وبغيه عليه ، وإراقته دماء المسلمين ، وشتمه علياً ، وابتداعه سبَّه ، وقتله عماراً وحجراً وأصحابه ، وسمّه الحسن والأشتر ــ ومَنْ إليهما ــ واستدعاؤه زياداً ــ وما إلى ذلك مِن أعماله القباح ــ فهو مجتهدٌ ، مأجورٌ عليها ، وهو الأمين السابع ، أو الثالث[2] .

(١) تجد كتابه « العظيم ؟! » ــ هذا على هامش صواعقه المحرقة .
(٢) مِنْ بين الأحاديث الموضوعة :
« الأمناء سبعةٌ : اللوح ، والقلم ، وإسرافيل ، وميكائيل ، وجبريل ،

وانك ، وانت تقرأ سطوراً من هذا الكتاب ، لتتمزّق منك نياط القلب : ألماً وغيرة ، على الحقائق ان تمسخ ، وعلى الحق ان يعادي ويمتهن.!

فإنك واجد في هذا المسمى بكتاب : احاديث ، قالها الرسول في ذمّ معاوية ، فشاء أن يؤولها — على تعدد وجوه ! — الى فضائل ومحامد في حقه..!

وهو — الى ذلك — مشحون بوفرة هائلة ، من الاحاديث المختلقة ، والاراجيف الموضوعة ، على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم « وآله » ، ولسان علي « عليه السلام » ، لتبرّر موقف معاوية من علي ، وحربه وشتمه اياه ....!

أما أنا فأعذر ابن حجر — في كتابه هذا — ما دام تأليفه له ، كان نتيجة « الطلب الحثيث من السلطان همايون اكبر سلاطين الهند »..!

وهذه هي ثالثة الأثافي ، التي منينا بها ، وفشا — بسببها — موضوع الحديث ، وزور المقال ..!

← ومحمد ، ومعاوية » .

وفي بعضها يقلّ العدد إلى ثلاثةٍ .

« إن الله ائتمن على وحيه جبريل ، وأنا ، ومعاوية... وكاد أن يبعث معاوية نبيّاً ، مِنْ كثرة علمه ، وائتمانه على كلام ربّي ، يغفر الله لمعاوية ذنوبه ، ووقاه حسابه ، وعلّمه كتابه ، وجعله هادياً مهدياً ، وهدى به » ! — راجع الغدير ٥ : ٢٦٢ .

وفي هذا الجزء — مِنْ ص ٢٥٣ الى ٢٨٤ ، تحت عنوان [سلسلة الموضوعات] — صُوَرٌ رائعةٌ ، أبدعها الخيال الخلاق ، في مناقب أشخاصٍ ، كان لمعاوية منها نصيبٌ أوفى !.

وقد بلغ مجموع هذه السلسلة — مِنَ الصُّوَر الزاهية — مئة صورةٍ .

وفي ص ٦٩ : ١٠ نماذج مِنْ هذه الصُّوَر .

ونحن ، إن وجدنا شائبةً مِنْ عذرٍ واهٍ ، يُنتحل لمثل هؤلاء التجار : باعة الضمير ، ومدلّسي وجه الحقيقة والواقع ، في سبيل مجاراة الحكم الزائف — حينئذٍ — والحكام المنحرفين الجائرين ، بأجورٍ ورشىً ، تستلب مِنَ الأمة وضعاف الأناسين .

ونحن إن وجدنا مَنْ يعذر بعض هؤلاء ، في أن منهم مَنْ قد يقول ما يقول ، ويختلق ما يختلق ، خوفاً مِنْ سياسة البطش والتنكيل ، بكلّ مَنْ لا يُجاري الوضع المشوّه — آنذاك...!

وهي — ولا شكّ — أعذارٌ زائفةٌ ، لا تنهض بالدفاع عنهم ، ولا تبرّر شائن موقفهم ، وقد كشفنا عن ذلك — ما وسعنا المجال... فعليهم — وحدهم — تقع مسؤولية هذا الانحراف والتزوير ، لأنهم وضعوا الأسس ، وبنوا القواعد لهذا الصرح الظلوم ، فاحتله الغاصب والجائر ، وتوارثه العليم والجهول... فوسّعاه ما وسعهما ذلك ، تحت ستر العصور المظلمة ...!

ولكن أيّ عذرٍ لمَنْ يسير في هذا الطريق الشائك الملتوي ، بعد أن كشف البحث والتدقيق — تحت النور الوضّاح — عمّا هنالك مِنْ حقائق ممسوخةٍ ، وحقٍّ ممتهنٍ ، وكشف عما وراء الأكمة....؟!

أيُّ عذرٍ لهذا الذي يعيش ، في هذا العصر — المسمّى بعصر النور ، وعصر الحرية — وهو يجترئ مِنْ ماضيه المظلم المشوّه ، دون أن يكلّف نفسه مهمّة البحث والتنقيب المدقّق....؟!

وإذا كانتِ السياسة الشوهاء — آنذاك — تتطلّب هذا الموقف الهدّام ، وتقدّر وتكافئ مَنْ يحمل معول الهدم والفرقة ، ويحمل القلم المأجور ، ويستخدم العقل والعلم والمعرفة ، في سبيل إرساء دعائم ما يشاؤون مِنْ بناءٍ متداعٍ منهارٍ...

... وإذا كانت ملوك المسلمين — حينذاك — المتسمّون بالخلفاء — وما هم بهم — قد سبقوا لسياسة : « فرّق تسد » — فإن العصر ، اليوم ، غيره

أمس ... والوضع ، الآن بخلافه قبلئذٍ ... والرؤساء العرب ، غيرهم أمس...

فنحن ــ الآن في أمسّ الحاجة للوئام والوحدة ، وتماسك الصفوف ، والعمل الموحّد لمجابهة العدوّ المشترَك ، وتناسي الأحقاد الموروثة ، وتصفية الجوّ ــ الذي شاء مَنْ شاء تلبيده بداكن الغمام ــ لكي تُشرق الشمس، فتنير الوجود ، وحينئذٍ يفتضح الحائل مِنَ الصبغة... وتصفو المياهُ فيخسر مَنْ لا يصيد ، إلّا في العكر منها ...

وإن الواجب على مَنْ شاء أن يصل إلى الواقع الصميم ، ويغربل التراث الذي خُلط بالدخيل ... عليه : أن يتجرّد مِنْ عاطفته الرعناء ، وتقاليده الموروثة ، ويعمل بإخلاص النزيه ، وبجدّ الباحث ، وبصبر المتتبّع ، لا يرجو سوى وجه الله ، وحده ، ولا ينشد غير الحقيقة الناصعة ، ولا يهدف لسوى الحق الأبلج .

ومَنْ لم تتوافر فيه هذه الكفاءات والمؤهّلات ، فعليــه أن يتناسى الماضي ، وهو منه على الجهل الصفيق ، فلا يخبط في الديجور ، ولا يهرف بما لا يعرف ، ويتهم بالهوى والجموح ، والعاطفة المشبوبة الرعناء ، دون ارتكازٍ لعقلٍ ومعرفةٍ ، أو إدراكٍ واطّلاعٍ ، فيفتّ الوحدة المتماسكة ، ويصدع الشمل والصفّ الموحّد ، وهو لا يخدم سوى العدوّ المتربص ، سواءٌ علم بذلك أو جهل ؛ قَصَدَ أو لم يقصد ؛ في حين أنه يغضب ربه والحق ، ودينه الذي يزعم : أنه لهعذلك المخلص ، المتمسّك به .

ولكن ــ ونقولهــا والألم يقطر مما يخطــه اليراع ، حيث ينبعث مِنَ الأعماق... ولكن ــ يا للأسف المرير ! ، ويا للخيبة الكاسفة !... ولكن ــ ولعن الله « لكن » ، هذه الخبيثة ...

ولكن هذا العصر ــ عصر المدنية والنور ، عصر الذرة والعلم ، عصر البحث والتنقيب في المجهول ، وعن المجهول ــ مُنِيَ بأُناسٍ ، يعيشون فيه

بأجسامهم في ماهم يعيشون في ظلمات الماضي بعقولهمُ الحجرية ، التي هي مِنْ مخلّفات عصور الانحطاط ، فعاثوا في صفوف الأمة فساداً وغرّروا بالبسطاء مِنَ العامة ، وشوّهوا العلم والمعرفة ، وهم به متفيهقون، وبها متشدقون...!

ولسنا نحاولُ ــ هنا ــ مناقشتهم ، بله الردّ عليهم ، وهو ما لا يتّسع له القول ــ هنا ــ إلّا أنه لا يسعنا إلّا أن نتساءل :

ماذا دعا الرافعيّ « مثلا » ــ في مثل كتابه « تحت راية القرآن » ، وهو يردّ فيه على كاتبٍ غير شيعيٍّ ــ أن ينال مِنَ الشيعة ، بالبهت والكذب ، لولا شيءٌ في نفسه...؟!

ولماذا يُصرّ مثل الدكتور أحمد أمين ، ويلحّ على النيل مِنَ الشيعة ــ أيضاً ــ في مجموعةٍ مِنْ كُتُبه ، التي زعم : أنه يضعها لتأريخ الإسلام ، وهو يشوّه منه ناصع الصفحات ، بهذا النيل المكذوب ، بالرغم مِنِ اعتذاره لسماحة الإمام كاشف الغطاء ، بأنه لم يرجعْ في هذا النيل ، لمصدرٍ ولم يأخذه عن مرجعٍ[1] ــ وهو عذرٌ أقبح مِنْ فعلٍ ــ وأنه سيكفّر عن ذلك في الجديد ممّا يكتب ، فكان تكفيره : مضاعفة الكيل مِنَ الشتائم والسباب...؟!

ولصــالح مَنْ يفرغ مثل عبــدالله القصيمي[2] ، ومحمد رشــيد

---

(١) أصل الشيعة ص ٥٠ .

(٢) في كتابه «الصراع بين الإسلام والوثنية»،ويعني بالاسلام مجسّداً في أهل السنة ، وبالوثنية متمثّلةً في الشيعة . وقــد قام سيدنا الوالد ــ رحمه الله ــ بالردّ عليه ردّاً علمياً ، هادفاً لوحدة الصف ، وتنقية الجوّ ، مع فضحه لكلّ كذبه وافتراءاته ، مع تحلّيه بنزاهة الأسلوب ، وحسن النية والقصــد ، حيث لم يكن مِنْ قصدٍ ، سوى : إحقاق الحق ، والعودة بالمسلمين إلى نبع الإســلام . الرويّ العذب ــ وهو دِين السماحة والمحبة ←

رضا(١) ومحب الدّين الخطيب(٢) ، وأمثالهم مِنَ المستعمِرين ــ « على وزن

← والودّ ــ قبل أن يحاول المغرضون المفرّقون تلويثه ، بكلّ ما استطاعوا إلى ذلك مِنْ قوّةٍ ، ومهما وجدوا إليه السبيل ، بتفريق الصفوف وتمزيق الشمل .

وإن كنّا نأسف لشيءٍ ، فلأن القضاء لم يُمهل سيدنا لإتمام كتابه ، والوقوف به حيث أراد ، إلاّ أن ما وصل إليه يكفي ردّاً على القصيمي ؛ فكتابه ــ بمجلّديه الضخمين ــ ليس سوى شتمٍ وسبابٍ مكرورٍ . وقد مثل للقراء هذا الردّ العظيم .

(١) في كتابه « السنة والشيعة ، أو الوهابية والرافضة » وغيره . ويكفي أن يكون له هذا الكتاب الهدّام المضلّل الكذوب ، الذي شحنه بالدس والكذب ، وملأه بالسباب والشتم !.

(٢) في كثيرٍ ممّا كتب وعلّق... كتعليقاته المسمومة ، والبذيئة الوقحة ، في سبابٍ مخجلٍ ، يُنزّه عنه يراع مَنْ ينتسب لدينٍ ، أو عروبةٍ ــ وهما : شممٌ وسماحةٌ ، وخلقٌ رفيعٌ ، وكرمٌ ــ ويُخجل الأمة التي ترضى به ، وذلك على كتاب « مختصر منهاج السنة » ... حيث جرّح في تعليقاته كثيراً مِنْ رجالات الشيعة وعلمائها ، قدماء ومعاصرين ، في أسلوبٍ لا يعرف الحياء ولا التهذيب ، حيث يمليه الحقد الدفين ، والعاطفة المسمومة .

ولنا في ما يكتبه في مجلة الأزهر ، خير دليلٍ ، على ما تحمله نفسيته الملتاثة . وإنه ليؤسفنا جداً : أن تصدر مثل هذه المجلة عن الأزهر ، وتحمل اسمه ، وهو المؤسسة الدينية الكبرى ، التي يُرجى منها ــ وهو ما يحتمه عليها الدّين ، الذي تعمل على نشره وإعزازه ــ أن تعمل على محو الطائفية ، وتجند رجالاتها على توحيد الصفّ الإسلامي ، وتطهيره مِنْ أعدائه ، الذين يندسّون بين الصفوف ، لتفريقها وفتّ وحدتها .

ويتحتم على شيخ الأزهر الأستاذ الكبير «شلتوت» ــ اليوم ــ بعد ←

المفعول » ــ فكرياً ، والمأجورين ...

لصالح مَنْ يفرغ مثل هؤلاء : كلّ سمّهم الزعاف ، وحقدهم المتأصّل ، وضغائنهم المتأججة ، بكلّ ما تحمله نفوسهم مِنْ أمراضٍ نفسيةٍ ، وأوباء تربويةٍ ووراثيةٍ ــ بيئيّةً أو بيتيّةً ــ فينعكس كلّ ذلك فيهم ردّة فعلٍ ، فيروحون يتنفسون ــ وهم في ذلك الجوّ المحموم ، والوسط الموبوء ــ ويحرّقون الأرّم على الشيعة ، في كتبٍ ملأى بالكذب والإفتراء والدسّ ، فيضاعفون الخلاف والفرقة ، في الوقت الذي يدعو ويوجب على كلّ مخلصٍ أن يقضي على أسباب هذه الفرقة والخلاف ...؟!

ألم يكن خيراً لهم في دينهم ودنياهم : لو عملوا ما يجب عليهم ، واستغلّوا مواهبهم ومعرفتهم ، فيما يعود بالنفع الشامل ، والخير العميم ، في سبيل إرضاء الله والضمير ، والحقّ والدّين ، وعادوا لنبع الدّين الصافي ، وارتووا مِنْ نميره العذب ، الذي يفيض بالمحبة والخير ، وينشر السلام ، ويدعو للإلفة والتماسك ، كالبنيان المرصوص ، يشتدّ بعضه البعض ؟!.

ولكنهم ــ ويا للأسف ! ــ ساروا وراء غرضٍ مشبوهٍ ، وسلكوا في طريقٍ معوجٍ ، فتفرّقت بهمُ السُبُل ، حتى ضلّوا الصُوى ، وتاهوا عن معالم الحق في مهاوي الضلال ، ومتاهات الفِرقة ... فكان مِن كلّ ذلك هذه

← إقدامه على الخطوة الجبّارة ، وهي تدريس الفقه الشيعي فيها : أن يعقبها بخطوةٍ ، لها أهميتها الكبرى ، وهي : أن يسكت هذا الصوت المبحوح الزاعق : صوت الخطيب ، إذ لا يُجدي البناء ، ولا يستقيم الصرح ، ما دام هناك هدّامٌ مخرّبٌ ، ينحت في الأساس بمعوله البغيض .

أما لو كانت الأسماء تُطابق « المسمّيات » دائماً ، لكان اسم هذا الهدّام ، غير « محبّ الدّين » ... ولكنها الأسماء الخدّاعة الكاذبة المضلّلة ، والسراب البهرج !...

الثمار ، التي هي : شجىً في حلق الطاعم ، وقذىً في عين الناظر ...

ولعلّهم ــ مع كلّ هذا ــ يظنون في أنفسهم: أنهم قاموا بخير ما يجب عليهم ، وأدّوا واجبهم كأفضل ما يكون الأداء . ولو عادوا لقليلٍ مِنْ فكرٍ ، وشيءٍ مِنْ رويّةٍ ، لصدمهم الواقع المرّ البغيض ، ولرأوا أنفسهم بعيدين عن صافي نبع الدّين العذب ، وما هم مِنْ صفائه إلّا كنسبة دم يوسف للذئب !.

ولسنا بهذا نُنكر وجود فئةٍ ، استوعبت تعاليم الدّين ، ونذرت نفسها لدفع الزيف عنه ، وجلاء الريب ، التي حاول المغرضون تشويهه بها ، فعملوا خير ما يجب عليهم ، دون غرضٍ أو غايةٍ ، سوى وجه الله والحق ، ورفعوا صوتهم عالياً ، صافي النبرة ، واضح القصد ، ودعموا صــرح الوحدة ، وفضحوا ــ ما استطاعوا ــ ما عمله أُولئك ، مِنْ أعمالٍ ، في سبيل بثّ الفرقة ، وشقّ الصفوف ، وتشويه الحق ، وقلْب الوقائع ، وتغيير الأحداث .

وليس مِنْ موضوعنا التبسّط في هذا الجانب البنّاء ، حتى نأتي ببعض هؤلاء الخيرين ، وماقاموا به مِنْ عملٍ صالحٍ مفيدٍ ...

— ١٠ —

هذا موضوعٌ ، كان لابدَّ مِنْ عرضه ، ونحن في سبيل الحديث عن أبي طالب . إذ علينا : أن نلمَّ ، أو نشير إلى وضْع الأحاديث واختلاقها ــ ما دام أبو طالب أحد ضحاياها ...!

فبعد أن عرفنا ما قام به معاويــة ، تجاه عليٍّ ، ومناوأته لــه بالسيف واللسان ، فإن ذلك السيل الجارف ، لابدَّ وأن ينال أبا طالب منه شيءٌ .

ولو لم يكن أبو طالب أبا عليٍّ ، لما ناله ما ناله ... ولم يأتِه البلاء ، إلّا لأنه أبو عليٍّ ــ كما يقول سيدنا الوالد .

فليس مِنَ الغرابة في شيءٍ ــ بعدما عرفنا الدواعي والظروف ، التي حجبت الحقائق ، وشاءت أن تواريها في العدم ، لولا فيضٌ مِنْ عناية الله ، بنوره الوضيء أن يطفأ...!

... ليس مِنَ الغرابة في شيءٍ : أن يقف التأريخ ، ذلك الموقف المناهض ، حين ما يعرض لحياة هذا البطل المغوار ، ويقف منه ذلك الموقف المريب الواهن ، عند مجلس الاحتضار : حين ما يسلم الشيخ روحه الطاهر ، وقد قرّت منه العين ، وارتاح الضمير ، بنصره رسالة السماء .

ولم يكن ليبالي بما لقيه مِنْ ظلم التأريخ الشنيع ، الذي لم يحفل بذكره إلا لِماماً ــ والأغراض مليئةٌ بتلك الإلمامة ، مِنَ الذكر المبتور... فتتناسى

أعماله الجسام ، ودفاعه الحميد ، ومواقفه الصلاب : منافحاً عنِ العقيدة ، ممكّناً لها مِنَ الأفئدة ، رافعاً لها في البناء ، مشيداً بها في الذكر ، يتغنّى برسالة الإله ، ويفتخر بمآثر رسول الإنسانية !.

والتأريخ ، وإن ذكر له بعض شيءٍ مِنْ هذا ،إلّا أنه — في كثيرٍ مِنَ الأحايين — لا يلبث أن يناقض نفسه ، فينقض ما أبرم ،حين ما يذكر : أن بينه وبين هذا البطل ، شيئاً في النفس — فهو أبو عليّ!... فيعوجّ منه السير ، وتلتوي الطرق ، ويحيد عنِ الصراط المستقيم ، لحاجةٍ في نفسه ، يريد أن يقضيها — إن لم يكن قد قضاها...!

ولكن السحاب ، مهما تراكم ، واربدّ منه الوجه ، فإنه وإن حجب مِنَ الشمس وجهها النيّر ، فلن تعدم الشمس فرجةً ، تطلّ منها بالشعاع المؤنس الماتع ، وليس لظلامٍ أن تنتشر منه الرقعة ، وهي في السماء تسير...!

لذا... فانك واجدٌ — على الرغم مِنْ موقف التأريخ الشائن — مِنْ تأريخ هذا الرجل المظلوم : ما يجلو حياته ، على : نقاء صفحةٍ ، ولمعان سطرٍ ، وإشراق حرفٍ .

* *

لقد ظننت — بادىء الأمر — أن المهمة ثقيلة المحمل ، بهيظة العبء ، لمّا رأيت قلّة المصادر — أو بالأصح : لمّا رأيت الموقف المخزي الشائن !.

ولكني لم أكد أسير في طريقي خطواتٍ — وإذا بي ، أمام وفرةٍ مِنْ تأريخ هذا الرجل ، جمعتها مِنْ أشتات الكتب ، التي يعوّل عليها الكاتب الثبت ، الناشد الحق ، لوجه الحق وحده !.

حين ذاك قلتُ : لن يعدم الحق ناصراً ... ولن تبقى قولة الزور !، فما لها سوى العمر ، القصير الأمد — وإن الله متمّ نوره ، ولو كره الكافرون .

وان السحابة ، وإن طال بها البقاء ، فإن عاصفة لابدّ وأن تمزق منها

الصفحة .

وإن السماء ، وإن اكتست بالسحب الثقال ، وتلبّدت بالغمام الأدكن ، فلابدّ وأن يعرف الصحو إليها السبيل .

* *

وما توفيقي إلّا بالله ؛ عليه توكّلتُ وإليه أُنيب !.

الجزء الأول

في مدارج الحياة

بيت

في وسطٍ مظلمٍ ، وبيئةٍ جاهليةٍ ، قد تردّت في حمأة الخمول والجهل ، مِنْ حيث النظرة الدينيّة ، فتعدّدت فيها الأصنام والأوثان ... فلكلِّ قبيلةٍ أربابٌ ، ولكلّ بيتٍ آلهةٌ !؟ بل ولكلِّ شخصٍ ربٌّ ، ليس يُشاركه فيه ثانٍ ...

في ذلك الوسط ، وتلك البيئة ، حيث الشعور الهامد، والإحساس المفقود ، والعيون المغمضة عن كلّ ما حولها ، مِنْ آياتٍ ، تدلُّ على إلهٍ واحدٍ وعلاماتٍ تنبيءُ عن ربٍّ فردٍ ، ليس في ملكه مِنْ شريكٍ ...

في ذلك الوسط ، الذي اجتاحته هذه العاصفة المرعبة ، فأبدلت الدِّين السماويّ ، وملّة إبراهيم الحنيف ، إلى عبادة أحجارٍ وأخشابٍ ، لا تسمع ولا تعي ، لا تنفع ولا تضرُّ ، ينحتها الإنسان بيده ، ويُزخرفها بألوانه ، لتكون إلهه المعبود ، أو شفيعه الذي يقرِّبه مِنَ الله زلفى !.

في ذلك الوسط، والليل جاثمٌ عليه بسحابته السوداء ، الزاحمة الظلمة... ومِنْ بين تلك الأكداس البشرية ، المغمضة العين ، المقفلة القلب ، الخامدة الإحساس ، المتردّية في عميق الظلمة، وهوّة العماية .

مِنْ بين هذا وذاك ... قد يشذُّ مِنْ بينهم رجلٌ ــ وهو نسبة الواحد إلى الآلاف ــ أو بيتٌ، وهو نسبة الواحد إلى الملايين ...!

مِنْ بين هذا وذاك ... ومِنْ بين تلك الأكداس البشرية المزدحمة ، قد يشذ واحدٌ، فيرى بعينٍ جديدةٍ ، وقلبٍ متفتحٍ : ذبالة نورٍ ... فيفرُّ إليها ليقتبس منها إشعاعةً ، فيستنير بها في الطريق المظلم . ويقرأ في الكتب

السماوية ، فيقرُّ منه القلب بعد طول وجيب ، ويدغدغه الحلم والرجاء ، فيرتاح منه الضمير ، وقد اطمأن ، بعد طول تشكيكٍ ، حيث طاف بمرحلةٍ حرجةٍ ، هي أشد مراحل الانتقال والتطوُّر ، وما يرافقهما مِنْ أتعابٍ ومخاوفَ...!

يقرأُ في تلك الكتب ، فيراها تبشّر برسولٍ ، ويرى الطبيعة تبشّر برسولٍ ، ويرى كلَّ شيءٍ حوله ، يدعو بضرورة وجود ذلك الرسول ، وإن كلَّ شيءٍ حوله ينذر بقرب عصره المأمول .

ويرى في الكتب ما يحدِّد أُرض ذلك النبيّ المنتظر — وهل مِنْ غير مكة ينبثق ذلك النور البهيّ ؟ — فيرقص القلب جذلاً ، وتنتشي النفس سكراً ، وهو يأمل أن يكون أحد مَنْ يقتبس مِنْ ذلك الشعاع النيِّر ، ويحامي عن ذلك الضوء الهادي ...

ومِنْ بين هذا وذاك... ومِنْ بين تلك البيوت المتراصة ، والتي لم يكد يخلو منها بيتٌ واحدٌ ، إلّا وقد حلّ في الركن منه قطعــةٌ مِنْ حجرٍ أو خشبٍ ، إليها يسجد كلُّ مَنْ في البيت ، ويتجهون لها بكلّ قلوبهم صاغرين متضرعين ... هي آخر «مَنْ» و «ما» يدعون . وأوّل «مَنْ» و «ما» يستقبلون ، إن دعا لسفر أحدهم أمرٌ ذو شأنٍ . ومِنْ هذا الربّ الجائم ، الذي تستوعبه العين ، وتحوطه اليد ، يرجون المعونة ويستمدّون التوفيق . فتنبسط الأيدي راجيــةً ، الأيدي التي خلقت هذا الإله الأصم امتــدّت تدعوه وترجوه ، ثم هي تخافه وتخشاه...! وهذا هو غايــة الانحطاط الفكري ، والإسفاف بالمستوى الإنساني ، والكفر بالعقل البشري الخلّاق !.

مِنْ بين تلك البيوت : بيتٌ واحدٌ ، لم يمتدَّ له مِنْ هذا الظلام الفاحم ، حتى خيط ، والمصباح الذي أشعله الخليل ، لا يزال على وقيد ، لم تعصف به العواصف ، ولم يجتحه إعصارٌ مهما اشتدَّ وصلُب ! فهو عميق الإيمان ، لم يفارق الحنيفية البيضاء ، ولم يخالجه الشك في ما جاءت به ملّة إبراهيم ،

ولم تزعزعه الريبة في صدق دعوته ، التي وحّد فيها الرب الأعظم .

وما هذا البيت ، الذي يشدُّه بالخليل سببان : سبب النسل والأبوّة ، وسبب الدين والوحدانية لإلهٍ واحدٍ ... ليس هذا البيت ، سوى امتدادٍ لدعوةٍ مِنَ الخليل ، أجابه بها الرب العظيم .

في هذا البيت ، الضارب الجذر بالإيمان ، والرسيخ القدم في العقيدة الحقة ، الذي لم تدنّسه الجاهلية بأوضارها ، ولم ينله الشرك بخزيه .

في هذا البيت الكريم ، فتح أبو طالبٍ عينيه ، ودرج في الحياة ، فرأى في هذا البيت حياةً ، غير الحياة التي يراها بين الناس ، وعاش عيشةً ، غير التي يعيشها الناس .

ورأى في عميد البيت — أبيه عبد المطلب — رجلاً ، ليس كالرجال ، الذين يرى فيهم تلك الكثرة ، فلا يرى منهم سوى هيكلٍ مِنَ الجلد والعظم ، أو دميةٍ لا تحمل ذرةً مِنْ عقلٍ ، وإن أغرقتِ العين ببريقها الفارغ... فيفتح عينيه ، كما قدّر لدعبل ، مِنْ بعده ، أن يفتحها ، وصاح صيحته :

إني لأفتح عيني ، حــين أفتحها   على «كثير» ولكن لا أرى «أحداً»!

رأى في أبيه عبد المطلب : ذلك الزعيم المطاع ، والرجل المهوب ، يقول فينفذ القول ، ويحكم فلا يردُّ الحكم ، وهو الجواد المعطاء ، والسخيُّ الفذ ، يطعم فينال مِنَ الطعام راكب البعير ، وهو على ظهر بعيره ، ويرفع من مائدته على قمم الجبال ، لتنال مِنْ طعامه طيور الفضاء ، ووحوش الصحارى... حتى لقب بالفيّاض ، ومطعم طير السماء .

وإنه ليراه مجاب الدعوة ، يدعو الله ، فتلبّى دعوته... فهو مرضيٌّ عنه في السماء ، ومحمودٌ في الأرض ، فدُعي « شيبة الحمد » .

وإنه ليرى فيه صفاتٍ ، لم تكن في غيره ، مِنْ هذه الأكداس البشرية ، وهو الذي يسنُّ سنناً ، ليست سوى الدليل على رفعة النفس ، ونقاء السريرة ،

وعمق الإيمان ، بحيث تنهض بالبرهان على بقاء الحنيفية ، التي جاء بها أبوه إبراهيم (ع)؛ فإنه ليحرّم الخمر على نفسه ؛ ويحرّم نكاح المحارم ؛ ويحدّد الطواف بالبيت سبع مرّاتٍ ، بعد أن كان غير محدودٍ ؛ وينهى أن يطوف عارٍ بالبيت ؛ ويقطع يد السارق ؛ ويحرّم الزنا ؛ وينهى عن الموؤدة ؛ وأن يستقسم بالأزلام ؛ وأن يؤكل ما ذبح على النصب ؛ ويسنّ الوفاء بالنذر(١) .

ويجيء الإسلام ، فيقرّ كلّ هذه السنن ، التي سنّها عبدالمطلب .

نادم حرب بن أُمية بن عبد شمس — والد أبي سفيان — وكان أحد اليهود في جوار عبدالمطلب ، فأغلظ هذا اليهوديّ لحرب في المقال ، في أحد أسواق تهامة ، وثارت حفيظة ابن أُمية — والغدر له وراثةٌ مِنَ الجد عبد شمس ، وهي ميزةٌ لهذا الفخذ ، وإحدى طباعه المتأصلة الجذر — فلم يلبث أن أغرى على اليهوديّ مَنْ قتله !.

ولا يعرف عبدالمطلب غدرة حرب ، حتى يهجره ، فلن ترضى نفسه بنديمٍ غدّار . ولم يدع حرباً يذهب كأنْ لم يجنِ شيئاً ، فأجبره على إعطاء مئة ناقةٍ ، لابن عم اليهوديّ — دية الدم المطلول (٢) .

---

(١) السيرة الحلبية ٥ : ١، والنبوية ٢١ : ١، والبحار ٣٨ : ٦، والعباس ١٧، وينابيع المودة ٩٠ : ٢ .

(٢) السيرة الحلبية ص٤ ج١ . ويذكر ابن الأثير — في تأريخه ص٩ . ٢ — لهذه الحادثة ، صورةً غير هذه . ويعزو قتل اليهودي ، إلى أنه تاجرٌ ذو مالٍ وفيرٍ ، مما أغاظ حرباً ، وأثار كوامن حسده ، ورواسب نفسه ، فدفع إليه مَنْ قتله ، وأخذ ماله... ثم يزيد عليها : إنهما تنافرا إلى النجاشي ملك الحبشة ، فأبى أن يدخل بينهما ، فحكم بينهما نفيل بن عبدالعزى العدوي — جد عمر بن الخطاب — فقال ، لحرب :

[يا أبا عمرو ! أتنافر رجلاً هو أُطول منك قامةً ، وأوسم وسامةً، ←

وهو — إلى كلّ هذا — يرفض أن يخفض الهام ، ليسجد لصنمٍ ، فيعبد حجرةً صماء ، أو خشبةً باليةً — وهو ذو العقل الرجيح ، والذكاء الوقّاد(١) .

وهو أوّل مَنْ تحنّث بغار حراء ، فكان إذا أهل شهر رمضان ، صعد الجبل ، فتعبّد فيه ليالي - ذوات عدد - يُمعن الفكر في جلال الله وعظمته .

* *

وإن أبا طالبٍ ، ليرى أباه ، يوم جاء أبرهة للكعبة ، فصُودرت لعبدالمطلب أنعامٌ ، فراح يطلبها منه . وكاد يصغر في عينيه ، حيث لم يعرض لأقدس المقدسات لديه — الكعبة — وقد جاء ليهدمها ... فما كان إلّا أن أجابه ، بجواب المؤمنِ ، الوطيد الرجاء بالله ، العميق الثبات والإيمان :

« أنا ربُّ الابل . وللبيت ربٌّ يحميه ! » .

وعاد فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وناجى الإلّه ، مناجاة موحّدٍ مؤمنٍ :

يا ربّ ! لا أرجو لهمْ سواكا   يا ربّ ! فامنَعْ منهمُ حماكا

← وأعظم منك هامةً ، وأقلّ منك ملامةً ، وأكثر منك ولداً ، وأجزل منك صفداً — « أي : أكثر منك عطاء» وأطول منك لدداً] — الخ .

وأُشير إليها في حليف مخزوم ص٢٧ — في حادثةٍ تختلف خطوطها الأوليّة عن هذه — كما أُشير للمنافرة في البيان والتبيين ٢٩٣ : ١ .

(١) يقول ابن أبي الحديد — في شرحه ٣٩ : ١ — عند عرضه للأمة التي بعث الله فيها محمداً « ص » :

« فأما الذين ليسوا بمعطلةٍ مِنَ العرب ، فالقليل منهم ، وهم المتألهون أصحاب الورع والتحرّج عن القبائح ، كعبدالله ، وعبدالمطلب ، وابنه أبي طالب » — الخ .

إنَّ عـدوَّ البيتِ مَنْ عـاداكَا　　امنعهمُ أنْ يخربُوا فِنـاكَا[1]

ثم قال — مرةً أخرى — بلهجة المطمئن ، العارف بالنتيجة :

... لا هُمَّ إنَّ العبدَ يمنعُ رحلَـهُ ، فامنـعْ حلالَكْ
لا يغلبنَّ صليبُهم ومِحـالُهُم — عـدْواً — مِحـالَكْ
ولئنْ فعلتَ، فـإنَّه　　أمرٌ تتمُّ به فعـالُكْ
انتَ الـذي إنْ جـاء بـاغٍ، نرتجيـكَ لهُ، فذلِكْ
ولَّوْا ولم يحوُوا سوى　　خزيٍ، وتهلكُهُمْ هنالِكْ
لمْ أسـتمعْ يومـاً بأرجسَ منهُمُ يبغُوا قتـالَكْ
جرُّوا جموعَ بـلادِهِمْ　　والفيلَ كي يسْبُوا عيالَكْ
عَمَدُوا حماكَ بكيـدِهِمْ　　جهلاً، وما رقبُوا جلالَكْ
إنْ كنتَ تـاركَهُمْ　　وكعبتَنَا فأمرٌ مَّا بَدَا لكْ

ثم عقَّب بقوله :

يا معشر قريش !، لا يصل[2] إلى هدْم هذا البيت ، فإن له ربّاً يحميه ويحفظه !.

ثم يدعو الله ، وإذا بالطير « الأبابيل » ، تحلّق في السماء ، طائراتٍ صامتةً ، لتقذفهم بحجارةٍ ، هي أسرع فتكاً مِنَ القنـابل الذرية ، وهي لا تتعدّى المجرمَ في إصابتها ، ولا تنال البريءَ بسوءٍ ، كما تُفني القنابلُ الأممَ

---

(1) الكامل لابن الاثير ٢٦١ : ١، والبحار ٢٣ : ٦، ومروج الذهب ٢٦،١٢٨، وفيه: « قراكا »، بدلاً مِنْ « فناكا » .

(1) الكامل ص ٢٦١، و ٢٦٢ : ١، والبحار ٢٣ : ٦

(2) كذلك وجدناها . ولعلَّ فاعل « يصل » ضميرٌ ، يعود لأبرهة .

البريئة ، وتقضي على الحياة العامرة ... فهذه صنْع الإنسان، وتلك صنْع خالقه !.

* *

وإن أبا طالب ، ليسمع أباه في نجواه ، وقد ضُربتِ القداح عليه ، وعلى إخوته التسعة ، ليبرَّ عبدالمطلب بنذره ، ويفي به ، وقـد أجاب الله دعوته ، فرزقه عشرةً مِنَ الولد .

يـا ربِّ ! أنتَ الملـكُ المحمـودُ
وأنتَ — ربِّـي ! — الملـكُ المعبـودُ
مِنْ عنـدكَ الطـارفُ والتليـدُ[1]

وإنه ليأخذ مكانه — مِنْ بين إخوته — وعبدالمطلب يلقي عليهم دروسه القيمة ، ويأمرهم بالأوامر الإلٓهية... فينهاهم عن دنيّات الأمور ، ويأمرهم بترك الظلم والبغي ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ... ويحذّرهم يوماً ، يلقى فيـه كلٌّ جزاءه ، حيث لا يقـدم إلَّا على ما عمل... فكثيراً ما كان يسـمع منه مثل قوله :

« لن يخرج مِنَ الدنيا ظلومٌ ، حتى يُنتقم منه ، وتصيبه عقوبةٌ ! » .

وما إن هلك رجلٌ ظلومٌ) — مِنْ أهل الشام دون أن يمسّه في هـذه الدار ، أيُّ سوءٍ ، حتى جاءه مَنْ يتحدّاه ، فإذا به يجيب :

[والله إن وراء هذه الدار داراً ، يُجزى فيها المحسنُ بإحسانه ، ويُعاقب المسيءُ بإساءته][2] .

* *

---

(1) السيرة النبوية ص ٦٦ ج١.

(2) النبوية ٢١ : ٢، والحلبية ٤ : ١، والعباس ١٧، والغدير ٣٥٢ : ٧ .

وهذا أبوه عبدالمطلب ، يستقبل مولوداً لابنه عبدالله ــ ذلك المولود الذي ينتظره الكون ، وينادي به ، ليستقبل إشراقة نوره الوضّاح ــ فلم يكدِ الوليد يستقبل الكون ، حتى يبشَّر بذلك الجدُّ ، فيدخل على أمه ، لتُحدِّثه بما رأت ، حين ألقت ما في بطنها ، وكلُّه سمعٌ مرهفٌ لهذا الحديث العذب ... ثم يأخذ الطفل ، ويمضي به للكعبة ليدعو الله ، ويشكره على هذا الفضل الشامل :

الحمدُ للهِ الذي أعطاني — هذا الغلامَ ، الطيّبَ الأردانِ
قدْ سادَ في المهدِ على الغلمانِ — أُعيذُهُ باللهِ ذي الأركانِ
حتّى أراهُ بالغَ البنيانِ — أُعيذُهُ مِنْ شرِّ ذي شنآنِ
مِنْ حاسدٍ مضطربِ العنانِ(1)

وإن عبد المطلب ليولي هذا اليتيم عنايةً ، ويبذل في رعايته أقصى جهده ، وينظر إليه نظرةً عميقةً ، تخترق المستقبل ، وترى مكان هذا اليتيم منه ، وقد دانت له الأرض ــ مِنْ غربها إلى شرقها ــ وخضعت لعظمته الهام ، وخفقت بحبه القلوب ، ودانت لعظمة دعوته ، ولهجت بذكره الألسن ، وردّدت عاطر الثناء ، وآيات الإكبار .

فعبدالمطلب ــ وهو الزعيم المهيب ، والمعظَّم في قريشٍ ، والمطاع بين العرب ــ يُفرش له حول الكعبة ، فتحفُّ حوله رؤساء قريشٍ ، دون أن يستطيع واحدٌ منهم : أن يطأ مِنْ فراش عبدالمطلب طرفَه ــ بله الجلوسَ وإيّاه عليه !.

ولكن هذا الطفل اليتيم ، يجيء ــ بروحه الطموح ، ونفسه الوثوب ــ

(1) أعيان الشيعة ٦ ، ٧٩ : ٢ ؛ وذُكر البيتان الأوّلان ، بإبدال «بالبيت» عن « بالله » في مروج الذهب ٢٨١ : ٢ . وذُكر البيت الأول وصدر الثاني في البحار ٧٩ : ٦ ، وكاملةً ، مع اختلافٍ في بعض الكلمات ، في البحار ــ أيضاً ــ ٩١/٦ .

فيتخطى الناس ، ليجلس بجانب جدِّه ، ولربما سبقه ، فيجلس محله ، فإذا جاء جده وأرادوا أن يبعدوه عن محلّه ، فعبدالمطلب ذلك الزجّار لِمَنْ شاء أن يتجرأ ، فيتنحي هذا الطفل العظيم !. ويقول مرةً :

ــ دعوه ! إن له شأناً !.

ويجلسه إلى جانبه ، وهو يربّت على ظهره ، وقد بدت على وجهه بشائر الفرح ، وعلامات الرضا والسرور ، فلن يخيب فيه الرجاء الخميل ، والأمل الخضل !.

ومرّةً أخرى ، يقول لِمَنْ شاء ، أن يمنع محمداً عن فراش جده :
ــ دعوا ابني يجلس ، فإنه يحسُّ مِنْ نفسه بشيءٍ ! وأرجو أن يبلغ مِنَ الشرف ، ما لم يبلغه عربيٌّ ، قبله ، ولا بعده !.
ومرّةً ثالثةً يقول :

ــ ردّوا ابني إلى مجلسي ! فإنه تحدِّثه نفسه بملكٍ عظيمٍ ، وسيكون له « شأنٌ ! »(1) .

وإنه ليخصُّ ــ تارةً ــ أبا طالبٍ بالتوصية به :
ــ يا أبا طالب ! إن لهذا الغلام لشأناً عظيماً ! فاحفظه واستمسك به ، فإنه فردٌ وحيدٌ ! ، وكن له كالأم ، لا يصل إليه شيءٌ يكرهه !(2) .

وما كان عبد المطلب ، بالذي يتكلَّم جزافاً ! فما هو مِمَّنْ يُرسل الكلام على عواهنه ، ويهرف بما لا يعرف !.

إنه ليعرف بأن لحفيده « لشأناً » ــ وأيَّ شأنٍ !.

(1) السيرة الحلبية ١٢٩ : ١ ، والنبوية ٢٣ : ١ ، والهشامية ١٧٨ : ١ ، والبحار ٤٢ : ٦ ، والعباس ١٨ ، وعلى هامش السيرة ١٨٥ : ١ .

(2) المجالس السنية ٣٦ : ٤ .

وإن الأدلة عليه ، لعلى وفر... فإن دليلاً واحداً — مِنْ بين ألف دليلٍ ودليلٍ — ليؤكّد ما يراه ببصيرته النافذة ، وقد كثُرتِ الأدلة ، وتوفّرتِ العلامات ، حتى أصبح لديه سيلٌ مِنْ هذه وتلك ...ولا يعترضه فيها شكٌّ، ولا ريبٌ...!

وما حياته هو ، وسيرته البيضاء ، سوى واحدٍ مِنْ تلك الأدلة ، على هذا « الشأن » ، الذي يراه لحفيده ، فهو مقدّمة تشير وتبشر بالنتيجة ...

وإنه لعلى يقينٍ، ممّا ذهب اليه ، مِنْ حقٍّ جليٍّ، ومِنْ واقعٍ رهينٍ... فإن كلّ ما حوله ليصدقه ، وكلّ ظاهرةٍ تعمّق منه الإيمان — وإن لم يكن منها ، إلّا ذلك المطمئن العميق .

هؤلاء قومٌ مِنْ بني مدلج ، وهمُ القافة[1] ، العارفون بالآثار والعلامات— يقولون له :

«احتفظ بمحمدٍ ، فإنا لم نرَ قدماً أشبه بالقدم التي في المقام ، منه »[2] .

وهذا سيف بن ذي يزن الحميري،وقد ولي الحبشة ، بعدما وُلد الرسول بعامين ، فراحتِ العرب تفد عليه ، تهنئه باسترجاعه ملك آبائه ، إذِ استنقذ ملك اليمن مِنَ « الحبشة » ... وكان في الطليعة : وفد قريشٍ . وفي طليعة الطليعة : زعيمها « عبدالمطلب » .

وإذ وقف عبدالمطلب — أمام سيف — وألقى كلمةً ، هي آية في

(١) القافة : العارفون بالآثار . والقيافة : تتبّع الآثار .
(٢) يريدون بالقدم قدم إبراهيم الخليل (عليه السلام) .
ارجع للحادثة إلى السيرة الحلبية ١٣٩ : ١ . وذكرت في كلٍّ مِنَ : البحار ٤٨ : ٦، وتذكرة الخواص ٨، وأعيان ١٠ : ٢ بزيادة :
«إن عبدالمطلب ، قال لأبي طالبٍ : اسمع ما يقولون » .

البلاغة والفصاحة ، مما أرغمت هذا « السيف » على الانحناء ، أمام هذه العظمة الفذة ، والشخصية الكبيرة ، والزعيم المبجّل ... فرحّب بهم ، وحلّوا منه محل الضيوف الكرام ...

وشاء أن يطول منهم أمد البقاء لديه ، حتى مضى شهرٌ ، وهم في ضيافته ... وإذ ذاك أدنى إليه عبدالمطلب ، ليلقي إليه بسرٍّ خطيرٍ — ظنّاً منه بأن عبدالمطلب ، لم يكن به ذلك الخبير — ويلقي إليه بنبأٍ مشرق الحواشي ، يحمل — بين أطرافه — « شرف الحياة،وفضيلة الوفاة »،للوجود بأجمعه ... وإن لعبدالمطلب منه ، للحصة الفضلى ، والنصيب الأوفر :

« إذا ولد بتهامة ، غلامٌ بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة ، إلى يوم القيامة » .

ثم يعقّب بعد قولةٍ لعبد المطلب :

« اسمه محمد . يموت أبوه وأمه ، يكفله جدّه وعمّه»[1] .

ولا يلبث أن يكشف الستر ، ويلقي ببقايا السرّ الكمين :

« والبيت ذي الحجب ، والعلامات على النُّقب[2] . إنك لجده — يا عبد المطلب ! — غير كذب »[3] .

وإذ ذاك يخرُّ عبد المطلب ، ساجداً لربه ، يناجيه بكلمات الشكر ، على هذه النعمة الفضلى ، ويرفع رأسه مثلج الصدر ، باسم الثغر ، ويقصُّ على الملك طرفاً مِنْ حياة هذا النبي العظيم ، حتى يقول :

(١) ذُكرت هذه الجملة ، في الاستيعاب — ص ١٤ ج١ — وقد أشار لهذه القصة ، إشارةً مِنْ بعيدٍ .
(٢) النُّقب — بضم نونه — الطريق في الجبل .
(٣) أُشير لها — مِنَ الشاطيء البعيد — في أعيان الشيعة ٩ : ٢ .

« مات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه »(١) .

تلك دلالاتٌ يراها ، إلى جانب دلالاتٍ أخرى ، تزخر بها حياة حفيده ، ويراها متكرِّرةً وفيرةً . وإن واحدةً منها ــ حتى لو لم تكن لها ثانيةٌ ــ لكفيلةٌ بقيام البرهان نصيعاً ، والحجة دامغةً ، على أن حفيده محمداً ، هو ذلك النبيُّ المنتظر ، الذي قرأه في الكتُب المنزلة مِنَ الحق ، على لسان رسله .

فكيف بها دلائلُ كثار ، تضاعف لديه ، وتضاعف ، وتزدحم وتكثر ــ وفي كلِّ يومٍ دليلٌ نابضٌ ملحٌّ ؟ .

تمرُّ سنون « جداب »(٢) ، وقد انقطع فيها الغيث ، وضحل المـــاء ، فيبس مِنَ الحشيش ما كان على اخضرار ، وجفَّ مِنَ الضرع ما كان ذلك الدرور . فكانتِ الحياة ــ لديهم ــ تلك الخشنة الملمس ، الجافية الحواشي ، الجهمة الطلعة ، فاسودَّت منهمُ النظرة ، وكساهمُ الوجد والأسى ، والرعب والخوف . غلالةً صفراء على اسودادٍ ، تعلو الوجوه ، وتكسو الأجسام...

وليس ــ ثمة ــ مِنْ شفيعٍ ، إليه يضرعون ، سوى عبد المطلب . فبروحيته يدعونه ، ليتقدَّم إلى ربه ، فتجود عليهمُ السماء بالقطر ، وتعود لهم الحياة كما كانت مِنْ قبل... وإنه للمشفَّع عند ربه ، فليرحم هذه النفوس ، وقد أشرفت على الموت ، بعد ضياع الأموال ، وموات الأنعام .

وقد دلَّتهم على هذا الوجيه عند الله ، والوسيط الذي لا تُردُّ له وساطةٌ ...

(١) شئنا الاقتضاب في تسجيل هذه الحادثة . ومَنْ شاءها في شيءٍ مِنْ تفصيلٍ ، فليرجع للسيرة الحلبية ١٣٥ــ١٣٧/(١ والنبوية ٦٦ــ٦٨ و٧٩ : ١ والبحار ٢٨ : ٦ .

(٢) لم نجد ــ في اللغة ــ صورةً لهذا الجمع .

دلَّتهم عليه رؤيا في المنام ، بصفاتٍ كريمةٍ ، وأوصافٍ رقاق(١) .

يا لجلال الموقف ! ويا لروحيته ! .

ها هو ذا عبدالمطلب ، تحفُّ به هالةٌ مِنَ الأشبال ، وجمعٌ مِنْ بطون مكة ، يفوح مِنْ بينهم عبَق الطيب ، وذكيُّ العرْف ، فيستلمون الركن ــ في طريقهم لقمة أبي قبيس ــ وقد أخذ حفيده محمداً ــ فندَّت شفتاه بدعواتٍ ، انبعثت مِنْ قلبٍ يسيل رقَّةً ، ويطفح إيماناً :

[لا هُمَّ هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك ، وإماؤك وبنو إمائك ، وقد نزل بنا ما ترى ، وتتابعت علينا هذه السنون ، فذهبت بالظلف والخفِّ والحافر ، فأشفت على الأنفس..فأذهب عنا الجدب ، وائتنا بالحياء والخصب](٢) .

يا للدعوة المؤمنة ، تصعد للسماء ، فلا يحجبها شيءٌ... ويا للدعوة المؤمنة ، يسمعها الرب الرحيم ، فيجيب النداء ! .

فلم يبرحوا الجبل ، إلَّا والسماء متراكمة السحب ، تحمل « الخصب » ، وتغدق « الحياء » وتطرد « الجدب » المقحل ، وتنهمر السماء مدراراً ، وتجود السحب بالفيض ، وتسيل الأودية « خصباً » و « حياءً » ... وتفترُّ ملء الشفاه بسماتٌ ، وترتاح قلوبٌ ، وتشعُّ عيون فرحى... وتقطِّب وجوهٌ ، وتتلوَّى شفاهٌ ، وتشمئز قلوبٌ ، ويتطاير ــ مِنْ عيونٍ ــ شررُ حقود ...

غير أن هذه السبيل عليها مقطوعٌ !. أما تلك فالمجال ــ لها ــ فسيحٌ ، على اتساع مدىً... !

ولا يكاد الركب يشارف مكة ، وإذا بصوتٍ رقيقٍ ينبعث مِنْ أحـــد بيوت مكة ، ويبعث لحنـــاً عذباً ، صافي النبرة ، رائع الوقـــع... فهـــذه

(١) ارجع لمعرفة الرؤيا ، للسيرة الحلبية : ١٣١ ــ ١٣٣ ج١ ، ولشـــرح النهج : ٢٥٥/٢ .

(٢) الحياء ــ هنا ــ بمعنى المطر . وتأتي بمعنى الخصب والنبات .

« رقيقة » بنت أبي صيفي بن هاشم ، ينطلق لسانها بشعرٍ ، يعبِّر عن مدى الفرحة ،وتهزج بلسانٍ حلو :

بشيبةِ الحمدِ أسقى اللهُ بلدتَنَا — وقدْ عدمنَا الحيَا ، واجلَّوذَ المطرُ[1]
فجادَ بالماءِ جَوْنيٌّ لهُ سَبَلٌ — دانٍ ، فعاشتْ بهِ الأنعامُ والشجرُ[2]
مَنًّا مِنَ اللهِ بالميمونِ طائرُهُ — وخيرِ مَنْ بشَّرتْ ـ يوماً ـ بهِ مُضَرُ
مباركُ الاسمِ ،يُستسقى الغمامُ بهِ — مَا فيْ الأنامِ لهْ عدلٌ ، ولَا خطرُ[3]

وإذِ انهطل المطر ، وسالت به الأودية ، فأنبتت المراعي الخصاب ، لم يكن لبلاد قيس ومضر ـ مِنْ ذلك ـ نصيبٌ ، فلم تمرَّ بهمُ السحب المغدقة ، التي تحمل « الحيا » فيسيل خصباً ونماء ...

وإذ ذاك اجتمع عظماؤهم ، يتبادلون الآراء ، فوحَّدوا الرأي ـ ولم يجدوا غيره ـ أن يفزعوا لعبد المطلب ، هذا الذي سقى الله على يديه مكة ، مِنَ

---

(١) اجلوذ المطر : طال تأخر هطوله .

(٢) الجون : ضدٌّ ، يُطلق على : الأبيض والأسود ، وألوانٍ أخر مضادَّة. والجُوْنيُّ ـ بواوٍ مضمومٍ ما قبلها ـ ضربٌ مِنَ القطا ، سود البطون والأجنحة.

وعلى أيِّ معنًى ، فالكلمة ـ هنا ـ على سبيل الكناية ، يُراد منها : وفرة المطر ، وكثرة انهماره .

ويُوضح هذا كلمتا : « له سَبَلٌ » ـ بفتح السين والباء ـ أي : انهمارٌ ، وهطولٌ منصبٌّ .

(٣) السيرة الحلبية ١٣٣ : ١ ، والنبوية ٦٤/١ ، والبحار ١٢٧ ، ١٢٨ ج٦ ، وشرح النهج ٢٥٥ : ٢ ، وفيه البيتان الأوَّلان فقط ، واختلافٌ في دعاء عبدالمطلب عن هذه الصورة .

الأرض والسماء ، فلم تبخل عليه تلك ، ولا هذه[1] . وليس الله براد دعوةً ، تنبعث مِنْ قلب هذا الشيخ الكبير ، وله عند ربه المكان العليُّ . فقالوا :

ـ لقد أصبحنا في جهدٍ وجدبٍ . وقد سقى الله الناسَ بعبدالمطلب فاقصدوه ، لعلَّه يسأل الله تعالى فيكم .

وإذ وصلوا مكة ، فدخلوا عليه ، رحَّب بهم ، وقام خطيبهم ، لينهي لعبد المطلب حاجتهم ، وما في الوقت متسعٌ لتأجيلٍ ، وكلُّ يومٍ يحمل بين ساعاته ، لهيب اللفحة ، ورائحة الموت :

[قد أصابتنا سنون مجدباتٌ ، وقد بان لنا أثرك ، وصحَّ عندنا خبرك ، فاشفع لنا عند مَنْ شفَّعك ، وأجرى الغمام لك] .

وفي اليوم التالي ، كان عبدالمطلب عند وعده لهم... وها هو ذا في « عرفات » والناس ، وولده حوله ـ وبينهمُ الحفيد الحبيب ، محمَّدٌ اليتيم ـ وقد ألَّفوا هالةً ، يشعُّ منها سنىً ، ويعلوها جلالٌ . فأخذ مكانه مِنْ كرسيه ، وفي حجره حفيده الكريم ، فيرفع يديه نحو السماء ، وينبر بصوتٍ خاشعٍ ، ويرمق

---

(١) إشارةً إلى ما أمر به مِنْ حفر زمزم... وإلى الماء النابع مِنْ تحت خف فرسه ، وهو في طريقه إلى محاكمة قريشٍ ـ بعد حفره زمزم ـ وقد أشرف هو وأصحابه على الهلاك ، وصافحوا عزرائيل...! وأبى أُولئك « الكرام! » أن يجودوا عليهم برشفةٍ مِنْ مائهمُ الكثير ! ، فسقاه الله ربه ، وسقاهم مِنْ فيضه ، فرجعوا مذعنين له قبل أن يصلوا للتحكم ، وها هو ذا ربه قد حكم له !.

وكأن التأريخ يعيد نفسه ! ، فمنعُ الماء مِنْ جانب أُولئك اللئام ! والجود به مِنْ جانب هؤلاء الكرام ! ـ عادةٌ مكرورةٌ ، أو طبيعةٌ لأُولئك وهؤلاء ، لا يستطيعون لها فراقاً...!

فعليٌّ ومعاوية ! ، ثم مع الحسين يزيد ! ،

السماء بطرفٍ يشع إيماناً ، ويناجي ربه بقلبٍ ، يطفح بالعقيدة :
[اللهمَّ ربَّ البرق الخاطف ، والرعد القاصف ، ربَّ الأرباب ، وملين الصعاب !

هذه قيسٌ ومضر ، مِنْ خير البشر ، قد شعثت رؤوسها ، وحدبت ظهورها ، تشكو إليك شدَّة الهزال • وذهاب النفوس والأموال !.

اللهمَّ فأتح لهم سحاباً خوَّارة ، وسماءً خرَّارة ، لتضحك أرضهم ، ويزول ضرُّهم] •

وما كاد يبلغ مِنْ دعواته إلى هذا الحد ، وإذا بسحابةٍ دكناء ، قدِ انعقدت، وكان لها دويٌّ ، فقصدت نحوه ، وهي جواب دعوته ، لتأخذ طريقها نحو بلاد هؤلاء المجدبين ، ويحول الجدب إلى خصبٍ ، والمحل إلى نماءٍ زكيٍّ، ويصرفهم عبدالمطلب •

(يا معشر قيس ومضر ! انصرفوا ، فقد سقيتم)(١) •
وتنطلق حنجرة أبي طالبٍ ، مزغردةً :

أبونَا شفيعُ الناسِ حينَ سُقُوا بهِ ... مِنَ الغيث رجَّاسُ العشيرِ بكورُ(٢)
ونحنُ ــ سنينَ المحلِ ــ قامَ شفيعُنَا ... بمكةَ يدعوْ ، والمياهُ تغورُ •••
فلمْ تبرحِ الأقدامُ ، حتَّى رأوا بهَا ... سحاباتُ مزنٍ ، صوبهنَّ درورْ
وقيسٌ أتتنَا بعدَ أزمٍ وشدَّةٍ ... وقدْ عضَّهَا دهرٌ أكبُّ عثورْ
فما برِحُوْا حتَّى سقىْ اللهُ أرضَهُمْ ... بشيبةَ غيثاً ، فالنباتُ نضيرْ(٣)

☆ ☆

(١) السيرة الحلبية ص ١٣٣ / ١، والنبوية ٦٥ : ١ •
(٢) سحاب رجَّاس : شديد الهدير ، أوِ الصوت •
(٣) إثبات الوصية ص ٨٧ •

وتمضي حياة عبد المطلب : خضلة الحواشي ، مشرقة السنى ، وهَّاجة النور ، مليئةً بإرهاصات النبيِّ المنتظر ، الذي قرأه في الكتب السماوية ــ وهو بعدُ نورٌ في جبينه ••• ثم رآه ــ وإنه لِمَنْ صلبه ــ فكان له ذلك الحدب الشفيق ، والمربي الحنون •••

وإنه ليس ينسى هذا الذي استأثر بقلبه ، وآثره على بضعةٍ مِنْ ولده••• إنه ليس ينساه ، حتى في آخر لحظةٍ ، تختم به حياته المديدة ، التي بلغتِ المئة والعشرين ــ على قولٍ ــ ونيَّفت على الخمسة والثمانين ــ في قولٍ آخر •
إنه وهو يعالج سكرات الموت ، ليدير عينيه في ولده ، وقد حفُّوا به ، ليختار مِنْ بينهم مَنْ يلقي عليه مهمَّةً ، شغلت منه فكره••• وليست هذه بالمهمة اللينة ؟ فعليه : أنْ يحسن الاختيار ، ليغمض عينين قريرتين •

ويمتدُّ بصره ، ليلتقي بأبي طالب • فليس خيراً مِنْ هذا ، تلقى على كاهله هذه المهمة الشاقة ، وهو الذي شاركه في القيام بها ، منذ بزغ نور هذا السراج الساطع :

أوصيكَ ــ يا عبدَ منافٍ ! ــ بعدِيْ
بموحَدٍ ــ بعدَ أبيهِ ــ فردِ(١)

ويردف بقوله :
وصَّيتُ مَنْ كنَّيتُهُ بطالبِ ... عبدِ منافٍ ، وهوَ ذوْ تجاربِ(٢)

(١) ص ٧ قسم ١ ج٣ أعيان الشيعة ، وص ١٢٥ ج٣٩ منه ، في خمسة أبيات ، وعمدة الطالب ص ٦ ، بابدال « موحدٍ » بواحدٍ ، وللمناقب ٢١/١، والبحار ٤٧/٦ في ٥ أبيات • ومعجم القبور ١٨٣/١ •
(٢) في أعيان الشيعة ــ ص ١٢٥ : ٣٩ ــ جاء فيه : [كفيت] ، بدل كنَّيته • وعلَّق عليها سماحة المؤلف المقدَّس ، فقرَّبها بـ [كفلته] ، وهو لم يلتفت لذلك ، لأن الخطاب موجَّهٌ لأبي طالب ، وهو الذي كنَّاه ←

بابنِ الحبيبِ أكـرمِ الأُقاربِ   بابنِ الذيْ قدْ غابَ ، غيرَ آئبِ[1]

وتقع هذه الوصية ، مِنْ نفس أبي طالب ، مكانها العميق ، فيرضى بها :

لاَ تُوصِنِيْ بـلازمٍ وواجبِ   إِنِّيْ سـمعتُ أعجبَ العجائبِ
مِنْ كـلِّ حبرٍ عالمٍ وكـاتبِ   بأنَّ بحمدِ اللهِ قولُ الراهبِ[2]

ويعود عبدالمطلب للقول :

[انظر يا أبا طالبٍ ! ــ أن تكون حافظاً لهذا الوحيد ، الذي لم يشمَّ رائحة أبيه ، ولم يذق شفقة أُمِّه • انظر أن يكون ــ مِنْ جسدك ــ بمنزلة كبدك • فإني قد تركتُ بنيَّ كلّهم وخصصتك بـه ، لأنك مِنْ أُم أبيه[3] واعلم(٢) ، فإنِ استطعتَ أن تتبعه فافعل ، وانصره بلسانك ، ويدك ، ومالك • فإنه والله سيسودكم ، ويملك ما لا يملك أحدٌ مِنْ آبائي[4] • هل قبلتَ ؟]

فأجابه : « قد قبلتُ • والله على ذلك شاهدٌ ! » •

ومدَّ يده إليه ، فضرب بها على يد ابنه ــ أبي طالبٍ ــ وأُرسل كلمته المنبثقة مِنْ عميق قلبه ، وقدِ استراح مِنْ عناء هذه المهمة الثقيلة ، واستقبل الموت بطمأنينة ضميرٍ :

« الآن خفّف عليَّ الموت ! » •

وراح يغمره بفيضٍ مِنْ قبلات الحنان ، تحمل شفقة الوالد الحدب ، ويقول :

« أشهد أني لم أرَ أحداً ــ في ولدي ــ أطيب ريحاً منك ، ولا أحسن وجهاً »[1] •

← بهذه الكنية،ولم يُوصِ به مَنِ اسمه « طالب » ، على أنه يجب ــ حينئذٍ، على رأي سماحته ــ أن ينصب « طالباً » ، بعد حذف الباء منه ، فيكون « وصيّتُ مَنْ كفلته طالباً » لأن وصَّى المشدَّدة ، مِنَ الأفعال المتعدية لمفعولٍ واحدٍ بنفسها • ثم نحتار ، بعد ذلك ، باسم عبد مناف ، لأنه يكون عنـدنا حينئذٍ ، اسمان : طالب ، وعبد مناف ، في حين أنهما: اسمٌ وكنيةٌ •

(١) الأعيان ــ في جزئيه ــ والعباس ص ١٩ •
وذكر صدر البيت الأول في مروج الذهب ص ١٣٢ ج٢،وعجز الثـاني بإبدال « ليس بآئب » •
وذكر البيت الأول في عمدة الطالب ص ٦،ومعجم القبور ١٨٤/١ •

(٢) المناقب ص ٢١ ج١،والعباس ص ١٩،والأعيان ١٢٥ ج ٣٩ •

(٣) في المجالس السنية ٣٧/٤،والبحار ٤٣/٦ زيادةٌ ، بعد هذا :
يا أبا طالب ! إن أدركتُ أيامه ، تعلم : أني كنت أبصر الناس به ، وأعلم الناس به ، فإنِ استطعت ــ الخ

(٤) وفيهما بعد هذا ــ أيضا :
←

→ يا أبا طالبٍ ! ما أُعلم أحداً مِنْ آبائك ، مات عنه أبوه ، على حال أبيه ، ولا أُمه على حال أُمه ، فأحفظه لوحدته ــ الخ •

(١) البحار ص ٤٣ ج٦ • وذُكرت ــ في إثبات الوصية ص ١٠٧ ــ وصية عبد المطلب لأبي طالب ، في صورةٍ غير هذه • وذُكرت لهـا صورةٌ أُخرى في كتاب « الحجة » ص ٧٧ •

شخصية

في ذلك البيت ، الرفيع العمد ، والعميق الجذر ، والشامخ البناء ...
وتحت رعاية ذلك الولد الحدب ، ومِنْ تعاليمه الرفيعة وعلى مدرسته الفذَّة..
تخرَّج أبو طالبٍ ، بعد أن درج في هذه الحياة ـــ وله مِنْ ماضيه « العظامي » :
ما يغرس في قلبه : انتهاج المثل العليا ، والسير في الطريق الألحب .

وإن تكن للوراثة أثرٌ فعَّالٌ في خلْق شخصيَّة الإنسان ، وتغذية عقله ،
وتوجيهه ـــ كما يرى ذلك علماء النفس ـــ فإن أبا طالبٍ قدِ استفاد مِنْ هـذه
الوراثة ، فائدةً غير محدودةٍ... وما هو سوى دليلٍ نابضٍ ، للعلماء
النفسيين ، فإن يستشهدوا به ، فليس علينا إلّا الإذعان ! وليس ـــ ثمة ـــ مِنْ
مجالٍ لقولٍ أو ردٍّ ...

فأبو طالبٍ صورةٌ واضحة الخطوط ، بارزة المعالم ، لماضٍ مشرق
الحواشي ، وضَّاح السنى ، لامع النور . ففيه مِنْ صفات أبيه عبد المطلب ،
وجدِّه هاشم ، وأجداده الأفذاذ : ما جعلت منه تلك الصورة ، الواضحة ،
الرائعة .

وليس مِنْ نكيرٍ أن يكون أبو طالبٍ ، كما كان ، وقد أراد الله منه :
أن يكون كافل نبيِّ الإسلام ـــ وهو الصورة الكاملة للإنسان ، والنسخة
المثاليَّة للإنسانيَّة ...

ليس مِنْ نكير : أن يكون أبو طالبٍ ، كما كان ، وتحت رعايته نشأ
الرسول الأعظم ، وقضى ـــ تحت جناحه ـــ شبابه الزاهر ، وهو أعظم
مراحل عمر الإنسان حراجةً ، وأشدُّها : فعاليةً ، وإحساساً ، وتأثراً ...
إذن ... فقدِ اجتمعت لأبي طالبٍ : عظاميَّةٌ شامخةٌ ، وعصاميَّةٌ ناصعةٌ ،
ازدوجتا ، فكان منهما : أبو طالبٍ كافل محمدٍ اليتيم ـــ أوَّلاً ـــ وأبو طالبٍ
نصير الرسول وحاميه ، والمؤمنُ برسالته ـــ ثانياً ـــ فهو : شيخ البطحاء ،
وبيضة البلد .

ازدوجت تلك العظاميَّة والعصاميَّة ، حتى لو أنك أردت أن تبحث عن
خطوط إحداهما ، دون الأخرى ، لاستعصى عليك ! وما أنت بقادرٍ أن تتميز
مِنْ بينهما خطاً ، تقول عنه : هذا عظاميٌّ ، أو : ذاك عصاميٌّ ! .

وكان شيئاً محتوماً ـــ كما قلتُ ـــ أن يكون أبو طالبٍ كما كان ، ما دامتِ
السماء قدِ اختارته لهذه المهمَّة... فكان نصير رسالة السماء ، قام بواجبه
تجاهها ، كأحسن ما يُراد منه ! .

وليس مِنْ نكيرٍ ـــ أيضاً : أن يشارك أبو طالبٍ أباه : الزعامة ، في
حياته ، فيكون الشخصية الأولى ، بعد أبيه ... وأن يشاركه حتى في رعاية
الرسول ، والحدب عليه(١) ، لينفرد ـــ أخيراً ـــ بكلتي المهمتين : الزعامة ،
والرعاية . فيكون : الزعيم الأول ، والراعي الأوحد ، والكفيل الذي ليس
له ثانٍ ، أو شريكٌ ! .

ماضٍ حفيلٌ رائعٌ ، وحاضرٌ ضخمٌ ساطعٌ ، يكوِّنان حياةً فضلى ، تنتج
الخير والثمر النضير ، وتُبقي عطراً عبق الشذى ، فوَّاح العَرْف ، يعطر
الوجود ، والعدوَّ والصديق ، على حدٍّ سواء ـــ كما تُشرق الشمس على الوهاد ،
وقمم الجبال .

---

(١) السيرة الحلبية ص ١٣٧ ج١ .

ولكن الأنف المزكوم ، لا يستنشق العَرْف الفوّاح • والعين الرمداء، لا تبصر الشعاع النيّر •••

وظاهرةٌ واحدةٌ ، يكاد يكون أبو طالبٍ صاحبها الأوحد !،وتكاد تكون ــ أيضاً ــ هي أول خطٍّ، وآخر خطٍّ يسيِّر عصاميّته مِنْ عظاميّته •••

لم تكن الزعامة والسيادة ، بالتي تُنال بكفٍّ مِنَ المال على قلّةٍ، بله على فراغٍ ، بل لابدّ لها مِنْ مالٍ وفيرٍ، يكون الدعامة الأُولى ، في بناء الزعامة ، والركيزة التي عليها تعتمد •••وبدونه لا أظنُّ السبيل ، إلّا مقطوعاً على مَنْ يحفل قلبه بحبّها •

ولكن أبا طالبٍ، كان ذلك الزعيم المهيب ، والسيد الأوّل ، والرئيس المطاع ، وهو الخالي الوفاض مِنَ المال ــ الإلّه المعبود ــ فلم يكن ذلك الثري ، ولا ذلك الوارم الكيس[1] •

ولكنه ، وإن كان ذلك الخالي الوفاض ، الفارغ الكيس ــ فإنه ذلك الثريُّ الكبير ، مِنْ حيث الخصائص النفسية • فهو مِنْ صفات الزعامة ، لعلى وفرٍ وغنىً ، بحيث تفرضه زعيماً ، لا ينازعه في ذلك أحدٌ ، حتى ولو كان ذا مالٍ، ولا يُعدَل عنه لغيره • فمثله مَنْ لا يُعتاض عنه بغيره • وغيره لن يقوم مقامه ، ولا يغني غناه •

ورث مِنْ أبيه : ملامحه وخصائصه ، فكان الرجل المسماح بغير طلب والمعطاء بغير منّةٍ ، فضارع الديمة الهاطلة ، في انهمارها ، على فراغ يده ، ومسيس حاجته للمال••• وإنه ليتحمّل ــ في سبيل ما تفرضه عليه طبيعته ــ

(١) النهج شرح الحديدي ص ٩ م١ و٤٦١ م٣،والسيرة النبوية ص ٩٩ ج١،والحلبية ١٥٣ ج١،وفضل هاشم على عبد شمس ــ رسائل الجاحظ ــ ص ١٠٩،ومعجم القبور ص ١٩٨ ج١،وأعيان الشيعة ص ١٢٤ ج٣٩،والإمام علي صوت العدالة ص ٥٥ ج١ •

أن يثقل كاهله بالدَّين ، لئلا يدع معروفاً ، أو خصيصةً عريقةً ، قام بها أبوه ، وكانت له مِنْ بعده •

قام ــ بعد أبيه ــ بسقاية الحاج ، وانتهج منهجه فيها ، بعد أن حفر زمزم ، فكان يقذف في الماء التمرَ والزبيبَ ، ليعذب منه المذاق ، في أفواه هؤلاء ، الضاربين في كبد الصحراء ، ولهواتهم على لهبةٍ ووقيدٍ، فينقعوا تلك الغُلّة ، والظمأ اللاهب •••

وكان عامٌ أسود ، أُملق فيه أبو طالبٍ، ورأى نفسه ، مِنْ عادته ، على غير اقتدارٍ ! ، ورأى نفسه تفرض عليه : أن لا يتخلّى عن مكرمةٍ، تذكّره بالأب الرحيم • فراح يستدين ــ مِنْ أخيه العباس ــ عشرة آلاف درهم ، إلى موسمٍ آخر ، لعله أن يستطيع سدَّها فيه ، فلا يسقي الحاج ــ وهم ضيوف الله ــ ذلك الماء المرير •••

وجاء عامٌ آخر ، لم يستطع أن يدفع فيه لأخيه دَينَه • بل رأى يده لا تطول إلى القيام بواجبه ، نحو الحاج ! ، ورأى نفسه أمام أمرٍ واقعٍ ! ، فليذهب ــ مرةً أُخرى ــ لأخيه العباس ، ويستدين منه أربعة عشر ألفاً ، ليدفع له جميع ما له ، في عامٍ مقبلٍ •

ولكن العباس ، لم يُعطه هذا المبلغ مِنَ المال ــ هذه المرة ــ إلّا بعد شرطٍ، آخذه لنفسه ، هو : أنه إذا عجز أبو طالبٍ، عن سدّ دَينه ــ في عامه المقبل ــ فعليه أن يترك السقاية إليه••• فكان ذلك[1]•••

غير أنّ السقاية ــ وقد أُفلت مِنْ يده الزمام ــ لم تكن بالتي تؤثّر على مقامه ، أو تخدش مِنْ زعامته ، وهو نبعة الخير في مكة ، ومجاب

(١) شرح النهج الحديدي ص ٤٦١ م٣،والسيرة الحلبية ص ١٧ ج١، والنبوية في الصفحة ذاتها ، وكامل ابن الاثير ص ١٤ : ٢،ومجالس ثعلب ص ٣٧ ق١ •

الدعوة في السماء ، وهمزة الوصل بين الأرض والسماء ...

وإن له لخصائص وملامح ، لو شئنا أن نعرض لها ، وتتناولها بالحديث ، لطال بنا المقام ...

إن له مِنْ تلك الخصائص والملامح : ما تفرضه زعيماً تجلّله الهيبة والوقار ، وكهفاً مِنَ المنعة ، حيث ليس لأحدٍ أن ينال منه سوءاً ، وما هو بالذي تهزه عاصفةٌ نكباء ، وليس بالذي تلين منه قناةٌ .

وإن مِنْ بين تلك الصفات والظواهر : ما تدعنا نؤمن ، بل ما تفرض علينا أن نؤمن — إذ لا مجال لشكٍ — بأنه على ملّة الخليل إبراهيم: الحنيفيّة البيضاء(1) . فما كانتِ الجاهلية — بما فيها مِنْ : أوضارٍ ، وأرجاسٍ ، ومنابعَ للشر والآثام — بالتي تطبعه بطابعها !. بل وليست بالتي تحرف منه المسلك ، أو تحيد به — ولو مصادفةً — عن لاحب الطريق ، وواضح المنهج...

وليستِ البيئة التي عاشها ، ولابس منها الحياة العامة — وهي أكبر مؤثّرٍ على الإنسان ، وأعظم مدرسةٍ ، يتلقّى منها الإنسانُ الدروسَ العملية ، التي تتعلق بالخصائص النفسيّة ...

وليستِ البيئة بالتي تكيّفه ، ولم يكن هو بالذي يصطبغ بها، أو يتأثر بها ، وله مِنْ عقله الراجح ، ونظره البعيد ، وفكره النافذ ، ونفسيته الفضلى ، وخصائصه الموروثة ، وملامحه البارزة ...

له مِنْ كلِّ هذا ، قوةٌ تسيطر عليه ، أن لا ينساق في بيئةٍ مترديةٍ ، أو مستوىً منحطٍ ، أو جاهليةٍ رعناء ... بل له مِنْ كلِّ هذا : قوةٌ ، لأن

(1) لابن أبي الحديد كلمةٌ — في شرحه للنهج ص ٣٧ م١ — تؤيد ما نذهب إليه . نقلناها في الفصل ، الذي قبل هذا ، والذي عقدناه عن عبدالمطلب .

يكيّف هذه البيئة ، ويعطي هذا المجتمع المنحط دروساً عليا . فلا بدَّ مِنْ وجود مثله ، في فترةٍ ، تكون بين بعث رسولين ، أو بعد انقطاع الوحي مِنَ السماء ، لئلا تكون الحجة على الله والناس(1) .

إن وجود أبي طالبٍ — بعد عبدالمطلب — حاجةٌ ضروريةٌ ، لابدّ منها...!
وسيرةٌ كهذه ، لابدّ وأن تكون إرهاصاتٍ لرسالةٍ ، تشرق على الوجود ، وتبدّد سحابة الظلام المحلولكة ، لئلا يكون مثل هذا النور المرتقب إشعاعه، فجاءةً لعيونٍ رمداء ، قد ألفتِ الظلام ، فلا ينفتح لها جفنٌ أمام مصباحٍ .

ولا بدَّ مِنْ مصباحٍ ، يُرسل إشعاعه ، هي كبشيرٍ لشروق نورٍ بهيٍّ . ولا بدَّ مِنْ نجمٍ يهتدي به الساري ، تحت سحابة الليل الفاحمة ، لئلا يهوي في هوّةٍ مِنَ التيه عميقةٍ ، فاغرة الفم . فلابدَّ مِنْ وجود مثل أبي طالب ، كحجةٍ لله على الناس .

ولا بدَّ وأن يكون أبو طالبٍ ، كما كان — كما قلنا — ولا بدَّ أن تكون سيرته على مثل هذا الإشراق والإشعاع ... ما دام هو مربي الرسول ، ذلك النور المشع.. ما دام هو أحد تلك الإرهاصات ، التي تبشّر بشروق هذا النور البهي ...

فليس مِنْ نكيرٍ : أن تحفل شخصيته بكلِّ مقوّمات الزعيم ، وأن تزخر

(1) أشير لذلك في العباس ص ٨ — ١٩ ، عن المجلسي في البحار ص ٣٠٢ و ٤٧٥ ج٦ . وذكر عن الطبرسي : إجماع أهل البيت على ذلك . وذكر : أن الصدوق — في إكمال الدّين ص ١٠٢ — قال : إنه — كأبيه — مِنْ أعرف العلماء وأعلمهم بشأن النبي ، وكانا — هو وأبوه — يكتمان ذلك عن الجهّال والكفرة . وأشير لذلك في معجم القبور ص ١٩٠ و ٢٠٠/١، وفي الغدير ص ٣٩٠ و ٣٥٠ ج٧: ما يؤيد ذلك .

بالصفات الفضلى، والميزات الرفيعة، لتميّزه عن كلّ مَنْ وما حوله، وتحوطه بهالةٍ مِنَ التقدير والإكبار، مِنْ كلّ مَنْ حوله.

فهو: نبعة الخير، والكهف الحصين، الذي يقي مِنَ الحوادث والطوارئ. فإليه يلجأ الضعيف المضام. ومِنْ كفّه الندية ينتهل المعدَم، فتعود له الحياة المخضرّة. وبه يتوسّلون، حين ما ينقطع مِنَ السماء قطرها المدرار. وهو: الوصول للرحم، الكشّاف للكروب، البرّ الرحيم، الجواد بما يملك، مِنْ غير منّةٍ، والسمح بما يستطيع، بلا طلبٍ، قويّ الإرادة، منطيقٌ فصيحٌ، يتدفّق بلاغةً، حديديّ القلب، ثبت الجنان، جميل الطلعة، مهوب الجانب، موفر الاحترام والتعظيم[1].

وإنّ له بالتشريع لدرايةً، فهو ذو معرفةٍ شاملةٍ، وعلمٍ عميقٍ. فيحرّم على نفسه شرب الخمر، ومقارفة الموبقات[2]، وكلّ ما حوله مِنْ أوضار الجاهلية، وأرجاس الشرك، وآثام الوسط المنحط. ويرتفع — بروحيته — إلى أفقٍ واسعٍ، رفيع المستوى، مديد الرقعة، نقيّ الجواء، على صفاءٍ وطهارةٍ.

وكان أول مَنْ سنّ «القسامة» — في دم عمرو بن علقمة — فأقرّتها — بعد — السنّة النبوية[3].

✲ ✲

---

(1) بمثل هذا جاء وصفه في التأريخ، فراجع — منه — ص ١٠٧، ١٠٨ مِنْ إثبات الوصية.

(2) السيرة النبوية ٧٩/١، والحلبية ١٣٤ : ١، وأبو طالب ٢٣، وهاشم وأمية ص ١٥٧، ومعجم القبور ص ١٩٨ ج١.

(3) شرح النهج الحديدي ص ٤٦١ ج٣. وقد ذُكرت الحادثة في صحيح البخاري ١٩٦ : ٢.

والقَسامة — بفتح القاف — اسمٌ مِنْ «أقسم»، وُضع موضع المصدر ←

وهناك ظاهرةٌ روحيةٌ — مِنْ ظاهرات أبي طالب — لمسها معاصروه. ففي حرب الفِجَار — بين: هوازن، وكنانة — كان يحضر أبو طالب، ومعه الرسول. فمتى حضر، كان النصر حليف هوازن. ومتى غاب دارت عليها الدائرة.

فطلبت هوازن مِنْ أبي طالبٍ: أنْ لا يغيب عنها: ليُواتيها النصر. فكان عند طلبها[1].

وما هو إلّا نبعة السماء، وثِمال الارض، وباقية الخليل إبراهيم، وسلالة الذبيح إسماعيل. يدعو الله، فتنهمر السماء بقطرها، وتفرش الأرض بالنماء والخصب، وتغدودق بالحياء الهطّال[2].

✲ ✲

آخرج ابن عساكر، عن جلهمة بن عرفطة — وما لنا وللتعليق؟ فلندع لسان صاحبي السيرة، هو الذي يحدثنا، عن لسان جلهمة. قال[3]:

← وهي الأيمان تقسم على أولياء الدم، فيقال: «حكم القاضي بالقسامة»، أو «قُتِلَ فلان بالقسامة». وذلك أن يجتمع أولياء القتيل، فيدّعون على رجلٍ أنّه قاتل صاحبهم. وتكون معهم أمارةٌ غير البينة، فيحلفون خمسين يميناً بأن هذا هو القاتل. وهؤلاء الذين يحلفون يُسمّون «قسامةً» — أيضاً — وسير الحلف، هنا، على خلافهٍ، في سائر الدعاوى، لنصوصٍ خصّصته.

وله في كتب الفقه موضوعٌ مختصٌّ، فَمَنْ شاء الشمول، رجع إليه في مظانّه.

(1) النهج الحديدي ٤٦٢ : ٣، والسيرة النبوية ٩٨ : ١، والحلبية ١٥٢ : ١.

(2) الحياء — هنا — بمعنى المطر. ويجيء بمعنى الخصب والنبات.

(3) النبوية ٨٠ : ١ والحلبية ١٣٨ : ٢ — وبين الروايتين تصحيفٌ، في بضع كلماتٍ، كـ «اعمدوا»، فانها «اعتمدوا»، في الحلبية.

قدمتُ مكة ، وهم في قحطٍ وشدةٍ ، مِن احتباس المطر عنهم .. فقائلٌ يقول : اعمدوا اللاّت والعزّى . وقائلٌ منهم يقول : اعمدوا مناة الثالثة الأخرى . فقال شيخٌ وسيمٌ ، حسن الوجه ، جيّد الرأي :

أنّى تؤفكون !، وفيكم باقية إبراهيم ، وسلالة إسماعيل ؟![1] .

[ولم يغب عنهم : ما يعنيه هذا الشيخ الوسيم ، المجوّد الرأي ، والحسن الوجه . وما كان هذا العلم بالجديد عليهم ، وهم منه على عمق معرفةٍ ، وشمول درايةٍ] .

قالوا : كأنك عنيتَ أبا طالبٍ !.

فقال : إيها...!

فقاموا بأجمعهم ، وقمتُ معهم ، فدققنا الباب عليه ، فخرج إلينا « رجلٌ حسن الوجه ، عليه إزارٌ قد اتّشح به »[2] ، فثاروا إليه ، فقالوا :

يا أبا طالب ! أقحط الوادي ، وأجدب العيال ، فهلمّ فاستسقِ إلينا !.

فخرج أبو طالب ، ومعه غلامٌ — وهو النبي « ص » كأنه شمس دجن — تجلّت عنها سحابةٌ قتماء ، وحوله أغيلمة ، فأخذه أبو طالب فألصق ظهر الغلام بالكعبة ، ولاذ الغلام — أي : أشار باصبعه إلى السماء ، كالمتضرع الملتجىء — وما في السماء قزَعةٌ (٣) ، فأقبل السحاب منْ ههنا وههنا ، واغدودق الوادي ، وكثُر قطره ،

(١) هذه الجملة إحدى البراهين القائمة ، على ما ذهبنا إليه ، قبل قليلٍ ، مِنْ هذا الفصل .

(٢) ما بين هذين القوسين تعبيرٌ ، ممّا اختصّت به السيرة الحلبية .

(٣) القزَع — محرّكٌ — قطعٌ مِنَ السحاب صغارٌ متفرّقٌ ، والقزعة — محرّكة أيضاً — القطعة منه .

وأخصب النادي والبادي (١) .

ولعل أبا طالبٍ — كما يقول صاحبا السيرة — إلى هذه الحادثة ، أشار في ما بعد — بقوله مِنْ قصيدته اللامية :

وأبيض يُستسقى الغمامُ بوجهه — الخ .

* *

بهذه الصفات المثلى ، والميزات الفضلى ، والخصائص والملامح البارزة ، نال أبو طالبٍ مكانه ، فدانت له القلوب بالحب ، وأحاطته بالإكبار ، وتنحّت له عن محلّ الرئاسة . وما غيره بجديرٍ لها ، وهو على رقعة الأرض ، يخفق له قلبٌ ، وتمشي به قدمٌ ...

فكان — كما كان أبوه — تُوضع له وسادةٌ ، يجلس عليها وحده ، فيجيىء الرسول ، ويجلس عليها ، فيقول :

إن ابن أخي ليحسّ بنعيمٍ — أي : بشرفٍ عظيمٍ[2] .

(١) ذُكرت هذه الحادثة في الغدير ص ٣٤٦ ج٧ ، وأُسندت فيه — عدا السيرتين — إلى : شرح البخاري للقسطلاني ص ٢٢٧ : ٢ ، والمواهب اللدنية ٤٨ : ١ ، والخصايص الكبرى ٨٦ و ١٢٤ : ١ ، وطلبة الطالب ٤٢ .
وأُخرجت في الحجة ٩١ — باختلافٍ في مقدّمة القصّة — والبحار ٣٨٨ : ٦ ، وقالا : ان الذي دلّهم على أبي طالبٍ ، هو : ورقة بن نوفل — عم خديجة .
وذُكرت في أبو طالبٍ ص ٤٩ . وذُكرت بإيجازٍ في الإمام علي صوت العدالة ص ٣٤ ، وفيه ص ٥٥ ج١ ، وفي أعيان الشيعة ص ١٢٦ : ٣٩ .

(٢) السيرة النبوية ٨٠ : ١ ، والحلبية ١٣٨ : ١ ، والبحار ١٢٩ : ٦ ، وأعيان الشيعة ١١ : ٢ .

دلائل

إن في شعر أُبي طالبٍ هذا دليلاً على أنه كان يعرف نبوة النبي صلى الله عليه «وآله» وسلّم ، قبل أن يبعث ، لِمَا أخبره به بحيرا الراهب وغيره ، مِنْ شأنه ، مع ما شاهده مِنْ أحواله. ومعرفة أبي طالبٍ بنبوته صلى الله عليه «وآله» «وآله» وسلم ، جاءت في كثيرٍ مِنَ الأُخبار ، زيادةً على أخذها مِنْ شعره •

الامام عبدالواحد السفاقسي
ـ النبوية ٨٨ : ١ ـ

«...... ولقد كان أبي يقرأ الكتب جميعاً .
ولقد قال : إن مِنْ صلبي لنبيّاً ، لوددتُ أني أدركتُ ذلك فآمنتُ به،فَمَنْ أدركه مِنْ ولدي فليؤمنْ به»(١) .

* *

ما كان ذو القولة ــ هذه ــ بحاجةٍ لدليلٍ مجدّدٍ ، وهو ذو العقيدة الرسيخة ، والإيمان الوطيد ...

إن لديه ــ مِنَ الدلائل ــ لوفراً ، يفوق العدّ ، ويأبى الحصر . وإن واحداً ــ مِنْ بينها ــ لكفيلٌ بإثبات ما يذهب إليه . وما يجلو عن النفس الشكّ والريب . لو كان هذان مما يعرفان طريقهما إلى نفس بيضة البلد .

إن هذه الأدلة المنتصبة ، وهذه البراهين الواضحة ، لممّا يزيد إيمان أبي طالبٍ عمقاً ، وشمولاً، وامتداداً، وما كان ــ في يومٍ مّا ــ ذاك المزعزع العقيدة ، ولا الرجراج الإيمان .

إن دليلاً واحداً ــ مِنْ بين ألف دليلٍ ودليلٍ ــ لتفرض على كلّ مَنْ له ذرّةٌ مِنْ عقلٍ : أن يؤمِنَ بمثل ما آمَنَ به أبو طالبٍ ، وأن يكون ذلك المتين المعتقد ، والرسيخ العقيدة ، والثابت على المبدإ القويم .

إنه ليعلم ــ علماً لا يخالجه ريبٌ ــ بأن ابن أخيه ، هو ذلك الرسول المنتظر ، الذي قرأه أبوه في الكتب السماوية جميعاً ، وبشّرت به الرسالات

(١) شيخ الأبطح ٢٢،والغدير : ٣٤٨ : ٧،والعباس ١٨ و ٢١ .

السماوية ، منذ يومها الأوّل ، وفي فجرها البكر .

وهو ــ إلى ذلك العلم الثابت ــ يلمس دلائلَ صارخةً ، وبراهينَ سافرة الوجه ، ليس لمكابرٍ إلّا أن يذعن لها ــ فكيف بمؤمنٍ عميقٍ ، لا تزيده البراهين والدلائل ، إلّا : عمق إيمانٍ ، وشمول معرفةٍ ، ومتانة معتقدٍ ، وثبوت مبدإٍ ، ورسوخ يقينٍ...!

لقد شاهد وفراً مِنْ هذه الدلائل ، وعبدالمطلب ــ بعدُ ــ على رقعة الوجود ، وقد يشاهد بعضاً منها أبوه عبدالمطلب ، فيدلّه عليها ، ويخبره عنها ، غير أنه ــ اليوم ــ وقد كان هو الكافل الأوحد لابن أخيه ، فإنه ليشاهد مِنْ هذه الدلائل وفراً أكثر ، تكاد تزدحم لديه . ولا تكاد رقعة يومٍ تزول ، أو سحابة ليلٍ تطوى ، إلّا ويلمس ــ بين تضاعيفها ــ دليلاً نابضاً وبرهاناً صارخاً ...

إنه ليشاهد ــ عن كثبٍ ــ مِن ابن أخيه : أشياء ، وملامح ، ومميزاتٍ ، لا تكون لرجلٍ عاديّ يعيش كما يعيش الناس ، وتطوى حياته ، يوم يُسلم الروح ، فيتلاشى مِنَ الوجود ظلّه ، ومِنَ الجواء صداه ، كأن لم يُخلق ، ولم يعبر بهذا الكون ، ولم تطأ له فيه قدمٌ ...

لا...! بل إنه ليشاهد ــ مِنْ بين تلك الملامح والمميزات ــ ما يبرهن على أن ابن أخيه هو أكمل صورةٍ لخلْق الله ، منذ خلق آدم ، حتى تقوم الساعة ، وهو النسخة المثالية،لارتفاع الإنسان،بالقيم المثلى ، إلى قممٍ شامخةٍ، لا يرقى إليها الطير ، وينحدر عنها السيل ـ على حدّ تعبير ابنه الإمام ، بعدُ ، وهو « صورةٌ طبق الأصل »، لهذه الصورة الكاملة .

ومِنْ بين تلك الدلائل الكثار ، والبراهين الوفر ، التي لا تقع تحت الحصر ...ومِنْ بينها دلائلُ ــ غير الدلائل الروحية والخُلُقية، «بضمّ الخاء» ــ دلائلُ ملموسةٌ صارخةٌ ، يحسّها ويلمسها ، ويشاهدها ، حتى مَنْ لم يكن مِنَ العقل ذلك المكتمل،ومِنَ الإيمان ذلك العميق ... يحسّها حتى هؤلاء الماديون،

الذين لا يعرفون غير ما يلمسون ، ولا يحسّون سوى ما يقع عليه منهم النظر ...

فكيف بكميل العقل ، ورجيح الإيمان ، ونافذ النظرة ، وبعيد الغور ، ومكتمل المعرفة ، ومتين المعتقد ...؟!

ولسنا نُحاول أن نحشد ــ في هذا الفصل ــ مِنَ الدلائل والبراهين، مايضيق عنه هذا الكتاب ، وهي مبعثرةٌ بين الصفحات ــ مِنَ المراجع ــ وتحتاج إلى طويل وقتٍ ، لتجمع مِنْ بين الزوايا .

ولكن فلنأخذ بعضاً منها ، لنعرضه على القراء ــ بالإضافة إلى ما مرَّ بنا ــ وليس هذا البعض ، إلّا كدليلٍ على الكلّ :

✲ ✲

ا ــ نبع المـــاء

ذكروا مِنْ بين الإرهاصات ، التي سبقت بعثة الرسول صلى الله عليه « وآله » وسلم أنه كان مع عمه أبي طالبٍ ــ بذي المجاز[1] ــ إذ عطش أبو طالبٍ ، وليس ــ ثمة ماءٌ ، يطفأ لهبة عطشه ، فذكر لابن أخيه ما ألمّ به مِنَ العطش . فما كان منه ، إلّا أن أهوى بعقبه إلى الأرض ــ وفي روايةٍ أخرى : أنه ركض صخرةً برجله[2] ــ وقال « شيئاً » ، فإذا بالمـاء يتدفّق ، لم يرُ مثله أبو طالبٍ ــ كما حدّث ــ فشرب ، حتى أطفأ لهبة الظمأ ، وعاد فركضها

(١) ذو المجاز : موضعٌ على فرسخٍ مِنْ عرفة ، كان سوقاً للجاهلية . وذُكر في معجم البلدان ــ ص ٥٥ ج٥ ــ أنه [موضع سوقٍ بعرفة ، على ناحية كبكب ، عن يمين الإمام ، على فرسخٍ مِنْ عرفة ، كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيامٍ] ــ الخ .

(٢) ركض الصخرة برجله: ضربها .

ــ مرّةً أُخرى ــ لتعود سيرتها الأُولى[1] .

✲ ✲

ب ــ مع العـائف

إن رجلاً مِنْ « لِهْبٍ » كان عائفاً[2] . فإذا ما قدم مكة ، أتته رجال قريش بغلمانهم ، لينظر لهم ، ويعتاف لهم فيهم... وكان أبو طالبٍ ، مِنْ بين الحشد ، الذي آتاه ، ومعه الرسول ؛ فنظر العائف للرسول ؛ ثم كان لديه ما شغله عنه...وما انتهى شاغله ، حتى قال :

الغلام ! عليَّ به !.

وما إن رأى أبو طالبٍ ، حرْص هذا العائفَ عليه ، حتى أوجس منه خيفةً ، وأحسَّ شيئاً ، يفرض عليه أن يغيّبه ، فلا تقع عليه هاتان العينان ، النافذتا البصر ، البعيدتا النظر... ولم يأبه لصياح العائف :

ويلكم !! ردّوا عليَّ الغلام ، الذي رأيتُ آنفاً !. فوالله ليكونن له « شأنٌ »[3] ...

ولم تكن هذه الكلمة ــ « شأنٌ » ــ بالجديدة الجرس ، ولا الغريبة النبرة، على مسمع أبي طالبٍ،فإنه لعليمٌ بأن له «شأناً». وإنه للعليم ــ أيضاً ــ بماهية هذا « الشأن » ...

✲ ✲

(١) السيرة النبوية ٨٩ : ١،والحلبيـة ١٣٩ : ١، وتذكرة الخواص ٩، والعباس ٢٠،والبحار ١٢٩ : ٦ .

(٢) عاف الطير : زجرها ، فتشاءم ، أو تفاءل ، بطيرانها . والعائف ــ اسم فاعلٍ ــ المتكهّن بالطير ، أو بغيرها .

(٣) السيرة الهشامية ١٩٠ ج١، والنبوية ١٩٠ : ١، والحلبية ١٣٩ : ١، وأبو طالب ٣٢ .

ج ـ إنك لمبارك

شاهد أبو طالبٍ ظاهرةً بارزةً ، تتضح بالدليل الصارخ ، منذ انحياز الرسول إلى عائلته ـ بعد وفاة عبد المطلب • فأبو طالبٍ وهو المقلُّ مِنَ المال ـ كان كثير العائلة •

ولقد كان هذا الإقلال ـ مِنْ جانبٍ ـ وهذه الكثرة ـ في الطرف الآخر ـ سبباً فعّالاً ، لئلا تشبع عائلته ، إذا جلست على المائدة ، إن فرادى ، وإن جميعاً••• ومتى ضمَّتِ المائدةُ الرسولَ ، فإنهم ينفضّون عنها ، وهم مِنَ الشبع على اكتنازٍ ، وفي الطعام فضلةٌ ••• فكان أبو طالبٍ يقول لهم ، إذا حضر وقت الطعام ، ولم يجد بينهم ابن اخيه :

ـ كما أنتم ، حتى يأتي ابني •

وإن الواحد ـ مِنْ بين هؤلاء ـ ليشرب « القعب »(1) مِنَ اللبن ••• ولكن أبا طالب يأخذ القعب ، ليبدأ بالرسول ، فيشرب ، وتشرب العيال جميعاً ، مِنْ هذا القعب ذاته ، فيقول أبو طالبٍ :

ـ إنك لمباركٌ(2) •

* *

---

(1) القعب : القدح الضخم الغليظ •

(2) السيرة النبوية ٨٠ : ١، والحلبة ١٣٧ ، ١٣٨ : ١، والبحار ١٢٤ و ١٢٩ : ٦ •

وقد أشار لذلك عمر أبو النصر ، في كتابه [فاطمة بنت محمد صلى الله عليه « وآله » وسلم] ص ١٨ • وتجد صورةً حرفيةً ، لِمَا قاله ـ هنا ـ في كتابه [محمد النبيُّ العربيُّ] ص ٤٧ • وكثيراً ما يحدث لأبي النصر ـ في كتبه ـ مثل هذا التكرير •

وذُكرت في العباس ص ٢٠ • وأُشير لها في « على هامش السيرة » ص ١٩٠ ، ١٩١ : ١، و ١٥١ ، ١٥٢ : ٢ •

د ـ إلى الشام

بلغت عناية أبي طالبٍ بالرسول ، حدّاً يتجاوز الوصف ، فقدِ اتّحدتِ الروحان حتى كان مِنَ الصعب ـ أوِ العسير ـ أن تستطيعا فراقاً فما كان محمدٌ بالذي يقرُّ له قرارٌ ، وقد شاهد عمَّه مزمعاً على سفرةٍ ، قد يطول منها الأمد • وليست نفسه بالتي ترضى بهذا الفراق ، ولم تعد تستطيع تصوُّره ، حيث لم يبقَ ـ لديه ـ حصنٌ ، يقيه الزعازع ، غير هذا الشيخ الحدب • فإن هو سافر بدونه ، فإلى مَنْ يلجأ ؟ ومَنْ ذا يقيه هجير الظهيرة ، ويخفِّف عنه آلام اليتم ، وينتهل منه نبع الحنان والشفقة ؟!•

فلم يكدِ الرسول يشهد عمَّه ، يخطو نحو راحلته ، وإذا بدموعٍ تنحدر مِنْ عينيه ، وعبراتٍ غزارٍ قد أخذت طريقها على وجنتيه •

فبالدموع اليتيم ، يشهدها الشيخ الحدب ، فيخفق لها قلبه الرحيم ، فيرقُّ لهذا الصب • ولم يستطع أن يسمع مِنِ ابن أخيه هذه الكلمات :

ـ يا عمِّ ! إلى مَنْ تكلني ؟ لا أب لي ، ولا أمّ !•

فكان جواب أبي طالبٍ ـ وليس له إلا أن يجيب بما أجاب :

ـ والله لأخرجنَّ به معي • ولا يفارقني ، ولا أُفارقه ، أبداً •

← وقد شاهد أبو طالبٍ هذا الدليل المكرور ـ بعدئذٍ ـ يوم « الإنذار » ، حين ما دعا الرسول زعماء قريشٍ ، فأَوْلَمَ لهم بفخذٍ مِنَ اللحم ، وعُسٍّ مِنَ اللبن• ـ العُسّ بضم عينه: القدح ، أوِ الإناء الكبير ـ وإن الواحد منهم ، ليأتي على المسنة ، وعلى العس • وهم ـ حينذاك ـ أربعون رجلاً ، ينقصون واحداً ، أو يزيدونه ـ كما حدَّث بذلك الإمام عليٌّ « عليه السلام » •

وكلُّ مَنْ عرض سيرة الرسول صلى الله عليه « وآله » وسلم ، ذكر هذه الحادثة ، فلم نرَ حاجةً لأن نرجعها لمصدرٍ ، وهو متعدِّدٌ ، ولا أن نخصها ببحثٍ ، وهي مستفيضةٌ •

فأخذه معه ، قريباً منه ؛ فليس لهما ، أن يكونا ، إلّا على راحلةٍ واحدةٍ .

وراح الركب يطبع في الصحراء خطوطاً ، لا يلبث أن يلاشي النسيم منها الأثر ، حتى إذا بلغ الركب « بُصرى » — مِنْ أرض الشام — أراد أن يستردّ بالراحة ، تعب السير المغذ[1] .

وكان — هنا — راهبٌ ، يُقال له « بحيرى » ، في صومعةٍ له ، قدِ انتهى

---

(1) زادت السيرة النبوية ـ ٩٠ : ١ ـ والحلبية ـ ١٤٠ : ١ ـ عند عرض هذه الحادثة ، ما يلي :

إن الركب — قبل أن يصل إلى « بُصرى » — نزل على صاحب ديرٍ ، فقال صاحب الدير لأبي طالبٍ :

— ما هذا الغلام منك ؟.

— ابني !.

— ما هو بابنك ! وما ينبغي أن يكون له أبٌ حيٌّ ، لأن مَنْ كانت هذه الصفة صفته ، فهو نبيٌّ . ومِنْ علامة ذلك النبيّ — في الكتب القديمة — أن يموت أبوه ، وأمه حاملٌ به ؛ وأن تموت أمُّه وهو صغيرٌ .

— وما النبيُّ ؟.

— الذي يأتيه الخبر مِنَ السماء ، فينبىء أهل الأرض .

— الله أجلُّ مِمّا تقول .

فيحذِّر الراهب أبا طالبٍ ، أن يتقي عليه اليهود .

ومرّ الركب براهبٍ — صاحب ديرٍ آخر — فكان بينه وبين أبي طالبٍ مثل هذا الحوار . وقال — بعد ذلك — أبو طالبٍ ، لابن أخيه :

— يا ابن أخي ! ألا تسمع ما يقولون ؟!.

— أيْ عمّ ! لا تُنكر لله قدرةً !.

إليه علم « النصرانية » .

ولكن الركب ، يشهد — لأول مرّةٍ — مِنْ هذا الراهب ، ما لم يشهده مِنْ قبل . فكثيراً ما طاف الركب بهذه الرقعة مِنَ الأرض ، دون أن يعرض لهم هذا الراهب ، أو يبادلهمُ المقال .

لقد أطلّ الراهب — مِنْ صومعته فشاهد الركب ، ولفت نظره — مِنْ بين الركب — هذه الغمامة ، التي تُظلّ واحداً مِنْ بين هؤلاء جميعاً ، آثرته بظلّها ، فوقته لهب الشمس ، ووقيد الصحراء اللاهبة ... وإذ استقرّ بالركب المكان ، لفت نظره — مرّةً أخرى — مِنْ بين هؤلاء أيضاً ، هذه الشجرة ، التي تهصّرت منها الأغصان ، فتُظلّل ذاك المستظلّ بالغمامة — قبلئذٍ — وتختصّه ، مِنْ بين هؤلاء جميعاً ، بفيئها وظلالها ...

لقد أخذ منه العجب ، غير أنه لم يطل له أجلٌ ... فسرعان ما تلاشى ، حين ما ثاب إليه فكره ، وعادت إليه ذاكرته ، إلى ما بين السطور ، مِنْ كتابه المقدّس .

وإذ نزل مِنْ صومعته ، وأمر بطعامٍ أن يصنع ، بعث إلى الركب ، فقال له :

إني صنعتُ لكم طعاماً — يا معشر قريشٍ ! — فأنا أُحب أن تحضروا كلكم : صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحركم .

فانبرى إليه — مِنْ بينهم — مَنْ أخذ منه العجب أقصى مكانٍ :

والله — يا بُحيرى ! — إن لك لشأناً اليوم . ما كنتَ تصنع هذا بنا !. وقد كنّا نمرّ بك كثيراً !! فما شأنك اليوم ...؟!

وبعد جوابٍ منه ، نزلوا عند رغبته ، فاجتمعوا لديه . ولم يتخلّف مِنْ بينهم غير الرسول — وهو السبب المباشر لِما شاهدوه مِنْ هذا الراهب : العميق النظرة — فقد كان عند الرحال ، تحت الشجرة .

وطافت مِنَ الراهب نظرةٌ في القوم — فاحصةٌ ، فلم تقع على ما يشبع نهمها الصيّاح ، وينقع غلتها اللهبى...فكان بينه وبينهم حوارٌ :

— يا بحيرى ! ما تخلّف عنك أحدٌ ، ينبغي له أن يأتيك ، إلا غلاماً ، وهو أحدث القوم سناً ، فتخلّف في رِحالهم .

ولم يكن ليقف هذا الحوار ، عند ساحلٍ ، لولا أن قام مِنْ بينهم مَنْ « احتضن » الغــلام ، وجاء به . فعادت — مِنْ بحـيرى — تلك النظرة الفاحصة ... ثم ينظر إلى أشياء مِنْ جسده ، نظرةً بعيدةً ، ليجد فيه صفاتٍ ، قرأها في الكتاب المقدّس ، تخصّ هذا الغلام العظيم .

وإذ تفرّق القوم عن الطعام ، راح بحيرى يسأل الرسول ، عن أشياء ، يهدف مِنْ ورائها:أن يطبق علمه ، ويعمق منه الإيمان ...

وعاد الراهب لأبي طالبٍ ، يسأله سؤال اللهفان :

— ما هذا الغلام منك ...

— ابني !.

— ما هو بابنك !،وما يبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيّاً .

— فإنه ابن أخي !.

— فما فعل أبوه ؟.

— مات ، وأُمه حبلى به .

— صدقتَ !،فارجع بابن أخيك إلى بلده . واحذر عليه يهود !،فوالله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما « عرفتُ» ليبغُنّه شـرّاً ، فإنه كائنٌ لابن أخيك هذا « شأنٌ » عظيمٌ . فاسرع به إلى بلاده(1) .

(1) السيرة الهشامية ١٩١ ـ ١٩٤ :١،والنبوية ٩٠ ـ ٩٢ :١،والحلبيــة ١٣٩ ـ ١٤٢ : ١،وتأريخ الطبري ٢٢ ـ ٢٤ : ٢،والكامل لابن الاثير ←

وعاد الرسول — مع عمه — وقد تفتّحت عيناه على جوانب مِنَ الحياة ، وطاف بعالمٍ جديدٍ ، غير عالم مكة ، الذي فيه ربا،ودرج .

أما أبو طالبٍ ، فعاد به ، وهو أشدّ ما يكون عليه حذراً ، يحوطه بعنايته ، ويغمره بفيض حبّه ، ويحرسه بكلّ حيطةٍ واحتراسٍ ، فيخاف عليه مِنْ تلك الشرذمة الفتاكة ، المغلولة اليد ، يهود الخبيثة ، التي تريد — لو تستطيع — أن تطيح بهذا الغصن الفارع ، قبل أن يتفتح عن : زهرٍ باسمٍ ، وثمرٍ نضيرٍ .

وما كانت هذه الصورة ، بالتي تُزايل مخيلة شيخ البطحــاء ، وقــد اختزن منها صوراً ، لا تزول .

ولكنه — وقد شاء : أن يسجل هذه الصورة ، لتبقى محفورةً على جبين الزمن ، تقرأها الأجيال التالية — راح يودعها بعض شعره ، لتتسلّمهـــا الأجيال : وثيقةً رائعةً .

→ ٢٣ ، ٢٤ : ٢،وقصص العرب ٩٩ ، ١٠٠ : ١ . وذُكرت — بإيجازٍ — في البحار ٥٩ — ٦١ و ٦١ ، ٦٢ ، ١٢٩ ، ١٣٠ : ٦،وأبو طالب ٣١،وعلى هامش السيرة ٧١—٨٣ : ٢،وبين الروايات تباينٌ في التعبير . وفي بعضها زيادةٌ على البعض الآخر .

وأما روايات البحار الثلاث ، ففيها ذاتها اختلافٌ . فالرواية الأُولى تختلف عن غيرها ، وفيها شيءٌ مِنَ التناقض .

ففي أول الحادثة نراه يقول : إن بحيرى سأل أبا طالب : أيّ شيءٍ منه ؟ فيجيبه : أنا عمه،وإذا به في نهاية الحادثة يقول : إن بحيرى سأله مثل هذا السؤال ، فيجيب : هو ابني... الخ .

ولكن الحادثة الثانية ، هي الصحيحة الرواية، ومثلها الثالثة. ويُعذَر في ذلك : أنه يجمع أحاديث ، وعلى الآخذ منها التمحيص .

إنَّ ابنَ آمنــــةَ النبيَّ محمداً ... عنديْ يفوقُ منازلَ الأولادِ...
لمَّا تعلّقَ بالزِّمامِ ، رحمتُـهُ ... والعيسُ قدْ قلّصْنَ بالأزوادِ(١)
فارفضَّ مِنْ عينيَّ دمعٌ ذارفٌ ... مثلُ الجمانِ ، مفرّقُ الأفرادِ
راعيتُ فيهِ قرابةً موصولــةً ... وحفظتُ فيهِ وصيّةَ الأجدادِ
وأمرتُـهُ بالسيرِ بينَ عمومةٍ ... بيضِ الوجوهِ، مصالتٍ أنجادِ(٢)
ســاروْا لأبعدِ طيّةٍ معلومــةٍ ... فلقدْ تبــاعدَ طيــةُ المرتادِ(٣)
حتى إذا ما القومُ بصرى عاينوْا ... لاقوْا على شركٍ مِنَ المرصادِ :
حبراً ــ فأخبرَهُمْ حديثاً صادقاً ... عنهُ ، وردَّ معاشرَ الحسّــادِ
قومٌ يهودُ قدْ رأوْا ، لمّا رأى : ... ظلَّ الغمامِ وعن ذي الأكبادِ(٤)
ثاروْا لقتلِ محمّدٍ ، فنهــاهُمُ ... عنهُ ، وجاهدَ أحسنَ التجهادِ
فثنى زبيراً ، مِنْ بحيرا فانثنى ... في القومِ بعدَ تجاولٍ وبعادِ(٥)

---

(١) قلص القوم : اجتمعوا فساروا . قلصتِ الناقة براكبها : أسرعت . استمرّت في مضيّها . الأزواد ــ جمْع زادٍ ، وهو : ما يُتخذ مِنَ الطعام للسفر .

(٢) المصالت مِنَ الرجال : الشجاع الماضي في الحوائج . الجبين الصلت: الواضح المستوى البارز . أنجاد جمْع نجد : الضابط للأمور ، يذلل المصاعب . الشجاع الماضي في ما يعجز غيره . السريع الإجابة إلى ما دُعي إليه .

(٣) في رواية: طبة ــ بالواحدة بدل المثناة ــ وهي مؤنث طب، ومعناهما: الناحية والجهة .

(٤) كذا وجدناها في مصادرها ؛ وفي رواية: "ناغري الأكباد" وهي أقرب للصحة ، لأنها واضحة المعنى .

(٥) زبير ودريس وتمام : أحبارٌ مِنَ اليهود ، عرضوا للركب ، يبغون الرسول ، فردّهم بحيرى عنه . ونحن لم نشأ أن نأتي عليها ، عند عرضنا للقصة ، بغية الإختصار .

ونهى دريساً ، فانتهى عنْ قولِهِ ... حبرٌ ، يوافقُ أمرَهُ برشـادِ(١)

وعاد يودعها هذه الأبيات :

ألمْ ترني مِنْ بعدِ همٍّ هممتُهُ... ... بفرقةِ حرِّ الوالدينِ حرامِ(٢)
بأحمدَ ، لمّا أنْ شددتُ مطيّتيْ ... برحليْ، وقدْ ودّعتُهُ بســلامِ
بكى حزناً، والعيسُ قدْ فصلتْ بنا ... وأخذتُ بالكفّينِ فضلَ زمامِ
ذكرتُ أباهُ... ثمّ رقرقتْ عَبرةً ... تجودُ مِنَ العينينِ ذاتِ سجامِ

ويروح يسجّل هذه الحادثة ، ويودع مشاهدها هذه الأبيات ، حتى يصل إلى موقف بحيرى، وردّه أحبار اليهود الثلاثة ، فيقول :

فجاءوْا وقدْ همّوْا بقتلِ محمّدٍ ... فردّهمُ عنْهُ بحسْنِ خصامِ(٢)
بتأويلهِ التوراةَ ، حتّى تيقّنوْا ... وقالَ لهُمْ : رمتُمْ أشــدَّ مرامِ
أتبغونَ قتلاً للنبيِّ محمّـدٍ ؟! ... خصصتُمْ على شؤمٍ بطولِ أثامِ
وإنَّ الذيْ نختــارُهُ منْهُ مانعٌ ... سيكفيهِ منكمْ كيدَ كلِّ طغامِ
فذلكَ مِنْ أعلامِـهِ وبيــانِهِ ... وليسَ نهارٌ واضحٌ كظلامِ!(٣)

ولسنا نرى حاجةً ، لأن نسترسل ، فنورد كلَّ ما سجّله ، بعد هــذه الحادثة .

* *

---

(١) الغدير ٣٤٤ : ٧، والحجة ٧٦ ــ وبينهما بعض الإختلاف ــ والأعيان ١٤٧ ، ١٤٨ : ٣٩ ــ بدون الأربعة الأبيات الأخيرة . وأشير إليها في معجم القبور ١٨٥ : ١ .

(٢) الهمّ ــ هنا ــ ما همّ به الرجل ، أو أجال فكره لفعله وإيقاعه .

(٣) الغدير ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ ج٧ مسندةً ، والحجة ٧٧ ، ٧٨، في اختلافٍ في اللفظ والعدد . وجاءت طائفة منها في الأعيان ١٤٨ : ٣٩، وبعض أبياتها في معجم القبور ١٨٥ : ١ .

لسنا ـ بعد هذا ـ بِمَنْ يشكُّ في أن أبا طالبٍ، كان ينظر إلى هذه الإرهاصات ـ وقد شئنا أن نقف منها، عند هذا الحدّ ـ نظرةً فاحصةً، تلقى الكثير مِنْ عنايته، والقصيَّ مِن اهتمامه، فيعمل فيها فكره، فاحصاً منقباً. فليس ما يشهد، مِن ابن أخيه، بالشيء العادي، الذي لا يلفت النظر، أو ينبه الفكر.

فما هذه الملامح والدلالات ـ التي يراها مِن ابن أُخيه ـ بالتي يجدها عند غيره، مِنْ هذا الحشد، مِنَ الناس !.

فلِمَ طلب منه ذاك العائف: أن يعود به إليه، وقد مرّ به كثيرٌ غيره، فاعتاف لهم، دون أن يلقوا شيئاً مِن اهتمامه، ودون أن يسترجع واحداً، مِنْ بين هؤلاء الكثيرين...؟!

ولمّا لم يجد لطلبه مَنْ يلبّيه، أرسلها قولةً مرنّةً، بعيدة الصدى، عالية النبرة، تُوغل في المستقبل المجهول، لتقرّب إحدى نقاطه، فتجلوها ناصعة البياض: «فوالله ليكوننّ له شأنٌ» !.

ثم هذه العناية، التي شاهدها الركب، مِنْ بحيرى، وقد كان الركب يطوف بهذه الصومعة، ولم يسبق له أن رأى ـ قبلئذٍ ـ ما رأى اليوم ؟.

ثم ذاك الحديث، الذي جرى بينه وبينه.. فإنه ليحفل ببراهين، كلٌّ منها يقوم بالبينة الثابتة، التي لا تدحض...؟

يقول له: «إنه ابني». فيجيب جواب الحازم، الذي لا يخالجه ذرّةٌ مِنْ شكٍّ أو ريبٍ: «ما هو بابنك». ويزيد: «وليس ينبغي أن يكون أبوه حيّاً»...!

ثم يحذره مِنْ «يهود»، فإنه كائنٌ له «شأنٌ عظيمٌ»...!

إنها لدلائل صارخةٌ، ليس له أن يخالجه فيها شكٌّ، أو يعترضه ريبٌ !.

* *

كلُّ هذا إلى جانب ما كان يسمعه مِنْ أبيه عبدالمطلب، وما يشاهده هو، مِنْ «بركة» هذا الغلام...

إن البركة، لتفيض مِنْ أنامله. فيشبع الكثير مِنْ قليل الطعام، إذا امتدّت يده إلى صحاف الطعام، أو قَعب اللبن...

وإن الماء، ليتدفّق عذباً روياً حين ما ركض الصخرة برجله، في قاحل الصحراء...!

وإن الغمامة، لتقيه ـ مِنْ بين الركب ـ وهج الشمس، وحرّ الهاجرة، حتى إذا استقرّ بهم المقام، رأى الشجرة: قد تهصّرت منها الأغصان، لتظلّل هذا الغلام، المبارك الطلعة.

* *

وكلُّ هذا وذاك، إلى جانب صفاتٍ ومزايا، تحفل بها شخصية ابن أُخيه، مِنْ: صدقٍ في المقال، ورفعةٍ في الأفعال، ومثاليّةٍ في الأخلاق، وجمالٍ في الملامح، وعذوبةٍ في المنطق، وفصاحةٍ في اللسان، و... و... إلى نهاية الحلقة المفرغة، مِنَ الخلال الطيبة، والخصال الحميدة...

وكلُّ هذا جميعاً، يشهده مِنْ غلامٍ، لم يكد يخطو، مِنْ عقده الثاني، سوى عتبته، أو لم يكد...

وكلُّ هذا جميعاً، يشهده مِنْ غلامٍ، لم يكن ليشهد بعضاً، مِنْ ملامحه، في حشدٍ مِنَ الخلق، الذين تجمعهم وإياه بلدٌ واحدٌ، وتربطهم جميعاً عاداتٌ،

في هذه البيئة المنحطة ، والمستوى الواطيء ؛ فلم يعلق به شيءٌ مِنْ عاداتهم الدون ؛ ولم يشاركوه في شيءٍ مِنْ خصاله الرفيعة... فما وجد فيه شيئاً ، ينكره عليه •

وما كان هو ــ وحده ــ بالذي لمس هذه الظاهرات ، مِن ابن أُخيه • بل إن مكة كلّها ، لتعرفه « الصادق الأمين » ، وترضى به حكماً ــ يقول فتطيع... ويحدّث ، فتصدّق... ويأمر ، فتذعن...!

زواج

تلك الرحلة الموفّقة ، دفعت أبا طالبٍ ــ وهو المقلُّ مِنَ المال والمكثر مِنَ العيال ...

... دفعته لأن يطارح ابن أخيه الحديث ، ليدفعه إلى عملٍ ، يستدرُّ منه الربح ، ويخفّف عنه ثقلُ الحاجة اللحوح... فإن لابن أخيه لمستقبلاً ، لا يرضى له أن يكون : عالةً ، أو خمولاً ...

لقد رأى أن خير عملٍ يليق به ، هو: أن يخرج في تجارةٍ ، لواحدٍ مِنْ هؤلاء الأثرياء • وإن مكانة ابن أخيه ، التي يتمتّع بها ، والصفات التي نحفل بها نفسه ، لتفرضه على هؤلاء ، فلا يطلبون عنه بديلاً... بل تدفعهم للسباق ، فلن يناله ، إلّا مَنْ كان على جانبٍ مِنَ الحظ موفورٍ •

وتسمع خديجة بالحوار ، بين الرسول وعمّه ، فتبعث إليه ، وهي أشدُّ ما تكون غبطةً : أن يخرج في تجارتها ، هذا « الصادق الأمين » ...

ويعود الرسول : موفور الربح ، مضاعفه... فيوسع له هذا ــ في قلب خديجة الطيّب ــ موضعاً عميقاً ، حتى شغفت به حبّاً ، وتمنّته شريكاً لحياتها ، وليست تجد مَنْ يضاهيه ، أو يدانيه جمالَ ملامحَ ، ومكارمَ خُلقٍ ، وصدقَ مقالٍ ، وأمانةً وعلوَّ فعالٍ ... •

وخديجة ، منذ أصغت إلى غلامها « ميسرة » ــ هذا الذي صحب محمداً ،

في رحلته هذه ـ وهو يقصّ ، عليها ما شاهد مِنْ دلالاتٍ ، حدثت لمحمد في طريقه إلى الشام .

منذ ذلك الحين... شغلتْ بمحمدٍ عمّا دونها ، ورأتْ فيه الرجل الكامل ، الذي يجب عليها أن لا تعدل عنه زوجاً كريماً .

ولكن كيفَ وأنّى تتحقّق لها هذه الرغبة المتوثبة ، وهناك عادات وتقاليد ، تقف أمامها عنيدةً ، تُعيقها دون البغية المرجوّة ، والأمل الجميل...؟

إن العادة تفرض على المرأة : أن يتقدّم إلى خطبتها الرجل... أمّا هي ، فلا تسمح لها أن تتقدم ، طالبةً يد مَنْ تهوى...!

فهل لها أن تقف أمام هذه العادة ، مكتوفة اليد ، ليتبعثر منها الرجاء الحلو ، والأمل المنعش...!؟

أم تتخطّى هذا السدّ ، قبل أن يتحطّم عليه قلبها وأملها ، وتضيع حياتها ، عندما يكون محمدٌ نصيب غيرها ؟!.

واهتدت إلى حلٍّ ، تحطم به هذه العادة ، دون أن يشعر أحد بأنها قد تخطت سُور هذه التقاليد الموروثة . فدسّتْ للرسول : « نفيسة بنت مُنْيَة » لتطارحه الحديث ، وتلقي في سمعه رغبة خديجة إليه . فلعلّها تعود إليها بما يطمئن منها الضمير ، ويزيل هذا الكابوس .

لم يكد الحديث من الحوار ، الذي دار بين الرسول « ص » ونفيسة ، يشارف النهاية ، حتى خطت نفيسة لخديجة ، تلقي إليها بالرسالة الناجحة ... وحتى اندفع الرسول ، لعمّه أبي طالب ، يثلج منه الضمير ، بهذا النبأ الضحوك ...

ويعقد حفل الزواج ، فيقوم إمام قريشٍ ، وسيّد العرب ـ يوم ذاك ـ أبو طالبٍ ، ويقول :

[الحمد لله الذي جعلنا مِنْ ذرية إبراهيم : وزرع إسماعيل ، وضئضىء معد(١) ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسوّاس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا حكّام الناس .

ثم إن ابن أخي هذا ـ محمد بن عبدالله ـ لا يوزن برجلٍ ، إلّا رجح به : شرفاً ، ونبلاً ، وفضلاً ، وعقلاً . فإن كان في المال قلّ ، فإن المال ظلٌّ زائلٌ ، وأمرٌ حائلٌ ، وعاريةٌ مسترجعةٌ .

ومحمدٌ مَنْ قد عرفتم قرابته . وقد خطب خديجة بنت خويلد ، وبذل لها ما آجله وعاجله « كذا » .

وهو ، والله ! ـ بعد هذا ـ له نبأٌ عظيمٌ ، وخطرٌ جليلٌ جسيمٌ](٢) .

* *

هذه الخطبة ـ مِنْ أبي طالبٍ ـ تدلّنا على شيئين ، ونلمس منها ظاهرتين ، يقرّهما أبو طالبٍ .

لقد افتتح مقاله ، بحمد الله ، الذي جعلهم ، مِنْ ذرية إبراهيم ، وزرع

---

(١) الضؤضؤ والضئضىء : الأصل والمعدن .

(٢) السيرة النبوية ص ١٠٦ ج١ ، والحلبية ١٦٥ ج١ ، وفاطمة بنت محمد ص ٤٤ ، وشرح النهج للحديدي ٣١٢ ج٣ ، وأبو طالب ص ٤ ، والحجة ٣٦ ، والبحار ١٣٥ ج٦ ، وتذكرة الخواص ٣١٢ ، والغدير ٢٧٤ ج٧ مسندةً . وذكرت فصولٌ منها في إعجاز القرآن ـ للباقلاني ـ ص ٢٣٤ ، وأعيان الشيعة ص ١٣٧ ج ٣٩ ، والكامل للمبرد ص ١١٧٤ ، ١١٧٥ ج٣ .

وقد شئنا : أن نختصر خطوط هذه الحادثة ، وأن نقف ـ منها ـ عند هذا الحدّ ، حيث مساسه بموضوع الكتاب .

ويرجع لها ، في مصادرها ، مَنْ شاءها مفصّلةً .

إسماعيل . فلم تنل منهمُ الوثنية المنحطة ،ولم تدنّسهم بأوضارها... فكانوا عنصراً ممتدّاً ، وإشعاعةً باقيةً ، تتصل بالنور الأول ، وتبقى رمزاً أبديّاً ، ودعوةً ممتدةً ، للحنيفية البيضاء ...

وإن هذه الظاهرة ، التي امتازوا بها ، جعلت منهم حضنة البيت الحرام، الذي شاده ـ بأمرٍ مِنَ الله ـ أبوهمُ الخليل . فهم ـ وحدهم ـ سوّاس الحرم...وبذلك كانوا حكام الناس ...

غير أن هذا كلّه ... ليس غير مقدمةٍ ، لِما بعده ...

فراح يشيد بقيمة ابن أخيه المعنوية . فهو : الكميل مِنْ بين هؤلاء كلّهم، والراجح الكفة ، في ميزان القيم والمعنويات.فليس مَنْ يدانيه ـ بله يرجحه ـ في صفاته ومزاياه ...

وهو ـ بعد هذا ـ سيبلغ ما لم يبلغه اليوم . فله بعد هذا ـ ويقسم عندئذٍ بالله . وللقسم ـ هنا ـ معناه وقيمته ، في ما يذهب إليه ...

... فله شأنٌ عظيمٌ ، وخطرٌ جسيمٌ ...

وليس ، غير اختياره لعبء الرسالة ، وهداية البشر ، ليختم صفحة النبوة ، بسطرٍ على إشعاع سنيٍّ ، وإشراق حرفٍ .

ليس غير هذا ... ذلك« الشأن العظيم»،أو «الخطر الجليل الجسيم».

فهو : ينظر مِنْ حياته ، إلى أبعد مِنْ واقعه ـ اليوم ـ ليعلن لهذا الحفل البهيج ، بهذه البشرى . وليقرب منهم هذا « الشأن » ، لئلا يفجأهم ، أو ليكونوا منه على ارتقابٍ ...

في فجر الدعوة

الفجر الأول

إن اليتيم ، الذي قضى هذا الأمد ، في كنف بيضة البلد ، فسهر هذا على راحته ، وتحوّطه بعنايته ... أصبح ـ اليوم ـ مفتول الساعد ، عبل الذراع . فهو ربُّ بيتٍ، وأبٌ لأطفالٍ، تكوّن أسرةً ، تريد أن تحيا حياةً صالحةً ، فتتوفر فيها مقوّمات الحياة الفضلى ـ يوم ذاك ـ وأسباب الإستقرار . وإنها لفي فيضٍ، مِنَ السعادة والإطمئنان ... حتى وإن كان ربها ـ مِنَ المال ـ لعلى قلّةٍ .

فهل انتهت ـ بذلك ـ المهمة ، التي تحمّلها شيخ الأبطح ، منذ لدونة غصن ابن أخيه ، ونعومة أظفاره ، إلى اليوم ، فأدّى بذلك وصية أبيه ، في هذا الحفيد اليتيم ، وقضى واجبه تجاهه ، ليفرغ ـ اليوم ـ للعناية بأولاده ، ولم يحصلوا إلا على النزر منها ـ طيلة هذه المدة ـ حيث آثر بها ابن أخيه ، وأوقف عليه دونهم : قلبه ، وراحته ، وعاطفته ؟!.

إن الجواب محتومٌ أن يكون : « لا ...! »

قد يكون الجواب : « نعم ! » ، أو قد يكون مفروضاً أن يكون« نعم»، لو كان اليتيم ، غير يتيم عبدالله بن عبدالمطلب ...

لو كان أيُّ واحدٍ مِنَ الناس ، غير هذا ، الذي سيغيِّر مجرى التأريخ ، وسيفيض بالسنى والنور ، على هذا الكون المدلهمِّ؟ .

أمَّا واليتيم — الذي ظلَّ في رعاية بيضة البلد — هو ابن عبدالله ، فإن المهمَّة لم تنته ، عندما كان هذا اليتيم زوج خديجة ، وأباً لزهراتٍ باسماتٍ...
بل إن المهمة ، لم تبدأ ، سوى اليوم ، الذي طوى فيه الرسول أربعين عاماً ، مِنْ سنيه ...

وإنه لليوم المنتظر ، الذي ودَّ عبدالمطلب — مِنْ عميق أعماقه — أن يدركه فيشهد إشراق سناه ، وباهر نوره ، ويؤمن بما فيه مِنْ حقٍّ... وإذ رأى منه حبل الحياة ، على انقطاعٍ ، أوصى به ابنــه الأثير ، ليرعاه ويكلأه وحده ، وأشرك معه أبناءه جميعاً ، ليؤمِنَ به منهم ، مَنْ يــدرك هذا اليوم العظيم .

وأبو طالبٍ ... منذ ذلك اليوم ... وهو يرقب فجر يومه هــذا ، وينتظره بنفاد صبرٍ ، وعدم تصبُّرٍ . فلا يريد أن يبعد بزوغ فجر هذا اليوم ، ولا يدري إلى متى ، ستمتد رقعة عمره ؟ ومتى ستطوى صفحة حياته ؟ فيخشى أن يدهمه الموت — مثله مثل أبيه ، مِنْ قبل — فلا يشهد فجر هذا اليوم ، ويفوته شرف الإيمان بما فيه مِنْ جلالٍ ، وحقٍّ ، وعظمةٍ ...

●

أجل إن ذلك اليوم ، قد أطلَّ بوجهه البسَّام ، ومحيَّاه الضحوك .
وها هو ذا أبو طالبٍ ، وقد أشرق منه الوجه ، وتفتَّحت منه الأسارير ، وبدت عليه بشائر الخير ، وشارات الرضى والاطمئنان ، إذ لمح — بعينيه — فجر ذلك اليوم المنتظر ...

فهذا ابن أخيه ﷺ قد ذهب لعمِّه العباس — أخيه — ليقول له :
« إنَّ اللهَ قدْ أمرنيْ بإظهارِ أمريْ » .

ويطلب منه النصرة ، ليشدَّ أزره ، ويقوي ساعده . غير أن العباس ، لا يجد مِنْ نفسه القدرة والكفاءة ، ليقوم بعبء هذه المهمة البهيظ ، ويقول له ، بعد عذرٍ مبسَّطٍ :
ولكن قرِّب إلى عمك أبي طالبٍ ، فأنه أكبر أعمامك... إن لا ينصرك ، لا يخذلك ، ولا يسلمك] .

ولا تكاد باصرة أبي طالبٍ ، تلتقط شبحيهما ، حتى يهتف :
« إن لكما لظنَّةً وخبراً . ما جاء بكما في هذا الوقت ؟! » .
ويصغي لأخيه العباس ، وهو يبسط له ما جاء به ابن أخيه ، وما دار بينهما مِنْ حديثٍ ، وإذا به قد ركَّز نظره في ابن أخيه ، وقد أشرق مِنْ عينيه بريقٌ جذَّابٌ ، سلَّطه على ابن أخيه ، كالمجهر الذي يشفُّ عما بين الطوايا .

ثم يقول له هذه القولة ، التي تُشيع في قلب محمدٍ غبطةً ، وتشجع منه الجنان ، وتعطيه طاقةً وقوةً على المضيِّ في أمر ربه ، بثباتٍ ، وشجاعةٍ ، واطمئنانٍ ، وقوة إيمانٍ... فلديه سندٌ يقيه الزعازع ، وحصنٌ يلجأ اليه ، عند نذر الإعصار المارد :
[اخرج — ابن أبي ! — فإنك الرفيع كعباً ، والمنيع حزباً ، والأعلى أباً !. والله لا يسلقك لسانٌ إلا سلقته ألسنٌ حدادٌ ، واجتذبته سيوفٌ حدادٌ.. والله لتذلَّنَّ لك العرب ، ذلَّ البهم لحاضنها !.

ولقد كان أبي ، يقرأ الكتاب جميعاً... ولقد قال : إن مِنْ صلبي لنبيّاً ، لوددتُ أني أدركت ذلك الزمان ، فآمنتُ به . فَمَنْ أدركه مِنْ ولدي ، فليؤمنْ به][1] .

* *

---

(1) ذُكرت في الغدير — ص ٣٤٨ : ٧ — وجاء فيه : أخرجها فقيــه الحنابلة ابراهيم بن علي الدينوري ، في كتابه « نهاية الطلب وغاية السؤل ←

شاء أبو طالبٍ أن يوفي محمداً حقَّه ، فيذكر صفاته وسؤدده . ثم راح يطمئنه ويشجعه ، ليمضي قدماً ، إذ وعـده النصرة والتضحية في سـبيل رسالته ...

ثم بَعُدَ منه النظر ، إلى المستقبل الباسم ، الذي سيصل إليه ابن أخيه ، فتذل له العرب ، وتؤمن بدعوته ، وتسلم إليه أمرها...

وعادت به الذاكرة ، إلى شخص أبيه ، حيث ألقى إليه ، وإلى والده ، وصيته ... وها هي ذي قد تحققت ... وها هو ذا النبيُّ قد بُعث ... فعليه أن يؤمن به ، وينصره ، لترضى روح عبد المطلب ، وتهنأ ، ويقرَّ عيناً ...

* *

وهي — إلى هذا — مفتاحٌ لمستودع إيمان أبي طالبٍ . فهي — على أقل تقدير ، إذا لم تتلفت إلى تلك الدلائل والشارات — فهي أوّل البراهين على إيمانه العميق ، واعتناقه للدعوة المحمدية ، واطمئنانه لصدقها ...

ولولا ذلك... لكان أوّل المنكرين عليه ، والثائرين في وجهه . وإنـه لفي مقدوره ذلك ، ومحمّدٌ ربيبه ، ودعوته — بعد — لم تنشط ، ولم يكد يتقبلها أحدٌ... فهي : بذرةٌ لم تقم لها ساقٌ ، ولم يصلب لها عودٌ... فمِنَ اليسير : أن يسحقها ، دون أدنى صعوبةٍ...

أو — على أقلّ تقديرٍ — يدَعُ ابن أخيه وشأنه ، دون أن يعده النصرة ،

← في مناقب آل الرسول » . وأرجع القارىء — أيضاً إلى « الطرائف » للسيد ابن طاؤوس — ص٨ — و «ضياء العالمين » للشيخ أبي الحسن الشريف.

وذُكرت في « شيخ الأبطح » — ص ٢٢ — وفيه : إن إبراهيم هذا ، أخرجها بعدة أسانيد .

وذُكر القسم الأخير — من قولة أبي طالب هذه — في العباس ص ١٨ و ٢١ .

ودون أن يبثّ فيه روحاً دافقةً ، وعزيمةً صُلبةً .

بينما نرى أبا طالبٍ : على عكس ذلك . فهو — في قبوله هذه الدعوة — كمن يرتقب حدثاً ، سيكون بين لحظةٍ وأُخرى ... وإذ رأى الشارات الأُولى ، لم تكن عليه مفاجأةً ، ولا حدثاً غريباً .

لذلك ... لم يكدِ العباس يُنهي قوله ، ويُدير في ابن أُخيه نظرتـه البعيدة ، حتى بدأ قوله آمراً ابن أُخيه يبثّ لدعوة : « اخرج — ابن أبي ! » .

فلو لم يكن بدعوته مقتنعاً ، ولصدقها مطمئناً ، لَمَا كان يقول ما قال ، ولَكُنّا نشهد منه موقفاً واهناً ، غير هذا الموقف المشجِّع ...

ولكن الإيمان بالدعوة ، والإطمئنان إليها ، يفرضان عليه هذا الموقف العظيم ، ليمدَّ ابن أُخيه بقوةٍ وثباتٍ وشجاعةٍ . فالمهمة التي أُلقيت على كاهله بهيظة المحمل . فعليه : أن يؤازرها ، ويدافع عنها ، وينصرها نصـراً مبيناً ، وهو العليم بأنها رسالة السماء ، والتي بشّرت بها الكتب المقدسة ، مما قرأ عبدالمطلب .

يوم الانـذار

وتلا ذلك اليوم يومٌ آخر ، لا يقلُّ روعةً وجلالاً ، عن ذلك اليوم ... فحين تلقّى الرسول مِنَ الملاك آية الإنذار ، أمر علياً — وهو المؤمنُ الأول بالدعوة — أن يدعو إليه « عشيرته الأقربين » ، مِنْ رؤساء قريش ، فألقى إليهم ما يريد مِنْ هذا الإجتماع ، والغاية منه .

وتفرّق الجمع ، دون جدوىً . وعاد فجمعـه — مرّةً أُخرى — فهو « رائدٌ لا يكذب أهله »، وهو رسول الله إليهم — خاصّةً — وللعرب ، عامةً .

وإذ انتهى الرسول مِنْ دعوته ، بادره عمه أبو طالبٍ ، بالقول :

[ما أحبَّ إلينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشدَّ تصديقنا لحديثك . وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلى ما تحبُّ . فامضِ لِمَا أُمرتَ به . فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أن نفسي ، لا تطاوعني على فراق دِين عبدالمطلب][1] .

فعارض أبو لهبٍ أبا طالبٍ، في المقال :

« هذه ـــ والله ! ـــ السوأة !. خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم »

وإذا بأبي طالبٍ، يجيبه :

« والله لنمنعنَّه ما بقينا »[2] .

ثم يلتفت لابن أخيه ، ليقول له :

[قم ـــ يا سيدي ! ـــ وتكلّم بما تحبُّ ، وبلِّغ رسالة ربك ، فأنتَ الصادق المصدَّق][3] .

* *

يا لروعة الإيمان ، تملك على ابن عبدالمطلب نفسَه ، فيندفع : مصدِّقاً ، مؤمناً ، مشجِّعاً ، مِنْ بين قومٍ يربو عددهم على الأربعين ، قد نسج الجهل على عيونهم غشاوةً ، فلم تستطع عينٌ منهم أن تكتحل بهذا النور المشرق .

إنه ليحبُّ معاونته ، ويقبل نصيحته ، ويصدِّق حديثه ...

فهل هذا غير الإيمان العميق ، والانقياد الصادق ، والطاعة مِمَّنْ يعرف ويختار ، لا مِمَّنْ يجهل ويُسيَّر...؟

إنه لأسرع بني أبيه لما يحبُّ ... فعليه أن يمضي لِمَا أُمِر به ... فوالله

(١) الكامل لابن الأثير ص ٤١ ج٢ .
(٢) الكامل لابن الأثير ص ٤١ ج٢، والسيرة الحلبية ٣٣١ : ١ .
(٣) شيخ الأبطح ص ٢٢، والغدير ٣٥٥ : ٧ ـــ مسنداً لمراجع .

ليحوطنّه ويحميه ، ويدفع عنه العوادي ...

أليس هو الإيمان الناطق ؟. فهو يبذل المعونة ، ويأمره بإنفاذ أمر ربه ، والصدوع برسالته ...

فهو لو لم يكن ذلك المؤمنَ بالدعوة، والمطمئن لصدقها ، لكان له حديثٌ، غير هذا الحديث ، وموقفٌ يغاير موقفه هذا ... وكذلك رأينا أبا لهبٍ، كيف وقف ، وكيف أشار... حتى كان بينهما حديثٌ ، اضطرَّ ـــ خلاله ـــ أبو طالب : أن يثور في وجهه ، وأن يضعه مكانه :

« اسكتْ ـــ يا أعور ! ـــ ما أنت وهذا...؟ »[1] .

ألم يكن أبو طالبٍ، وأبو لهبٍ، عمَّيِ الرسول ؟.

فلِمَ يقف كلٌّ منهما موقفاً ، يخالف الآخر ، أتمَّ الخلاف...؟

فهذا يضحّي في سبيله ، بما يستطيع ، ويثبته ، ويشجّعه ، ويقف في جانبه ، ينافح عنه ويكافح ، ويسلق عتاة قريشٍ، بلسانٍ أحدّ ، غير آبهٍ ، ولا خوّافٍ...؟

وذاك يقف ذلك الموقف الواهن ، ينال مِنَ الرسول ، ويفرّق عنه القوم ، ويقطع عليه حديثه ، ويسخر مما جاء به...؟

ألم يكنِ الإيمان ـــ وحده ـــ هو الذي يفرض على أبي طالبٍ، أن يقف موقفه هذا ، ولا يحيد عنه...؟

كما أنَّ الشرك ـــ وحده ـــ هو الذي يفرض على أبي لهبٍ : أن يقف موقفه ذاك، ولا يحيد عنه...؟

* *

وأبو طالبٍ، بعد ما أخذ ، مِنْ حديثه ما أُخذ ، وأظهر لعتاة قريشٍ : أنه

(١) البحار ص ٤٥٠ ج٦، والغدير ص ٣٥٥ ج٧، وشيخ الأبطح ص ٢٢ .

قدر انصاع لدعوة محمدٍ، وأنها قد احتلّت مِنْ قلبه السويداء — رأى عيوناً شزراء، تلتهمه بنظرها الحاقد... فرأى: أنْ يعمّي على هؤلاء موقفه، وذلك لصالح الدعوة المحمدية، فينفسح لديه طريق الجهاد والدفاع، والمناصرة الفعالة:

« غير أنّ نفسي، لا تطاوعني على فراق دِين عبدالمطلب ... »

وما دِين عبدالمطلب هذا ...؟

إنه الحنيفية البيضاء: دين إبراهيم الخليل. وما هذا الدّين، إلا امتدادٌ لشعلة ذلك الدّين، وامتدادٌ لتلك الدعوة العميقة، وإكمالٌ للأديان الإلهية.

وإن هذا خير طريقٍ، رأى أبو طالبٍ أن يسلكه، فيعمّي على هؤلاء، الذين أُقفلت قلوبهم، وعميت منهمُ العيون.

لذلك ... لم يكد يرى مِنْ أبي لهبٍ موقفه المشين، حتى وقف محتدماً، ثائراً في وجهه، ليردّه إلى حيث يجب أن يكون ...

ثم وجّه القول لابن أخيه: « قم يا سيدي ! ».

وهذه الكلمة — «سيدي» — برهانٌ ناطقٌ على إيمان أبي طالبٍ.

« سيدي »: كلمةٌ يوجّهها أبو طالبٍ، ليتيم أُخيه وربيبه .. وهو — لولا النبوّة — له عليه حقوقٌ ... وكان أولى أنْ يقولها إليه ! فهو عمّه ومربيه، وكافله، ويكبره سنّاً ...[1] — وكلّها حقوقٌ له على ابن أخيه،

(1) لسنا مِمّنْ يرى للسنّ — وحدها — قيمةً ذاتيةً، تضع المسِنّ، في منزلةٍ وقيمةٍ، فوق مستوى مَنْ يدنو عنه في السن، إذا لم تكن للمسن ميزاتٌ أخرى...

فالشخص الذي يرى لنفسه الأفضلية بالسن — وحدها — إنما هو شخصٌ فاقدٌ لكلّ الخلال المميزة، والراجحة في ميزان القيم. فهو يتشبّث بهذه الخلّة التافهة، ليخفي النقص، ويستر الفقر المدقع، المتردي فيه، ويتشبث ←

تضعه موضع احترام ابن أُخيه، وتفرض على محمّدٍ أنْ يوجّه إليه كلمات التعظيم والإجلال ...

ولكن الله أعطى محمداً — حين اختاره لرسالته — حقوقاً، هي فوق كلّ هذا... فهو المصباح الذي تهتدي به الإنسانية، في محلولك طريقها الملتوي. فهو — بذلك — فوق العمومة، والتربية، والكفالة، والسن، وغيرها ...

كلّ هذا ... لمحه أبو طالبٍ، حين انبعث مِنْ حنجرته: « قم — يا سيدي ! ». فهو سيده، ما دام رسولُ ربه، وقد فُرضت عليه طاعته، وتصديق رسالته، والانصياع لأوامره ونواهيه.

ولذلك أردف على قوله: « يا سيدي ! » بقوله:

« وتكلّم بما تحبّ، وبلّغ رسالة ربك، فإنك الصادق الصدّيق — أو المصدّق ».

فما دام هو الصادق، الذي لا يقول الكذب، والذي لو أخبر بأن

← بالطحلب، الذي لا ينجو به الغريق. ولكن التشبث بهذه المزعمة، قديمٌ في تأريخنا الإسلامي، حيث فرضته ظروفٌ سياسيةٌ زمنيةٌ، ومادية بحتة.

وخير ما نزن به الإنسان، هو قولة الإمام عليٍّ عليه السلام: [قيمة كلّ امرئٍ ما يحسن]، و:

[المرء بأصغريه: قلبه ولسانه].

ونعود فنقول: بأننا لسنا مِمّنْ يرى للسن — وحده — أية قيمةٍ ذاتيةٍ، ما لم تكن للمسن ميزاتٌ أُخرى، فيكون السن — حينئذٍ — مما يشدّ بقيمة تلك المميزات. أو إن تلك المميزات الأُخرى، تُضفي على السن شيئاً مِنْ قيمها، فتتماسك، وتلتحم، لينتج منها الجلال والوقار، الذي يبدو وراء السنين الطوال، التي مرّ بها المسن ... فاكتسب منها التجارب النافعة، وحنّكته الأيام، بدروسها المفيدة ...

خيلاً ، تخرج مِنْ شقِّ جبلٍ ، لَمَا استطاع واحدٌ مِنْ أهل مكة : أنْ يفوه بكلمة تشكيكٍ ! ــ فكيف له أن ينكر رسالته ، والزمن لها مرتقبٌ ، والنذر تترى ، والبشائر تتواصل ، والطبيعة تحتم طلوعه...؟

ثم وجد عيوناً تتغامز ، وألسنةً تتهامس ، حتى وصلت لسمعه كلمةٌ ، فيها تهكمٌ وسخريةٌ :

« قد أُمرك أن تسمع لابنك »[1] ــ يعنون عليًّا ، حين نصَّ عليه الرسول بالوصاية .

ولكنه لا يأبه لِمَا يقولون ! ولا يزعزعه هذا القول مِنْ هؤلاء ! فيجيبهم بكلمةٍ ، يقطع عليهم بها مجال القول ، ويعطي ابنه طاقة تشجيعٍ :

« دعوه فلن يألوَ ابن عمِّه خيراً ... »[2] .

✲ ✲

وما كانت هذه القولة ــ مِنْ أبي طالبٍ ــ بالأُولى ، التي يسمعها الإمام عليٌّ ، مِنْ أبيه ، وتحمل مدى رضاه وارتياحه ، لنصرة ابن عمه ، سيِّد البشر...

لقد رآه ــ في يوم الرسالة البكر ــ وهو يصلِّي خلف الرسول ، وقد اختفيا ، حذراً مِنَ المشركين ، وإذ أجاب عليٌّ أباه على سؤاله :

« يا أبت ! آمنتُ بالله وبرسول الله ، وصدَّقتُه بمــا جاء به ، وصلَّيتُ

---

(1) الكامل لابن الأثير ٤١ ج٢ ، والطبري ٦٣ : ٢ ، وغــاية المرام ٧٠ و ٧٨ و ١٥٣ و ١٦٤ و١٨٥ و٣٢٠ و٣٢٢ و٦١٣ ، والغــدير ٢٧٩ ــ ٢٨٣ : ٢ ، و ٢٠٩ : ٣ ، وأعيان الشيعة ٩٨ ــ ١٠٢ ج٢ و١٦٤ : ٣٩ ، ونقض كتــاب العثمانية ــ وهي في رسائل الجاحظ ــ ص ٣١ ، والدعوة لسيدنا الوالد ــ ص ١٢٤ و٢٤١ : ١.

(2) الغدير ٣٥٥ : ٧ .

معه لله واتبعته » .

ــ أجابه أبو طالبٍ :

« أما إنه لا يدعوك إلَّا إلى خيرٍ ، فالزمه »[1] .

✲ ✲

إنها كلمةٌ ، تنمُّ عن إيمانٍ واطمئنانٍ عميقين ، في قلب قائلها ... فليس يدعو الرسول لسوى الخير ... ومَنْ هو داعٍ للخير ، فعلى كلِّ عاقلٍ أن يلزمه ، لعله ينال نصيباً مِنْ خيره ...

إنها لدليلٌ ــ مِنْ بين تلك الدلائل ، الوفيرة العدد ــ على إيمان بيضة البلد ... وإلا لو لم يكن ذلك المؤمِنَ بالدعوة ، فما له ، وللدعاية لهــا ، وتثبيت ابنه على اعتناقها والتزامها...؟

بل لو لم يكن كما كان ، لرأيناه : ينهى ابنه عليّاً ، عن الإنصياع لها ، وأن يرفض ما جاء بها . فهذا ابنه ، وهو أوَّل مَنْ يبذل له النصيحة ، ويأخذ بيده إلى ألحب الطرق ــ ولو حسب رأيه !.

فلو لم يعرف : أن في لزوم عليٍّ لابن أخيه ، واعتناقه ما جاء به مِنَ السماء ... لو لم يره خيراً ــ وليس يدعو محمَّدٌ لسوى الخير ــ لَمَا قال له قولته هذه ... ولزجره ، ونهاه ، وأنَّبه وردعه .

✲ ✲

---

(1) الطبري ٥٨ : ٢ ، والإصابة ٢١٦ : ٤ ، والسيرة الهشامية ٢٦٤ : ١ ، والنبوية ١٧٦ : ١ ، والحلبية ٣٠٦ : ١ ، وشرح النهج ٣٠٥ : ٣ ، وينابيــع المودة ١٦٨ [٢٨ : ٢] ، والرياض النضرة ١٥٩ : ٢ ، وغاية المرام ٥٠٠ ، وأبو طالب ٥٠ ، والعباس ٢٣ ، والغدير ٣٥٦ : ٧ مسندةً إلى بعض المصادر ، ممَّا ذكرنا ، وإلى تفسير الثعلبي ، وعيون الأثر ٩٤ : ١ ، وأسنى المطالب ١٠ .

وذكرها الإسكافي ، في نقض العثمانية ــ رسائل الجاحظ ص ٥١ .

وذُكرت في الإمام علي صوت العدالة ص ٣٥ ، وفيه ص ٥٧ ، ٥٨ : ١ .

وليس هذا ، هو السطر الأوحد ، في هذه الصفحة المشرقة ، من تاريخ أبي طالب النصيع • بل إن له سطوراً أخرى هي على إشراقٍ وسطوعٍ كهذا •••

فقد روي عن الإمام عليٍّ « عليه السلام » قوله :

قال لي أبي : يا بنيَّ ! الزم ابن عمك ، فإنك تسلم به من كلِّ بأسٍ آجلٍ وعاجلٍ • ثم قال لي :

إنّ الوثيقة في لزوم محمّدٍ فاشدد بصحبته ـ عليُّ ! ـ يديكا[1]

فهو ـ هنا ـ قد دلَّ ابنه على : أن لزوم ابن عمه ، فيه السلامة من كلِّ بأسٍ في دنياه هذه ، وفي أُخراه •••

إنه للإيمان باليوم الآخر ، يوم تُوفّى فيه كلُّ نفسٍ أجرها ، وتقدم على فعلها •••

وإنه ليرى الرسول ـ مرّةً أُخرى ـ وهو يصلّي ، وعليٌّ عن يمينه ، فيقع منه النظر على ابنه جعفر ، ويهتف به :

« صِلْ جناحَ ابن عمك ، فصلِّ عن يساره »[2] •

---

(١) الشرح الحديدي ٣١٤ : ٣، والحجة على الذاهب ٦٣، وأعيان الشيعة ص ٩ ج٣ ق١، و١٤٤ ج٣٩، وهاشم وأُمية ١٦٣ •

(٢) السيرة النبوية ١٧٧ : ١، والحلبية ٣٠٤ : ١، والإصابة ١١٦ : ٤، والحديدي ٢٧٢ : ٣، والحجة ٦٥، والبحار ٤٠٣ و٤٤٤ و ٤٤٥ : ٦، وأعيان الشيعة ٩ : ٣ ق١، و١٠ ، ١١ ج ١٦، و ١٣٩ ج٣٩، وتفسير علي بن إبراهيم ص ٣٥٣، وأبو طالب ٥٠، وهاشم وأُمية ١٦٣، والغدير ٣٥٧ : ج ٧ مسندةً ـ بالاضافة لبعض المصادر ، ممّا ذكرنا ـ إلى: أُسد الغابة ٢٨٧ : ١، وأسنى المطالب ٦ والأوايل للعسكري •

وذكرها الإسكافي ، في حادثةٍ : في رسالته : نقض العثمانية ـ راجع رسائل الجاحظ ص ٤٩ و ٥١ •

وإذ ذاك تنطلق حنجرة أبي طالبٍ ، بهذه الأبيات ، التي يذكر فيها ابنيه : عليّاً وجعفراً ، وهما ثقتاه ، عندما يلمُّ به الزمن ، وتنوبه النوب ، فيختارهما لمهمّة فضلى ، هي : نصر ابن عمهما :

إنّ عليّاً وجعفراً ثقتي عند ملمّ الزمان والنّوبِ
لا تخذلا ، وانصرا ابنَ عمكمَا أخي لأُمّي ـ من بينهم ـ وأبي
والله لا أخذلُ النبيَّ ، ولا يخذلُهُ ـ من بنيَّ ـ ذو حسبِ[1]

أرأيتَ هذا الإعتراف السافر : « والله لا أخذل النبيَّ »•••؟

إنه لقسمٌ عظيمٌ ، قد وفّاه أبو طالبٍ ، وقام به ، فلم يخذله طوال حياته ، ولم يخذله من بنيه أحدٌ ، قد ورث منه هذا الحبَّ ، والشرف الضخم •••

* *

ومرّةً أُخرى : يهتف بأخيه الحمزة ـ أبي يعلى ـ ويدعوه لإظهار دين الله ، وأن يصبر على المكروه ، الذي سيلقاه ، نتيجة هذا الإظهار ، فعليه أن يحوط مَنْ أتى بالحق من ربه ، بنصرٍ صادقٍ ، وعزيمةٍ ماضيةٍ •••

ولندع أبيات أبي طالبٍ ، تصل إلى سمعنا بصافي نبرتها :

••• فصبراً ـ أبا يعلى ! على دين أحمدٍ
وكنْ مظهراً للدّين ـ وُفّقتَ ـ صابراً

وحُطْ مَنْ أتى بالحقّ ، من عندِ ربّهِ بصدقٍ وعزمٍ ، لا تكنْ ـ حمز ! ـ كافراً
فقد سرّني ، إذْ قلتَ : أنّكَ مؤمنٌ فكنْ لرسول الله ـ في الله ـ ناصراً

---

(١) النهج الحديدي ٢٧٢ و٣١٤ : ٣ والحجة ٦٥، وديوان أبي طالب :١١، وشيخ الأبطح ٣٨، وإيمان أبي طالب ١٩، وأعيان الشيعة ٩ :٣ق ١، و ١١ : ١٦، و١٤٤ : ٣٩، ومعجم القبور ١٩٦ و ٢٠١ : ١، والغدير ٣٥٦ : ٧ ـ مسندةً لديوان أبي طالب ، والأوايل للعسكري ـ ونقض العثمانية ، رسائل الجاحظ ص٤٩•

ونادِ قريشاً بالذي قدْ أتيتَهُ جهاراً ، وقلْ : ما كانَ أحمدُ ساحراً[1]

إنه لداعيةٌ إسلاميةٌ ، يهتبل الفرصة ، ليعبّر عما يكنّه في صدره ، ويعرض ما يحفل به جَنانه ...

فإنه لَمِنْ دواعي سروره:أن يقول حمزة : إني مؤمِنٌ ... وإذ قالها ، فعليه:أن ينصر الرسول ، نصرةً إلهيةً ... نصــــرة الحق للحق ، مِنْ دون نظرةٍ أُخرى ، كواشجة قرابةٍ أو دمٍ . فالدِّين قبل كلِّ شيءٍ ، والعقيدة فوق كلِّ شيءٍ ...

* *

ولعلَّ مِنَ الخير : أن نختتم هذا الفصل ، بكلمةٍ للبرزنجي ، تتناسب وما عرضناه هنا ... فقد قال :

(تواترتِ الأخبار : أن أبا طالبٍ ، كان يحبّ النبي ، صلى الله عليه « وآله » وسلم — ويحوطه وينصره ، ويعينه على تبليغ دِينه ، ويصدِّقه في ما يقوله ، ويأمر أولاده — كجعفرٍ ، وعليٍّ — باتباعه ونصرته) .

وقال :

(هذه الأخبار كلّها ، صريحةٌ في قلبه ، طافحٌ وممتلئٌ بالإيمان بالنبي صلى الله عليه « وآله » وسلم) (٢).

---

(١) الشرح الحديدي ٣:٣١٥، والحجة على الذاهب٧١، والمناقب٣٦، والبحار ٤٥٤ : ٦،والعباس ٢٢،وإيمان أبي طالب ١٦ — وقد أسندها المحقق ، لكلٍّ مِنْ : مناقب ابن شهر أشوب ، وإصابة ابن حجر ، والشرح الحديدي ، ولم يذكر رقم الصفحات . لذلك لم نعثر عليها في الإصابة — وذُكرت في الأعيان ص ١٤٤ ، ١٤٥ : ٣٩ . وذُكر الأول والثالث في مجمع البيان ٣٧ : ٧ .

(٢) ص ٣٥٨ : ٧ مِنَ الغــدير ، مسنــدةً إلى ص ٦ و١٠ مِــنْ « أسنى المطالب » .

جهــــاد

نشطت دعوة الرسول ، وامتدَّ لها شعاعٌ ، وسطع منها نورٌ ... فإن لديه لحصناً منيعاً ، يقيه الهزاهز ، ويمنع عنه الإعصار ...

فأبو طالب قد عاهد الله على نصرة دِينه ، الذي جاء به ابن أخيه « ص » فهو يحوطه وينصره ، ويبذل في سبيل ذلك أغلى شيء في الوجود ، حتى ولو روحه ، التي تخفق في كيانه ،أو فلذة كبده ، التي تدبّ على الأرض ،ويعبّر عنها بـ« الولد »...

وراح الرسول — وقدِ اشتدَّ ساعده ، بهذه النصرة والحياطة — يبثُّ دعوته بنشاطٍ دائبٍ، لا ينثني ولا يخاف ، وله بناءٌ شامخٌ ، يستند إليه ، وظِلٌّ وارفٌ ، يقيل إليه في الهاجرة ...

* *

وهنا .... نفتتح صفحةً،مشرقة السطور ، مِنْ تأريخ أبي طالبٍ النصيح، فنفارق صفحةً ناصعةً ، لأُخرى ، لا تقلُّ عنها : نصوعاً ، ونقاءً، وإشراقاً ...

فتلك : صفحة الإيمان العميق . وهذه صفحة الجهاد الصُّلب ، والحماية الفذَّة ، والبذل والتضحية ، في سبيل المبدإ القويم ، والمعتقد الرسيخ . فيمنع الرسول مِنْ عتاة قريش ، ويفسح المجال — أمامه — وسيعاً ، لنشر رسالته ، وبثِّ دعوته ، فيحوط ويمنع مَنْ آمن بالدعوة ، مِنْ حيف قريشٍ ، وتعذيبها

له ، لتردّه ظلمة الشرك ، بعدما اهتدى بنور الإيمان .

إنها لصفحة مليئة بالتضحية الفذة ، والجهاد الصادق ، والدفاع المتصلب .
وما الحياة غير العقيدة والجهاد — كما يقول شوقي — عقيدة رسيخة ، وإيمان وطيد ، وجهاد صامد . ناطق بلسان حديد ، إن كان اللسان — وحده — يقوم بالمهمة ، وإلا فسيوف صقال ، وسواعد مفتولة ، وعزائم تفل الحديد ، وتفت الصخر الصليد .

لذلك ... نشط الرسول في دعوته ، وقوي صوته ، فخافت قريش هذه الدعوة التي تريد أن تجمع البشر ، ليوحدوا الإله الخالق الرزّاق ، وينبذوا هذه الأصنام والأوثان ، من حجارة صمّاء ، وأخشاب بالية ، لا تسمع ولا تعي ، لا تضرّ ولا تنفع ... يقف الإنسان أمامها — مقيّداً ، مكتوف اليدين ، كالعبد الذليل ، أو الأسير المغلوب على أمره ، فيفقد القدرة والحرية ، أمام هذا الجماد الميّت ، فيعطي برهاناً على تحجّر العقلية ، ورجعيّة هذه التقاليد ، وتبلّد الحس ، وانعدام العقل ، من هؤلاء ، الذين يشبهون الإنسان — في هيكله الحسي — والجمادات ، في فقدانها للعقل ، والفكر ، والشعور .

ثم نشطت هذه الدعوة ، وكثر المؤمنون بها ، فجهر الرسول بالدعوة ، وسخر بهذه الآلهة المجسّمة ، فقد انقاد لكلّ منها جمع غفير ، من قطعان الأناسيّ ...! وراح يلمسهم واقعهم المرير ... ويدعوهم لنبذ ما هم فيه ، من ضلال وعماية ، ويأخذ بيدهم ، للطريق الأبلج الألحب ، بنوره الوضيء ...

ولكن الأعمى ، لا يدري ما النور ...! وليست الخفاشة ، بالتي يشتدّ لها جناح ، والشمس تحبو في رقعة الكون ...!

* *

لقد ساء قريشاً أن يعيب محمد أصنامهم ، التي يعبدون ، ولم يروا غير أبي طالب ، ينصفهم من هذا الذي جاءهم بالدّين الموحّد ...!

حينذاك ... مشى نفر من أشراف قريش ، لأبي طالب ، يشكون إليه ما لاقوه من ابن أخيه ، من عيب آلهتهم ، فقالوا :

[يا أبا طالب ! إن ابن أخيك ، قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضلّل آباءنا . فإما أن تكفّه عنا ، وإما أن تخلّي بيننا وبينه — فإنك على مثل ما نحن عليه ، من خلافه — فنكفيكه][1] .

فألان لهم أبو طالب في القول ، وتلطّف لهم في الردّ الجميل ، حتى انصرفوا عنه ، والرسول ماضٍ في دعوته ، وإظهار دين الله ...

ولمّا لم يجدوا لشكواهم صدىً محبباً ، ولم تؤت الشر المرجوّ ، والغاية المتوخاة ، أجمعوا أمرهم — مرّةً أخرى — ومشوا إليه قائلين :

[يا أبا طالب ! إن لك سنّاً وشرفاً ومنزلةً — فينا — وإنّا قد استنهيناك من ابن أخيك ، فلم تنهه عنّا ، وإنّا — والله ! — لا نصبر على هذا ، من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفّه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين] .

فوقف أبو طالب ، بين تيّارين عنيفين ، كلّ له أهميته وقوّته واندفاعه ، فهو يخشى أن يعلنها حرباً عواناً مع قومه ، فتأتي على الشيخ والأمرد ... وهو لا يستطيع خذلان رسالة السماء ، ولها في عنقه عهد النصرة ، ولا أن يدع ابن أخيه — وهو رسول السماء — وله عليه حق النصرة — أيضاً — حسب وصية والده الشيخ ، في رمقه الأخير .

جمع أمره ، وصمّم عزمه ، فدعا إليه ابن أخيه ، فأنهى إليه مقالة هذا الوفد . وشاء أن يعرف — من خلال هذا الحديث — عزيمة ابن أخيه ،

(١) هنا ... يظهر سرّ كتمان أبي طالب إيمانه... وإلّا فلولا أنهم يظنونه على دينهم ، لمّا سعوا إليه ، ولبادؤوه العداء ، وناجزوه الحرب ... ولو فعلوا ذلك ، لكانت النتيجة وخيمة على الدعوة ، وبعدُ لمّا يصلب عودها !.

ونشاطه في أداء الدعوة ، فعقّب حديثه قائلاً :

« فأبقِ عليَّ ، وعلى نفسك ، ولا تحمّلني مِنَ الأمر ما لا أُطيق ! » •

ولكنه لم يلمح مِن ابن أخيه ، سوى الصرامة ، والقوة ، والعزم ، والمضاء :

[يا عمّاه ! لو وضعوا الشمسَ في يميني ، والقمرَ في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته] •

وحانت منه نظرةٌ لابن أخيه ، وقد قام ليخرج مِنْ دار عمه ، وللألم في نفسه محلٌّ عميقٌ ، حيث قد ظنّ ـ كما يعلّل بعض المؤرخين ـ بأنه قد بدا لعمه أن سيدعه ويسلمه ، دون أن يحوطه وينصره ، فانهمرت مِنْ عيني الرسول دمعات ...[1]

حانت هذه النظرة مِنْ أبي طالب ، فارتاع ... وعاد إليه العزم الصُّلب ، وقد تغلّب هذا التيار البطّاش ، فكان له النصر... فهو يؤثر نصرة الدّين ، وحياطة الرسول ، حتى لو أثمرت هذه النصرةُ والحياطةُ عداءَ قريشٍ كلّها ، بل ولو العرب أجمع ...

فعليه أن يجاهد ، ولا يستكين ، ما دامتِ المشيئة السماوية ، قد حبته بفيضٍ مِنْ عنايتها ، فاختارته حصناً وكهفاً ، ومربياً وراعياً ، منذ يوم الرسول الأوّل ، وفي فجر الرسالة البكر...

« اقبل ـ يا ابن أخي ! » •

بهذه الكلمة ـ والرقة تسيل مِنْ حروفها ـ نادى أبو طالبٍ ابن أخيه ،

(1) نحن لا نعتقد بأن يظن الرسول في عمه ، مثل هذا الظن ، في الحين الذي يعرف فيه الرسول موقف عمه تجاهه • وليست هذه الدمعات إلا منبثقةً ، مِنَ الشفقة على عمه ، حيث أنه سيقف لأجله ، هذا الموقف الحرج الدقيق !•

فقطع بها حبل الصمت الأخرس ، والتفكير العميق... ثم أردف ، وقد أقبل عليه ابن أخيه :

[اذهب ـ يا ابن أخي ! ـ فقل ما أُحببتَ ، فوالله لا أُسلمك لشيءٍ أبداً][1] •

ثم هتف به ، منشداً هذه الأبيات :

واللهِ لنْ يصلوا إليكَ بجمعِهِمْ ... حتّى أوسَّدَ في التراب دفينا
فاصدعْ بأمركَ ما عليكَ غضاضةٌ ... وابشرْ بذاكَ ، وقرَّ منكَ عيونا
ودعوتَني ، وعلمتُ : أنكَ ناصحي ... ولقدْ صدقتَ ، وكنتَ ـ ثمَّ ـ أمينا
ولقدْ علمتُ بأنَّ دِينَ محمّدٍ ، ... مِنْ خيرِ أديانِ البريّةِ دِينا[2]

(1) الطبري ٦٤ ، ٦٧ : ٢ ، والسيرة النبوية ١٩٦ : ١ ، والحلبية ٣٢٣ : ١ ، والهشامية ٢٨٣ ، ٢٨٥ : ١ ، والحديدي ٣٠٥ ، ٣٠٦ : ٣ ، وأبو طالب ٥٧ ، ٦١ ، وهاشم وأُمية ٦٦ ، وأعيان الشيعة ١٢٧ ، ١٢٨ : ٣٩ . وقد أُسندت في الغدير ـ ٣٦٣ : ٧ ـ إلى مصادر عدّة .

(2) الحديدي ٣٠٦ : ٣ ، والسيرة النبوية ٨٥ و١٩٧ : ١ ، وثمرات الأوراق ٤ : ٢ ، والعباس ٢٢ ، ٢٣ ، وهاشم وأُمية ١٦٧ ، والكشاف ٤٤٨ : ١ (١٠ : ٢) ، وتذكرة الخواص ٩ ، ومعجم القبور ١٨٦ : ١ ، والمناقب ٣٤ ، وديوان أبي طالب ٤٧ ، وأعيان الشيعة ١٢٨ : ٣٩ ، والبيت الأول في الحلبية ٣٢٢ : ١ ، والأخيران في الإصابة ١١٦ : ٤ . وأُسندت في الحجة ـ ٦٣ ـ إلى مصادر عدّة ، وفي شيخ الأبطح ـ ٢٧ ـ مسندةً لعدّة مصادر ، وفي ص ٨٨ أيضاً • وأُرجعت في الغدير ٣٣٤ : ٧ إلى عدّة مراجع ، وذكر فيه : أن الثعلبي ـ في تفسيره ـ رواها ، وقال : [قدِ اتفق على صحة نقل هذه الأبيات عن أبي طالب : مقاتل ، وعبدالله بن عباس ، والقسم بن محضرة ، وعطاء بن دينار] • كما أن البرزنجي عدّه مِنْ كلام أبي طالب المعروف • وقد أخرجه البيهقي في الدلائل ـ كما يقول شارح الكشاف ١٠ : ٢ ـ مِنْ طريق ابن إسحاق ، عن يعقوب بن عتبة بن مغيرة بن الأخنس •

وليس لنا أن نمرّ بهذه الأبيات الأربعة ، دون أن نعيرها نظرةً فاحصةً ...
فهذه الأبيات صورةٌ رائعةٌ زاهية الألوان، بارزة الخطوط ، تعرض لنا إيمان أبي طالبٍ ، في لونه الثابت ، وخطوطه البارزة ، دون أن تمتدّ إليه يدٌ بزيفٍ ، أو غرضٌ بتشويهٍ ...

* *

شاء أبو طالبٍ بعد ذاك الحديث ، الذي دار بينــه وبين قريش ، ثم أنهـاه إلى سمع ابن أخيه ، وقال له قولتــه تلك : التي أعادتِ الطمأنينةَ إلى قلبه، والسكينةَ إلى فؤاده ، والهدوءَ إلى نفسه ...

شاء ــ بعد كلّ هذا ، وقدِ انبعثت حنجرته بهذه الأبيات ، التي صاغهـا الضمير الحيّ ، والعقل الفاحص ، والقلب الحدب ...

شاء : أن يبدأها بما يشيع الإطمئنان في نفس ابن أخيه ، ليعلم بأنــه لــه ، اليوم ، كما كان له قبل اليوم... إنه له ذلك النصير المجاهد الذائد الحدب... وسيكون له كما كان قبل اليوم ــ حتى يلقى ربه ؛ وقد أُعطى الرضا مــنْ نفسه ووفى بالعهد المقطوع ، وحفظ وصية الأب في لحظته الأخيرة ...

فهو لن يحول، ولن يتخلّى عنه . فما عليه مِنْ جمعهمُ الضّال... فإنهم لن يصلوا إليه ، ولن ينالوه ، حتى يُوسّد التراب ، ويُوارى منه الجسم ، ويزول ظلّه مِنَ الوجود ...

والبيت الثاني : صورةٌ أُخرى لِمَا في البيت الأول ، إلّا أنه أمره بأن يصدع بهذا « الأمر » الذي جاء به . فليس عليه مخافةٌ ، ولا غضاضةٌ ، ولا بأسٌ ! بل إن له للبشرى الباقية ، فسوف تقرّ عيناه بالنصر المؤزّر ، والخلود الدائم.

والبيتان الأخيران ، هما الصوت الحــاكي، والصورة الناطقة ، لإيمانــه

العميق ، واطمئنانه للرسالة الأحمدية . ففيهما مِنَ الثناء والاعتراف ، ما لا يصدر إلّا عن مؤمنٍ عميقٍ عميقٍ: إيمان معرفةٍ ، ودراسةٍ ، وتحليلٍ ، لا إيمان تسليمٍ ، واستسلامٍ ، وإذعانٍ...

وتجد ذلك ظاهراً ، في الرابع مِنَ الأبيات ، وهو : مفتاحٌ يوصلنا إلى أن أبا طالبٍ ، كــان لــديه اطـلاعٌ ، ولــديه درايةٌ بالأديان ، التي سبقت دِين ابن أخيــه .

ولذلــك ، بهذه الإحاطة ، والدراية ، والإطــلاع ، استطاع أن يوازن ، ويرجّح ، ويحكم ... فيما عرف : أن دِين محمّدٍ ، هو خير أديان البريّة ...

وليست هذه الحشوة ــ « مِنْ » ــ التي تجيء ، أو تنطلق مِنْ حنجرة أبي طالبٍ ، لولا الضرورة الشعريــة ، التي حتمت بهــا ، ليكــون الوزن صحيحا ...

وكثيراً ما اضطرتِ الضرورةُ هؤلاء الشعراء ، « لأن يروا حسناً ما ليس بالحسنِ » ــ كما يقول أحدهم !.

* *

ولكن الأغراض الخالقة ، والشهوات الراجفة ، مــا كانت لتمرّ بهــذه الأبيات ــ وهي سلاحٌ ماضٍ ، وسيفٌ قاطـعٌ ، يفتّ دعاواهــمُ الباطـلة وأراجيفهمُ المغرضة ، التي وضعت في حقّ شيخ بني هاشم ، لتنال مِنْ ناصع حياته ، وعظيم بلائه ، ورفيع قدره ، وفذّ جهاده ...

إن هذه الأغراض السوداء ما كانت لتمرّ بهــذه الأبيات ــ وهي هي ، في صريح اعترافها ؛ وهي هي ، الصورة الناطقة للإيمان الوطيد ، والاعتراف السافر ، الذي يفضح كلّ غرضٍ ، ويجهز على كلّ فريةٍ...

أقول : ما كان لهذه الأغراض العابثة أن تمرّ بها دون أن تمتدّ منهـا يدٌ إليها بتشويهٍ ، وتضيف إليها ما ينيلها المطمع ، ويرضي سفال الضمير ...

فراحت تضيف إليها بيتاً خامساً ، ظنّته يشوّه صفاء الصورة ، مِنْ لألاء الإيمان ، وألَق الاعتراف :

لولا الملامةُ ، أو حذاريَ سبّةً   لوجدتَني سمحاً ــ بذاكَ ــ مبيناً !

وإنك لتجد الهوّة السحيقة ، بين هذا البيت ، والأربعة التي قرأت ... الهوّة السحيقة ، بينه وبينها ، في الأداء الفنيّ ، وقوّة الشاعرية ، والإنسجام ...

وهذا السيد أحمد زيني دحلان ، يقول حوله :

[فقيل : إن هــذا البيت موضوعٌ ، أدخلوه في شعر أبي طالبٍ ، وليس مِنْ كلامه] (1) .

ونحن لو جارينا أصحاب هذه الأغراض السود ، وسلّمنا معهم بأنّ هذا البيت ، قد قاله أبو طالبٍ ــ وهو لم يقله ــ فإنه لا ينيلهم غرضهم ، ولم يشبع مطمعهمُ النَّهم ... فقد طاش سهمهم ، ولم يصب مرماه ...

فمعنى البيت : أنه لولا ما يخشاه مِنَ اللوم ، ويحذره مِنَ المسبّة،لوجده جاهراً بقبول الدعوة ،مبيناً إيمانه على الملإ مِنْ قريشٍ ، غير كاتمٍ .

ومعنى « بَانَ » ــ في اللّغة : اتّضح وظهر ، وأبان الشيء : أوضحه ، فهو « مبينٌ » ــ أي:مظهرٌ ...

وهذا لا يعني : أنه لولا ما يخشاه ، لكان ذلك المؤمنَ المصدِّق ... فإن

(1) ص ٣٣٤ : ٧ مِنَ الغدير ، مسنداً إلى ص ١٤ مِنْ « أسنى المطالب »؛ غير أنه شاء أن يجاريَ المغرضين ، فذكر البيت ، عند ذكره لتلك الأبيات ، في كتابه « السيرة النبوية » !. ويظهر : أن هناك تناقضاً ــ بين الكتابين ــ كثيراً . فالسيرة جارى فيها ، واتبع قول المغرضين . أما « أسنى المطالب» ــ كما قرأتُ عنه ، وقرأتُ منه ، في ما نُقل عنه ــ فجهر فيه بالقول الحق ...

هذا معنىً لا يحمل شيئاً منه هذا البيت المخلوق ...

ثم لو كان يحمل شيئاً منه ، لكان مِنَ التناقض بمكانٍ ، بعد البيتين السابقين : « ودعوتَني ... » ، و « لقد علمتُ ... » ، فإنه بعد ذلك الاعتراف وا لتصديق،لا يجوز أن يصدر مِنْ عاقلٍ : ما يناقضه،أو ينفيه ...!

وهذا التهافت المعنويُّ ــ إضافةً إلى التهافت الشعريّ ــ وهذا التناقض الفاضح ، بين:معنى البيت ــ لو حملناه على غير محمله ــ والأبيات التي سبقته ...

إن هذا ... لا يصدر ، إلّا مِمَّنْ خولط في عقله ، فلا يدري ما يقول ، ولا يعرف ما ينطق ...

وحتى الآن ، لم يذكر أحدٌ أبا طالبٍ ــ حتى هؤلاء المغرضون ــ إلّا بحدّة الذكاء،وقوّة العارضة ، وبلاغة اللسان ، وقوّة الحجة ، ومتانة المنطق ...

* *

عرفت قريشٌ موقف أبي طالبٍ، مِنَ الرسالة الجديدة ، ومِنْ رسولها العظيم ... وساءها أن يقف أبو طالبٍ ، هذا الموقف الجريء الصُّلب ، وساءها : أن لا تنجح محاولاتها هذه ، وتعود بالإخفاق والفشل ...

أرادت منه : أن يكفّ محمداً ، عن ذكر آلهتهم وعيبها ، فما كفّ ، وما هادن ...

ثم أرادوه : أن يفسح المجال بينهم وبينه ، لينالوا منه ما يرضيهم ، أوّلاً ... فإنهم يعلنونها عليه حرباً دامية ...

ولكنهم رأوه : يشجّعه في بثّ رسالته ، ونشرها، والدعوة إليها ، ويأمره بذلك ، ويعده النصرة ، والجهاد ، والدفاع ...

ووجدوا ــ بعد ذلك ــ منفذاً آخر ، هو ــ في رأيهم ــ آخر ما يرجون... وها هم أولاء يأخذون طريقهم إليه ، وقد مشوا إليه بعمارة بن الوليد ، حتى إذا جاءوه ، قالوا له :

[يا أبا طالبٍ ! هذا عمارة بن الوليد ، أنهد فتىً في قريشٍ ، وأشعره ، وأجمله ، فخذه ... فلك عقله ونصرته ، واتّخذه ولداً ، فهو لك... وأسلم لنا ابن أخيك ، هذا الذي قد خالف دينك ، ودين آبائك ، وفرّق جماعة قومك ، وسفّه أحلامهم ، فنقتله ، فإنما رجلٌ كرجلٍ ...!] .

لو كان أبو طالبٍ ، لا يعرف المواقف حقّها ، لكان له ــ بعد هذه القولة المضحكة ــ صدى قهقهةٍ عاليةٍ ، تدوّي بعيداً ، وترنّ حاملةً كلّ معاني الاحتقار والاستخفاف ، بسخف هذه القولة المنحطة ...

ولكنه لم يزد على هذه القولة ، وقد انطلقت مِنْ فيه ، هادئةً ساخرةً :

[والله ! لبئس ما تسومونني !. أتعطونني ابنكم أغذوه لكم ...! وأعطيكم ابني تقتلونه ...؟! هذا والله! ــ ما لا يكون أبداً ...!] .

حقّاً ! إنه لسخفٌ ما بعده سخفٌ ! وانحطاطٌ فكريٌّ ، ليس يعدله انحطاطٌ ! ، وحيفٌ مِنْ طرازٍ فذٍّ ، لم يُرَ له ما يماثله ...! إن دلّ على شيءٍ فعلى : انعدام القيم ، وفجاجة الرأي ، وتلاشي الفكر ، وحيف الميزان .

وسمع المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ــ وهو مِنْ أحلافه ــ يقول :

[والله ! ــ يا أبا طالبٍ ! ــ لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص ممّا تكرهه ، فما أراك تريد : أن تقبل منهم شيئاً ...!] .

فأجابه أبو طالبٍ :

[والله ! ما أنصفوني ...! ولكنك قد جمعتَ خذلاني ، ومظاهرة القوم

عليّ ، فاصنع ما بدا لك ... ! [1] .

★ ★

وقد نظم أبو طالبٍ قصيدةً ، عرّض فيها بالمطعم بن عدي ، على خذلانه إياه !. ثم عمّم بها مَنْ خذله ، مِنْ عبد مناف ، ومَنْ نصب له العداء ، مِنْ قريشٍ :

أَلاَ قلْ لعمروٍ ، والوليدِ ، ومطعمٍ : ... أَلاَ ليتَ حظّيْ مِنْ حياطتِكُمْ بكرُ [2]
مِنَ الخورِ حبحابٌ ، كثيرٌ رغاؤُهُ ... يرشُّ على الساقينِ مِنْ بولِهِ قطرُ [3]
تخلّفَ خلفَ الوردِ ليسَ بلاحقٍ ... إذَا مَا علاَ الفيفاءَ ، قيلَ لهُ : وبْرُ [4]
أرىٰ أخوينَا مِنْ أبينَا وأمِّنَا ... إذَا سئلَا ، قالَا : إلىٰ غيرِنَا الأمرُ !
بلىٰ ! لهمَا أمرٌ ، ولكنْ تجرجَمَا ... كَمَا جرجمَتْ مِنْ رأسِ ذيْ علقٍ صخرُ [5]

---

(١) الطبري ٦٧ : ٢ ــ والعبارة ممّا بين القوسين عنه ــ والسيرة الحلبية ٣٢٣ : ١، والنبوية ١٩٧ : ١، والهشامية ٢٨٦ : ١، والحديدي ٣٠٦ : ٣، وأبو طالب ٦١ ، ٦٣، والبحار ٤٤٦ : ٦، وتذكرة الخواص ٩، والغدير ٣٦٠ : ٧ مسندةً لمصادر عدّةٍ ، والأعيان ١٢٩ : ٣٩ .

(٢) البكر : الفتيُّ مِنَ الإبل .

(٣) الخور : الضعف . الحبحاب : القصير ، الدّميم ، السيء الخلُق . ويروى : « جبجاب » ، ومعناه : الكثير ، غير أن هذا لا يمكن ، ما دامت بعدها « كثير رغاؤه » ويروى « خبخاب » ، بمعنى : الهزيل . غير أن الأقرب للمعنى هو : « حبحاب » ، كما في الأصل .

(٤) الفيفاء : المفازة لا ماء فيها . الوبر : دويبةٌ ، تشبه السنور ، وهي دونه .

(٥) تجرجم : سقط وانحدر . وذو علق : جبلٌ لبني أسد ، لهم فيه يومٌ على ربيعة بن مالك .

أخصُّ خصوصاً عبدَ شمسٍ ونوفلاً ... هما نبذانا، مثلَ ما ينبذُ الجمرُ

هما أغمزا للقومِ في أخويهما، ... فقدْ أصبحا ــ منهمْ ــ أكفُّهمْ صفرُ

هما أشركا في المجدِ، مَنْ لا أباً لهُ ... مِنَ الناسِ، إلَّا أنْ يرسَّ لهُ ذكرُ(1)

وتيمٌ، ومخزومٌ، وزهرةٌ، منهمُ ... وكانوا لنا مولىً، إذا بغيَ النصرُ

فواللهِ لا تنفكُّ منَّا عداوةٌ، ... ولا منهمُ، ما كانَ مِنْ نسلِنا شفرُ(2)

فقدْ سفهتْ أحلامُهمْ وعقولُهمْ ... وكانوا كجفرٍ، بئسَ ما صنعتْ جفرُ!

وما ذاكَ ... إلَّا سؤددٌ خصَّنا بهِ ... إلهُ العبادِ، واصطفانا لهُ الفخرُ(3)

رجالٌ تمالَوا حاسدينَ، وبغضةً ... لأهلِ العلى، فبينهمْ ــ أبداً ــ وترُ

«وليدٌ» أبوهُ، كانَ عبداً لجدِّنا ... إلى علجةٍ زرقاءَ جالَ بها السحرُ(4)

★ ★

---

(1) رسَّ الحديث، حدَّث به في إسرارٍ.

(2) يقال: ليس هنا شفرٌ ــ أي: ليس هنا أحدٌ.

(3) ذكرها ابن هشام ــ في سيرته ص٢٨٦: ١ـعدا هذه الأبيات الثلاثة، وقال: تركنا منها بيتين أقذع فيهما.

وذكرها الأمينيُّ ــ في الغدير ص ٣٦١: ٧ ــ وذكر قول ابن هشام، وعقَّب عليه: حذف ابن هشامٍ منها ثلاثة أبياتٍ لا تخفى على أحدٍ غايته الوحيدة ... الخ. وذكر ــ بعدُ ــ هذه الثلاثة.

(4) يريد بوليد: الوليد بن المغيرة، الذي كان أبوه عبداً لجده.

كان الوليد هذا، منَ المستهزئين بالرسول «ص»، وهو منْ بين الذين مشوا إلى أبي طالب، مع مَنْ مشى منْ قريش بشأن الرسول. وهوَ الذي عناه الله تعالى، في قوله: «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً» ــ فقد كان يسمّى: الوحيد.

رأى أبو طالبٍ ــ وقد أعلن رأيه للملأ مِنْ قريشٍ، وعرفوا موقفه تجاههم ــ أنْ يتدرَّع، ويستعدَّ للطوارىء، التي تواجهه بها قريشٌ ــ بعد ما عرفوا رأيه ــ فلم يرُ غير بني هاشم، وبني المطلب: سيفاً صقيل الحدِّ، رهيف المجسِّ، يعترض به كلَّ مَنْ رامه بسوءٍ. فدعاهم إلى أن يقوموا بجانبه، في الذود عنِ الدِّين الجديد، بحماية ومنْعِ صاحب الرسالة، مِنْ عتاة قريشٍ، والقيام دونه في وجوههم، إن بدت منهم للشر طلائع ... فكانوا له عند طلبه، لم يشذَّ بينهم، إلا ذلك الأخ الضالُّ، أبو لهبٍ المنكود...!

ويرى أبو طالبٍ منهم: مواقف مشرِّفةً، فيشيع السرور في ملامحه، حتى يثلج منه القلب، ويقرَّ الفكر، وتهدأ الخواطر، فهو في مأمنٍ... فليس يخشى شرّاً على الرسول، مِنْ مريديه بالشر ...

وليس يلبث، حتى يقابل هؤلاء بالشكر الموفور، والثناء العطر، يشكر لهم موقفهم، ويثني على عملهم البار، مما يكون لهم حافزاً ومشجعاً، وينظم هذا الشكر في بضعة أبياتٍ، لتلهج بها الألسن، وتهزج بها الشفاه، وتتناقلها الأفواه، وتتلقَّفها الاسماع ...

ولابدَّ له ــ وهو يذكر قديم هؤلاء، ويثني على عملهمُ الحميد ــ لابدَّ له في هذا المعرض أن يذكر محمداً، الذي كان له مِنْ هذا الشرف أعمقه، وأبعده جذوراً، وجاء بجلائل الأعمال، ممَّا لم يسبقه إليه سابقٌ، ولا يدانيه عملٌ:

إذاً اجتمعتْ ــ يوماً ــ قريشٌ لمفخرٍ ... فعبد منافٍ سرُّها وصميمُها(1)

فإنْ حصلتْ أشرافُ عبدِ منافِها ... ففي هاشمٍ أشرافُها وقديمُها

وإنْ فخرتْ ــ يوماً ــ فإنَّ محمداً ... هوَ المصطفى ــ مِنْ سرِّها ــ وكريمُها

---

(1) السرُّ: خالص الشيء، أطيبه وأفضله. وهو مِنْ صميم القوم، أي: مِنْ أصلهم وخالصهم.

تدعتْ قريشٌ ــ غثُّها وسمينُها ــ علينا... فلمْ تظفرْ ، وطاشتْ حلومُها[1]
وكنا ــ قديما لا نقر ظلامة اذا ما ثنوا صعر الخدود ، نقيمها[2]
ونحمي حماها ــ كلَّ يومِ كريهةٍ ــ ونضربُ عنْ أحجارها مَنْ يرومُها
بنَا انتعشَ العودُ الذواءُ ، وإنمَّا بأكنافِنَا تندىٰ ، وتنمىٰ أُرومُها[3]

★ ★

قويت شوكة الرسول ، فبعدت الشقة ، بين الهاشميين والمطَّلبيين ، وبين

---

(1) تدعَّت ــ هنا بمعنى : اندفعت بشدَّةٍ وعنفٍ وجفوةٍ . طاش : ذهب عقله .

(2) ثنى الشيءَ: عَطَفَهُ . صعَّر خدَّه : أماله عنِ النظر إلى النـــاس تهاونًا وكبرًا .

(3) انتعش : نشط . ذوي النبات : ذبل ونشف مـــاؤه . الكنف : الجانب ؛ الظلُّ . وكنف الإنسان : حضنه ، أوِ العضدان والصدر . الأرومة : الأُصل .

تجد القصيدة في السيرة الهشامية ٢٨٨ : ١ . وذُكرت الثلاثـــة الأُوَل في النبوية ٢٠ : ١، والحلبية ٣٣ : ١ ؛ وذُكرت في الحجة ٧٩ ، ٨٠ ــ عـــدا البيتين الأخيرين ــ مسندةً إلى: كنز الفوائد لأبي الفتح الكرجكي ، ومتشابه القرآن لابن شهر اشوب . وذُكرت أبياتها الأربعـــة الأُولى ــ باختلافٍ في كلماتها ــ في الأعيان ١٤٨ : ٣٩ .

وذُكرت في الغدير ــ ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ : ٧ ــ مسندةً لعديدٍ منَ المصادر . وذكر لصاحب « أسنى المطالب » قولةً حول هذه الأبيات ، هي :

[هذه الأبيات مِنْ غرر مدائح أبي طالبٍ للنبي صلى الله عليه « وآله » وسلم ، الدالَّة على تصديقه] .

وذُكرت في شيخ الأبطح ٣٧ ــ مسندةً ــ وقد ذكر هذه القولة أيضا .

قريشٍ . وصار أبو طالبٍ يحذر قريشاً على الرسول ، أشدَّ مِنْ ذي قبل ، فصار يحوطه بعنايته ، ويخاف عليه الطوارئ فلا يكاد يبعد عن عينيه ، لئلا يبعث فيه هذا البعدُ : القلقَ ، والرعبَ ، والإضطرابَ... فتنتابه الأوهام ، وتنوشه الظنون ...

افتقد أبو طالبٍ ابن أخيه ــ مرّةً ــ وبحث عنه ، فلم يجده ، فثار به القلق ، وعصف به الخوف ، وعلَتْ وجهَه خطوطٌ باهتةٌ ، هي مزيج مِنَ : الحزن ، والإضطراب ، والخوف ، والعزم ، والمضاء ، للثأر والإنتقام ... هي مزيجٌ مِنْ هذا كلّه ... ــ ولا سيما وقد وصل إلى سمعه بأن قريشاً تنوي اغتيال محمَّدٍ ، لتجتثَّ الدعوةِ مِنْ أبعد جذورها ...

هناكَ ... دعا إليه فتيان هاشم والمطلب، وأمر كلًّا منهم أن يخبيء تحت ثيابه سلاحاً حديد الشفرة ، ماضي الحد ، لا يخون عند الضراب... وأمرهم أن يقف كلٌّ واحدٍ منهم ، عند زعيمٍ مِنْ رجال قريشٍ ، وجعل بينهم وبينـــه شارةً... فإنْ هو يئس مِنْ وجود محمدٍ ، فإن دمه لا يمضي هدراً، وليس يعدل دمه المسفوح ، حتى دم هؤلاء العتاة كلِّهم ...

فعليهم ــ إن نفذ القضاء في محمدٍ ــ أنْ يأتوا على هؤلاء ، في لحظةٍ واحدةٍ . فلكلِّ رجلٍ أعزل منهم ، رجلٌ بيده بتَّارٌ صقيلٌ . فليس ــ ثمة ــ منجاةٌ مِنَ الإنتقام الصارخ ، وليس لهم محيصٌ ، مِنْ جرْع صاب الموت ، مِنْ هذا الحدِّ الماضي ، الناصع البياض ...

وكلٌّ ذهب نحو غايته ... فهؤلاء الفتية ، قد أُخذوا مكانهم ، حيـــث أراد الشيخ ...وهو قد ذهب ، إلى حيث يبحث عنِ ابن أُخيه ، في مظانه ...

وإذ وجدوه في خيرٍ ، لم تمتدَّ له يدٌ بسوءٍ ، أخذه بيده ، فوقف به على رؤوس الملا مِنْ قريشٍ ، صارخاً بهم :

« يا معشر قريش ! هل تدرون ما هممتُ به...؟ »

فقصَّ عليهم عزمه ، وأمر فتيانه : أن يكشفوا لهم عن سلاحهمُ المخبوء ، ليتحدّاهم ويدلّهم على مدى قوّته ، فيهابوه . فبان الانكسار في وجوههم ، وكان أشده وضوحاً ، في وجه أبي الجهل العتي ...!

وقال لهم :

« والله ! لو قتلتموه ما أبقيتُ منكم أحداً ، حتى تتفانى نحن وأنتم»[1] .

ثم ينظم أبو طالبٍ أبياتاً ، يطري فيها ابن أخيه ، بعد أن يشنّع على قريشٍ موقفها ، ويعلن لها بأنه لمحمدٍ وآله ، ذلك الراعي الحفيظ ، الذي يكنُّ له الودَّ ، ما بين طوايا ضميره ، وحنايا صدره ، فما هو بقطّاعٍ للرحم :

أَلاَ أبلغْ قريشاً ، حيثُ حلّتْ   وكلُّ سرائرٍ منها غرورُ
فإنّي والضوابحِ عادياتٍ   وما تتلوْ السفاسرةُ الشهورُ[2]
لآلِ محمّدٍ راعٍ حفيظٌ ...   وودُّ الصدرِ منّي والضميرُ
فلستُ بقاطعٍ رحمي وولدِي   ولوْ جرّتْ مظالمَها الجزورُ
أيأمرُ جمعُهمْ أبناءَ فهرٍ   بقتلِ محمّدٍ ...؟ والأمرُ زورُ
فلا وأبيكَ! لا ظفرتْ قريشٌ   ولا أمّتْ رشاداً ، إذْ تشيرُ
بُنيُّ أخي ونوطُ القلبِ منّي   وأبيضُ ، ماؤُهُ غدقٌ كثيرُ

(١) ذُكرت هذه الحادثة في الحجة ٦١ وفي الغدير ٣٤٩ ، ٧:٣٥٢ بألفاظٍ ثلاثةٍ . ثالثها : لفظ كتاب الحجة . وبين الثلاثة بعض اختلافٍ ، في خطوط الحادثة . وذُكرت في شيخ الأبطح ٢٦ ، ٢٧ . وذُكرت — في صورةٍ أخرى — في إثبات الوصية ٩٦ . وذُكرت في ابو طالب ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) يروى : « فإني والسوابح كلّ يومٍ » ، ولا « فإني والضوابح كلّ يومٍ » ، والسفاسرة — جمع سفسير ، وهو : القيّم بالأمر المصلح له ، العالم بالأصوات ، الرجل الظريف ، الحدّاد الماهر — الخ — ولكن العلّامة الأميني ، ذكر أنها أصحاب الأسفار : الكتب . والشهور — جمع شهرٍ — هي العلماء .

ويشربُ بعدَهُ الولدانُ رِيّاً   وأحمدُ قدْ تضمّنَهُ القبورُ
أيَا ابنَ الأنفِ أنفِ بنيْ قصيٍّ   كأنّ جبينَكَ القمرُ المنيرُ[1]

وهناك حادثةٌ أخرى ، بدا فيها أبو طالبٍ : صوّالاً على قريشٍ ، مدلاً عليهم بقوته ، متحدّياً لهم في فعالهمُ الدون ، يردُّ عليهم بأشدَّ وأنكى .

بينما الرسول — في أحد أيامه — في مناجاة ربه ، قد ارتقى للعالم العلوي ، وغاب في دنيا الروح ، فإذا بقريشٍ قد شاءت أن تسخر منه ، وهو يؤدّي الصلاة ، فشاءت أن تفسد عليه صلاته ، وعهدت بهذه المهمّة الدون ، إلى عبدالله بن الزبعريٍ ، وقام هذا بها نشيطاً ، وقد أخذ فرثَ ودمَ جزورٍ ، فجاءه وهو ساجدٌ ، غائبٌ في العالم الأفضل ، فلطّخه بذلك ...

وليس للرسول غير أبي طالبٍ ، يفزع إليه ويشكو إليه ما يناله مِنَ الأذى ، ليدفع عنه الضيم ، ويأخذ له بحقه... فاندفع إليه — بعدما انفتل مِنْ صلاته — محزون القلب ، دامع العين ، فهذه الإهانة أشدُّ أثراً ، وأعمق أسىً ، مِنْ ضربٍ ، أو أيِّ اذىً ... ففيها مِنْ ألم السخرية ، والاستخفاف ، ما يفيض منه القلب ، بالألم النهّاش ...

وقد ساء أبا طالبٍ : ما نال ابن أخيه ! . وعليه أن يأخذ منهم بحقّه ، ويكيل لهم الإهانة بصاعٍ طافحٍ ... فاندفع إليهم — وقد أخذ ابن أخيه ، ووضع سيفه على عاتقه — وخطوط الغضب بارزةٌ على صفحة وجهه ، وسيماء الثأر ناطقةٌ ، حتى طلع على القوم في ناديهم ، فراعتهم منه هذه النظرة الغضبى ، وحاولوا الهربَ مِنْ وجهه ، لولا أن سمّرهم في أماكنهم صوتٌ جهيرٌ ، انطلقت كلماته مجلجلةً ، مِنْ فم الشيخ المهيب :

« والله ! لئن قام رجلٌ جلّلتُه بسيفي »[2] .

(١) الغدير مسندةً ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١ ج ٧ ، والأعيان ١٤٩ : ٣٩ .
(٢) جلّل الشيء : عمّه .

فلصقوا بالأرض ، كَمَنْ فقد الإرادة ... فدنا منهم ، والتفت لابن أخيه :

« يا بنيّ ! مَن الفاعل بك هذا ... ؟ »

فدلّه الرسول على ابن الزبعرى؛ وأدناه إليه ، فوجأ أنفه ، ثم مرّ بالدم والفرث ، على القوم ، ولطّخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم ، وأغلظ لهم القولَ ، وكال لهمُ الإهانةَ . وعاد لابن أخيه ، يقول له بلهجة المنتصر ، وإدلال القوي :

[يا ابن أخي ! أرضيتَ ؟ سألت مَنْ أنتَ ...؟ أنت محمد بن عبدالله — وسرد النسب الشريف — أنت ، والله ! ، أشرفهم حسباً ، وأرفعهم منصباً ...

يا معشر قريش ! مَنْ شاء منكم أن يتحرّك ، فليفعل ... أنا الذي تعرفوني] (1) .

وأردف على هذا قوله :

أنتَ النبيُّ محمّدُ ... قرْمٌ أغرُّ ، مسوّدُ
لمسوّدينَ أكارمٍ ... طابُوا ، وطابَ المولدُ
نِعْمَ الأرومةُ أصلُها ... عمرٌو الخطيمِ الأوحدُ
هشمَ الربيكةَ في الجفانِ ، وعيشُ مكّةَ أنكدُ (2)
فجرتْ بذلكَ سنّةٌ ... فيهَا الخبيزةُ تُثرَدُ

---

(1) ذُكرت هذه الحادثة في: الغدير — 359 : 7 وشيخ الأبطح 28 وبينها بعض الاختلاف في الخطوط ، وقد أخذنا — هنا — النسيج ، منَ الروايتين . وذُكرت في: الحجة 106 ، 108 ، وثمرات الأوراق 3 ، 4 : 2 وأبو طالب 63 والمناقب 35 .

(2) هشم الثريد : كسر الخبز ، وفتّه ، وبلّه بالمرق ، حتى يكون ثريداً . الربيكة : الزبدة مختلطةً باللبن . الجفان ، جمْع جفنةٍ — بفتح أوله — القصعة الكبيرة . الأنكد : العسر ، القليل الخير .

ولنَا السقايةُ للحجيجِ ، بهَا يُماثُ العنجدُ (1)
والمأزمانِ ومَا حوتْ ... عرفاتُهاَ ، والمسجدُ (2)
أنّى تُضامُ ، ولمْ أمتْ ، ... وأنا الشجاعُ العربدُ؟! (3)
وبطاحُ مكّةَ لاَ يُرى ... فيهَا نجيعٌ أسودُ
وبنُو أبيكَ كأنّهُمْ ... أسْدُ العرينِ توقّدُوا ؟
ولقدْ عهدتُكَ صادقاً ... في القولِ لاَ تتزيّدُ
مَا زلتَ تنطقُ بالصوابِ ، وأنتَ طفلٌ أمردُ (4)

* *

لقدِ افتتح أبو طالبٍ هذه القصيدة، بالاعتراف السافر ، الذي لا يُبقي لمتعنّتٍ سبيلاً ، في جدلٍ ، أو نقاشٍ ...

فما الفرق : بين مَنْ يقول : « أشهد أن محمداً رسول الله » وبين اعترافه السافر : « أنتَ النبيُّ محمدُ » ...!؟

إن الواقع يصرخ: أن لا فرق !. فكلاهما إقرارٌ بنبوة محمدٍ (ص) (وآله) . أما الأغراض الدون ، والقلوب السود ، والضمائر المعتلّة ، فلعلّ لها

---

(1) يُماث : يذاب . العنجد — بفتح وضمّ أوّله — الزبيب ، أو قسمٌ خاصٌّ منه ، أو ذو اللون الأسود منه .

(2) المأزمان : مضيقٌ بين : جمْعٍ وعرفة ؛ وبين : مكة ومنى .

(3) العربد — بكسر العين ، وكسر وفتح الباء — الشديد منْ كلّ شيءٍ ، وذكَر الأفاعي .

(4) الحديدي 315 : 3 والحجة 72 — بزيادة بيتٍ — وشيخ الأبطح 28 ، وهاشم وأمية 173 ، 174 وديوان أبي طالبٍ 12 ، 13 والأعيان 143 : 39 ، والغدير 336 : 7

وقد قال ابن أبي الحديد — بعد ذكره لها — إنها « منْ شعره المشهور » .

منطقاً ، غير منطق الواقع الرهين ...!

وبعد أن امتدح أرومته ، وذكر فعال عمرو وهو: هاشم — الذي سنّ إطعام الحجيج ، في قحل مكة وجدبها ، وفي ذلك العيش الأنكد ، ففرشها بالنماء والرخاء ، وقضى على الجدب ، ومحا العيش الأنكد ... وأراح القلوب الخافقة ، وأشبع البطون الساغبة ، وأروى الحشاشات الملتهبة .

بعد هذا... أبدى نحوه — أي : ابن أخيه — عاطفته الرؤوم ، فإنه لن يُضام ، وهو على رقعة الأرض ، يرفّ له جفنٌ ، وتمشي به قدمٌ ... وما هو بالجبان الرعديد . ومِنْ حوله أسود العرين . تسحق كلّ مَنْ تشمّ منه رائحة سوءٍ ، أو مكروهٍ ...!

وبعد كلّ هذا ... اختتم قصيدته ببيتين ، هما — في اعترافهما السافر — كافتتاحها ... فكانت الفاتحة والخاتمة ، مِنْ معدنٍ واحدٍ ...

فهو — فيهما — يصدّق ابن أخيه في قوله ... فإنه « لهو الصادق الأمين » ، لم يرَه يقول غير الحقّ والصواب ، منذ نعومة أظفاره : ولم يجده مائلاً عن منهجه الوضّاح ، ولا حائداً عن طريقه الأبلج ...

وإن الذي لا يقول غير الحق ، حتى في دنيّات الأمور ، لن يقول غير الحق ، فيفتري على الله ! وإن الذي لا يكذب على مخلوقٍ ، لن يكذب على الخلاّق العظيم ...!

فليس هذا ، سوى التصديق له في رسالته ، والاعتراف منه ، بأنها رسالة سماويةٌ ، لم يتزيد فيها محمّدٌ (ص) ، ولم يقل عنها ، غير الصواب الثابت ، والحق الأبلج ...

☆ ☆

ويجدر بنا : أن نوافي القارىء ، بهذين البيتين — أيضاً — وفيهما تصديقٌ بأنّ ما يقوم به محمدٌ ، هو الحقّ الجليّ . وفيهما تشجيعٌ له وتطمينٌ ، للمضيّ

في مهمّته العالية ، بعزيمةٍ لا تُغلب .

ويقول الحديدي قبلهما :

[ومِنْ شعره المشهور — أيضاً — قوله ، يخاطب محمّداً ، ويسكّن جأشه ، ويأمره بإظهار الدعوة] :

لَا يمنعنّك مِنْ حقٍّ تقومُ بهِ ... أيدٍ تصولُ ، ولَا سلْقٌ بأصواتِ
فانّ كفّكَ كفّي ، إنْ مليتَ بهمْ ... ودونَ نفسِكَ نفسِي في الملمّاتِ[1]

إنه للفداء العظيم ، والجود الذي ليس بعده جودٌ ...! فهو يفديه بنفسه ، عندما تلمّ به الملمّات ...!

وإنه ليطول بنا السير ، ويتشعّب القول ، لو شئنا أن نعرض لشعره ، الذي يتعلّق بهذا الموضوع . ولكن فلنأخذ طريقنا ، الذي إليه انتهينا . على أننا سنعرض له ، في ثنايا الفصول الآتية ، عندما تدعو الحاجة لذلك ... وقد نضع له « فصلاً » خاصّاً ، فنعرض فيه لحفنةٍ مِنْ شعره ، في هذا الموضوع ...

☆ ☆

لم يكن أبو طالبٍ ، بالذي يبذل النصرة لمحمدٍ ، في شخصه ، فحسب ؛ فلم تكن نصرته ، في نطاقٍ ضيقٍ ، في يومٍ مّا ... فهو : نصير الرسالة في مهدها ، وراعي محمدٍ في طفولته ...

وإذ هو نصير الرسالة ذاتها ، فهو نصيرٌ لكلّ مَنْ يعتنقها ... فليس يرضى أن ينال واحداً ضيمٌ ، أو أذىً ، بسببها ...

وإن له لصفحاتٍ رائعةَ الإشراق ، بارزةَ العنوان ، في هذه النصرة

---

(١) الحديدي ٣١٥ : ٣ ، والغدير ٣٣٨ : ٧ ، والحجة ٧٤ — بإبدال "مليت" بـ « فتكت » — وأبو طالب ٣٣ ، وديوان أبي طالب ١١ ، والأعيان ١٥٠ : ٣٩ .

المؤزَّرة •••

وليس لنا أن نمرَّ بها ، دون أن نشير إلى شيءٍ منها :

✡ ✡

عذَّب المشركون عثمان بن مظعون الجمحي،وقد استنار بهدى الإسلام، واستجاب لأصداء الدعوة المحمدية ، ففارق ظلمة الشرك ، إلى نور الإيمان••• فشاءت قريشٌ أن تفتنه ، وتضلّه عن لاحب الطريق ، فعذبته ، ونالت منه •••

ولا يسمع بذلك أبو طالبٍ، حتى يثأر له ، مِنْ هذه الوحشية مِنْ قريشٍ، وهذا العداء المستفحل • ثم يقول :

أمِنْ تذكّرِ دهرٍ، غيرِ مأمونِ ... أصبحتَ مكتئباً ، تبكي كمحزونِ؟
أمْ مِنْ تذكّرِ أقوامٍ ذوي سفهٍ ... يغشونَ بالظلمِ مَنْ يدعو إلى الدِّينِ؟
ألا ترونَ ــ أذلَّ اللهُ جمعكُمُ ــ ... أنّا غضبنا لعثمانَ بنِ مظعونِ ؟
ونمنعُ الضّيمَ ، مَنْ يبغي مضيمتنا ... بكلِّ مطّردٍ ــ في الكفِّ ــ مسنونِ
ومرهفاتٍ، كأنّ الملحَ خالطها ... يشفي بها الداءُ ، مِنْ هامِ المجانينِ
حتّى تقرَّ رجالٌ لا حلومَ لها ••• ... بعدَ الصعوبةِ ، بالإسماحِ واللّينِ
أو تؤمنُوا بكتابٍ منزلٍ عجبٍ ... على نبيٍّ كموسى،أو كذي النونِ(1)

ماذا يعني ــ في بيته الأخير ــ مِنَ الكتاب العجيب ، المنزَل على نبيٍّ، كالنبيِّ موسى،ويونس ؟.

فهل بعد هذا ، غير الإيمان بالقرآن الكريم ، وأنه كتابٌ إلهي ، منزَلٌ على رسولٍ مِنْ رسل الله ، الذين اجتبى ؟.

(1) الحديدي ٣١٣ : ٣،والحجة ٥٠،والغدير ٣٣٥:٧،وهاشم وأمية ١٦٤، وشيخ الأبطح ٣٠ ، وفيه زيادةٌ • وديوان أبي طالب ٩ ، ١٠ ــ بزيادةٍ ــ والأعيان ٤٢ : ٣٩ •

وهل بعده مغمزٌ ، أو مطعنٌ ، في إيمان هذا الشيخ ، إلّا مِنْ عدوٍّ ضالٍّ؟!.

ثم إنه ــ إلى جانب ما يحمل مِنْ سافر الاعتراف ــ لدليلٌ على ما سبق أن ذهبنا إليه ــ في هذا الفصل ــ مِنْ أن عند أبي طالبٍ درايةً وإحاطةً بالأديان ، التي سبقتِ الشريعة المحمدية ، وهي دليلٌ على امتداد الحنيفية البيضاء •••

وإلّا ••• فلولا هذه الدراية والإحاطة ، لما كان يعرض لمثل هذه الأديان • والمفروض أنه ــ عند المغرضين ــ كالجاهليين ، تتعفر منه الجبين ، عند أقدام الأصنام ــ وأستغفر الله ! .

ثم لا يكفيه هذا ، حتى يذكر هذا الدِّين ، بصورةٍ يحضُّ فيها المشركين على اتباعه ، والأخذ بهديه • بل جعله مرفأ السلامة : فإمّا المرهفات الحداد ، حتى تقرّ الرجال ، التي هي أشباه الرجال،ولا رجال ــ كما يقول ابنه الإمام ــ أو الإيمان بهذا الكتاب العجيب •••

وصفة القرآن العظيم ، بصفة « عجب » ، لها نظيرها في القرآن ذاته ، وذلك في حكايته عن مؤمني الجن : « إنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ، فَآمَنَّا بِهِ » (1) •

✡ ✡

عذّبت قريشٌ ــ في مَنْ عذّبت مِنَ المسلمين ، وأرادت أن تصدّهم عن الهدى ، وتفتنهم عن الدِّين ــ أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي • ولم يرَ غير أبي طالبٍ مفزعاً ، يلجأ إليه ، ليقيه غواشي قريشٍ وعواديها ، فراح يستجير به •••

ولا تعلم مخزومُ بأن أبا طالبٍ ، قد أجار صاحبها ، حتى تؤلّف وفداً مِنْ رجالها ، فمشى إليه ، قائلاً :

(1) الجن : ١ •

« يا أبا طالبٍ! هبْكَ منعتَ منّا ابن أخيك محمّداً ... فما بالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟! » فكان أن أجاب بهذا الجواب :

[إنه استجار بي ، وهو ابن أختي — « لأنّ أمّ أبي طالب مخزوميّة » — وإن أنا لم أمنع ابن أختي ، لم أمنع ابن أخي !] .

فيرتفع للّغط صدىً ، ويعلو للجدل صوتٌ ، ويخشى الوفدُ الفتنة ، فيخاف وخيم العاقبة ، فيعود فارغ اليد ، مغلوباً على أمره ، فاشل المسعى (١) .

وإذ رأى أبو طالبٍ : أن أبا لهبٍ قد قال كلمةً — في هذه الحادثة — في جانب أبي طالبٍ ، فقد طمع فيه أبو طالبٍ ، وراح يدعوه لنصرة الرسول ، وأن يقف إلى جانبه ، في حماية الدّين الجديد — كما هو واقفٌ — فراح يدعوه لذلك ، في قطعتين ، هذه إحداهما :

وإنّ امرَءاً أبُوْ عتيبةَ عمُّهُ... لفيْ روضةٍ ، مَا إنْ يُسامُ المظالمَا
أقولُ لهُ ، وأينَ منهُ نصيحتِيْ: أبَا معتبٍ ! ثبِّتْ سوادَكَ قائِمَا

إلى أن يقول :

كذبتُمْ — وبيتِ اللهِ — نُبزِيْ محمّداً ولمّا ترَوْا يوماً — لدَىٰ الشعبِ — قائمَا(٢)

☆ ☆

لم يكن جهاد أبي طالبٍ ، محصوراً في دفع العوادي ، وحياطة الرسول ، ورعايته مِنْ سوء قريشٍ ، أو أن يجير أحد المعذّبين مِنَ المسلمين ، فيغضب لذلك غضبة الليث المرعب ، وقد تسوّرت عليه الذئابُ عرينَه الحصين ...

---

(١) شيخ الأبطح ٢٩ ، والنهج الحديدي ٣٠٦ ، ٣٠٧ : ٣ ، والسيرة الهشامية ١٠ : ٢ ، والنبوية ٢٥٦ : ١ ، والأعيان ١٣٠ : ٣٩ .

(٢) الحديدي ٣٠٧ : ٣ ، والسيرة الهشامية ١١ : ٢ ، والحجة ١٠٥ — بدون هذا البيت — والغدير ٣٩٣ ، ٣٩٤ : ٧ .

لم يكن هو هذا فحسب ... وإن كان هذا هو أوّل ما يرعى الإنتباه ... ولكن له هناك ناحيةٌ أخرى ، لها قيمتها المعنوية الفضلى ، وإن كانت جهاداً صامتاً ...

فأبو طالبٍ ، داعيةٌ إسلاميةٌ ، يشيد بكلِّ مأثرةٍ ، يراها لصاحب الرسالة — تارةً — ويشيد بمنزلة الدّين ، ويرفع مِنْ ذكره — مرّةً أخرى — ويدعو الناس لتصديق الرسول ، واعتناق هذا الدّين — في جهةٍ ثالثةٍ — ويحذر قريشاً سوء المغبة ، إذا هي تمادت سادرةً في غيهاءغارقةً في جهلها ...

إلى آخر ما هنالك ، مِنَ النواحي المتعدّدة ، التي يعرض لها أبو طالبٍ ، وينظم شعراً رفيعاً ، تتناقله الألسن ، وتلوكه الشفاه ، وتترنّم به الحناجر .

كانتِ الهجرة للحبشة ، بعد ما أذاقت قريشٌ مستضعفي المسلمين : ألوانَ العذاب ، وأنماطُ الإضطهاد ، ومريرُ المذلّة ...

وكان في طليعة المهاجرين جعفر بن أبي طالبٍ .

وما كانت هجرة جعفرٍ ، تحت تأثير ما دعى غيره للهجرة ، فهو : عزيز الجانب ، مرهوب الشوكة ... فيكفيه أن يكون ابن أبي طالبٍ ، لتهابه قريشٌ ، فلا تنال منه ما يكره ...

ولكن هجرته كانت مِنْ طرازٍ غير هذا : فهي ذات هدفٍ سامٍ ، ليكون حافزاً للهجرة ، وراعياً للمهاجرين — هناك — وسفيراً بينهم ، وبين دينهم ، الذي قضت عليهم القوّة الجائرة : أن يكونوا بعيدين ، عن نبعه الرويّ ...

ولكن الخسة والنذالة ، وسقوط النفس ، وعمى الأفئدة ، ليس لها أن تقف عند حدٍّ ... فما كان مِنْ قريشٍ ، إلا أن أوفدت عمرو بن العاص ، وعمارة ابن الوليد — كما يقال — إلى الحبشة ، ليكيدا — تحت أستار الظلام — هؤلاء

المهاجرين ، فيحيكا لهم المؤامرات ، على نول الخبث والغدر والبهتان . فيخلقا كل فرية ، وينتحلا كل منقصة ، لتصل قريش إلى غايتها الدون ... لولا أن جعفراً — بنفاذ بصيرة ، ورجاحة عقل ، واتزان تفكير ، وعمق إيمان — كشف عن وجه هذه المؤامرة ، ورد سهام المكيدة والبغي ، إلى نحر راميها ...

وليس من موضوعنا عرض هذه الحادثة ! ولكن اليراع شاء أن يضع من الحادثة خطوطها الأولى — فمن شاءها ، فليرجع لها ، في مظانها ، من كتب التأريخ ...

ونحن إنما نريد أن نقول : إن أبا طالب ، وقد وصلت إليه أصداء هذه المكيدة ، بعث للنجاشي — ملك الحبشة — أبياتاً ، يحض فيها على إكرام جعفر ، وأن لا يصغي للقول الزور ، الذي يلفقه الأفاك الأثيم ابن العاص .

وقد جاء في هذه الأبيات :

أَلَا ليتَ شعرِي ! كيفَ في الناسِ جعفرٌ ... وعمرٌو ، وأعداءُ النبيِّ الأقاربُ ؟
وهلْ نالَ إحسانُ النجاشيِّ جعفراً ... وأصحابَهُ ، أمْ عاقَ عنْ ذاكَ شاغبُ ؟
تعلَّمْ — أبيتَ اللعنَ ! — إنكَ ماجدٌ ... كريمٌ ، فلا يشقى إليكَ المجانبُ
تعلَّمْ بأنَّ اللهَ زادكَ بسطةً ... وأسبابَ خيرٍ ، كلها بكَ لازبُ[1]

ولا تصل الأبيات للنجاشي ، حتى تشيع في جوانبه الغبطة ، ويبدو

---

(١) ذكر الحديدي — ٣١٤ : ٢ البيتين الأولين ، وقال : « في أبيات كثيرة » — والسيرة الهشامية ٣٥٧ : ١ ، بزيادة بيت ، واختلاف يسير في بعض الألفاظ — والحجة ٥٦ — مع اختلاف يسير أيضاً ، في الألفاظ — والغدير ٣٣٧ : ٧ ، والأعيان : ١٤٤ : ٣٩ ، و ١٦:٢٧ — بزيادة بيت ، وبعض الإختلاف — وذكر البيتان الأولان في هاشم وأمية ١٦٤ .

عليه السرور العظيم ، حيث لم يكن طامعاً ، في مدح أبي طالب إياه ... ولا يرى أحسن من أن يشكر أبا طالب — على عاطر ثنائه — بإكرام مثوى من تركوا ديارهم ، وهجروا أوطانهم ، ليكونوا بجواره ، فزاد في إكرامهم .

ولا يعلم أبو طالب بذلك ، حتى يبعث إليه أبياتاً ، يدعوه فيها للإسلام ، وينصاع للدعوة ، التي جاء بها الرسول الأعظم « ص » :

أتعلمُ — ملكَ الحبشِ ! — أنَّ محمداً ... نبيٌّ كموسى ، والمسيحِ ابنِ مريمِ[1]
أتى بالهدى ، مثلَ الذي أتيا بهِ ... فكلٌّ — بأمرِ اللهِ — يهدي ويعصمِ
وإنكمْ تتلونَهُ في كتابكمْ ... بصدقِ حديثٍ ، لا حديثِ الترجُّمِ
فلا تجعلُوا للهِ نداً ، وأسلمُوا ... فإنَّ طريقَ الحقِّ ، ليسَ بمظلمِ
وإنكَ ما تأتيكَ منَّا عصابةٌ ... لقصدكَ ، إلَّا أرجعُوا بالتكرُّمِ[2]

وهذه الأبيات صورة أخرى لإيمانه ، وبرهان ناطق على أنه « داعية إسلامية » ، يعمل على نشر الإسلام ، واعتناقه ديناً إلهياً ، وتصديق صاحب الدعوة رسولاً من السماء .

وهي — إلى ذلك — برهان آخر ، على تلك الإحاطة والدراية — كما سبق أن أشرنا — لدى أبي طالب ، بكتب السماء ، ورسالات الله وأنبيائه .

وهي تصديق شامل لما جاء من عند الله ، واعتراف بنبوة رسل الله ، كل من محمد وعيسى وموسى . فمحمد قد أتى بالهدى ، كما سبق أن جاء به المسيح والكليم . وليس هذا الهدى — لديهم كلهم — سوى هدى الله .

---

(١) في رواية : « وزير لموسى ... » — ولكنها غير صحيحة .

(٢) الحجة ٥٦ ، ٥٧ ، والبحار ٥٢١ : ٦ ، وإيمان أبي طالب ١٨ ، وشيخ الأبطح ٨٧ ، ٨٨ ، ومجمع البيان ٣٧ : ٧ — بدون البيت الأخير — والعباس ٢٢ ، والغدير ٣٣١ : ٧ ، والأعيان ١٩ : ١٦ ، عدا البيت الرابع ، مع اختلاف في بعض الألفاظ .

ودعّم ما يقول ، بالبينة ، التي لا يردّها المخاطب . فلمّا كان النجاشي مسيحيّاً ، فإنه ليحجه بكتابه المقدّس ــ الإنجيل ــ فإنه سوف يجد فيه ما يبشّر برسولٍ يأتي ، « اسمه أحمد » . وهنا... نلمس ، جليّاً، إحاطته بالدين العيسوي .

وبعد ذلك... يدعوهم لتوحيد الله ، وأن يذعنوا للإسلام ، بعدما بان لهم سنن النهج القويم . فطريق الحق الحب ، ليس بمظلمٍ...!

وإنها للصفاقة الوقحة ، أن نقول بعد كلّ هذا : إن أبا طالبٍ لم يسلم ، وهو يدعو الناس للإسلام ، وإنه ليعرف طريق الحق ، ويصرخ بأنه «ليس بمظلمٍ» ، بل مشعٌ بالنور ، يدعو إليه السراة والضلاّل ، لينقذهم من التيه والعمى ... دون أن يهتدي هو بهداه ، ويقتبس منْ نوره... بل يتخبط ــ والعياذ بالله ــ في دياجي الظلم ، وغياهب الباطل...

أستغفر الله ! فلن يقول ذلك ، سوى الصفيق الأرعن ، والغاوي الضّال، الذي لا يخشى منْ قول الزور ، ولا يأثم منْ انتحال الباطل .

★ ★

وهو ــ إلى هذا الإيمان الوطيد ، والمعتقد الرسيخ ــ مؤمنٌ بالمعجزات، مصدّقٌ لها ، لا يخالجه فيها شكٌّ أو ريبٌ... فالإعجاز ، لا يكون لإنسانٍ لا تميزه على غيرهِ ميزة النبوة والعصمة ...

وإن الإعجاز ، ليفرض الإيمان ، حتى على ضعاف العقول... فكيف بمَنْ كان منَ العقل على اكتمالٍ، وكان منَ الأديان على الإحاطة...؟

جاء أبو جهل للرسول « ص » ، وبيده حجرٌ ، وقد عزم أن يضربه به ، حين ما يسجد في صلاته .

ولكن هذا العزم ، يذهب بدداً ، فلا يستطيع أن يحقّقه ، وهذه أصابعه منقبضةٌ على الحجر ــ ولا ككفّ البخيل على قبضةٍ منَ الذهب الوهّاج ــ فهي

لا تطاوعه في الانبساط ! فيعود مهلوع الفؤاد ، مرضوض الهمة ، مخدوش التفكير !،فالرعب قد زلزل منه عزمه ، والخوف قد أنبت في عينيه القذى... فلا يبصر منبسط طريقه ، وقد رأى ما يزعزع منه الروع ، فحال بينه وبين ما عزم عليه !.

فيقول أبو طالبٍ، وهو يقرأ المستقبل ، فيخشى عليهم ما ستلد به لهم مقتبل الأيام ، إن هم أصرّوا على العناد ، وأصمّوا آذانهم ،دون صافي النداء ، وأغلقوا قلوبهم ، دون باهر النور ، ولألاء الحق... فإن نهايةً ستحيق بهم ، كما كان ــ قبلهم ــ قوم صالحٍ إذ عقروا ناقة الله ، فدمدم عليهم ربهم بعذابه، وحاق بهم غضبه :

أفيقوا ــ بني عمّنا ! ــ وانتهوا	عن الغيّ ، في بعضِ ذا المنطقِ
وإلّا فإنّي ــ إذاً ــ خائفٌ	بوائقَ... في داركمْ تلتقي ...!
تكونُ لغابركمْ عبرةً ...	وربِّ المغاربِ والمشرقِ !
كما ذاقَ منْ كانَ قبلكمْ :	ثمودُ وعادٌ ــ فمَنْ ذا بقي ؟
غداةَ أتتهمْ بها صرصرٌ	وناقةُ ذي العرشِ ، إذ تستقي
فحلّ عليهمْ ــ بها ــ سخطةٌ	منَ اللهِ ، في ضربةِ الأزرقِ
غداةَ يعضّ بعرقوبها	حسامٌ ــ منَ الهندِ ــ ذو رونقِ
وأعجبُ منْ ذاكَ في أمركمْ :	عجائبُ في الحجرِ الملصقِ !
بكفّ الذي قامَ في جنبهِ	إلى الصابرِ الصادقِ المتقي
فأثبتهُ اللهُ في كفّهِ	على رغمِ ذا الخائنِ الأحمقِ ![1]

---

(١) الحجة ٦٢ وذكرها الحديدي ــ ٣١٤ : ٣ ــ وقال : « منْ جملة أبياتٍ »،فذكر الأولين والرابع ، وقال : « ومنها »،فذكر الثلاثة منَ الختام ، وفيها : « منْ خبثه » بدل « في جنبه » و «رغمة » بدلاً منْ (رغم ذا) .

وذكرت في الغدير ٣٣٦ ، ٣٣٧ : ٧ ــ باختلافٍ في بعض الكلمات ، وزيادة بيتٍ في ختامها ــ وفي الأعيان ١٤٢ ، ١٤٣ : ٣٩ .

وذكر بعضها في ديوان أبي طالب ، ص٩، وبعضها في ص١٠.

وإني لأحسُّ في هذه القصيدة — إلى جانب اللهجة الصادقـة ، التي ينضح بها كلُّ شعره ...

إني لأحس فيها لهجةً راثيةً حانيةً ، تبذل النصح ، وتمحض الخير ،وتدلُّ على النور ؛ يبعث ذلك : الشفقة والرثاء ، لِمَنْ سيسدر في غيِّـه ،ويعمه في ضلاله ... فهو يخاف عليه سوء المنقلَب !.

وإنها لظاهرةٌ إنسانيةٌ سامية ، قلَّ أن تظفر بها عند إنسانٍ ! .

وهو ، ليمكِّن قولته مِنْ قلوبهم ، دعَّمها بما نال عاقري ناقة ذي العرش، حين أصرُّوا على العناد ، ولم يأبهوا لإنذار نبيهم صالح !.

وإن هؤلاء — إن أصرُّوا على العناد — فنهايةٌ ، كتلك ، ستحيق بهم !.

وها هي ذي النذر ، قد أخذت تبدو منها طلائع ...!

فهذا الحجر ، قد أثبته الله ، في كفِّ هذا الخائن الأحمق ، الذي شاء أن يرمي به الصابر ، الصادق ، المتقي...!

وإنها لصفاتٌ يخلعها على الرسول « ص » إيمانه ومعتقده ، الذي رأى في هذا الإعجاز نذيراً لقومه ... — ويا لهول نذر الله .

الشـــعب والصحيفـــة

أقضَّ مضجع المشركين : أن يكون الرسول بهذه المنعة ، وأن تكون دعوته بمثل هذا الانتشار ... فقدِ انحاز إليها الكثير ، واعتنقها الوفر ، مِنْ مختلف الطبقات ، والنحل والبلاد ؛ فلاقت : صدىً بعيداً ، متجاوباً مرناً، وتعلَّق بها كثيرون ... فوقعت مِنْ أفئدتهم في الصميم ، حتى أنهم ليؤثرون الموت ، بعد أن يذوقوا ألوان العذاب ، وأنمـــاط الأذى ، وأقسى الألم ، وكأنهم يتمتعون ويلتذُّون ...!

فالألم — في هذا السبيل — ألذُّ مِنَ النعيم ! ؛ والهوان أحلى مِنَ الكوثر؛ والهاجرة ، بلفحها الوهّاج،أورف مِنَ الظلِّ الممتدِّ...!

فليس للسانٍ منهم أن ينبس ببنت شفةٍ ، تشعر المشركين بأنه حاد عن دين الله القويم ، وصراطه الألحب !.

وإنهم ليبرحون ديارهم ، ويهجرون أوطانهم ، ويقلون أحبابهم ، في سبيل أن ينجوا بأنفسهم ، وهم في سلامة مِنْ دينهم !.

وقفت قريشٌ تتداول الرأي ، وتعمل الفكر ، وتبتدع الحيل ، وتبحث عن المكايد ...

ماذا عساها أن تعمل ،لتلملم مِنْ بساط هذه الرسالةالمنشور ،وتلاشيَ مِنْ

صداها البعيد ، العميق الجهير ، الذي لم يكد يرنُّ ، حتى جاوبته القلوب ، وأرهفت إليه الأسماع...!

إن كلَّ الحيل ، التي اتهجتها ، لم تجدها نفعاً ، ولم تنلها الغاية المرتجاة، ولم تشبع شهوتها الصارخة ... فوحشيَّتها على نهمها السعَّار ؛ وخوفها وقلقها على مصائر آلهتهــا ، التي تعبد ، تقضُّ عليهــا المضاجع ، وتنبو بهــا عــن الرقــاد ...

أمَّا خوفها على انفلات زِمام الزعامة ، والتحكُّم في مصائر الناس ، وسومهم الخسف والوبال ــ فهذا ما يبرز في طليعة الأمور ، التي تدعوها أن تفكر ، وتعمل الرأي ...!

إنها قد سعت لإخمادِ هذه الجذوة ، وبعد لم يمتدَّ لها لهيبٌ... وإخفاتِ هذا الصوت ، وقد كان همساً ناعماً ... وكسْرِ هذا الأُملود ، وبعدُ لم تصلب له قشرةٌ ... ولكنها عادت بخفي حنين ، صفر اليدين ، خاوية الوفاض ... فمحمدٌ ــ بعمه ورجاله ــ في حصنٍ منيعٍ ، وكهفٍ لا تدنو منه الأعاصير .

ولو انها امتدَّت يدٌ منها ، لتخمد في محمدٍ جذوة الحياة ، وتسفك منه الدم على شفرات المواضي ــ فإنها سوف تجني مِنْ ذلك الوبال ... فسوف تنبت مِنْ كلِّ قطرةٍ مِنْ دمه ، سيوفٌ تجتثُّ جذورهم . فواجب الأخذ بالثأر ، وسوف ينبِّه الدفائن ، ويثير الكوامن ، ويشحذ الهمم ، ويصقل المواضي ...

وهو ــ إلى ذلك ــ سوف ترتوي دعوته مِنْ دمه ، وإن لها في نفــوس بعض أصحابه لأقدس وأرفع منزلةً ، فسوف يذيعها بين الناس ، فتكـــون أسرع انتشاراً ، إذ سيرافقها قصَّة دمٍ مسفوكٍ ، بأيدٍ أثيمةٍ ، تغشى أعينهــا هذا النور الجديد .

وإنها قد قاومت أصحابه ، وفتنتهم ، وصدَّتهم فوجدت نفسها أمـــام حديدٍ ، لا يفلُّ ، وأمام صخرٍ لا يفتُّ ، وأمام طودٍ لا يتزعزع ... فمـــا العذاب والاضطهاد ، بالــذي يردُّ مؤمناً عــن إيمانه ، أو يفتن مسلماً عــن

إسلامه ... بل إن كلَّ ذلك لمَّا يمكِّــن للدعــوة في القلوب ، ويرسخها في الضمائر ــ ولا سيما أن هؤلاء مشوقون إلى روائح الجنة ، ونعيمها الدائم، لينالوا فيها درجات الشهداء الصابرين .

إذن ... فماذا تعمل ، ولا ترى سبيلاً للعمل المثمر ؟!.

وفي عتي الحيرة ، وفي أحرج المواقف،وفي أشدها أزمةً ، انفرجت شفةٌ مِنْ أحد الأبالسة ، وكأنه فحيح الأفاعي ، فقدِ اهتدى لحــلٍّ يرضي الحقــد الثائر ، وطريقٍ يصل بهم للهدف المنشود ، وينيلهم البغية الحلوة ، والرجاء الجميل...

عليهم أن يضربوا نطاقاً مِنَ « الحصار السلمي » ــ الحصار الاقتصادي ــ على هؤلاء الذين يحمون محمداً .

عليهم أن يشنُّوها حرباً باردةً ، لينجوا فيها مِنَ الضحــايا والخسائر ، ويقع كل ذلك، على عدوِّهم وحدهم !. ولا بدَّ أن يستسلم هؤلاء ... فيردعوا صاحبهم عن دعوته ، أو يسلموه إليهم : ضحيةً رخيصةً، وفريسةً سهــلة الاصطياد ، بخيسة الثمن .

حينذاك ... كتبوا صحيفةً ، كان مِنْ بنودها ، أن يكونوا يداً واحدةً ، على بني هاشم والمطلب ، وحرباً عليهم ، لا يهادنونهم ، فلا يتناكحون وإياهم، ولا يبيعون إليهم ، ولا يبتاعون منهم ، ولا يقبلون منهم صلحـــاً أبداً ــ إن أرادوه ــ وأن ينفذوا هذا الشرط ، بدون رأفةٍ ، أو رحمةٍ بهم ...

وليس يثنيهم عن عهدهم هذا ، إلَّا أن يسلِّموا إليهم محمداً ، ويخلــوا السبيل بينهم وبينه !. فحينذاك ، يرفعون عنهم هذا الحصار ، وتعود لهــم الحياة رويَّةً ، كما كانت في سابق عهدها .

وختموا الصحيفة ــ وقــد تعاهدوا على تنفيذ مــا جاءت به ، وجعلــوا نسخةً منها ، معلَّقةً في الكعبة . وكان ذلك في هــلال المحرم ، بعــد سبعٍ

مِنَ السنين على البعثة .

* *

ما كاد يمسُّ طبلة أُذن أبي طالبٍ، ما عزمت عليه قريشٌ مِنْ قطيعةٍ آثمةٍ، وعملٍ وحشيٍّ، يدلُّ على سفالة ضميرٍ، واسوداد قلبٍ، حتى نبض شعوره بشعرٍ، نعى فيه على قريشٍ ما عزمت عليه مِنْ ظلمٍ، وحذرها ما يعود عليها، مِنَ البلاء والحرب الضروس، في قصيدةٍ نجتزيء ببعضها :

يرجّونَ منّا خطّةً، دونَ نيلِها ضرابٌ وطعنٌ، بالوشيجِ المقوّمِ!
يرجّونَ أنْ نسخَى بقتلِ محمّدٍ ولمْ تختضبْ سمرُ العوالي مِنَ الدمِ!
كذبتُمْ ــ وبيتِ اللهِ ــ حتّى تفلّقوا جماجمَ، تُلقَى بالحطيمِ وزمزمِ
وتقطعُ أرحامٌ، وتنسَى حليلةٌ حليلاً، ويغشَى محرمٌ بعدَ محرمِ
علَى مَا مضَى مِنْ مقتِكمْ وعقوقِكمْ وغشيانِكُمْ ــ في أمرِكُمْ ــ كلَّ مأثمِ
وظلمِ نبيٍّ، جاءَ يدعُو إلى الهدَى وأمرٍ، أتى مِنْ عندِ ذي العرشِ، قيّمِ
فلا تحسبونَا مسلميهِ، فمثلُهُ إذَا كانَ في قومٍ، فليسَ بمسلَمِ[1]

ليس يهمّنا ما تحمله القصيدة، مِنَ: التحدي الصارخ لقريشٍ، والتأنيب لها، والتخويف مِنْ خوض غمار الحرب ــ وفي ما تركناه مِنَ القصيدة، تتجلّى فيه هذه الناحية أبرز وأشد .

ولكن يعنينا منها ــ قبل كلِّ شيءٍ ــ هذان البيتان، اللذان اختتمنا بهما ما شئناه منها .

---

(١) النهج الحديدي ٣١٢، ٣١٣ : ٣، والحجة ٣٧، ٣٨ ــ بزيادة خمسة أبياتٍ في أولها، وبيتين بعد « وتقطع »، وبيتٍ في نهايتها ــ والغدير ٣٣٣، ٣٣٤ : ٧ [مسندةً] ــ بزيادة بيتٍ عمّا في الحجة . وذُكر بعضها ــ باختلافٍ في الألفاظ ــ في إيمان أبي طالب ١٣ . وذُكرت في هاشم وأمية ١٧١، ١٧٢، والأعيان ١٤١ : ٣٩ بزيادة بيتٍ في نهايتها .

فالبيت الأول يتجلّى فيه ألق الإيمان، ولألاء المعتقد . فمحمدٌ نبيٌّ . ودعوته التي يدعو إليها قريشاً وغيرها، ليست غير الهدى . وليس هذا الأمر، الذي أتى به ــ وهو الأمر القيّم ــ إلا أمر ذي العرش الرحمن العظيم .

فمتى كان مثل محمدٍ ــ وأنّى لهم بمثله ! ــ في قومٍ مهما كانوا، فإنهم ليسوا بمسلميه، وهو رسول ربّهم إليهم، فإنهم لينالونَ العزَّ به، والشرف بمنعه مِنْ يد أعدائه، والهدي بهداه ...

وما عسى أن تقول ــ أيها المسلم، الذي تقول في مؤمنِ قريشٍ، قول الزور !.

ما عساك أن تقول، غير هذا القول، وتؤدي عن إيمانك بدعوة النبي، أحسن مِنْ هذا الأداء، وأفصح مِنْ هذا البيان ...؟!

* *

حينذاك ... راح أبو طالبٍ يعمل رأيه، فيرى نفسه في أزمةٍ عاتيةٍ، وفي ضيقٍ ومأزقٍ حرجٍ . فعليه أن يتّخذ القرار الحاسم . فنادى إليه رجال بني المطلب وهاشم، وأجمعوا على أمرهم أن يدخلوا «الشّعب»[1]، ليكونوا في منجىً، بعد أن نفذت قريشٌ صحيفتها، الظالمة القاطعة . فانحاز المطلبيون والهاشميون لأبي طالبٍ، يأتمرون بأمره . فرأيهم لرأيه تبعٌ، وهم لما يريد على انقيادٍ .

---

(١) ذكر ياقوت الحموي ــ في معجم بلدانه ٢٧٠ : ٥ [٣٤٧ : ٣] ــ الشّعب (بكسر الشين) ، باسم « شِعب أبي يوسف » ، فقال :
(وهو الشّعب الذي أوى إليه رسول الله صلى الله عليه «وآله» وسلم، وبنو هاشم لمّا تحالفت قريشٌ على بني هاشم، وكتبوا الصحيفة، وكان لعبد المطلب ...) ــ الخ .

ولم يشذّ عنهم ، سوى ذلك الأخ الظلوم ، الذي رِين على قلبه ، أبي لهبٍ الضالِّ ـ تبّت يداه ! ـ الذي راح يعين قريشاً عليهم [1] .

تمضي الأيام عليهم رتيبةً ، لا تنفرج لهم كوّةٌ ، مِنْ نور الرجاء ، وشعاع الأمل ، فهم في ضائقةٍ وضنكٍ ، لا يحدّه الوصف ، ولا يأتي على تصويره القول ... فالجوع حزّ في نفوسهم ، ورسم خطوطه البشعة في أجسامهم !.

وليست تعدُّ قريشٌ ، مَنْ تستدُّ لهم منه يدٌ بمعونةٍ ، غير خائنٍ مجرمٍ ، فتثور في وجهه ، لتصدّه وتعاقبه ... فأصابهمُ الجهد، ونال منهمُ الضنى ، وأضرّ بهمُ الجوع ، حتى أنهم ليأكلون « الخَبَط » ، وورق الشجر [2] .

* *

وكان أبو طالبٍ ، ذلك الحفيظ المحترس على ابن أخيه ، والحارس اليقظان عليه . فيخشى عليه مِنْ مؤامرةٍ تحاك ، أو دسيسةٍ تنال منه شهوتها . فإذا لفّهمُ الليل بسحابته الدكناء ، وحان وقت استسلامهم للنوم ، فرش لابن أخيه فراشاً ، يمتدُّ عليه ، بمرأىً مِنْ هؤلاء جميعاً ، حتى إذا استسلموا لغفوةٍ عميقةٍ ـ وهو ذلك اليقظان ـ قام ، فأخذ ابن أخيه لفراش ابنه عليٍّ ، واخذ ابنه لفراش ابن أخيه ... حتى لو كان هناك ، مَنْ بات على سوء نيةٍ ، وبيّت سوء القصد ، فإن السوء يقع على ابنه ، لينجو منه رسول السماء !. فليذهب ابنه ضحيةً ، دون أن ينال الرسول سوءٌ ، وله عينٌ تطرف ...!

---

(١) الطبري ٧٤ : ٢ ، والكامل ٥٩ : ٢ ، والسيرة الهشامية ٣٧٥ ، ٣٧٦ : ١ ، والنبوية ٢٧٣ : ١ ، والحلبية ٣٧٤ : ١ ، والحديدي ٣٠٧ : ٣ ، والغدير ٣٦٣ : ٧ .

(٢) كذا ذكر مَنْ عرض لهذه الحادثة . والخَبَط ـ بفتح أوله وثانيه ـ ورق الشجر . والخبط ـ بفتح أوله ، وضمّه ـ جمْع خَبطةٍ ـ بفتح أوله ، وسكون ثانيه ـ البقية مِنَ الماء واللبن ، والشيء القليل . والخبطة : الجرعة مِنَ الماء ، والبعض مِنَ الشيء ، والقطعة منه .

يا للتضحية الفذة ! ، يسجّلها التاريخ بيد الإعجاب ، بحروفٍ مشرقةِ السنى ، تبقى مثالاً خالداً للفداء ، والتضحية ، والحب والفناء ، والإيمان والعقيدة ...!

* *

يصم المغرضون دفاع أبي طالبٍ وجهاده ، فينسبون ذلك ، إلى : أنه لا يقف ، إلّا لحميّة النسب ...

فهل القرابة ، بينه وبين محمّدٍ ـ ابن أخيه ـ أوشج منها ، بينه وبين عليٍّ ابنه ؟!. فما له يضحي بهذا ، فداءً لذاك ...؟!

وفاتهم ـ إلى ذلك ـ أن حميّة الدّين ، أقوى مِنْ حميّة النسب !. فلولا حميّة إيمانه بنبوّة ابن أخيه ، لمَا حماه للقربى ، وفداه بأمسّ الناس إليه ...!

ولكانت حميّة دينه ـ البريء منه ، والذي ينسبه إليه المفترون ـ تفرض عليه : أن يسحق هذه القربى ، ويقطع حبل النسب ...!

ولهذه الحميّة ذاتها ، وقف أبو لهبٍ ومَنْ إليه ، موقفهم ذاك ، وهم كأبي طالبٍ : منزلةً وقربى ، ومساس رحمٍ ، بمحمّدٍ الرسول !.

وليس أدلّ ، مِنْ أن حميّة الدّين ، لا تعترف بحميّة القربى ، إن كان بينهما خصامٌ ، مِنْ أن بعض المسلمين ، قد أراد أن يورد أباه ـ أو ابنه ـ حياض الموت ، لمّا كان لشركه ذلك العنيد ، وللإسلام ذلك العدوّ الجحود ...! [1] .

* *

ونعود للطرف الأخير ، ممّا وصلنا اليه :

---

(١) سوف ندلّل على هذه الناحية ، بعرض ما يدعمه ـ مِنْ صفحات التأريخ ـ في فصلٍ مقبلٍ .

لقد مرّت ليلةٌ ، وقد أخذ أبو طالبٍ ، بيد ابنه عليٍّ ، لمنام ابن أخيه،قال فيها عليٌّ :

« يا أبتِ ! إني مقتولٌ ! » .

وإذا بأبي طالبٍ ، يدعو ابنه للصبر ، وأن لا يرهب الموت — وهو غاية الحياة ، ومصير الوجود . فما الحياة غير طريقٍ للموت ، يقطعه هذا الشبح ، المدعوُّ بـ « الإنسان » ...

وإنه قد بذله لهذا الفداء ، وقدّمه ضحيةً ، لهذا الحبيب ، الأثير لديه :

اصبِرَنْ يا بنيَّ! — فالصبرُ أحجى ... كلُّ حيٍّ مصيرُهُ لشَعُوبِ ...
قدْ بذلناكَ — والبلاءُ شديدٌ — ... لفداءِ الحبيبِ ، وابنِ الحبيبِ ...!
لفداءِ الأغرِّ ، ذي الحسبِ الثاقبِ ... والباعِ ، والكريمِ النجيبِ
إنْ تصبكَ المنونُ ، فالنبلُ تُبرى ... فمصيبٌ منها ، وغيرُ مصيبِ (1)
كلُّ حيٍّ — وإنْ تملّى بعمرٍ — ... آخذٌ منْ مذاقِها بنصيبِ !

وأجابه ابنه عليٌّ ، وهو الشجاع المغوار ، الذي لم يرهبِ الموت ، في لحظةٍ منْ حياته ، ولا يخشى الألم ، وبه انصهرت حياته ، ويغتبط بفداء رسول الله (ص) ، وقد أوقف على ذلك حياته :

أتأمُرُني بالصبرِ في نصرِ أحمدٍ ؟ ... وواللهِ ما قلتُ الذي قلتُ جازعاً !
ولكنّني أحببتُ أنْ ترى نصرتي ... وتعلمَ أنّي لمْ أزلْ لكَ طائعاً !
سأسعى لوجهِ اللهِ في نصرِ أحمدٍ ... نبيِّ الهدى المحمودِ، طفلاً ويافعاً (2)

* *

(1) تبرى ، في روايةٍ:تترى ، وأخرى:يرمى .

(2) ارجع للحادثة والشعر ، لكلٍّ منَ:النهج الحديدي ٣١٠ : ٣ ، وفيه تحريفٌ مطبعيٌّ « بالطبع » في البيت الثاني والثالث منْ شعر أبي طالب ←

صار أبو طالبٍ — مدة الحصار في « الشِّعب » كلّ ما ثارت به كوامن الألم ، ورواسب المرارة ، تفث شعوره ، في شعرٍ ملتهب القوافي :

ألا أبلغا عنّي — على ذاتِ بينِها — ... لؤيّاً — وخصّاً منْ لؤيٍّ بني كعبِ
ألمْ تعلمُوا أنّا وجدنا محمّداً ... نبيّاً كموسى — خطّ في أوّلِ الكتْبِ (1)
وأنّ عليهِ في العبادِ محبّةً ... ولا حيفَ فيمَنْ خصّهُ اللهُ بالحبِّ (2)
وأنّ الذي رقّشتُمُ في كتابِكُمْ ... يكونُ لكمْ — يوماً — كراغيةِ السقبِ
أفيقوا ! أفيقوا ! قبلَ أنْ تحفرَ الزُّبى ... ويصبحَ مَنْ لمْ يجنِ ذنباً كذي ذنبِ (3)
ولا تتبعُوا أمرَ الغواةِ ، وتقطعُوا ... أواصرَنا ، بعدَ المودّةِ والقربِ
وتستجلبُوا حرباً عواناً ... وربما ... أمرَّ على مَنْ ذاقَهُ حلبُ الحربِ
فلسنا — وبيتِ اللهِ — نسلمُ أحمداً ... لعزّاءَ منْ عضِّ الزمانِ، ولا كربِ
ولمّا تبنْ منّا ومنكُمْ سوالفٌ ... وأيدٍ أترّتْ بالمهنّدةِ الشهبِ
بمعتركٍ ضنكٍ ، ترى كسرَ القنا ... به، والضباعَ العرجَ تعكفُ كالشربِ
كأنّ مجالَ الخيلِ في حجراتهِ ... ومعمعةَ الأبطالِ ، معركةُ الحربِ

← وللمناقب ٣٧ : ١،والحجة ٧٠،والغدير ٣٥٨ ، ٧،وأعيان الشيعة ١٢ : ٣٩، وذُكرتِ الحادثة — وحدها — في السيرة النبوية ٢٧٦ : ١ ، والحلبية ٣٨ : ١ ، وأبو طالب ٧٣ ، ٧٤ . وذكرت أبيات أبي طالب في ديوانه ص ٩ .

(1) ذُكر — منَ القصيدة — هذا البيت ، والبيت الثاني عشر ، في مجمع البيان ٣٦ : ٧

(2) الشطر الأخير — عند « ابن هشام » : [ولا خيرَ ممّنْ] — الخ — وقد تأوّل له الشارح تأويلين ، لحمل معناه على الوجه الصحيح . وفي هذه الرواية منجاةٌ منَ التأويل .

(3) يروى : « الثرى » ، بدل « الزبى » .

أليسَ أبونا هاشمٌ شدَّ أزرَهُ ... وأوصَى بنيهِ ، بالطعانِ ، وبالضربِ
ولسنَا نملُّ الحربَ ، حتَّى تملَّنا ... ولَا نشتكِي مَّما ينوبُ مِنَ النكبِ
ولكنَّنا أهلُ الحفائظِ والنُّهَى ... إذَا طارَ أرواحُ الكماةِ مِنَ الرعبِ[1]

ويكفينا ، مِنَ القصيدة ، أبياتها الأولى ، لتنهض : دليلاً نابضًا ، وبرهاناً دامغاً ، على إيمان قائلها ، فهو يرى محمَّداً نبيّاً ، كما كان — مِنْ قبله — موسى الكليم ، وقد خطَّت نبوته ، وبشَّرت بها ، كتُب السماء التي سبقته .

وكما تنهض دليل إيمانه ، فإنها لتنهض — مَرَّةً أخرى — كدليلٍ مكرورٍ — أيضاً — على معرفة أبي طالبٍ بالأديان السماوية ، وإيمانه بأنبياء الله ، ورسله ، وكتبه . فلم يكن — في يومٍ مَّا — ذلك المشرك ، وهو البعيد الجذور ، في الإيمان الثابت ، والمبدإ الرسيخ الوطيد ...

وندع ما تحمله القصيدة — في أبياتها — مِنَ الجوانب الأُخرى الرفيعة، التي سيجتليها القارىء الكريم ...

ولعلَّ مِنَ الخير أن نأتي بهذه القطعة، مِن إحدى قصائده — ولعلَّها مماقاله في « الشِّعب » ونحن نقتصر منها ، على هذه الأبيات ، التي تنضح بالإيمان ، وتجلو عن رائع المعتقد ، اليقين :

ألَمْ تعلمُوْا أنَّ القطيعةَ مأثَمٌ ... وأمرُ بلاءٌ قاتمٌ ، غيرُ حازمِ ؟!
وأنَّ سبيلَ الرُّشدِ ، يُعلَمُ فيْ غدٍ ؟ ... وأنَّ نعيمَ الدهرِ ، ليسَ بدائمِ !

---

(١) النهج الحديدي ٣١٣ : ٣،والسيرة الهشامية — مع اختلافٍ في بضع كلماتٍ — ٣٧٧ — ٣٧٩ : ١ والحجة — بدون البيتين الأخيرين — ٣٩ ، ٤٠، وأسندها شارحه لعدَّة مصادر . وهاشم وأمية ١٧٢ ، ١٧٣ وذُكر منها — في إيمان أبي طالب ١٥ — الثلاثة الأولى . وذُكرت أبياتٌ منها في المناقب ٣٦ : ١، وذُكرت في شيخ الأبطح ٣٥ ، ٣٦،والغدير ٣٣٢ ، ٣٣٣ : ٧،مسندةً لمصادرها، والأعيان ١٤٠ ، ١٤١ : ٣٩ .

فلَا تسفهَنَّ أحلامُكُمْ فيْ محمَّدٍ ... ولَا تتبعُوْا أمرَ الغواةِ الأشائمِ !
تمنَّيتُمْ أنْ تقتلُوْهُ ...؟ وإنَّما ... أمانيُّكُمْ هذِي!— كأحلامِ نائمِ !
وأنكُمْ — واللهِ ! — لَا تقتلُوْنَهُ ... ولمَّا ترَوْا قطفَ اللحَى! والغلاصمِ!(١)

* *

زعمتُمْ بأنَّا مسلِمُوْنَ محمَّداً ... ولمَّا نُقاذِفْ دونَهُ ونُزاحمِ !
مِنَ القومِ مفضالٌ، أبيٌّ علىْ العِدَى ... تمكَّنَ فيْ الفرعينِ، مِنْ آلِ هاشمِ
أمينٌ، حبيبٌ ، فيْ العبادِ مسوَّمٌ ... بخاتمِ ربٍّ، قاهرٍ، فيْ الخواتمِ
يرىْ الناسَ برهاناً عليْهِ ، وهيبةً ... — ومَا جاهلٌ فيْ قومِهِ ، مثلُ عالمِ
نبيٌّ ، أتاهُ الوحيُ مِنْ عندِ ربِّهِ ... ومَنْ قالَ: لَا...يقرعْ بهَا سنَّ نادمِ(٢)

نعى على قريشٍ قطيعتها ، التي تجلب لها المأثم ، فتبوء بالخزي ، والبلاء المقيم ... ثم حذرها مغبَّة عملها ، وما سوف تجنيه مِنْ ثمرٍ شجيٍّ...

فسبيل الرشد ، لا حبةٌ معالمه ، سوف تعرف ثماره في يوم الحساب ، يوم تقدم كلُّ نفسٍ على ما قدَّمت ... أمَّا نعيم الدنيا ، فهو على وشك الفناء والتلاشي . وإنه لصائرٌ إلى هذه النهاية ، مهما امتدَّ به العمر ، ولن يكفل له الخلود والبقاء ، إنه لإلى زوالٍ محتومٍ يسعى إليه ، مهما طال الطريق ، أو قصر .

---

(١) يروى « الجماجم » — وقد ذكر الاميني — بعد هذا — بيتين ، لم نذكرهما .

(٢) ذكر هذه القطعة — عدا البيتين الأولين — الحديديُّ في شرحه ٣١٣ : ٣.وذكرت في:الحجة ٤٣ ، ٤٤،وشيخ الأبطح ٣٨ ، ٣٩،وهاشم وأمية ١٧٣،والغدير ٣٣١ ، ٣٣٢ : ٧ . وذكرت خمسةٌ منها في إيمان أبي طالب ١٤ . وذكرت الثلاثة الأخيرة — كشاهدٍ — في العباس ٢٢ ، والأعيان ١٤١ ، ١٤٢ : ٣٩ عدا البيتين الأولين .

فعليهم أن يقلعوا عن سفههم في الرسول ، فلا يسـدرون في الغي ، يتبعون هؤلاء الغواة الآثمين ...

وبعد أن أعلن عن موقفه — وهم له عارفون — وأنه لن يسلم إليهم محمداً ، حتى تطاح رؤوسٌ ، وتسيل دماءٌ ، وتبعثر مجزرةٌ ، مِنَ الأناسين ...

وبعـد أن راح يذكر مـآتي ابن أخيـه ، ومحامده ... أعلن عن رأيـه « الذاتي » فيه ، وفي ما جاء به ... فهو : نبيٌّ مرسلٌ يتنزّل عليه الوحي مِنْ ربه ، فيصدع بأمره ، ويؤدي رسالته .

أمّا مَنْ كان لديه — في ذلك — شكٌّ ، وخالجته ريبةٌ ، وقال : « لا ... » فإنه سيقرع بها سنّ الندم يوم يعضُّ الظالم على أصابعه — ولات حين مندم!.

فهل بعـد هـذا إقرارٌ ...؟ وهـل غير هذا ... الإيمان ، والتسليم ، والاعتراف ...؟!

ونعود فنقول : هل مِنْ فرقٍ بين : مَنْ يقول : « محمّدٌ رسول الله » ، أو ، « محمدٌ نبيٌّ يأتيه الوحي مِنْ ربه » ، أو ما شابه هذه الكلمة ، في ما تحمله مِنْ معناها ...؟! ويقال لذاك : مؤمنٌ ، وهذا : مشركٌ؟!!.

اللهم ! الا انه الجهل ، والضلال ، والاغراض السود ...!

* *

ومِنْ شعره في « الشِّعب » : هذه الأبيات ، التي نعى فيها عـلى قريشٍ: قطيعتها ، وقطعها حبل المودة ، وعرى الإلفة ، وتفريقها الجماعة ، لغاياتهـا السافلة، وشهواتها الحمقاء :

جزىٰ اللهُ عنّا عبدَ شمسٍ، ونوفلاً ، وتيماً ، ومخزوماً : عقوقاً ومـأثماً !
بتفريقهمْ — مِـنْ بعدِ ودٍّ وإلفةٍ — جماعتَنا ... كيْ ماينالوا المحارماً...

كذبتمْ —وبيتِ اللهِ! — نبزيْ محمّداً ولمّا تروْا يوماً—لدىٰ الشِّعبِ—قائماً!(1)

* *

دار الزمن ، عدّة دوراتٍ ، والنبيُّ وحاميه ، والمطلبيون والهاشميون ، في الشِّعب ، يلاقون الأمرّين ، ويتجرّعون صاب الألم ، وينالون أنماط الأذى، وألوان العذاب ، ومرارة الحرمان ... وأبو طالبٍ، ينفث بحممٍ مِنْ شعره ، كلّ ما هاج — في باطنه — الألم ، وغلى مرجل الحمية ، وثارت رواسب النفس، وألمها الكمين .

ومضى على هذه الحياة الرتيبة عامان — في قولٍ— أو ثلاثة — في قـولٍ آخر... فكان يومٌ ، أوحى الله فيه إلى الرسول العظيم (ص) ، بما سلّط عـلى الصحيفة الظالمـة الجائرة ... فقـد أكلتِ « الأرَضَة » (2) جميعَ ما تحمله الصحيفة ، مِنَ الظلم والقطيعة ، ولم تبقِ على شيءٍ منهـا ، سوى اسم الله .

وألقى الرسول ، بهذا النبأ المشرق الحواشي ، إلى عمه ، فسرت فرحـةٌ في جسمه ، وبانَ الاطمئنان في وجهه ، ونام القلق والألم ، وقد كانت لهما ثورةٌ في باطنه ، وسأل ابن أخيه ، سؤال مَنْ يريد المزيد مِنَ الطمأنينة :

---

(1) معجم البلـدان ٢٧٠ : ٥ [٣٤٧ : ٣]، والسيرة الهشامية ١١ : ٢، وذكر البيت الأول ، على أنه مستهلٌّ قصيدةٍ لأبي طالبٍ ، في السيرة النبوية ٢٧٣ : ١، والحلبية ٣٧٥ : ١ .

وقد ذكرنا — في الفصل السابق — البيت الثالث ، مِنْ هذه الأبيات ، في قطعةٍ، نقلناها مِنْ مصادرها ، التي تقول : إن أبا طالبٍ ، قالها في دعوة أبي لهبٍ، لنصرة الرسول (ص) .

(2) الأرضة—محركة—دويبةٌ تأكل الخشب، وجمعها أرض — بالفتح أيضاً.

« يا ابن أُخي ! أربُّك أخبرك بهذه ...؟ »

ولما كان جواب الرسول إيجابيًّا ، أُردف شيخ الأبطح :

« والثواقب ما كذبنّي قط ! » .

فخرج أبو طالبٍ ــ مِنَ الشِّعب ــ تحيط به بضعةٌ مِنْ بني هاشم والمطلب ، حتى أتوا إلى المسجد الحرام ، فلما رآهم قريشٌ ، ساورها الظن بأنهم جاءوا ليسلموا إليها محمداً ، تحت شدة الوصاد ، وزحمة الحصار ...

وهنا ... هتف أبو طالبٍ ، بمَنْ رأى مِنْ قريشٍ ، بصوت الرابط الجأش :

« يا معشر قريش ! جرت بيننا وبينكم أُمورٌ ، لم تذكَر في صحيفتكم ، فاتوا بها ، لعلّه أن يكون بيننا وبينكم صلحٌ » .

وهو قد سلك هذا المنهج مِنَ القول ــ كما يقول التأريخ ــ ليعمّي على هؤلاء ، فلا يبادهم بالنتيجة ، فيفتحون الصحيفة ، قبل أن يؤتى بها ، فتضيع الفائــدة .

وإذ جاءوا بها ، لم يكن يساورهــم شكٌّ ، ولا يخالجهــم ريبٌ ، في أن مخالبهم ، قد نشبت في فريستهم ، التي نصبوا لاصطيادها شتى الأحابيل ، ومختلف الشباك . فها هوذا أبو طالبٍ ، قد جاءهم ــ بعد الجهد المضني ــ يسلّم لهم محمّداً ، لينالوا منه ما يشاءون ، ويقضوا فيه ما هم عليه عازمون . ولكنهم فوجئوا بقوله :

« قد آن لكم أن ترجعوا ، عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم ! » .

قال هذا ، بعد أن جاءوا بالصحيفة ــ أو المعاهدة ــ فوضعوها بينهم ، وقبل أن تفتح ، أخذ أبو طالبٍ في البيان ، بلهجة المطمئن ، الوطيد الإيمان ، العارف بالنتيجة ، دون أن تناله زعزعةٌ أو خــوفٌ . فهو يقرأ المستقبــل . وينظر إليه بعينٍ ، تخترق حجبه الكثيفة ، فيقرأ ما بين سطور هذه الصحيفة التي بين يديه ، فلا يجد فيها غير ما قاله له ، ذاك الذي لم يكذبــه قــط ،

فيأخذ في القول :

« أتيتكم في أمرٍ ، هو نصفٌ بيننا وبينكم ... إن ابن أُخي أخبرني ، ولم يكذبني قط : أن الله قد بعث على صحيفتكــم دابّــةً ، فلم تترك فيها ، إلا اسم الله فقط ، فإن كان كما يقول ، فأفيقوا عما أنتم عليه ، فوالله لا نُسلمه، حتى نموت مِنْ عند آخرنا . وإن كــان باطلاً ، دفعناه إليكــم ، فقتلتم ، أو استحييتم ...! »

وإذ رضوا بذلك ... فتحوا الصحيفة ، فكانت تطالعهم بما أخبرهم به ، تدمغهم بالبرهان ، وتؤنّبهم ، وتخزهم في الســويداء وتسمهم بميســم العار ... ولكنهم أصرّوا على البغي والعناد ، قائلين :

ــ هذا سحر ابن أخيك ...!

فنادى فيهم أبو طالبٍ ، وقد كسب الموقف ، وصدق في المقال ، فكــان له طاقة في القوة والإدلال :

ــ على مَ نُحصر ، وقد بان الأمر ، وتبيّن أنكم أولى بالظلم والقطيعة ؟!.

وحينذاك ... قام هو ومَنْ معه ، فأخــذ بأستار الكعبــة ، يسأل الله أن يمدّهم بنصره ، وبنبرة المظلوم صاح :

ــ اللهمّ انصرنا على مَنْ ظلمنا ، وقطــع أرحامنا ، واستحلّ مــا يحــرم عليه منّا ...!

وعند ذاك ... كانت قد مشت طائفةٌ مِنْ قريشٍ ، وقد رأت ظلمها الفظيع وجورها القاسي ، وعنادها البغيض ...

مشت في نقض الصحيفة ، فكان ذلك ... ورُفــع عن هــؤلا الحصار ، وعادت لهم الحياة ، في مجراها الطبيعي ، بعــد عامين، أو ثلاثةٍ ــ كابــدوا

فيها الألم والجوع والعري ...!(1)

☆ ☆

وإننا لنجد في كلّ كلمةٍ، مِنْ كلمات أبي طالبٍ — هنا — صوراً زاهيةَ الألوان، بارزةَ التقاطيع، صارخةً بما تحمله مِنَ الإيمان العميق، والإطمئنان الراسخ. يخبره الرسول، عمّا فعلته الأرَضة بصحيفة قريشٍ الظالمة، فيسأله عن علمه هذا، فهل أُوحي إليه ربه بذلك ...؟

وما كان سؤاله عن أُصل علمه، إلّا ليكون إيمانه إيمان الباحث الخبير، والمنقّب الحاذق، لا إيمان المستسلم الغرِ ... وهو مِنْ نوع الإيمان، الذي ذكره الله، في القرآن العظيم:

« أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَىٰ ! وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » (2)

لذلك لم يكتدِ الرسول (ص) ينهي لعمّه الجواب، وإذا به يجيب جواب المطمئن المصدّق، فهو الذي لم يأخذ عليه قولةً، تنحرف عن مسلك الصدق، ومهيع اليقين ...

وبهذا الإيمان المكين، والاطمئنان الثابت، اندفع أبو طالبٍ لقريشٍ يتحدّاهم، ويباهلهم بثباتٍ واطمئنانٍ ويقينٍ، لا يعتوره الشك، ولا يخالجه الريب ...

وإلّا لولا هذا ... فهل كان يجزم أبو طالبٍ أن يدع لهمُ الخيار، بين

(1) السيرة النبوية 276، 277: 1، والحلبية 381، 382: 1، والهشامية 16: 2، والكامل لابن الأثير 71: 2، والحجة 41، والغدير 364: 7. وذكر الجانب المهمّ منها في البحار 425 و 523: 6، وعلى هامش السيرة 97: 3، وأعيان الشيعة 130 — 132: 39.

(2) البقرة 260.

اثنتين، إن كان صادقاً، فيما أخبره إبن أُخيه. فهو له كما كان. وإن يكن كاذباً، فعليه أن يسلمه إليهم، يفعلون به ما يشاءون ...؟!

وهل بعد هذا إيمانٌ، ومعتقدٌ صلبٌ ...؟

ثم إنه بعد أن ركز بين اثنتين ... وبانَ له صدق ما قال ابن أُخيه، ووجده صادقاً في كلّ قوله — ولم يكن قد جرّب فيه غير المقال الصادق...

ثم إنه بعد هذا... لو فرضنا — ونستغفر الله ! — عدم إيمانه مِنْ قبل، وتركنا كلّ ما يدلّ على ذلك، وتركنا مقدمات مقاله: « أربّك أخبرك بهذا ... »؟ و« ما كذبتني قط ».

لو تركنا كلّ ذلك ... فهل يصدر لعاقلٍ، وقد شاهد صدق مقال إنسانٍ في خبرٍ بالغيب، عن الله تعالى أن لا يؤمن، ولا يتّبع دعوة هذا الصادق في القول، الشريف في العمل...؟

ولكننا — في الواقع — نلمس الإيمان العميق، في كلّ كلمةٍ، قالها أبو طالبٍ، ونرى في هذه الحادثة أبرز برهانٍ، وأثبت دليلٍ عليه، ولا سيما بعد أن دفعه الإطمئنان والإيمان، على « المباهلة » — وهي غاية الإيمان ...!

فليس يجزم على ذلك شيخ الأبطح، لو لم يكن بالنتيجة على علمٍ ويقينٍ، لا يتطرّق إليه الشك، ولا يساوره الخوف ...

فإن كان ابن أُخيه صادقاً، فهو — كما يعلم — رسول الله. فتجب عليه النصرة والفداء، حتى آخر أنفاس حياته.

وإن كان كاذباً — وهذا ما لا يكون — فهو مسلمه إليهم، بعد أن كذب على الله. وليس جزاء المفتري على الله، إلا القتل، وخنق الحياة فيه.

ولو لم تكن نصرته للدّين وحده، والرسالة ليس إلّا ... لمّا دعاهم لهذه « المباهلة »، ما دامت نصرته للرحم فحسب — كما يقول المغرضون — فهو لن

ينسلخ مِنْ لحمته ، إن كان كاذب المقال ••• ولن يزداد منه مساس رحمٍ ، إن كان صادق القول •••

ولكن ••• لمّا كانت نصرته للرسالة ، ولربِّ السماء فإنّ للكذب والصدق، أمسّ العلاقات بموقفه •••

لذلك ••• ركز لهم بين الإثنتين ، وهو العارف بما حبلت به الأيام ، وسيتمخض به المستقبل •••!

* *

وإذ خرجوا مِنَ «الشِّعب» ورفع عنهم نطاق الحصار المضروب ، فإن أبا طالبٍ لا تفوته هذه المناسبة ــ وقد كان الظفر فيها مِنْ نصيبهم ، حيث أسفر الحق فيها عن وجهه ، وبَانَ مقدار صدقهم ، وظلم الجانب الآخر لهم••• لا تفوته أن يتناولها بالذكر مِنْ شعره ، وهي مادّةٌ ثرّةٌ ، وأرضٌ خصبةٌ ، تأتي بالثمر النضيج ، والزهر الفوّاح :

وقــدْ كانَ فيْ أمرِ الصحيفةِ عِبرةٌ متَىٰ يخبَّرْ غائبُ القــومِ يعجبِ
محَا اللهُ منهَا ــ كفرَهُمْ وعقوقَهُــمْ ومَا نقمُوا مِنْ ناطقِ الحقِّ معربِ !
فأصبحَ مَا قالُوا مِنَ الأمرِ باطــلاً ومَنْ يختلِقْ مَا ليسَ بالحقِّ يكذبِ(١)

---

(١) قال ابن الأثير ــ في كامله ٦١ ، ٦٢ : ٢ ــ ما نصُّه : [وقــال أبو طالبٍ في أمر الصحيفة وأكل الأرَضَة ما فيها مِنْ ظلمٍ ، وقطيعة رحـمٍ ، أبياتاً ، منها] ــ وذكر هذه الثلاثة .

وذكر صاحب الحجة ٤٥، ٤٦ في ١٢ بيتاً ، قبل هذه الثلاثة بيتان، وبعدها:
(فأمسىٰ ابنُ عبدِاللهِ فينَا مصدَّقاً علىٰ سخطٍ مِنْ قومِنَا ، غيرِ معتبِ الخ)
وذكرت منها ثمانية أبياتٍ في البحار ٥٢٣ : ٦ والأعيان ١٤٦ : ٣٩ و ٧ أبيات في إيمان أبي طالبٍ ١٥، ١٦، وقسمها الأخير في المناقب ٣٧ : ١ ، والثلاثــة ←

وهذه الأبيات الثلاثة ــ مِنْ قصيدةٍ له ــ خطوطٌ متمِّمةٌ للصورة ، التي تناولناها ببعضٍ مِنَ العرض ، في الصفحات التي سلفت •••

فهو ــ هنا ــ يعتبر ما جرى على الصحيفة : عِبرةً ، ونُذُراً إلٓهيةً ، تبعث في النفوس العجب ، وتدعوهم للإيمان بالدعوة ، والكفِّ عنِ الظلم والعدوان، والكفر والعقوق ... بل وتفرض عليهمُ الإيمان ، إذا تجرّدوا مِنَ العصبيــة الهوجــاء •

ونجد ــ في البيت الثاني ــ كيف ينسب محوَ الكفر والعقوق لله ــ وهو ما يدعو للعِبرة ، ويبعث العجب ، ويستثير الخوف والرثاء •••

وهو يقول : إن ما نقموه ، مِنْ ناطق الحق ، وظاهر اليقين ، الذي جاء بــه الرســول ، لن يستتر ، فهو : معــرَبٌ ــ أي : ظاهــرٌ ، مِــنْ أعــرب الشيء : أبانه •

ولمّا كانوا لم ينقموا سوى الحق ، فإن كلَّ ما أتوا به باطــلٌ ــ وما بعد الحقِّ إلّا الضلال ــ ومَنْ يختلق الباطل ، ويجانف الحق ، فإنه ــ لا محالة ــ كاذبٌ ، وسوف يفتضح ، وتعرف اسوداد طويته ، وسوء دخلته •••

* *

وله ــ في الموضوع قصيدةٌ ، غير هذه ، ذكر فيها ، صنع الله بالصحيفة، ثم ذكر فيها ماضيهم التليد ، وحاضرهم المشرق، بهذا الرسول العظيم (ص) • ونحن نجتزيءُ منها بأبياتٍ، قد لا تكون منسّقةً في ترتيبها الأصيل:

ألاَ هلْ أتىٰ بحريَّنَا صنعُ ربِّنَــا علىٰ نأيهِمْ ؟ واللهُ بالناسِ أرودُ (١)

→ فقط في الغدير ٣٦٧ : ٧ • وذكر البيتان الأوّلان والبيت الذي في الهامش: [فأمسى •••] في مجمع البيان ٣٧ : ٧ •

(١) البحري : نسبة للبحر • ويُراد به ــ هنا ــ مهاجرو المسلمين للحبشة • الأرود : ليِّن المعاملة •

فيُخبرهُـمْ أنَّ الصحيفـةَ مُزّقتْ — وأنْ كـلُّ ما لمْ يرضَهُ اللهُ مفسدُ
تراوحهـا ، إفْكٌ وسحرٌ مجمَّـعٌ — ولم يلفَ سحرٌ آخرُ الدهرِ يصعدُ
تـداعىٰ لها مَـنْ ليسَ فيهَا بقرقرٍ — فطائرُها ــ فيْ رأسِهَا ــ يتردَّدُ (١)

☆ ☆

فَمَنْ ينش مِنْ حضّارِ مكّةَ عـزّهُ — فعزّتنا فيْ بطنِ مكّةَ أتلـدُ (٢)
نشأنا بهَا ، والناسُ فيهـا قلائـلٌ — فلمْ تنفكّ ، نزدادُ خيراً ، ونُحمـدُ
ونُطعِمُ ، حتّى يتركُ الناسُ فضلَهُمْ — إذَا جعلتْ أيدِيْ المفيضينَ ترعدُ(٣)

☆ ☆

ألاَ إنَّ خيرَ الناسِ نفساً ووالداً — إذا عُدَّ ساداتُ البريةِ ــ أحمدُ
نبيُّ الإلَـهِ ، والكريمُ بأصلِـهِ — وأخلاقِهِ ، وهـوَ الرشيدُ المؤيَّـدُ
جريءٌ علىٰ جلّى الخطوبِ كأنّـهُ — شهابٌ ، بكفَّـيْ قابسٍ يتوقّـدُ
مِنَ الأكرمينَ ، مِنْ لويِّ بنِ غالبٍ — إذَا سِيمَ خسفاً ، وجههُ يتربّـدُ (٤)

---

(١) القرقر : الليّن السهل ؛ الضحوك بترجيعٍ وعلوٍّ واستغرابٍ • فيجوز أن يكون المراد : ليس بذليلٍ ــ على معنى الكلمة الأولى ــ أو ليس بهازلٍ ، ضدّ الجاد ــ على المعنى الثاني ــ ويُراد مِنَ « الطائر » ــ هنا ــ الحظُّ مِنَ الشر والشؤم ، وقد جاء في القرآن الكريم : « وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ » ــ الإسراء : ١٣ •

(٢) ينش : ينشأُ ، فحذف منها الهمزة • التليد : القديم • والأتلد : الأقدم •

(٣) علّق الأمينيُّ على هذا البيت بقوله : [المفيضين : الضاربون بقداح الميسر • يريد سلام الله عليه : أنهم يطعمون ، إذا بخل الناس] •

(٤) سام : كلف • سامه خسفاً : أذله • تربّد اللون : تغيّر • وهو يريد : أنه ليس يرضى الذل •

طويلُ النجادِ ، خارجٌ نصفُ ساقِهِ — علىٰ وجههِ يسقىٰ الغمامُ ويسعدُ (١)
عظيمُ الرمادِ ••• سيدٌ وابنُ سيدٍ — يحضُّ علىٰ مقرىٰ الضيوفِ ويحشدُ (٢)
ويبنيْ لأبنـاءِ العشيرةِ صالحـاً ، — إذَا نحنُ طفنَا في البلادِ ويمهدُ • الخ(٣)

هل رأيتَ : بماذا يطري أبو طالبٍ ابنَ أخيه ؟ وفي أيِّ منزلةٍ ، يراه فيها ، بين الناس •••؟

فهو : خيرهم « ذاتاً ونسباً » ؛ وله القيمة الفضلى ، والرجحان في ميزان القيم ، إذا قيس بسادات الإنسانية ، ورجالها •••

وهو ــ إلى ذلك ــ « نبيُّ الإلَه » العظيم ، و «الكريم بأصله» ومحتده ، و « أخلاقه » ، ومآتيه ••• وهو « الرشيد المؤيَّد » ، بنصر الله العظيم ••• وهو « الجريء » الشديد ، الذي لا يهن ولا يستكين ، ولا تلين قناته ، لشديد الخطب ، وهول النازلة •••

فهو «كالشهاب» ، الذي لا تنطفيء منه اللهبة ، ولا يتلاشى منه الشعاع ، في العواصف المعربدة ، والأعاصير المجتاحـة ، ينير سُبُلَ الطريق ، ويدلُّ السراة ، إلى حيث المهيع الأبلج ، والمنهج الأقوم •••

---

(١) النجاد : حمائل السيف • وطويل النجاد • كنايةٌ عن طول القامة •

(٢) عظيم الرماد : تعبيرٌ رمزيٌّ ، يُراد منه الرجل المضياف ، ذو الجود الفياض ، واليد الندليانة ، وعُبِّر عنه بذلـك ، لكثرة ما يطهي مِنَ الطعـام ، لضيوفه. وهذا التعبير دليلٌ يدعم رأياً نرتأيه ، وهو : وجود الأدب الرمزيّ ، في أدبنا العربيّ القديم •

(٣) السيرة الهشامية ١٧ ، ١٩ : ٢ ، وذكرت بعض أبياتها في الاستيعاب ٩٢ : ٢ ، وفي نسب قريش ٤٣١ . وذُكرت ، كاملةً مسندةً ، في الغدير ٣٦٥ ، ٣٦٦ : ٧ وديوان أبي طالب ٦ ، ٧ . وذكرت الثلاثة الأولى في أعيان الشيعة ١٣٤ : ٣٩ •

إلى آخر ما تحمله القصيدة ، مِنَ النعوت والصفات ، التي يذكرها أبو طالبٍ ، ممّا لابن أخيه ، مِنْ محامدَ فضلى ، وخصالٍ رفيعةٍ ••• مِـنْ : إباءٍ ، وكرمٍ ، وخلقٍ ، وشجاعةٍ ، وطيبِ منبتٍ ، وعملٍ للصالح العام ، وطـــلاقةِ وجهٍ ، يُستسقى به الغمام •••

وهذا المدح والإطراء ، لا يصدر ، مِنْ عمٍّ ، وشيخٍ كبيرٍ ، وزعيمٍ مبجّلٍ ــ لولا الإيمان بالدعوة ــ في مدح ربيبٍ ، وابن أخٍ ، هو بمنزلة ولده •••

إنه لا يصدر ، إلّا مِنْ نصيرٍ للرسالة ، لا نصيرٍ للرحم والقربى •••

لا يصدر إلا مِنْ نصيرٍ للرسول محمد (ص) ، لا مِنْ نصيرٍ لمحمدٍ بن عبدالله ، أخ أبي طالبٍ •••!

عنـــــد الاحتضـــــار

إن تلك الشجرة الفارعة ، التي أظلّتِ الإسلام ، وأقالت نبيَّ الإسلام عن حرِّ الهاجرة ••• قدِ امتدّت لها يد الذبول ، فهصّرت منها الأغصان ، وقطعت عنها نبع الحياة الدافق ، فاصفرّت منها الوريقات سراعاً ، وسرت صفرة الموت في أجزائها جمعاء •••

لقد آن لذلك الشيخ المجهد ، الذي بذل طاقته ، وأفرغ وسعه ، وأدّى جهده : أن يريح جسمه المتعب ، وروحه المنهوكـة ، وأعصابـه المكدودة ، ونفسه الحزينة الضاحكة•••الحزينة ، لِمَا ينال هذا الدِّين وأتباعه ، مِنْ أذى هؤلاء السفهاء ••• والضاحكة ، لأنه امتدَّ به العمر ، فقام بهذه الخدمات الفضلى ، وقام بالواجب المفروض ــ ولم ينثنِ ، ولم يستخذِ ــ وآمَنَ بالدِّين ، الذي بشّر به أبوه ، وأوصاه باتباعه ونصرته ، عند الإحتضار •••

لقد آن له ــ الآن ــ أن يستلـذ بحلاوة ثمر جهـوده ، وينـال جزاء عمله الأوفى •••

ولكن أبا طالبٍ ــ حتى عند الإحتضار ــ لا ينسى أن يوصي بابن أخيه ، هذه الهالة التي تحوط به ، مِنْ بنيه وأهليه ، فيلقي على عواتقهمُ المهمة ، التي قام بها وحده ••• وبهذه السواعد المفتولة ، ستقرُّ عينه ، فلن تتخاذل ، أمـام قوى الشرك المظـلم ••• ستقوم بالمهمة ، وإن كانت ثقيلة المحمـل ، عظيمة الجهد •••

وإن بين هؤلاء ابنه عليّاً ، المؤمنَ الأوّل ، والنصير الأوحد . فلسوف يتمّ الرسالة ، التي قام بها أبوه ، وسيضحي بأغلى ما في الحياة ، في سبيل نصرة رسول السماء ...

* *

ها هوذا أبو طالب ، يدير عينيه ، وقد أخذت جذوة الحياة منهما ، في الخمود... ثم ينبري بصوتٍ خاشعٍ ، تجلّله هيبة الموت ، وخشوع الشيخوخة الواهنة ، ليُلقي عليهم هذه الوصية الفذة ، التي شاء أن يشرك فيها وجهاء قريش — ممّن دعي إليه منهم — لعلّ الله يهدي لدينه مَنْ يشاء :

[يا معشر قريش ! أنتم صفوة الله مِنْ خلقه ، وقلب العرب . فيكم السيد المطاع ، وفيكم المِقدام الشجاع ، الواسع الباع واعلموا :

أنكم لم تتركوا للعرب ، في المآثر ، نصيباً ، إلا أحرزتموه .. ولا شرفاً ، إلا أدركتموه ... فلكم — بذلك على الناس ، الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، والناس لكم حربٌ ، وعلى حربكم إلبٌ ...

واني أوصيكم بتعظيم هذه البنية (1) ، فإن فيها : مرضاةً للربّ ، وقواماً للمعاش ، وثباتاً للوطأة ...

صِلوا أرحامكم ، ولا تقطعوها ؛ فإنّ صلة الرحم : منسأةٌ في الأجل ، وزيادةٌ في العدد .

واتركوا البغي والعقوق ؛ ففيهما هلكتِ القرون ، قبلكم .
أجيبوا الداعي ، واعطوا السائل ؛ فإن فيهما : شرف الحياة والممات .
وعليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ؛ فإن فيهما : محبةٌ في الخاص ، ومكرمةٌ في العام .

(1) يعني : الكعبة .

وإني أوصيكم بمحمدٍ خيراً ، فإنه الأمين في قريش ، والصدّيق في العرب ، وهو الجامع لكلِّ ما أوصيتكم به ... وقد جاءنا بأمرٍ ، قَبِلَه الجَنان ، وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن ...

وأيم الله ! كأني أنظر إلى : صعاليك العرب ، وأهل الأطراف ، والمستضعفين مِنَ الناس ، وقد أجابوا دعوته ، وصدقوا كلمته ، وعظموا أمره ... فخاض بهم غمرات الموت ... وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً ، ودورها خراباً ، وضعفاؤها أرباباً ...! وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه ! ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ! ، قد محضته العرب ودادها ، وأصفت له فؤادها ، وأعطته قيادها ...

دونكم — يا معشر قريش ! — ابن أبيكم ... كونوا له ولاةً ، ولحزبه حماةً ...

والله لا يسلك أحدٌ سبيله ، إلّا رشُد ، ولا يأخذ أحدٌ بهديه ، إلّا سعُد ...

ولو كان لنفسي مدةٌ ، وفي أجلي تأخيرٌ ، لكففتُ عنه الهزاهز ، ولدافعتُ عنه الدواهي ...] (1)

* *

(1) السيرة النبوية ٨٦ ، ٨٧ : ١ ، والحلبية ٣٩٠ ، ٣٩١ : ١ ، وثمرات الاوراق ١٤ ، ١٥ : ٢ .
وذُكرت — مسندةً لعدة مصادر — في شيخ الأبطح ٣٩ — ٤١ ؛ وقد ذكر : أن في أحد المصادر ، زيادة هذه الجملة : [غير أني أشهد بشهادته ، وأعظم مقالته] . وقد جاءت هذه الجملة — أيضاً — مع كامل الوصية في أعيان الشيعة ١٦٤ ، ١٦٥ : ٣٩ .
وذُكرت في الغدير ، بمصادرها العديدة ٣٦٧ ، ٣٦٨ : ٧ . وذكر ←

يا لروعة الإيمان ، يحوطه جلال المغيب !٠

لو لم يكن لأبي طالبٍ، غير هذه الوصية مِنْ دلائل إيمانه ، السافرة الوجه ، لكانت تفرض علينا هذه الوصية : الاعتقاد بإيمان قائلها ، وتبين لنا عن مذهبه ودِينه ، وكلُّ كلمةٍ نقرؤها منها ، نجدها : صارخةً بالإيمان السافر، تدلُّ على المعتقد الرسيخ ٠

إنها قطعةٌ فذةٌ ، مِنَ الإيمان ، لا تقبل الشكَّ ولا الريب ؛ وتجهز على كلِّ فريةٍ ، يرتعش بها لسان المغرضين الأفّاكين ، وتفضح سوء دخلتهم ، والتواء طريقهم ، وسود أغراضهم ٠

راح يوصيهم بوصايا ، لا تصدر إلا عن مؤمنٍ عميقٍ، له إحاطةٌ بباطن التشريع ، وظاهره ؛ ومعرفةٌ بأسراره ؛ وله عينٌ تخترق حجب المستقبل ، وسدمه الكثيفة ، لتنظر ما سيقع ، وتنقل منه صوراً ، جليّة التقاطيع ٠٠٠

أوصاهم بالكعبة — وهي بيت الله وحرمه — وتعظيمها ، لأنها مِنْ شعائر الله ٠ ففي ذلك مرضاةٌ للرب ٠ إذ أن تعظيمها دليلٌ على : أن الإيمان يغمر قلب هذا المعظّم ، فيقوم بأداء ما فرضه الله عليه ٠٠٠ وإنهم — بتعظيم هذه البنيّة — سيجنون جنيّ الثمر ونضيره ٠٠٠ فالدِّين يعطيهم طاقةً ، لقوام المعاش ، والثبات أمام الزعازع النكباء ، وتحت الوطأة البهيضة الثقل ٠٠٠

ويأمرهم بصلة الأرحام ؛ لأن فيها : منسأةً في الأجل ؛ وامتداداً في فسحة العمر ، ورفعة الحياة ؛ وزيادةً في العدد ٠٠٠ وينهاهم عن قطعها — ففيه :

← بعضٌ منها — حسب حاجة المؤلف — في العباس ٢١ ، وأُسندت لبعض مصادرها الوفيرة ،كما ذُكر قسمها الأخير في الإمام علي صوت العدالة ص ٣٦ [٥٩ ، ٦٠ : ١] وفي آخرها زيادةٌ عما ذكرنا ، ما سيأتي :

[إن محمداً هو الصادق الأمين،فأجيبوا دعوته ، واجتمعوا على نصرته، وارموا عدوّه مِنْ وراء حوزته ، فإنه الشرف الباقي لكم على الدهر] ٠

ضد ما في صلتها ٠٠٠

ونجد — بعد ذلك — التشريع الإسلاميّ ، يطابق ما جاء على لسان نصير الرسول (ص)؛ فيحضُّ على صلة الرحم،« ولو بالسلام » ، ويعلّل ذلك بمثل هذا التعليل ٠٠٠

وينهاهم عن البغي والعقوق ؛ فهما : معولا هدمٍ في المجتمع ، يأتيان على قيم الإنسانية ، ويمحوان منها الأثر ، ولهمُ العبرة في مَن مَلك — قبلهم — مِنَ القرون الكثار ٠٠٠

وأُمرهم بإجابة دعوة الداعي ، وإعطاء السائل ؛ فهما يضمنان لهم شرف الحياتين : الدنيا ، والآخرة ٠٠٠ ففي الأُولى : الإسم الباقي ، والذكر العطر، والثناء الخالد ، والقدوة الفضلى ٠ وفي الأُخرى : الجزاء الأوفى ، والكفة الراجحة في ميزان الأعمال ٠٠٠

وأُمرهم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة، فهما ميزتان إنسانيتان ، وصفتان خيّرتان٠٠٠بهما تكمل خصائص الإنسان ومزاياه ؛ فهما دليلان على رفعة النفس، وارتفاعها عن وهدة الانحطاط والدناءة ، وعلى طهارة الضمير ، فخلجة الحياة فيه دافقةٌ ، ونبعها ثرٌ رويٌّ ٠٠٠

وكلُّ هذه قوانينُ إنسانيةٌ ، وفروضٌ إسلاميةٌ ، جاء بها دين الله ، الذي اختار لأدائه ابن أخيه وربيبه ٠٠٠ فهو دليلٌ على : أن أبا طالبٍ قد استقى مِنْ نبع هذه التعاليم ، وانتهج هذه القوانين ، على أنها دِين الله ٠٠٠

وقد شاء أن يوصي بها وجهاء قريش،— وهم يحوطون به ، في لحظاته الأخيرة ، مِنَ الحياة — ليكون إيمانهم ، خطوةً أُولى ، للتصديق بمحمد (ص)؛ فهذه هي التعاليم ، التي جاء بها٠٠٠وهي — كما رأوا — تعاليمُ إنسانيةٌ، وقوانينُ رفيعةٌ ، لا ينالها النقد ٠٠٠

لذلك ٠٠٠ لم يكد يصل عند هذا الحد — وقد شاء أن يقف عنده ٠٠٠

لم يكد يصل عند هذا الحدّ ، مِنْ عرضه للتعاليم الإسلامية ، حتى أخذت وصيته منهجاً آخر ، غير الأول ، فقصر وصيته بمحمدٍ ابن أخيه ، « الجامع لكلّ ما أوصاهم به » ، والحامل للرسالة العظمى ، والتي هذه من أهدافها .

*

وهنا في هذه السطور ــ النقطة الحساسة ، مِنْ إيمانه السافر الصريح ...
فهو يقول : إن محمداً هو الأمين في قريشٍ ــ وليس الأمين « بالطبع » مَنْ يخون الله ــ وهو الصدّيق في العرب ــ وليس الصدّيق ، بالذي يقول الكذب على الله ... وإن اعترافه له بالصدق والأمانة : اعترافٌ له بالنبوة والرسالة ... [1]

ومحمدٌ ــ إلى هذا كلّه ــ هو الجامع لكلّ الخصال ، التي أوصاهم بها ، وحضّهم على انتهاجها ، فهو المعظّم لبيت الله ، والوصول للرحم ، التارك

---

(١) هذه نتيجةٌ حتميةٌ ، لأنه شهد لمحمدٍ بالصدق والأمانة المطلقتين ، وما دام هذا الصادق الأمين ، يقول : « إنه رسول الله لخلقه » ، فإن هذا الشاهد له بالأمانة والصدق ، مصدّقٌ له في ما يقول ، تصديقاً مطلقاً ...

ومِنْ هنا ... نرى أن المشركين ، الذين لم يؤمنوا لمحمدٍ بالرسالة ، والذين كانوا ــ سابقاً ــ يصفونه بهاتين الصفتين ، توقّفوا عن ذلك ، منذ صدع بالرسالة ، وراحوا يصفونه بضدّهما . فهو ــ لديهم ، لعنهمُ الله ــ ساحرٌ وكذّابٌ ، لانهم لو لم يسلبوه ما كانوا يضفون عليه ــ سابقاً ــ لكانوا ، بذلك وحده ، معترفين له بالرسالة . فإن كذّبوه فيها ، كذّبوا أنفسهم ، وهم يرونه الصادق الأمين .

لذلك ... لو لم يكن لأبي طالبٍ ، سوى اعترافه بصدق وأمانة ابن أخيه ــ بعد صدوعه بالرسالة ــ لكان هذا كافياً ، للدلالة على إيمان ابن عبد المطلب !.

للبغي والعقوق ، المجيب لدعوة الداعي ، والمعطاء للسائل ، الصدّيق في العرب والأمين في قريشٍ ...

ولم يقف مِن اعترافه بنبوة ابن أخيه ، عند هذا الحدّ فحسب ! بل أعقب ذلك باعترافٍ ، أشدّ وضوحاً ، يبين عن موقفه مِنْ دِين ابن أخيه ، في هذه اللحظة الحرجة ، وهي خاتمة الأعمال ...

فهل ــ ثمة ــ غير إيمانٍ وإسلامٍ مكينٍ ، بعد هذه القولة :
« وقد جاءنا بأمرٍ ، قَبِلَه الجَنان ، وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن » ؟.
يقول إن محمداً قد جاء بأمرٍ ــ ويريد « الرسالة » ــ قَبِلَه الجَنان ، فآمن به ، وأقرّ به ... وأنكره اللسان ، فلم يجهر بإقراره ذاك ، لغايةٍ تفرض عليه هذا الموقف ، ليؤدّي رسالته ، ويؤدّي واجبه ، وينصر الرسالة ، النصر المؤزّر ... فقد أنكره مخافة الشنآن ــ والشنآن هو : البغض ، مع العداوة وسوء الخلق ــ ليستطيع أن يؤدي رسالته ، ويحوط رسول الإسلام برعايته .

ثم ينظر ــ مِنْ وراء ستر الغيب ــ ليقرأ منه سطراً ، نصيع الحرف ، فيرى كيف تمتدّ دعوة ابن أخيه ... وكيف تقرّ في القلوب ، حتى تخضع لها صاغرةً ... وكيف تنال هذه الطغاة جزاء عتنها وجبروتها ، فتذلّ منها الهامات ، وتكون هذه الرؤوس العاتية ، كالأذناب الذليلة ... وكيف يقوى المستضعفون مِنَ المسلمين ... وكيف ... وكيف ...

ثم يعود ، ليحضّهم على اتباع منهجه ، وسلوك لاحب طريقه ، فيبذلوا له النصرة ، ويكونوا له أولئك الأولياء الخلصان ، ولاتباعه أولئك الحماة الحفظة ... فإنهم إن سلكوا مسلكه ، وانتهجوا نهجه ، كان الرشد إلى جانبهم ... وإن أخذوا بهديه ، واقتبسوا مِنْ نوره ، كانوا أولئك السعداء ...
ثم يأسف ، فيطلب المزيد مِنْ شرف نصرته وحياطته ، ليكفّ عنه الهزاهز ، ويقيه الإعصار ، ويردّ عنه الدواهي ، ويحميه مِنَ العتاة ، ويرد عنه الأذى والمكروه .

إنها ــ أي:الوصية ــ نموذجٌ فذٌّ ، للإيمان العميق ، والتفاني في سبيل المبدأ والمعتقد ، لا يتنكّر له ، ولا يتأخر عن الدعوة إليه ، حتى في آدق الساعات ، وأحرج الظروف...!

وقد شاء أن يعلن رأيه ، ويدلي باعترافه ، ليسجله التأريخ ، سلاحاً ماضيَ الشفرة،يجهز على كلِّ فريةٍ ، يفتريها الجهلة المغرضون،وتأتي على أسس بنائهمُ المنهار ...!

★ ★

هذه الوصية ، شاء منها أبو طالب،أن تكون عامّةً لقريشٍ، ليعلم مَنْ كان يظنُّ منهم ، بأنه على دينهم ، أنه قدِ اهتدى بهدي الإسلام ، واستجاب لدعوة رسول الله « ص » :

ثم شاء أن يخصّ بني عبدالمطلب،وبني هاشم ، بنصحه ، ليتّبعوا محمداً، فينالوا الخير والرشد .

[لن تزالوا بخيرٍ، ما سمعتم مِنْ محمدٍ ، وما اتبعتم أمره ؛ فاتبعوه ، وأعينوه ترشدوا] .

« يا معشر بني هاشم ! أُطيعوا محمداً ، وصدّقوه ، تفلحوا وترشدوا »(١)

ثم خصَّ مِنْ بني هاشم أربعةً منهم ، ليبذلوا النصرة والفداء في حياطة الرسول « ص » :

أُوصِي بنصرِ نبيِّ الخيرِ أربعةً : ابنيْ عليّاً ، وعمَّ الخيرِ عبّاساً ...
وحمزةَ، الأسدَ المخشيَّ صولتُهُ وجعفراً ــ أن تذودُوا دونَهُ الناسا
كونُوا ــ فداءً لكمْ أُمِّي،ومَا ولدَتْ ــ فيْ نصرِ أحمدَ،دونَ الناسِ،أتراسا

---

(١) السيرة النبوية ٨٦ و٢٨١ : ١ ، والحلبية ٣٨٨ و٣٩١ : ١ ، وأبو طالب ٩١،والغدير ــ مسندةً لمصادر عدةٍ ــ ٣٦٨ : ٧ .

بكلِّ أبيضَ مصقولٍ عوارضُهُ تخالُهُ فيْ سوادِ الليلِ مقباساً(١)

★ ★

ليس مِنَ العقل : أن الذي يدعو لاتّباع دعوة محمّدٍ ، وتصديقه ، وإعانته ، لأن دعوته مصدر : فلاحٍ، ورشدٍ ، وخيرٍ...

ليس مِنَ العقل ، في شيءٍ : أن يدعو للرشد والفلاح ، والخير... والتصديق بدعوة مَنْ جاء بها... مَنْ لم يكن ذلك المتّبع المؤمن...!

ليس مِنَ العقل : أن الذي يعترف لدعوةٍ بالرشد ، والفلاح ، والخير ، يكون كافراً بها ، ولا يأخذ بهديها... بل يعمه ــ والعياذ بالله ! في الضلال ... ويسدر ــ وأستغفر الله ! ــ في الغي...!

★ ★

بتلك السطور النيّرة ، الملتهبة الإيمان،والمضمخة بطيب المعتقد، والسافرة عن المبدإ ــ اختتم أبو طالب، صفحة حياته المشرقة ، النصيعة البياض ...

اختتم صفحة حياته ، المليئة بالجهاد والتضحية ، في سبيل الدّين الحنيف ، بكلماتٍ، يغمرها الإيمان السافر ، والدعوة الطيبة ، والوصايا المكرورة ، لنصرة الرسول ، وحياطته ...

فأيُّ رجلٍ مؤمنٍ هذا...؟

وأيُّ نصيرٍ فذٍّ، وراعٍ أمينٍ...؟

---

(١) الغدير « مسندةً » ٣٤٢ و ٤٠١ : ٧ ؛ وذُكر البيتان الأوّلان في إيمان أبي طالب ١٧ ، وذُكرت الثلاثة في الحجة ٩٧ ، ٩٨ وأرجعها الشارح لبعض المصادر . وذُكرت في:المناقب ٣٥ : ١، والأعيان ١٢٠ ، ١٢١ : ٢،و١٤٥ : ٣٥، ومجمع البيان ٣٧ : ٧ .

الجزء الثاني

في ذمة التاريخ

بعـــد الموت

/ «ص»

ما كان الرسول « ص » ـ وهو مثال الوفاء والعدالة والإنصاف ـ بالجحود ، الذي ينكر فضل ذي فضل ، أو يتناسى معروف ذي معروفٍ ...

لذلك ... كان أثر موت أبي طالبٍ، في نفسه عميقاً ، انعكس على صفحة وجهه . فجمد أمام شدَّة الأمر الواقع ، وأحسَّ بالفراغ الذي سيخلفه عمُّه ، بعد حياته ...!

فلم يكد يلقي عليه الإمام عليٌّ، نبأ الفاجعة ـ كما حدَّث عن عليٍّ: عبيد الله بن أُبي رافع ـ حتى انهمرت عيناه بالدموع الغزار ...

وبعد أن كفكف الدموع ، نبر بصوتٍ خاشعٍ، ورنةٍ حزينةٍ، يأمر علياً :

« اذهب ، فاغسله ، وكفّنه ، وواره ـ غفر الله له ورحمه...!»[1]

---

(١) ذكر ذلك في السيرة النبوية ٨٤ : ١ ـ مرويّاً عن : أُبي داؤود ، والنسائي ، وابن الجارود ، وابن خزيمة ـ والغدير ٩٩ : ٣، و٣٧٣ : ٧ ـ عن طبقات ابن سعد ، والواقدي ، وابن عساكر ، والبيهقي، وسبط ابن الجوزي ، والبرزنجي ، وغيرهم ـ وشيخ الأُبطح ٤٤ ، عن مصادره ، والحجة ٦٧ ، ومعجم القبور ٢٠٤ : ١، وتذكرة الخواص ١٠، وإيمان أبي طالب ١٠، وفي أعيان الشيعة ١٦١ : ٣٩ :

[امض فتولَّ غسلَه ، فإذا رفعتَه على سريره ، فأعلمني] .

وهذا دليلٌ ــ إلى جانب دلائل ودلائل ، تأبى الحصر ــ على إيمان هذا الشيخ الكريم . فالرسول يأمر عليًا ــ ولا نظنُّ أحداً ، يخالجه الشك في إسلام عليٍّ « ؟! » ــ بأن يغسل أباه . وليس الإسلام ، بالذي يجيز للمسلم : أن يغسل كافراً ...

والرسول يستغفر الله لعمّه ، يدعو له بالرحمة والغفران ــ والنبيُّ شديدٌ على الكافرين ، بالمؤمنين ــ وحدهم ــ رؤوفٌ رحيمٌ ...!

وإذ ذهب عليٌّ ، وأنجز غسل أبيه ، وحُملتْ جنازة نصير الإسلام ، على أعناق الرجال ، عاد عليٌّ ، لينهي للرسول الخبر ... فقام الرسول، واعترض الجنازة ، ليشيّع عمّه بآيات المدح والإطراء ، ويفي له بحقه على الرسالة الإسلامية :

« وصلتكَ رحمٌ ــ يا عمّ ! ــ وجزيتَ خيراً ! ، فلقد ربيتَ ، وكفلتَ صغيراً ، ونصرتَ وآزرتَ كبيرًا » .(1)

وسار مع الجنازة ، حتى إذا لحد ، وقف عليه ، فقال :

« أما والله ! لأستغفرنَّ لك ، ولأشفعنَّ فيك ، شفاعةً ، يعجب لها الثقلان » (2) .

فالرسول (ص) : يذكر مآثر عمه ، وحسن عمله ، فيدعو له بجزاء

---

(1) النهج الحديدي ٣١٤ : ٣ ، والبحار ٤٤٥ و ٥٢٣ و ٥٢٩ : ٦ ، وشيخ الأبطح « مسنداً » ٤٣ ، والغدير ٣٧٤ و ٣٨٧ : ٧ « مسنداً » ، والحجة ٦٧ ، وأبو طالب ٨٩ ، ومعجم القبور ١٩١ و ٢٠٤ : ١ ، وتفسير عليٍّ بن إبراهيم ٣٥٥ ، وتذكرة الخواص ١٠ ، وإيمان أبي طالب ١٠ ، والأعيان ١٣٩ و ١٦١ : ٣٩ .

(2) المصادر الخمسة الأولى ، ومعجم القبور ٢٠٤ : ١ ، وإيمان ابي طالب ١٠ ــ وقد أسنده الشارح للإصابة وغيره . والأعيان ١٦١ : ٣٩ .

الخير ... ثم يستغفر الله له ، ويعده بشفاعةٍ يعجب لها الثقلان ...!

وما عسى أن تكون هذه الشفاعة ، التي تعجب الثقلين ...؟!

لنفرض ــ وفرض المحال ، ليس بالمحال ــ أن أبا طالبٍ [وأستغفر الله ، والحق ، والضمير الواعي ، والوجدان !] ، لم يكن مؤمناً ، ولم يُحط الرسول بنصره ومؤازرته ، فشفع له الرسول ، وأدخله الجنة ... فإن هذه الشفاعة ، ليست بالتي تُعجب الثقلين ... على أن الرسول ليس بالذي يشفع في كافرٍ !.

أمّا أن الجنة ، هي جزاءٌ ــ باستحقاقٍ ــ لعمله الطيب ... فإن شفاعة الرسول إليه ، هي فوق دخوله الجنة ــ وهو مِنْ أهلها ــ وهي التي تُعجب الثقلين ...!

وقد شاء الرسول ، بقولته هذه ــ فوق وفائه لحقِّ عمه ، وقيامه بواجبه ــ أن يزيل الظنَّ الآثم ، مِمَّنْ لم يكن بإيمان أبي طالب على معرفةٍ ، نتيجةً لتستره ، بإيمانه ، في بعض الأحايين حين ما لا تسمح بالجهر به الظروف السود ، والمحن الصِّلاب ، ليؤدي بهذا الكتمان ، ما يعود على صاحب الدعوة، بالخير العميم ...

★ ★

ويُتبع الرسول قولته التأبينية ــ تلك ــ بهذه الندبة الحزينة :

[وا أبتاه ! وا أبا طالباه ! وا حزناه عليك ، يا عمّاه !.

كيف أسلو عنك ، يا مَنْ ربيتني صغيراً ، وأجبتني كبيراً ، وكنتُ عندك بمنزلة العين مِنُ الحدقة ، والروح مِنُ الجسد] (1) .

---

(1) شيخ الأبطح ٤٤ ، مسنداً عن المجلسي، عن المفيد ؛ وعن ابن حجر في إصابته ١١٢ : ٧ مِنْ طبعة مصر عام ١٣٢٥ ، وقال : «بتصرفٍ واختصارٍ».

وهذه الندبة ـ هي الأُخرى ـ شهادةٌ صريحةٌ مِنَ الرسول ، بإيمان أبي طالبٍ: « وأجبتني كبيراً » .

ولنتصوَّر هذا التعبير الدقيق..فهو يقول : إنه كان عند عمه ـ ومكانه مِنْ نفسه ـ بمنزلة العين . وهي : مصدر النور ، والعدسة الباصرة ، التي تعكس ما ترى ، وبفقدها ، يفقد الإنسان النورَ ، فلا يبصر الضياء ، بل يغمره الظلام الأفحم. وأية قيمة للحدقة ، بعد فقْد النور ...؟!

وهو ـ أيضاً بمنزلة الروح مِنَ الجسد ... الروح التي تخفق بالحياة ، وبدونها يكون الجسم خشبةً باليةً ، لا تسمع ، ولا تعي . بل تفقد قيمتها الإنسانية ، وتتحوّل عن قيمها المعنوية ...

وليس للجسم ـ بعد ما تبارحه الروح ـ سوى أعماق القبر ، يوارى منه : الأثر الكريه ، واللون الحائل ، والمنظر البشع ، والرائحة الخانقة...!

إنه تصويرٌ دقيقٌ ، يعطينا مدى حبِّ أبي طالبٍ للرسول ، بشهادة الرسول ذاته ... ولن تكون مكانة الرسول ـ في قلب امرىءٍ ـ بهذه المكانة ، وذلك القلب ، لا يستجيب لدعوته ، ولا يصدِّق رسالته ... فإن ذلك أبعد وقوعاً مِنَ المحال! إن كان بعد المحال ما هو أبعد منه !.

★ ★

أمّا ـ الآن ـ وقد انهدّ الحصن ، الذي يقي الرسول غواشي قريشٍ.. أمّا وقد افترش الأُسد الهصور رغام القبر ، وأُطبق على جسمه اللحد الضنك.. فإن الوحوش ـ مِنْ قريشٍ ـ تجد الطريق خاليًا ، وقد تلاشى زئير الأسد ، مِنْ حصنه المنيع، لتنال مِنَ الرسول ، ما لم تنله في حياة عمه ، وقد كان له المانع القويّ ... فتناله بألوان الأذى ، ومختلف العذاب ، وآلم السخرية، ولاذع الإهانة والتنكيل ...

لذلك ... لم تكن صورة أبي طالبٍ، لتزايل خيال الرسول ، أو تتلاشى

مِنْ بين عينيه ، وهو يحس مسيس حاجته إليه ...

★ ★

يدخل ـ مرّةً ـ داره ، وقد حثا بعضُ السفهاءِ الترابَ ، على رأسه ، فتقوم ابنته محزونة القلب ، دامعة العين ، لتزيل التراب ... فيصبّرها الرسول ، بقوله :

« لا تبكي ـ يا بنيّة ! ـ فإن الله مانعٌ أباكِ » .

ويعقّب ـ وقد عاد للماضي ، مِنْ حياة عمه ... وكيف كان ينال مثل هذا السفيه ، لو كانت باصرة عمه ، تلتقط ما حدث له اليوم ، ليأخذ بحقه ، ويرد كيد هذا المعتدي الأثيم :

« ما نالتْ منّي قريشٌ شيئاً أكرهه ، حتى مات أبو طالبٍ ! » [1]

وفي كلّ مناسبةٍ، كانت تندُّ مِنْ شفتيه ، مثل هذه القولة ، التي تعبِّر عن حنينه لعمه ، وتصوِّر حاجته إليه ، وتعرض ماضيه الحميد :

« يا عمّ ! ما أسرع ما وجدتُ فقدك ...!» [2] .

★ ★

لقد شاء الله: أن يبتلي رسوله، فقدّر عليه أن : يواجه محنتين ، وتنصبّ عليه مصيبتان ... الواحدة منهما تهدّ الجلَد ، وتأتي على القوىْ ... فيفتقد ـ في أيامٍ متقاربةٍ ـ سندين ، طالما شدّا أزره ...

---

(١) و (٢) السيرة النبوية ٨٨ و٢٨١ : ١ ، والحلبية ١:٢٩١ ، والهشامية ٥٨ : ٢،والطبري ٨٠ : ٢،وابن الأثير ٦٣ : ٢،والمناقب ٣٨ : ١ ، والبحار ٤٣٠ و ٥٢٨ : ٦،وشيخ الأبطح ٥١،ومعجم القبور ٢٠٢ : ١ ، وابو طالب ٩١،والغدير ـ في عدة مصادر ـ ٣٧٧ : ٧ . وذُكرت الكلمة الأولى في الإمام علي صوت العدالة ٣٦ ـ [٦٠ : ١] ـ والثانية في الأعيان ١٢٧ : ٣٩.

فأبو طالبٍ: بحدبه ورعايته، وحياطته ومنعته ... فلا تصل إليه قريشٌ بمكروهٍ، ولا يعترضه، دون أداء رسالته، ما يصدُّه عنها ... فلا يصل إليه الأذى ...

وخديجة: بمالها وحنانها، وإخلاصها وتفانيها... فتساعده على احتمال الشدائد، وتهوّن عليه الآلام، وتأسو منه الجراح، التي يدميها الألم القتال، لصدّ قريشٍ عنه، وأعمالها القباح معه ...

وها هو ذا يفتقدهما، في وقتٍ عصيبٍ ... فيضيق عليه رحيب الفضاء، وتسودُّ في وجهه رقعة الوجود، لولا فيض الله عليه، وثقته به، واتكاله عليه ...

لقد افتقدهما، بعد تلك السنين الصلاب القاسية، التي قضوها في الشِّعب ... وكان عمه، نيّف على الثمانين مِنْ سنيه، فكانت مليئةً بالعمل الجسيم، مثمرةً بالثمار النضرة، مخلّفةً الأثر الحميد، والذكر الباقي، والأثر الجميل ... قد آتت أكلها، وضاعفت ثمارها ... [1]

★ ★

في ساعةٍ، مِنْ ساعات ألمه، وقد ثار منه الدفين، تنبعث مِنْ حنجرته هذه الكلمات المثقلَة بالحزن، والمغمورة بالثقة بالله، والأمل في رضاه، والصبر على قضائه ... والصارخة بالشكوى لربه في ما ناله، مِنَ: الأذى، والهوان، والآلام.

[اللّهمَّ إليكَ أشكو ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس...

(١) اختُلف في الشهر، الذي توفي فيه سيد البطحاء، بين: رجب، ورمضان، وشوال، وذي القعدة. وفي العام، بين: العاشر، والحادي عشر — للبعث النبوي — وفي أيّهما مات، قبل الآخر: أبو طالبٍ، وخديجة. وفي عدد الأيام، التي فصلت، بين افتقاد هذا، وهذه ...

اللّهمَّ! — يا أرحم الراحمين! — أنتَ ربُّ المستضعفين، وأنتَ ربّي، إلى مَنْ تكلني...؟ إلى بعيدٍ يتجهّمني...؟! أو عدوٍّ ملّكته أمري...؟!

إنْ لم يكن بك عليّ غضبٌ، فلا أُبالي...! ولكن عافيتك هي أوسع لي..

إني أعوذ بنور وجهك، الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، مِنْ أن ينزل بي غضبك، أو يحلَّ عليَّ سخطك ... لك العتبى، حتى ترضى ... لا حول، ولا قوة، إلا بك...] [1]

★ ★

لم يبقَ له — بعد أبي طالبٍ — مأوىً في مكة، وقد انهدّ منه الحصن، الذي يقيه الزعازع، والكهف الذي يدرأُ عنه المكروه، والنصير الذي يسخو عليه بالنفس والنفيس ...

وفي غمرةٍ مِنْ غمرات الحزن والألم، يلقي عليه الملاك، هذا الأمر الصادع:

[اخرج منها — أي: مكة — فقد مات ناصرك]. [2].

(١) الطبري ٨١ : ٢، وابن الأثير ٦٤: ٢، والحديدي ٣٢٢ : ٣، والحلبية ٣٥٣ : ١، والنبوية ٢٨٦ : ١، والهشامية ٦١، ٦٢ : ٢، والمناقب ٣٨ : ١، والبحار ٥٢٩ : ٦، وشيخ الأبطح ٥٢، وعلى هامش السيرة ١٤٩، ١٥٠ : ٣، ومحمد النبي العربي ٦٥، ٦٦. وقد ذكره بعض هؤلاء في صورته هذه. وآخرون اقتصروا على بعضه.

(٢) النهج ١٠ : ١، والحجة ١٧ و ٦٤ و ١٠٣، والبحار ٥٤٣ : ٦، وشيخ الأبطح ٥١، ومعجم القبور ١٩٧ : ١، وأعيان الشيعة ٧ : ٣ ق ١، و ١٢٧ : ٣٩.

ذكر عطر

على لسان الرسول

لم تكن مواقف أبي طالب ، بالتي تزايل ذاكرة الرسول (ص) ولا صورتُه بالتي تبرح باصرتَه ...

لذلك لم يكد ينساه ، ولا يزال يذكره الذكر العطر ، ويثني عليه الثناء الموفور ، ويشكر له أعماله الباقية ، ومآتيه الخيِّرة ، ومواقفه المشرّفة ... ليفي له ، ويحفظ اليد ، التي أسداها إليه ...

وما كان الرسول بالذي يغضُّ الطرف ، عن معروفٍ يُسدى ... بل إنه ليذكر ذلك ، مكافأةً للجميل — مِنْ ناحيةٍ — وتشجيعاً للعمل ، مِنْ جانبِ الآخرين ، ليحتذوا هذا المنهج الحميد ، والمسلك الأبلج — مِنْ ناحيةٍ أُخرى .

★ ★

أتى الرسول أعرابيٌّ ، وعليه خطوطٌ مِنَ الأسى ، ويخالطه بريقٌ نفّاذٌ ، مِنْ عينه ، يحمل الرجاء الحلو ، والأمل الخضل . فوقف بين يدي رسول الله (ص) ليقول له :

[يا رسول الله ! لقد أتيناك ، وما لَنَا بعيرٌ يئط ، ولا صبيٌّ يصطبح].

وأعقب قوله ، فأنشد أبياتاً ، يصور فيها حالتهم المرّة ، تصويراً دقيقاً .

أتيناكَ ، والعذراءُ يدمَى لبانُهَـا   وقدْ شغلتْ أُمُّ الصبيِّ عن الطفلِ[1]
وألقىٰ بكفيهِ الصبيُّ ، استكانــةً   مِنَ الجوعِ ، ضعفاً ، مَا يمرُّ ولا يحلي
ولا شيءَ ممَّا يأكلُ الناسُ عنــدنا   سوىٰ الحنظلِ العاميِّ ، والعلهزِ الفَسْلِ[2]
وليسَ لنَا ، إلّا اليكَ ، فرارُنَــا   وأينَ فرارُ الناسِ إلّا إلىٰ الرسلِ؟!

فقام الرسول الرحيم ــ وقد أثّرت فيه هذه الصورة الباكية ــ حتى وصل ، وهو يجرُّ رداءه ، إلى المنبر ، فانفجرت شفتاه ، عن دعواتٍ رقاقٍ ، بعد حمده لله تعالى ، وثنائه عليه :

[اللّهمَّ ! اسقنا غيثاً مغيثاً ، سحّاً طبقاً غير رايثٍ ، تنبت بــه الزرع ، وتملأ به الضرع ، وتحيي به الأرض بعد موتها ــ وكذلك تخرجون] .

ولم يشارف مِنَ الدعاء النهاية ، إلا والسماء تلتمع بالبرق ، والأرض تغسل بالمطر الفيّاض ، فجاء إلى الرسول مَنْ يصيح :

« يا رسولَ الله !. الغرقَ ... ! الغرقَ ... ! »

فترتفع كفّان ، لا يردُّ الله طلبتهمـا ، وتنبس شفتـان ، لا يخيّب الله رجاءهما :

(١) العذراء : البكر . اللّبان ــ بفتح اللام ــ الصدر ، أو مـا بين الثديين . وهو تصويرٌ للمجاعة ، التي اجتاحتهم ، فأدمت حتى صدر العذراء !.

(٢) الحنظل ، نباتٌ يمتد على الأرض ، كالبطيخ ، وثمره يشبهه ، لولا أنه أصغر منه بكثيرٍ ، وهو مضرب المثل للمرارة . العامي : لعلّه صفةٌ مِنْ صفات الحنظل ، أو هو الطويل منه . والعِلهز ــ كما في الحجة ــ بكسر العين وسكون ثانيه وكسر هائه : طعامٌ مِنَ الدمِ والوبرِ ، كان يتّخذ في المجاعــة . والفسل ــ بفتح فائه ــ الرديء .

ويروى : [والطهَل الفتل] . وعلى كلتـا الروايتين ، فهــو : تصويرٌ للمجاعة ، التي حلّت بهم ، حتى اضطرتهم لأكل ما لا يؤكل ...!

« حواليَنا ولا علينا » .

فتنجاب السحب عنِ المدينة ، بعد تلك الزحمة المتراكمــة ، لتستدير حولها ، وتنعقد كالأكاليل ... وتبلغ مِنَ الرسول الفرحة : أن تنفرج شفتاه ، عن ضحكةٍ ناعمةٍ ، تبدو فيها نواجذه ... ثم تختلج شفتاه بنبرةٍ ، فيها عبير الماضي الحنون :

[لله درُّ أبي طالبٍ !. لو كان حيّاً لقرّت عينــاه . مَنِ الــذي ينشدنا شعره ...؟]

فيقف على قدميه : ذاك الذي حفظ أباه في ابن عمــه ــ الإمام علــيٌّ « عليه السلام » ــ ليقول :

يا رسولَ الله !. لعلّكَ أردتَ قوله :

وأبيضُ يُستسقىٰ الغمامُ بوجههِ   ثِمالُ اليتامىٰ ، عصمةٌ للأراملِ

وإذ كان جواب الرسول : « أجل ! » ، راح عليٌّ ينشده أبياتاً ، مِـنْ رائعة أبي طالبٍ هــذه ، والرسول ــ وهو على المنبر ــ يتابع استغفـاره لعمه الوفي .

وحينذاك ... قام رجلٌ ، مِنْ كنانة ، لينشد :

لكَ الحمدُ ، والحمدُ مِمَّنْ شكرْ   سُقينَا بوجـهِ النبيِّ المطـــرْ
دعا اللهَ ــ خالقَـهُ ــ دعـــوةً   إليـهِ ، وأشخصَ منـهُ البصرْ
فلـمْ يـكُ ، إلّا كإلقا الردَا ،   وأسرعَ ، حتىٰ رأينـا الـدُرَرْ
دفـاقُ العزاليِّ جـمُّ البعـاقِ   أغـاثَ بـــهِ اللهُ عليـا مـضَرْ
فكــانَ ــ كمـا قــالهُ عمُّــهُ   أبو طالبٍ : أبيضٌ ، ذو غـرَرْ
بــهِ اللهُ يسقيـهِ صوبَ الغمـامِ   وهذا العيانُ لذاكَ الخبرْ ...[1]

★ ★

(١) الحديدي ٣١٦ : ٣ ، والحجة ٨٨ ــ ٩٠ ، والبحار ٣٨٨ : ٦ ، وشيخ الأبطح ٤٥ ، ٤٦ ، والغدير ٣٧٥ ، ٣٧٦ : ٧ ــ مسندةً لمصادر عدةٍ ــ ←

وهل لنا أن نقف — هنا — عند(استغفار الرسول (ص) لعمه ، وقد واراه الموت ؟» وليس ذكره له ، عند كلّ مناسبةٍ تمرّ ، إلا لأنه يشغل منه البال ، وهذه أعماله الحسان ، تجدّد ذكره عند الرسول...؟

« لله درّ أبي طالبٍ ...! — الخ »(١) : كلماتٌ عطرةٌ ، يضمخها طيب الإعتراف والإطراء ... فالرسول يعرف أن أبا طالبٍ ، لتقرّ منه العين ، لو شهد هذه المأثرة للرسول ...

« ولله درّه !» دعاءٌ وإطراءٌ له ، من ابن أخيه — والرسول لا يطري مَـنْ ليس أهلاً ، ولا يذكر مَنْ لا يستحقّ الذكر ...

وهو يلاحق الإستغفار لعمه ، في الوقت الذي ينشده عليٌّ شعر أبيه — والرسول لا يدعو الله بالمغفرة ، لِمَنْ لم يعمر الإيمانُ قلبه ...

...

إن الرسول — وقد رعى لأبي طالبٍ يده — ليحفظها له في ولده ، وهو يقول : « يُحفظ المرءُ في ولده » ... ومَنْ أولى مِن الرسول ، مِنْ تطبيـق أقواله ، على أفعاله ؟!.

مرّةً ، يقول لعليٍّ « عليه السلام » :

[ليس أحدٌ أحقّ بمقامي ... لقِدمك في الإسلام ، وقربك منّي ، وصهرك لي ، عندكَ فاطمة سيدة نساء المؤمنين . وقبل ذلك ، مـا كان مِـنْ

← و ٣ ، ٤:٧ والأعيان ١٥١ ، ١٥٢ : ٣٩ .

وذُكرت الحادثة — بإيجاز ، وبدون ذكر الشعر — في:السيرة الهشامية ٣٠٠ : ١، والنبوية ١٨١ :١ ، وأبو طالب ٩٣ .

(١) للبرزنجي كلمةٌ قيمةٌ — جديرةٌ بالإلتفات — تتّصل بهذا الموضوع ، موجودةٌ في الغدير ٣٧٦ : ٧.

حماية أبيك — أبي طالبٍ — وبلائه عندي ، حين نزل القرآن ، وأنا حريصٌ أن أرعى ذلك ، في ولده ، بعده !](١).

أرأيت كيف كانت منزلة ابي طالبٍ لدى الرسول — إذ يعدّ بلاء أبي طالبٍ لديه ، حين نزول القرآن ، مِنَ الميزات التي تميّز عليّاً ، وتفرض عليه : أن يراه أحقّ إنسانٍ بمقامه — وهو مقام النبوة — ويعدّها ضمن ميزاته الأخرى ، مِنْ : قديم سابقته ، وقرابته منه ، ومصاهرته له ... ويبدي إليه حرصَه على أن يرعى يد أبي طالبٍ ، في ولده ، بعده ، ليفي إليه بحقه وفضله ، ويجازيه على عمله الأسمى ... فليس غير عليٍّ ، خليفـة للرسول ... وليس مَنْ هو أحقّ منه ، بعد كل هذه المميزات...!

★ ★

ومرّةً أخرى ، يقول لعقيلٍ :

[يا أبا يزيد ! إني أحبك حبين : حبّاً لقرابتك مني ، وحبّاً لما كنتُ أعلم مِنْ حبّ عمي إياك](٢).

ما هذا الحب الطاغي مِنَ الرسول ، لعمه...؟

فهو لا يحبّ عقيلاً ، لمساس رحمه به — هذا حبٌّ ...ويحبه — وهو الحبّ الآخر — لأنه يعلم بالغ حبّ عمه إليه ... فهو يرى : أن حبّ عمه لشخصٍ ،

(١) ينابيع المودة ٢٦٣ [١٤١ : ٢] وغاية المرام ٤٩٧ — مسنداً فيهما عن أبي إسحاق الثعلبي في تفسير القرآن — والغدير ٣٧٨ و ٣٨٨ : ٧ ، مسنداً للحافظ الكنجي في الكفاية ص ٦٨ ، مِنْ طريق الحافظ ابن فنجويه ، عن ابي عباسٍ ، مرفوعاً .

(٢) الاستيعاب ١٥٧ : ٣ والحديدي ٣١٢ : ٣ والحجة ٣٤ وتذكرة الخواص ١٥ ، ومعجم القبور ٢٠٢ :١ والغدير ٣٧٧ و ٣٨٧ : ٧ مسنداً لعدة مصادر .

يفرض عليه هو أن يحبه... فمحبوب عمه ، محبوبٌ لديه ، والقريب منه ، قريبٌ إليه ...

وإنها لشهادةٌ صادقةٌ ، تدلُّنا على بالغ حبِّ الرسول لعمه ... وأيُّ حبٍّ ، أرفع درجةً ، مِنْ هذا الحب ، الرفيع الذري...؟!

★ ★

وفي يوم بدرٍ ، والمعركة الفاصلة في هياجها ، بين : الحق والباطل ، بين التوحيد ، والشرك ــ خرج أبو عبيدة بن الحرث بن المطلب ، ليلقى المشركين ، منافحاً عن عقيدته ، مجاهداً عن دِينه ، فقطع رجلَه عتبةُ بن ربيعة ــ وقيل : شيبة ــ فانقضَّ عليه سيفان مصلتان ، مِنْ سيوف الله ــ هما : عليٌّ والحمزة ــ فاستنقذا صاحبهما ، وخبطا عدوَّهما ، بصارميهما الحديدين ، واحتملا صاحبهما إلى العريش ، حيث هناك الرسول (ص)

وإن مخَّ ساق أبي عبيدة ــ وهو يسيل ــ لم يشغله عن أن يفتح عينين ، قد ذوت منهما لهبة الحياة ، ليقول بصوتٍ مرتعشٍ :

ــ يا رسولَ الله ! لو كان أبو طالب حيًّا ، لعلم : أنه قد صدق في قوله :

كذبتُمْ ــ وبيتِ اللهِ ــ نخلي محمّداً ... ولمّا نطاعِــنْ دونَــه ونناضِــلِ !
ونسْلِمُهُ ، حتّــى نصرَّعَ حولَــهُ ... ونذهــلَ عنْ أبنائِنا والحلائــلِ

فهاجت برسول الله ذكرى عمه ، وتفتّحت نفسه المشرقــة ، لــذكره ، وراح لسانه يلهج بالاستغفار له ، ولأبي عبيدة معاً[1] .

★ ★

(١) الحديدي ٣١٦و٣٣٤ :٣ ، و٣٠٥ ،٣٠٦ :١ ، والحجة ٤٧ ، وشيخ الأبطح ٤٧ ، ٤٨ ، والأعيان ١٥١ : ٣٩ . وذُكــرت في البحــار ٥٩٥ : ٦ ، بصــورةٍ تختلف عن هذه .

ثم تحين ــ ذلك اليوم ــ مِنْ رسول الله نظرةٌ ، بعدما دارتِ الدائرة على قريشٍ ، وتكشّف الموقف عن هزيمتها النكراء ...

تحين مِنَ الرسول هذه النظرة ، الهادئة الرزينة ، وهي تتنقل بين هــذه الجثث الهامدة ، التي خمدت فيها جذوة الحياة ، وكانت تحرق الأرَّم ، وتضرم وقيد النار ، وتسعر أوار الحرب على الرسول ...

تحين هذه النظرة منه (ص) ، إلى جانبه أبا بكر ، ليقول له :

« لو أن أبا طالبٍ حيٌّ ، لعلم أن أسيافنا قد أخذت بالأماثل »[1] .

يُشير إلى بيت أبي طالبٍ ، مِنْ رائعته اللامية :

كذبتُمْ ــ وبيتِ اللهِ ــ إنْ جدَّ ما أرَى ... لتلتبِسَنْ أسيافُنــا بالأماثلِ

★ ★

وهذا العباس ، يسأل الرسول :

ــ يا رسول الله ! أترجو لأبي طالبٍ ؟ .

فيكون جواب الرسول بهذه اللهجة المطمئنة :

ــ كلَّ الخير أرجو مِنْ ربي[2] .

★ ★

وقد صحّح الرواة حديثاً ، ندّت به شفتا الرسول (ص) ، وهو :

[إذا كان يوم القيامة ، شفعت لأبي ، وأمّي ، وعمّي ــ أبي طالبٍ ــ وأخٍ لي كان في الجاهلية] .

وقد ورد هذا الحديث ، في صورٍ مختلفةٍ لكنه ينتهي إلى غايةٍ واحدةٍ ،

(١) الأغاني ٢٨ : ١٧ ، والغدير ٣٧٨ : ١ ، و ٤ : ٢ ، عن الأغاني ، وطلبة الطالب ٤٨ . وأُشير إليها في الشرح الحديدي ٣٠٩ : ٣ .

(٢) الحديدي ٣١١ :٣ ، والحجة ١٥ ، وتذكرة الخواص ١٠ ، ومعجم القبور ١٨٩ : ١ ، والغدير ٣٧٤ و ٣٨٧ : ٧ ــ عن طبقات ابن سعد ، بسندٍ صحيحٍ ، وعن مصادر عدةٍ غيره ــ والأعيان ١٣٦ : ٣٩ .

ولا يختلف في مفاده[1] .

★ ★

إن هذه الأحاديث ، لتفرض علينا أن نقرّ بإيمان نصير الرسول « ص » ، وهذا هو الرسول لا يذكره ، إلا بعاطر الثناء ، ولا يجازيه ، إلا بخير الجزاء ، فيدعو له ربه أحرّ الدعاء . لا ! والرسول لا ينساق مع عاطفةٍ ، ولا يذكر فرداً ، إلا بعمله ، إن خيراً ، أو شرّاً .

ولو كان ذكر الرسول واستغفاره لعمه، وهو لم يكن مسلماً ـ وهذا ما لا يجوز على الرسول ، بالطبع ـ لكان قد وقع الرسول « ص » (وأستغفر الله !) في ما نهاه الله عنه في عدّة آياتٍ :

١ـ (لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، يُوَادُّوْنَ مَنْ حادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوْا آبَاءَهُمْ ، أَوْ إِخْوَانَهُمْ ، أَوْ عَشِيْرَتَهُمْ ـ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيْمَانَ) ـ الخ[2] ..

فالقرآن الكريم ، نفى وجود قومٍ ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وتكون في قلوبهم ذرةٌ مِنْ حبةٍ، لِمَنْ يعادي الله ورسوله ، حتى ولو كانت بين هذا المؤمن ، وذاك الجاحد ، روابط النسب واشجةً ، وتشدهما أواصر القربى ..

لقد جعل ذلك ، مِنْ باب « النقيضين » اللذين لا يجتمعان في حالٍ ... فلا يقع الإيمان ، وحب الجاحدين ، في قلبٍ ... وليس يتّسع ، إلا لأحدهما

---

(١) النهج ٣١١ : ٣، وتفسير علي بن إبراهيم ٣٥٥ و ٤٩٠، والحجة مِنْ ص٣ إلى ٥ ـ وهي الصحيفة التي رصدت «٩» في الكتاب ، غلطاً ، وعليها بُني ترقيم الكتاب ـ والغدير ٣٧٩ و ٣٨٦ : ٧ ، مسنداً لمصادر عدّةٍ .

(٢) المجادلة ٢٢ .

فحسب .

ولعل مِنَ المناسب : أن نأتي على ما فسّر به الزمخشري ، هذه الآية الكريمة :

(خيل أن مِنَ الممتنع المحال : أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين . والغرض به : أنه لا ينبغي أن يكون ذلك . وحقُّه أن يمتنع ، ولا يوجد بحالٍ، مبالغةً في النهي عنه، والزجر عن ملابسته ، والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم ، والاحتراس مِنْ مخالطتهم ومعاشرتهم . وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله : « وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ » ، وبقوله : « أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيْمَانَ » . وبمقابلة قوله : أولئك حزب الشيطان ، بقوله : أولئك حزب الله . فلا تجد شيئاً أدخل في الإخلاص ، مِنْ موالاة أولياء الله ، ومعاداة أعدائه؟ بل هو الإخلاص بعينه) ـ الخ[1] .

وقد ذكر بعد ذلك حديثاً ، عن الرسول ، هذا نصه :

(اللّهمّ لا تجعل لفاجرٍ ولا لفاسقٍ عندي نعمةً . فإني وجدت في ما أوحي إلي : لا تجد قوماً)[2] .

وفي مجمع البيان : (والمعنى : لا تجتمع موالاة الكفار مع الإيمان)[3] .

★ ★

ب ـ (يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا : لاَ تَتَّخِذُوْا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ، تُلْقُوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ)[4] .

---

(١) و (٢) الكشاف ٤٤٤ : ٢ (٣٩٦ : ٤) وتجد الحديث في تفسير ابن كثير ٣٣٠ : ٤ .

(٣) ١٩ : ٢٨ .

(٤) الممتحنة : ١.

لقد نهى الله في هذه الآية – المؤمنين ؟ ان يتخذ الكفار أصدقاء لهم ، أو يوالوهم ، ويخفق قلبه بالحب لهم وتنطوي منهم الجوانح منهم على المودة لهم ، أو يستنصرونهم وينصرونهم .

★ ★

ج – يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا : لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ ، إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ . وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ : إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ) . إلى قوله : (أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)[1] .

ففي الآية الأُولى ، نهى المؤمنين أن يتخذوا آباءهم وإخوانهم – وهمُ المرتبة الأُولى التصاقا وقربا للمرء – أولياء ، إذا كان هؤلاء ، مِمَّنْ يفصل بينهمُ الكفر ، فإن الإيمان يقطع حبل المودة،بين: المؤمن،والكافر ، حتى لو كان هذا الكافر أباً للمؤمن ، الذي هو خالقه الثاني ، وله على ابنه فضل الإيجاد والرعاية – بعد الموجد الأوّل .

ثم قال : إن موالاتهم وحبهم ، يخرجهم مِنْ حظيرة الإيمان ، ليضيفهم إلى عداد الظالمين .

وفي الآية الثانية جعل فيها حدّاً فاصلا... فإما أن يرغبوا إلى الله ، ويدعوا هؤلاء... وإلا فليتربصوا ، حتى ينالوا الجزاء ، ويروا أمر الله ،

---

(١) التوبة : ٢٣ ، ٢٤ .

فما هم سوى قوم فاسقين ! .

وقد ذكر الزمخشري ، بعد تفسير هذه الآية ، أن النبي « ص » ، قال :

[لا يطعم أحدكم طعم الإيمان ، حتى يحبَّ في الله ، ويبغض في الله،حتى يحبَّ في الله أبعد الناس ، ويبغض في الله أقرب الناس إليه[1]] .

[وهذه هي آيةٌ شديدةٌ ، لا ترى أشدَّ منها ، كأنها تنعى على الناس ما هم عليه ، مِنْ رخاوة عقدالدِّين ، واضطرابحبل اليقين... فلينصف أورع الناس وأتقاهم مِنْ نفسه،هل يجد عنده مِنَ التصلُّب في ذات الله،والثبات على دين الله، ما يستحبُّ له دينه على الآباء والأبناء...؟] الخ[2] .

وفي مجمع البيان .

[إن أمر الدِّين مقدَّمٌ على النسب . وإذا وجبقطع قرابة الأُبوين فالأجنبي أَوْلى] – [قال الحسن : مَنْ تولّى المشرك،فهو مشركٌ][3] .

★ ★

د – هـ – (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ! مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ، فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)[4] .

(وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ ، مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ . وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)[5] .

---

(١) و (٢) الكشاف ٥٤٨ « ٢٠١ ، ٢٠٢ : ٢ »

(٣) ٣٤ : ١٠ .

(٤) المائدة : ٥٤ .

(٥) المائدة : ٨١ .

ففي تلك الآية : جعل مِنْ شروط الإيمان : هذا التذلل والمحبة ــ بينهم ــ والتآلف والتقارب ، ليكونوا يداً واحدةً ، كالبنيان المرصوص ، يشدُّ بعضه بعضاً ...

وهذه العزة والقوة والبطش ، على الكفّار المشركين ، لئلا يعيثوا في هذا البنيان ، المشتدّ الصليب ، ويفتّوا هذه الوحدة المتماسكة ...

وفي المجمع : [رحماءُ على المؤمنين ، غلاظٌ شدادٌ على الكافرين ، وهو مِنَ الذلّ الذي هو اللين ، لا مِنَ الذل الذي هو الهوان . قال ابن عباس : تراهم للمؤمنين كالولد لوالده ، والعبد لسيده ، وهم في الغلظة على الكافرين كالسبع على فريسته] (١).

وفي الآية الثانية : نفى عن أولئك الإيمانَ ، لموالاتهمُ الكفار ، واتّخاذهم إياهم أولياء ، فاستحقّوا بذلك غضب الله ، وسخطه عليهم ، فخلّدهم في العذاب المهين ــ كما في آيةٍ مرّت ، ممّا ذكرنا ــ وأن الاكثرية من هؤلاء لفسقاء ...

وإن [موالاة المشركين كفى بها دليلاً على نفاقهم ، وإن إيمانهم ليس بإيمانٍ ، ولكنهم متمرّدون في كفرهم ونفاقهم](٢).

وقد علّل [وصفهم بالفسق ــ وإن كان الكفر أبلغ في باب الذم ــ لأمرين :

أحدهما : أنهم خارجون عن أمر الله ، وهذا المعنى لا يظهر بأن يصفهم بالكفر .

والآخر : أن الفاسق في كفره هو المتمرّد فيه . والكلام يدلُّ على : أنهم

---

(١) ١٢٢ : ٦.
(٢) الكشاف ٤٣٠ : ١ [٥٢٠ : ١].

فاسقون في كفرهم ، أي : خارجون إلى التمرد فيه] (١) .

★ ★

و = (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ : أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ، رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) (٢).

وذكر المفسرون ــ بعد هذه الآية ــ قولةً ، عن الحسن :

[بلغ مِنْ تشدُّدهم على الكفار : أنهم كانوا يتحرّزون مِنْ ثياب المشركين ، حتى لا تلزق بثيابهم ، ومِنْ أبدانهم ، حتى لا تمسّ أبدانهم] (٣)

وبعد أقوالٍ ذكرها الزمخشري ، يقول :

[ومِنْ حق المسلمين ، في كلِّ زمانٍ ، أن يراعوا هذا التشدُّد ، وهذا التعطف ، فيتشدّدوا على مَنْ ليس على ملّتهم ودينهم ، ويتحاموه (٤) ،

---

(١) المجمع ١٧١ : ٦.
(٢) الفتح ــ ٢٩.
(٣) المجمع ٨٠ : ٢٦ ، والكشاف ١١٥ : ٣ [٣٧٥ : ٤]
(٤) ليس يفرض الإسلام هذا التشدُّد ــ الذي يظنُّ منه : المقاطعة ، أو المحاربة ــ على كلِّ مَنْ ليس مسلماً ، حيث جعل لأهل الذمة حقوقاً ، كحقوق المسلمين ، في حفظ أموالهم وأنفسهم وأعراضهم ... وقنّن لذلك القوانين الرفيعة المثلى ، وهو الدّين السامي ، الرفيع الذري ... ولكن هذا التشدُّد يفرضه على كلِّ مَنْ لم يقم بالحفاظ على تلك القوانين ، ولم يقم مِنْ جانبه بما يجب عليه ... فهنا يجب مكافحته ، وهو العدوُّ الصريح ، أو العدوُّ المتستر ، المبطّن بالغش والنفاق .
على أنه فرقٌ بعيدٌ ، بين أهل الذمة ــ وهم مِنْ أهل الكتاب ، موحّدون ←

ويعاشروا إخوتهم في الإسلام ، متعطّفين بالبر والصلة ، وكفّ الأذى ، والمعونة، والاحتمال ، والأخلاق السجيحة] (1) .

ولكن ... فيا لتعس حظّ المسلمين ! ، وها هم أولاء يعملون على عكس هذه القولة ، وقدِ انقلبت — لديهم — الآية، فكانوا رحماء بغيرهم ، أشداء على أنفسهم ... وإن بعضهم ليقدّم البعض ، ضحيةً للعدوّ ...! وينال بعضُهُمُ البعضَ ، ما لا يناله الجاهل ، في نفسه ، أو في عدوّه ...! في حين أنه يمحض عدوّه في الدّين ، أوِ الوطن — سواءً كان شرقيّاً ، أو غربيّاً — خالصَ الودّ ، ويبذل مِنْ أجله ما تتطلبه المصلحة العميلة ، مِنْ تفانٍ في الإجرام والخيانة ؛ فيضحي ببني قومه ، ويقدّم وطنه لقمةً سائغةً ، لفم العدوّ المستعمر البغيض ، في ثوبه الأحمر الدامي ، أو ثوبه الأسود المظلم... وهو — في النهاية — لا ينال سوى سيّء الجزاء — وهو مِنْ جنس عمله — حتى مِمَّنْ كان له ذلك الذنبَ العميل الحقير ؛ وما للذّنَب مِنْ قيمةٍ ، متى استغني عنه ، فلا يبقى له سوى البتر ...!

وبذلك ... انفصمتِ العرى ، وفُتّتِ الوحدة ، وسرت نار الخلف ،

← للخالق — وبين المشركين ، الذين يُشركون في العبادة ، غيرَ الله سبحانه ، أوِ الكفار ، الذين وصل بهم الجهل إلى رواسبه،فأنكروا الخالق العظيم ...! فهؤلاء ليس يمكن — بحالٍ مِنَ الأحوال — سوى التشدّد معهم ، والتحامي عنهم ...!

وهؤلاء هم المعنيّون — بصورةٍ أخصّ — بهذه الآيات الزاجرة الناهية .

وأبو طالبٍ — في رأي المغرضين المفترين — ليس مِنْ أهل الكتاب . وإنما هو مِنْ هؤلاء الكفار ، أوِ المشركين — وعفوَ الحق والعدل ! — فهو داخلٌ — على رأيهمُ التفيه — في نطاق المنهيّ عن:موالاتهم،وقربهم،وودّهم ...!

(1) الكشاف ١١٥ : ٣ [٢٧٥ : ٤] .

كما يندلع اللهب ، في الهشيم اليبيس ...!

★ ★

ولنَعُد إلى موضوعنا ، فنعيد نظرةً فاحصةً ، في هذه الآيات ، وفي آياتٍ أخر ، تدور حول هذا الموضوع ، وتلمس هذه الناحية — شئنا أن لا نتقصّاها ، فتطول بنا الخطى ، ويتشعّب بنا الطريق ...

نُعيد هذه النظرة ، لنرى ما تعنيه هذه الآيات الكريمة ... ثم نتساءل :

هل يجوز على نبيّ الإسلام ، أو له — وهذه تعاليمه — أن يكون ذلك الرحيم بمشركٍ،أو كافرٍ— والعياذ بالله ! — لأنه قريبه،فحسب ... ويضرب ، عرض الجدار ، بهذه التعاليم التي جاء بها الوحي الصادع المجلجل ...؟!

وهل يجوز أن يتقبل دفاع رجلٍ— عنه ، وعن دِينه — مِمَّنْ لم يعمر قلبه الإيمان ، ولم يطمئنّ للدعوة ، وهو الذي روي عنه : « اللّهمّ لا تجعل لفاجرٍ ولا لفاسقٍ عندي نعمةً » ...؟!

وتعليل ذلك:أن مَنْ أسدى إليه يد المعروف ، ومدَّ إليه يد النصرة ، كانت له عليه النعمة الفضلى ... وحينذاك وجب عليه الشكران والمكافأة ، وكانت له في قلبه ، منزلةٌ سامقةٌ ، ومحبةٌ عميقةٌ ...

وهذا كلُّه يتخالف ، وما جاءت به الآيات ، التي فيها شدّةٌ ، وفيها إنذارٌ ، وفيها نفيٌ ، وفيها زجرٌ ، وفيها وعيدٌ ...

اللّهمّ ! إلا أن نقول : إن الرسول ، لا يتمشّى ونصوص دستور ربه ، وما يتنزّل عليه مِنْ وحي السماء ...! ، فيخالف حرفية القرآن ، وما جاء فيه — وأستغفر الله ! — ليتسنّى لنا — حينذاك — القول بكفر مؤمن قريش، بعدما ثبتت لنا فعاله ونصرته ، ومواقفه الصلاب ، في حياطة الرسول ، ونصرة الدعوة ، وحفظ كيانها الوطيد ...!!!

وإذ ليس — ثمة — مَنْ يقول هذا! ... فهو على الإعتراف بإيمان أبي

طالبٍ لمجبرٍ... وقد سُدّت عليه السبل ، بعد أن ثبت عن الرسول هذا الإستغفار، وهذا الذكر المتجدّد ، والثناء العطر ، والتمجيد المستمر ، والتعظيم الرفيع...

وكلّ هذا ... مع إغضاء النظر عن العمل ، الذي قام به أبو طالب ، والاعتراف الذي سجّله على صفحة الوجود ، وشنّف به مسمع الدهر ، يتألّق بنور الإيمان ، ويشعّ بلألاء اليقين ...!

على لسان الإمام علي

إذا ما انتقلنا إلى الإمام عليّ « عليه السلام » ، لنجد ما يذكر به أباه ، فإننا لنجد في أقواله ما ينضح بالدليل ، على إيمان أبيه ، ويبدّد بألق اليقين عتمةَ الشك ... ويقضي على المزاعم والتقوّل ...

أغمض أبوه عينيه ، فجاء للرسول ، وأنهى اليه خبر فقدِه ، فألقى إليه الرسول تعاليمه ، فائتمر بما ألقى إليه النبيّ من قولٍ ، فغسّل أباه ، وحنّطه وكفّنه وشيّعه ...

وهل يكون هذا لغير المسلم ...؟! أنا لا أدري ...!!!

ثم رأى الرسول (ص) ، وهو يعترض جنازة أبيه ، ويتحفه زكيّ القول ، وتنهمر مِنْ عينيه دموع الأسى ، وزفير الألم ...

ثم تمضي الأيام ــ تباعاً ــ فيرى الرسول في ضائقةٍ ، قد اشتدّت عليه الأمور ، وتأزّم به الحال ... فلا يلبث أن يبث الشكوى والألم ، لفقد عمه الحنون ...

وتطوف بعليّ صورة أبيه ، وتمرّ به مواقفه مِنَ الدِّين ، وذبّه عنه ، وحياطته للرسول ، ومنعته به ، فتثور فيه كوامن الوجد الدفين ، وتخز جنبه شوكةُ الألم المستفحل ، فتسيل منه الدموع ، في انسكابٍ ، وهو يتمتم

بهذه الأبيات ، التي تعكس لهبة ألمه الكمين :

أبا طالبٍ ! عصمةَ المستجيرِ ! وغيثَ المحولِ ! ونورَ الظُّلَمْ !
لقدْ هدَّ فقدُكَ أهلَ الحفاظِ ، فصلّى عليكَ وليُّ النعمْ !
ولقّاكَ ربُّكَ رضوانَهُ فقدْ كنتَ للمصطفى خيرَ عمْ (١)

★ ★

وهكذا تمضي السنون ... فتعمل أُمية عملها السيء وتضع الأحاديث الزور ، فيشاهد منها الإمام عليٌّ شررَ قدحها ، ويمرُّ بها شيءٌ مِنْ لهبها المحرق ــ وهي فاتحة عمرها المسودّ ...

ففي يومٍ كان الإمام عليٌّ ، في الرحبة ، والناس حوله ، إذ قام إليه رجلٌ ، مِمَّنْ وصل إلى سمعه سوء القالة ، وزور الحديث ، فلبَّس عليه الحق بالباطل المفتري ... وقال له :

[يا أمير المؤمنين ! إنك بالمكان الذي أنزلك الله ، وأبوك معذّبٌ في النار ...؟!]

فتنطبع صفحة وجه الإمام بالغضب ، وتثور نفسه أن ترجف أُمية ، هذا الإرجاف الدنيء ، فتنسى كلَّ واجبات الإنسانية ، فلا تحفظ ميتاً ، قد حاطه الموت وصانه الخلود . وأصبح لا يزاحمها في الحياة ، حتى بظلّه ــ اللهمّ إلا باقي الذكر ، ورفيع العمل ــ فلا تكتفي بأن تتناسى عمله الباقي ، وفعله الحميد ، ومقاومته لها على شركها ورجسها ، حتى تضع في حقه ، ما يدنّس صفحة الصدق ، النصيعة البياض ...!

ويجيبه الإمام بجوابٍ ، يكشف له فيه ، عن كذب هذه القولة :

(١) الحجة ٢٤ وتذكرة الخواص ١٢ وشيخ الأبطح ٥٠ ــ بدون الثالث ــ ومعجم القبور ٢٠٦ : ١ ــ بدون الثاني ــ والغدير ٩٩ : ٣ و٣٧٩ و ٣٨٩ : ٧ ــ مسندة ــ والأعيان ١٤٠ : ٣٩.

[مه ! فضَّ الله فاك !، والذي بعث محمداً بالحقِّ نبياً ! لو شفع أبي في كلِّ مذنبٍ، على وجه الأرض ، لشفَّعه الله ...!

أأبي معذَّبٌ في النار ، وابنه قسيم الجنة والنار ...؟!

إن نور أبي طالبٍ ـ يوم القيامة ـ ليطفئ أنوار الخلائق ، إلا خمسة أنوارٍ ...] ـ الخ [1] .

فَمَنْ كان بهذه المنزلة الفضلى ، والدرجة السامقة ، حتى أنه لهو «قسيم الجنة والنار » [2] لا يكون مِنَ الفضل ، إلا على اكتمالٍ ... وإنه لا يليق لذلك ، إلا مَنْ كان مِنَ الإيمان ذلك العريق الجذور... لم يدنَّس بأدناس الشرك ، ولا بأوضار الدناءة ...

وإنه لَمِمَّا ينقصه : أن لا يكون أبوه مؤمن القلب ، أو أن يكون مدنس الصفحة بالشرك ... فإنه ليعلق به منه ، ما يلملم مِنْ فضله ، ويلاشي مِنْ قيمته ، ويخدش مِنْ منزلته .

★ ★

ومرّةً أخرى يقول :

ـ والله ! ما عبد أبي ، ولا جدي عبد المطلب ، ولا هاشم ، ولا عبد مناف ، صنماً ، قط !.

ـ فما كانوا يعبدون ؟.

---

(١) الحجة ١٥،وتذكرة الخواص ١١، وشيخ الأبطح ٣٢،والغدير ٧:٣٨٨،مسنداً لعدة مصادر، ومروياً عن الإمام الحسين السبط «عليه السلام»

(٢) حديثٌ صحيحٌ متكثِّرُ الرواة . وقد أُسند لأبي بكرٍ الصديق ، في الرياض النضرة ١٧٧ و ٢٤٤ : ٢.

ـ كانوا يصلّون إلى البيت ، على دِين إبراهيم « عليه السلام » ، متمسكين به [1] .

وحدَّث أبو الطفيل ـ عامر بن وائلة ـ عن عليٍّ« عليه السلام » :

[إن أبي حين حضره الموت ، شهده رسول الله (ص) ، فأخبرني عنه بشيءٍ ، خيرٌ لي مِنَ الدنيا ، وما فيها] [2].

ومرّةً أخرى يقول ـ ويوضح السر في كتْم أبي طالبٍ إيمانه :

[كان ـ والله ! ـ أبو طالبٍ عبد مناف بن عبد المطلب مؤمناً مسلماً ، يكتم إيمانه مخافةً على بني هاشم ، أن تنابذها قريشٌ] [3].

ومرّةً يقول :

[ما مات أبو طالبٍ حتى أعطى رسول الله (ص) ـ مِنْ نفسه ـ الرضا] [4].

هذه الأقوال مِنَ الامام عليٍّ« عليه السلام » ، في حقِّ أبيه ، وهذه الشهادات السافرة ، والتي تصدر عن قصدٍ ، بعد أن يسمع سوء القالة ، وأراجيف التهم ـ ما عسى أن يكون باعثها ...؟ وما الذي يدعوه إلى نشرها ...؟ وما الذي يدفعه إلى الحديث ، عن أبيه ...؟؟

---

(١) الغدير ٣٨٨ : ٧ ـ مسنداً ـ والعباس ١٨ ـ مسنداً لمرآة العقول ٣٦٢:١ـ ومعجم القبور ٢٠٠ : ١.

(٢) الحجة ٢٣،والغدير ٣٨٨ : ٧.

(٣) الحجة ٢٤،والغدير ٣٨٩ : ٧،ومعجم القبور ٢٠٠ : ١.

(٤) الغدير ٣٧٠ و ٣٨٩ : ٧ . وفي الحجة ٢٣ مروياً عن الصادق « عليه السلام » . والأعيان ١٣٦ : ٣٩ .

فهل نعزوها إلى العاطفة الأبوية ، وحميّة الرحم ، دون أن يكون لها مساسٌ بالواقع ، وصلةٌ بالحق ...؟!

لا أظن واحداً — مِمَّنْ قرّ في قلبه الإسلام — بقادمٍ على سلوك هذا الطريق المنئاد ... وهو مِنَ الوعورة ، بحيث يخرج سالكه عن حصن الإسلام وحظيرته ، لأنه تسوُّرٌ على مقام إمام المسلمين ، وحامي الإسلام ونصيره ... وخلافٌ سافرٌ ، لِمَا نصَّ به الرسول (ص) ...

فعليٌّ ليس بالذي يميل عن الحق — وهو معه — كما نصَّ الحديث المتَّفق عليه ، بين المسلمين أجمع :

« عليٌّ مع الحقِّ ، والحقُّ مع عليٍّ ، يدور معه حيث مادار » .

ولسنا بحاجةٍ لأن نسرد كلَّ ما نَدَّت به شفتا الرسول الأعظم (ص) في حق وصيّه — وهي التي تضارع نور الشمس : ظهوراً وشهرةً ...

وإن كان — ثمة — مَنْ يحمّل أقوال الإمام ، شيئاً مِنْ عاطفة ، فإنه ليطعن نبيَّ الإسلام ، حيث أشاد بفضل رجلٍ ، تتغلّب عاطفته على دينه ، ويفضّل رحمه على مبدئه ... فينساق مع شهوةٍ ، ليغيِّر حقّاً ، ويحقَّ باطلاً ...

إذ أن واجبه المقدس ، يفرض عليه : أن ينفض يده مِنْ أبيه — على فرض موته على الشرك — ويبرأ منه ، وهو العدوُّ لله ، ولا يسدل على سوأته ستراً ...

فما حق الأب بأعلى مِنْ حقِّ الله عليه ...

وله بسيرة أبيه إبراهيم الخليل ، خير نبراسٍ ، فيما قصَّ الله عنه :

« فَلَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ »(١) .

فليس له : أن يوالي عدوّاً لله ، إذا شاء أن يخلص العبادة لله وحده ، ويوثق الصلة بينه ، وبين الخلّاق العظيم ، وهو وليُّ النعم ...!

وليس بين المسلمين مَنْ يداني — بله يرجح — عليّاً ، إيماناً واسلاماً ،

(١) براءة ١١٤.

وطاعةً لله ورسوله ...

وإننا لنرى بينهم : مَنْ ضرب المثل الرائع ، في : رسوخ المعتقد ، ووطادة الإيمان ، والفناء في جنب الله ، وتقديم الواجب الدّيني على العاطفة النسبية — فما حبل النسب ، بالذي لا ينبتُّ ، إذا تعارض وقوّة الدِّين ، الرسيخ في القلب ...

وليس شيءٌ ، مهما كانت له القوة والمنعة ، ومهما اشتدَّ وصلب ، بالذي يقف أمام قوة الدِّين الجارفة المشتدَّة ، وهي كالنوء الغاضب ، يأتي على كلِّ شيءٍ يعترض دربه ، ويصدُّه عن وجهته ، التي يريد ...

★ ★

وإن التأريخ ليقصُّ علينا : موقف عبدالله بن عبدالله بن أُبي بن سلول (١) ، مِنْ أبيه ، حيث فاه أبوه بكلمات النفاق ، في غزوة بني المصطلق ، فأحدث في صفوف المسلمين الفساد ... فلا يسمع بذلك ابنه عبدالله — وهو أقرب الناس إليه — حتى يذهب للرسول (ص) ليقول له :

[يا رسول الله ! بلغني أنك تريد قتل أبي ، فإن كنت فاعلاً فمُرْني به ، فأنا أحمل إليك رأسه . وأخشى أن تأمر غيري بقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافرٍ ، فأدخل النار] (٢) .

(١) يقول الزمخشري : إن اسم عبدالله هذا ، هو: حباب بن عبد الله بن أُبي ، ولكن الرسول غيَّر اسمه لعبدالله ، وقال : إن حباباً اسم شيطانٍ ...!

(٢) وفي رواية الزمخشري : إن عبدالله بن أُبي ، لمَّا أراد أن يدخل المدينة ، اعترضه ابنه هذا ، وقال : وراءك ! والله لا تدخلها ، حتى تقول : رسول الله الأعز ، وأنا الأذل . فلم يزل حبيساً في يده ، حتى أمر الرسول ←

إنه ليرجو الرسول أن لا يطيح مِنْ أبيه رأسه الشموخ ، أحدٌ سواه ...!
ولماذا ...؟ لأنه يخشى أن يقوم بهذه المهمة غيره ، فتنبت في قلبه بذرة الحقد ، لهذا القاتل ، ويقع منه ما لا يحمده لنفسه ، ويعرّض نفسه لِمَا لا يرضاه لها مِنْ عاقبة سوءٍ ... فإن نفسه قد لا ترضى منه : أن يصفح عن قاتل أبيه ، فتمتد إليه منه يدٌ بمكروهٍ ، فينال بذلك جزاء السوء ..

ولكنه إذا قام هو بالمهمة ، فلتأكل قلبَه نيرانُ الألم ، ويتلوّى على مذبح الوجد ، دون أنْ تدنس منه صفحة الإيمان ، وتقاوة المعتقد ...
ولكن الرسول الصفوح الرحيم ، يُريحه مِنَ الإثنين ، فيعفو عن ذاك المنافق مِنْ أجل ابنه المؤمن [1].

★ ★

وهذه حادثةٌ أُخرى ، تدلّنا على مدى طغيان العاطفة الدِّينية ، وتغلّبها على عاطفة الرحم ...

فقد مرّ عديٌّ بن حاتم ، ومعه ابنه زيدٌ ــ بعد المعركة الدامية بين الحق والباطل ، في صفين ــ فوجدا رجلاً ، مِنْ بين قتلى جيش معاوية الباغي

← بتخليته .
وقيل: إنه قال له : لئن لم تقرَّ لله ولرسوله بالعزّة ، لأضربنّ عنقك !. فقال: ويحك ! أفاعلٌ أنت ؟!. قال : نعم !. فلما رأى منه الجدّ : قال : أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . فقال رسول الله لابنه : جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً !.

(1) ذكر الحادثة ، كلُّ مَنْ عرض لغزوة بني المصطلق ، كالكامل ١٣١ ، ١٣٢ : ٢ ، والطبري ٢٦٠ ــ ٢٦٣ : ٢ ، والكشاف ٤٦١ ، ٤٦٢ : ٢ [٤٢٣ ــ ٤٢٤ : ٤] ، وتفسير علي بن إبراهيم ٦٨٠ ــ ٦٨٢ ، وأشير إليها ــ بصورةٍ أُخرى ــ في مجمع البيان ٨٥ ــ ٨٧ : ٢٨.

الضال ، وكان هذا القتيل خال زيدٍ بن عديٍّ ، فراح يصوّت ، يسأل عن قاتل خاله ، فوافاه رجلٌ طوال ، وهو يقول : أنا قتلتُه ...
وإذ أجابه القاتل على سؤاله ، عن صفة القتل ، وثب عليه زيدٌ برمحه ، فطعنه به وأرداه قتيلاً ...
وحينذاك ... حمل عديٌّ على ابنه ، يكيل له السباب ، ويزف الشتم لأُمه ، ويقول له :

[يا ابن المائقة ! لستُ على دِين محمّدٍ ، إن لم أدفعك إليهم] .
لولا أنّ زيداً قد هرب مِنْ وجه أبيه ، ونجّاه منه ــ كما نجّى معاوية ــ « سابحٌ ذوُ علالةٍ » [1] ، فلحق بمعاوية ، فنال مِنْ معاوية ضروب الإكرام ، فرفع عديٌّ يديه ، داعيًا عليه :

[اللّهمّ ! إن زيداً قد فارق المسلمين ، ولحق بالملحدين ...[1] اللّهمّ ! فارمه بسهمٍ مِنْ سهامك لا يلتوي ...[2]
لا والله ! لا أُكلمه مِنْ رأسي كلمةً ، أبداً ... ولا يظلّني وإياه سقفٌ أبداً] [3] .

---

(1) إشارةٌ لقول النجاشي ــ أيام صفين :
ونجّى ابنَ حربٍ سابحٌ ذوُ علالةٍ أجشُّ هزيمٌ والرماحُ دواني
إذا قلتُ : أطرافُ الرماحِ تنوشُهُ مرتْهُ لهُ الساقانِ والقدمانِ
(1) في وقعة صفين : بالمحلين .
(2) في الوقعة : لا يشوي ــ أو لا يخطيء ــ وبعدها: فانّ رميتَك لا تنمي ــ وأشوى : رمى فأصاب الشوى ، أي: الأطراف ــ دون المقتل .
(3) كنّا قد استقينا خطوط الحادثة ــ فيما نتصوّر ــ مِنَ الغدير ، وفاتنا أن نضع الصفحة والجزء ، فلم نعثر عليها فيه ، رغم إعادة البحث ، ولا ندري فقد تكون مِنْ مصدرٍ آخر .
←

وعاطفة الأُبوة ، أشد قوّةً وأمضى ، مِنْ عاطفة البنوّة ، فأنت تجد عديّاً ، قد أراد أن يورد ابنه حياض الموت ، لولا فراره منه ...! فلم يبقَ له ، سوى الدعاء الحار ، وقد أفلت مِنْ يده ، ولحق بالحزب الملحد الباغي ...!

★ ★

وليست هذه الحادثة — في وقعة صفين — بالولد البِكر ، فقد سجّلت حادثة أُخرى ، هي صورةٌ ثانيةٌ لهذه ، نرى عرضها هنا :

خرج مِنَ الفئة الباغية مَنْ يطلب البراز ، ولم يكد يسمع النداء حزب الحق ، حتى يخرج على الصوت مَنْ يجيبه ، ويقتتل الرجلان ، ممثّلاً فيهما : الباطل المفضوح ، والحق الأبلج ؛ ويشتدُّ بينهما الصراع ، بين الصفّين ، حتى اعتنق الرجل المحقُّ — العراقيُّ — ذلك المبطلَ — الشاميَّ — فيقعا تحت قوائم فرسيهما ، ويجلس هذا على صدر الشامي ، ويكشف المِغفَر عن وجهه ، ليجهز على رمق الحياة فيه ، وإذا به يكشف عن وجه اخيه ، لأبيه وأمه ...! ولكنه يسمع أصواتاً ، تتعالى مِنْ حزبه، وتدعوه :

« أجهز على الرجل ! » .

ولكنه يتأنّى ويجيب : « إنه أخي » . فيسمع جواب قوله : « فاتركه ! » .

وقد كان له في ذلك مخرجٌ ومنجاةٌ ، ولكنه لا يقنع بذلك حتى يتلقّى ما يبرّر مقامه وساحته ، فما هو بالذي يقدّم عاطفة الدم على واجب الدِّين ، وخدمة المبدأ ، فيجيب بعنادٍ وإصرارٍ :

[لا ! حتى يأذن لي أمير المؤمنين] .

← وقد ذُكرت في وقعة صفين ٥٩٩ ، ٦٠٠ .
وأُشير لها في كامل ابن الأثير ١٦٥ : ٣ — وذكر أن القتيل مع معاوية ، هو : حابس بن سعد الطائي ، خال زيدٍ .

فيخبر عليٌّ « عليه السلام » بذلك ، فيضع الحدّ الفاصل : « دعه ! » (١)

ولو لم يتلقَّ الأمر مِنْ قائده البار ، لَمَا دعاه يفلت مِنْ سيفه ، ولأورده حياض الموت ...

وليس هؤلاء بأشدَّ مخشنةً في جنب الله ، وتفانياً في سبيل المبدأ ، مِمَّنْ قام الإسلام ، على ساعديه : قوياً ناشطاً ، ومِمَّنْ أطاح بسيفه المرهف ، رؤوساً مشركةً شامخةً ، وهدّ حصوناً مِنَ الشرك ، على منعةٍ ، ودعاماتٍ على قوّةٍ ومتانةٍ ...

وما هو بالذي يخرج عن الحق ، أو يفترق عنه طرفة عينٍ ، كي ينفلت منه اللسان ، بغير حقِّ المقال ، ويذكر أباه بغير الواقع الصادق !.

فلو لم يكن عليٌّ بإيمان أبيه ذلك العليم ، لَمَا نفى عنه سوء القالة ، وذكره بعاطر الثناء ... ولكان إلى جانب الثالبين ، لا يهدأ مِنْ تهمهم واهيَ الأُسس. فإنه أولى بأن يقول الحق ، ولو على أبيه ، أو نفسه ، وله مِنْ إيمانه ، وملازمة الحق إياه ، ما لا تزلُّ به القدم ...

وهو الأولى — بعد الرسول (ص) — بأن يتمسّك بما جاء في القرآن العظيم ، وينتهي عمّا ينهى عنه ... وقد مرّت بنا تلك الآيات الكريمة ، التي تحمل الوعيد الزاجر ، والنهي الراعد ، لِمَنْ يتوالى مَنْ لم ينتهل قلبه ، مِنْ نبع الإيمان الروي ...

وما عليٌّ، بالذي يخالف القرآن ، في:نهيٍ أو أمرٍ — وهو الحقُّ مجسّداً!.

★ ★

ومناسبٌ جدّاً أن نضع — أمام القارىء — هذه الفقرة ، مِنْ قولةٍ ، ألقاها

---

(١) وقعة صفين ٣٠٨ .

الإمام ، في أحد أيام صفين ، أمام العدوّ والصديق :

[ولقد كنّا مع رسول الله (ص) ، نقتل آبائنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ، وما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ، ومضيّاً على أمضّ الألم ، وجدّاً على جهاد العدو ، والاستقلال بمبارزة الأقران] — الخ [1] .

وإنها لصورةٌ رائعةٌ ، تكشف لنا عمّا كان عليه المسلمون ، مِنْ شدّةٍ وقوةٍ وصلابةٍ في إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، حتى لو كان ضحية ذلك الآباءُ والأبناءُ — كما وصفهم لنا القرآن الكريم ، وكما أمر به دستوره الخالد ...

على لسان اهل البيت

إذا ما تتبعنا سيرة أهل البيت الأطهار ، وجدنا كلَّ واحدٍ منهم ، يهدُّ حصون التُّهم ، التي شيدت حول إيمان بيضة البلد ، ويكشف الستر المسدل ، الذي أُريد منه أن يحجب السنى ، مِنْ إيمان شيخ الأبطح ، ويسعى ليرد للحق رواءه ، ويهدّ مِنَ الباطل دعائمه الواهية البناء ... ليجأر بكلمة الحق — وهي الصافية النبرة — في مجتمعٍ ، قد أصمَّ آذانه صراخُ الباطل ...

وكلّما ازدادت هذه الأصوات ، والجلبة الكاذبة ، وجدنا مثل هذه الكلمة الحقة ، يمتدُّ منها النفَس ، وتطول المقاطع ، وتتردَّد مِنَ الحناجر ...

وكلّما اشتدَّت زحمة الظلمة ، واحلولكت مِنَ الوجود رقعته ، كانت الإشعاعة أشدّ لمعاناً ، وأطول بقاءً ، لتفري شيئاً مِنْ هذه الظلمة المتلبدة ، ولتأخذ بيد مَنْ ضلَّ الطريق ، مِنْ زحمة الظلام ، عن غير قصدٍ ، وراح يبحث عن الضوء ، ليسير على سناه ، ويعود إلى المنهج الأقوم ...

★ ★

سأل الإمامَ السجّاد — عليَّ بن الحسين « عليه السلام » — واحدٌ مِنْ

(1) وقعة صفين ٥٩٧ .

هؤلاء ، الذين وصلت إلى سمعهم ضوضاء الباطل ، مِنَ السحب ، التي أُثيرت حول إيمان أبي طالبٍ ... فكان جواب الإمام : نعم !.

وأعاد السائلُ القولَ ، ليقف على مصدر هذه التهم ، ويعرف مدى الواقع منها ...

— إن هنا قوماً ، يزعمون أنه كافرٌ !.

فتنفلت مِنْ صدر الإمام أنّةُ جريحٍ ، وصرخةُ مهتضمٍ مظلومٍ ، مفتريً عليه:

[واعجباً كلَّ العجب !. أيطعنون على أبي طالب ؟ ، أو على رسول الله (ص) ، وقد نهاه الله تعالى أن يقرَّ مؤمنةً مع كافرٍ ، في غير آيةٍ مِنَ القرآن ؟!

ولا يشكُّ أحدٌ أن فاطمة بنت أسد «رضي الله عنها» مِنَ المؤمنات السابقات . فإنها لم تزل تحت أبي طالبٍ ، حتى مات أبو طالبٍ « رضي الله عنه »] [1] .

★ ★

إن قولة الإمام السجاد — هذه — تعني : أن القول بشرك أبي طالبٍ ، ليس غير طعن على الرسول (ص) ، الذي تهاون في إنفاذ ما استنّه الله في كتابه ، فقد جاءت فيه غير آيةٍ ، تنهى : أن يظلَّ امرأةً ، قرَّ في قلبها الإيمان : جناحُ رجلٍ ، لم يهتدِ بسنى الدِّين ...

ولم يكن — ثمة — مِنْ شكٍّ في إيمان فاطمة بنت أسد — أمِّ عليٍّ ، وزوج أبي طالبٍ التي لم تنل مِنْ إيمانها الدعاياتُ ، ولم تُحكْ حولها الدسائسُ .

وليس — ثمة ، أيضاً — مَنْ يقول : إن الرسول قطعَ حبل الزوجية بينهما ، والذي بتّه القرآن ، لو لم يكن أبو طالبٍ مؤمناً ...!

(1) الحجة ٢٤ ، والنهج الحديدي ٣١٢ : ٣ ، وشيخ الأبطح ٧٦ ، والغدير ٣٨١ و ٣٩٠ ، ٣٩١ : ٧ ، مسنداً للمصدرين الأولين ، وللدرجات الرفيعة ، وضياء العالمين ، الذي قال عنه قيل : إنها متواترةٌ عندنا — والأعيان ١٣٦ ، ١٣٧ : ٣٩ ، بصورةٍ مختصرةٍ .

وإذ بقيت فاطمة ــ وهي المسلّم بإيمانها ــ تحت جناح أبي طالبٍ ، فإن القائل بشرك أبي طالبٍ ، بين :

طاعنٍ على أبي طالبٍ ، إذ افترى عليه ما هو منه بريءٌ ، وناله بالظلم ، حين ينسبه إلى الشرك ، وهو المؤمن ...

وطاعنٍ على الرسول ، اذ لو ثبت شرك أبي طالبٍ ــ وذلك ما لا يجوز ــ فإن الطعن يتوجّه للرسول ذاته ، إذ كان ذلك المتهاون ، في ما يتلقّاه مِنْ وحي السماء ، بعد أن نهاه الله : أن يقرّ مؤمنةً مع كافرٍ ، فلا ينفّذ ذلك ، ويقطع هذا الحبل الممتدّ بين فاطمة وعمّه ...

إذن ... فالقول بشرك أبي طالبٍ ، يتطلّب جرأةً فذّةً ، وصلابةً وقحةً ، لأنه طعنةٌ توجّه إلى صميم الدّين الإسلامي الحنيف ... إلى صميم رسوله الأقدس ... إذ لم يكن ذلك الصلب في جنب الله ، والشديد في ذاته ، والعامل بما يتنزّل عليه مِنْ وحيٍ مقدّسٍ ...

★٣★

وهذا ابن السجّاد ــ الإمام الباقر « عليه السلام » ــ يُسأل عن فريةٍ ، مِنْ تلك المفتريات الشائنة ، وهي : ذلك الحديث المختلق المكذوب ، الذي تلهج به ألسنةٌ ، مِنْ مراض القلوب ، وهو : أن أبا طالبٍ في ضحضاحٍ مِنْ نارٍ :

[لو وُضع إيمان أبي طالبٍ ، في كفّة ميزانٍ ، وإيمان هذا الخلق في الكفة الأُخرى ، لرجح إيمانه] .

ثم يقول :

[ألم تعلموا : أن أمير المؤمنين عليّاً « عليه السلام » كان يأمر : أن يُحجّ عن : عبدالله ، وآمنة ، وأبي طالبٍ ، في حياته ــ [أي : عليٌّ] ــ ثم

أُوصى ، في وصيته ، بالحج عنهم ؟][1] .

إنه يقول : إن لإيمان أبي طالبٍ رجحاناً ذاتيّاً ، على إيمان الخلق . . فهو إيمان عارفٍ ، لا مقلّدٍ ... إيمان نصيرٍ مكافحٍ ...

فإيمانٌ ، يصدر مِنْ زعيم قبيلةٍ ــ هي لباب العرب ــ وبلدةٍ يؤمّها العرب أجمع ... وتحوطها بالتقديس والإجلال قلوبٌ ، على وفرة عددٍ ... فلا يلبث هذا الزعيم المتبوع أن يتخلّى عن زعامته ، ويكون تابعاً ليتيمٍ ، نشأ في حضانته ، وتحت رعايته ... إن ذلك لإيمانٌ رجيحٌ ، له قيمته الفضلى ، وقمته السامقة ، ولا سيما أن هذا الإيمان ، يحطّ مِنْ رفيع قيمة هذا المؤمن ، وسامق منزلته ... يحطّ ذلك منه ، في أعين قومه ...

ثم راح يستدلّ على ذلك ، بعملٍ ، كان يقوم به إمام المسلمين عليٌّ « عليه السلام » . فقد كان يأمر أن يُحجّ عن أبي طالبٍ . ولم يقتصر على ذلك في حياته ... فأوصى به ، بعد موته ...

والحجّ ركنٌ مِنْ أركان الدّين الإسلامي ... فليس يجوز على عليٍّ : أن يأمر به عمّنْ لم يضمّه الإسلام إليه ...

★٣★

أمّا الإمام الصادق « عليه السلام » ــ فإننا نقف على ثروةٍ ، ممّا قاله في حقّ جدّه ، ودحْض التهم الملصقة به ...

ذلك أن عصر الصادق « عليه السلام » ــ وقد كان بعد انحطاط دولةٍ

---

(١) النهج ٣١١ : ٣ ــ وتجدر الإشارة ، إلى غلطةٍ مطبعيةٍ ، في النهج ، عند ذكر هذا الحديث ، فقد جاء فيه : [وقد روي عن عليّ بن محمدٍ] . والصحيح : [محمد بن علي] . ومعجم القبور ١٨٩ : ١ ، والحجة ١٨ ، وشيخ الأبطح ٣٢ و٧٦ ، والغدير ٣٨١ و ٣٩١ : ٧ ــ مرجعاً لعدّة مصادر ــ والأعيان ١٣٦ : ٣٩ .

غاشمةٍ ، سقتِ الأمة كأساً مصبَّرةً ... وقيام دولةٍ ، اتّخذت لها شـــارة العلوية... وحدّدت لها هدف ودّ الحقّ إلى أهله ، لتجعلهـــا ســـلاحاً ، وحجر الزاوية في تأسيس دعامة الدولة الجديدة ... وكان مِنْ ثمار هذا أن ترفع السيف ــ لحدٍّ مّا ، ولوقتٍ محدودٍ ــ عن الرقاب العلوية... وترفع الكمامات عن الأفواه ، لوقتٍ معلومٍ... على أن تعود لذلك كلّه ، متى استقرّ بها الحال ، فتستوفي ما فات ، والصاع صاعين ...

ذلك أنّ هذا كان سبباً فعّالاً ، ليجلجل صوت جعفر بن محمدٍ ، بكلمة الحق ، ويُؤثر عنه فيضٌ مِنْ سنى نوره ، ورفعة تعاليمه ... وكان ــ مِنْ بين هذا ــ شيءٌ ، له قيمته في حق نصير الرسول ...

فمرّةً يجيب سائلاً ، قال له :

[إن الناس يزعمون : أن أبا طالبٍ ، في ضحضاحٍ مِنْ نارٍ] .

فيقول الإمام :

[كذبوا !. ما بهذا نزل جبرئيل !].

ثم قال :

[إنّ مثَلَ أبي طالبٍ مثَلُ أصحاب الكهف: أسرّوا الإيمـان ، وأظهروا الشرك ، فآتاهم الله أجرهم ــ مرّتين ــ وإن أبا طالبٍ أسرّ الإيمان ، وأظهر الشرك ، فآتاه الله أجره ــ مرّتين ــ وما خرج مِنَ الدنيا ، حتى أتته البشارة مِنَ الله تعالى بالجنة] .

ثم قال :

[كيف يصفونه بهذا ؟! وقد نزل جبرئيل ، ليلة مات أبو طالبٍ ، فقال : يا محمد ! اخرج مِنْ مكة ، فما لك بها مِنْ ناصرٍ ، بعد أبي طالبٍ][1] .

★ ★

---

(١) الحجة ١٧ و١١٥، والنهكج ٣١٢ : ٣، والغدير ٣٨١ و٣٩١ : ٧ ــ مسنداً ــ ومعجم القبور ١٩١ : ١ ، وجاء شطرٌ منها في الأعيان ١٣٦ : ٣٩.

إن الإمام يقول : إن الله قد آتى أبا طالبٍ ، ضعفي المثوبة والأجر ، إذ استطاع أن يكتم إيمانه ، لمّا رأى الكتمان هو الأصلح... فله أجر الإيمان، وأجر الكتم هذا... فما كلُّ مؤمنٍ ، بقادرٍ على أن يكتم ما يؤمن به ، وإن كان ذلك في صالح الدعوة ...

وإنه ليقول ذلك ، بعد أن مثّله بأهل الكهف ، الذين حكى قصّتهم القرآنُ الكريم .

فما مضاعفة الأجر بكثيرٍ ، على مَنْ بلغ به الإيمان، هذه الذروة الرفيعة... وما الكتم ــ إذا فرضته المصلحة ــ ببدعٍ على أبي طالبٍ ، أو بممتنع الوجود، بعد أن تجده في أهل الكهف !.

... وبعد أن يقول إن الله بشّره بالجنة ، قبل أن يبرح هـــذه الدار الفانية ... وليس في هذا كبير أمرٍ ، بعد أن ذكروا أن النبيّ « ص »، بشّر بالجنة أناساً بالذات ... ولعلّ فيهم مَن لا يقاس بأبي طالب : نصرةً للإسلام ، وذباً عنه..

بعد أن يقول ذلك ... يدعم قوله بإيمانه ، بدليلٍ رسيخٍ ، وحجـةٍ لا تُدحض... فَمَنْ كان موته يهدُّ ركن الرسول ، فلا يبقى له بمكة قرارٌ ... بل ينزل عليه الوحي صادعاً ، يأمره بالخروج ، بعد فقدان الناصر ...

مَنْ كان كهذا ... فهل مِنَ الجائز أن يكون كافراً ، أو تمسّ النار شعرةً مِنْ جسده...؟!

إذن ... فليتساوَ المؤمن والملحد ، والمسلم والمشرك ...!

★ ★

ويدور مع الإمام الصادق ، ويونس بن نباتة ــ حديثٌ ، يسأل فيـه الإمام :

ــ يا يونس ! ما يقول الناس في أبي طالبٍ ؟.

ــ هو في ضحضاحٍ مِنْ نارٍ ، يغلي منها أمُّ رأسه !.

ــ كذب أعداء الله ! إن أبا طالبٍ مِنْ رفقاء النبيِّين والصدِّيقــين ، والشهداء والصالحين ، وحسُن أُولئك رفيقاً[1] .

ومرّةً يقول له سائلٌ : إنهم يزعمون أن أبا طالبٍ كان كافراً .

فقال : كذبوا !. كيف وهو يقول :

ألمْ تعلموْا أنّا وجدنا محمّــداً نبيّا كموسَى خُطّ في أوّلِ الكتبِ[2]

ومرّةً أخرى يقول : كيف يكون أبو طالبٍ كافراً ، وهو يقول :

لقدْ علموْا أنّ ابننَا لاَ مكذّبٌ لدينا ، ولاَ يعبـأ بقولِ الأبـــاطلِ
وأبيضَ يُستسقىَ الغمامُ بوجههِ ثِمالُ اليتامَى عصمــةٌ للأراملِ[3]

يقول الإمام : كيف يكون كافراً ، مَنْ يعترف للرســـول ، بالنبوة والصدق ، وأنه نبعة السماء والمعتصَم للأرامل ، المبارَك الوجه ، الميمون الطلعة ...؟

★ ★

ويحدّث الإمام الصادق :

[كان أمير المؤمنين « عليه السلام» يعجبه أن يرويَ شعر أبي طالبٍ « عليه السلام »وأن يُدوّن . وقال : تعلّموه وعلّموه أولادكم ، فإنه كان على دِين الله ، وفيه علمٌ كثيرٌ][4] .

وهذا الحديث ــ بالإضافة إلى الشهادة السافرة ، مِنْ عليٍّ بإيمان أبيه

---

(1) الحجة ١٧، وشيخ الابطح ٣٢ و٧٥، والغدير ٣٩٤ :٧ـ مسنداً لكنز الفوائد وضياء العالمين .

(2) و (3) الغدير ٣٩٢ : ٧ لمصادرعدّةٍ .

(4) الحجة ٢٥ ــ مسنداً عن أبي الفرج الأصفاني ــ والغدير ٣٩٥ : ٧، مسنداً لعدة مصادر .

ــ يكشف لنا ، عن قيمة أبي طالبٍ ، ومنزلته السامية... فإن الإمام عليّاً ، ليثير إعجابه أن يُروى شِعر أبي طالب...!

ولذلك... فإنه يأمر بتعلّمه وتعليمه ، فهو يحفل بالعلم الكثير،وهوعلى دِين الله ، وله إحاطةٌ ومعرفةٌ بأديان الله ...

★٤★

وهذا درْست بن أبي منصور ، يسأل الإمام الكاظم موسى «عليــه السلام »عن أبي طالبٍ. وهذا السائل لا يسأله عن إيمانه ــ وهو به ذلك العليم ، ولديه ذلك الثابت ــ وإنما يسأله عن شيءٍ ، فوق الإيمان :

ــ أكان رسول الله « صَ » محجوجاً بأبي طالب ؟.

ــ لا ! ولكنه كان مستودعاً للوصايا ، فدفعها إليه .

ــ فدفع إليه الوصايا ، على أنه محجوجٌ به ؟.

ــ لو كان محجوجاً به ، ما دفع إليه الوصية !.

ــ فما كان حال أبي طالبٍ...؟

ــ أقرّ بالنبيّ ، وبما جاء به ، ودفع إليه الوصايا[1] .

★ ★

وهذا الحديث ، هو إحدى الدعامات ، التي تسند ما قلناه،حين تحدّثنا عن « شخصيّة » أبي طالبٍ ــ مِنْ هذا الكتاب ــ فإن مثله ضروريٌّ الوجود، ليصل الإشعاعة ، المنبثقة مِنَ الدعوة الحنيفية ، التي نادى بها إبراهيم الخليل ــ بهذا القبس المشع ، الذي رفعته المحمّدية البيضاء !.

وسير الحديث ، يدلّنا على أن السائل ، كان مطمئناً لإيمان أبي طالبٍ ، ومعتقداً بأنه مستودعٌ للوصايا ، ليسلمها لخاتم النبيين . وليس يستودع هذا الإرث الإلَهي ، مَنْ أغلق قلبه ظلام الشرك...!

وليس السؤال،إلّا عن شيءٍ،هو فوق الإيمان ... وإلا فلهجة السؤال،

---

(1) العباس ١٨، والغدير ٧:٣٩٥ ــ مسنداً .

تدلُّ على الإيمان والوصايا ... وإنماطنَّ السائل ـ مِنْ عظيم معرفته بمنزلة أبي طالبٍ ـ أن الرسول كان ، قبل البعثة ، محجوجاً بهذا الوصيّ... فدفع هذا الوهمَ مِنَ السائل : جوابُ الإمام الصريح ....

وأكَّد الإمام ذلك ، في جوابه على السؤال الثاني ، مِنَ السائل ، الذي شاء الإحاطة والتَّقصي ...

وبعد أنِ انقلعت مِنْ نفسه ، سحب الوهم ، خصَّ بالسؤال حال أبي طالبٍ ، بعدما دفع لابن أخيه : ما استُودع مِنَ الميراث النبويّ ... فأجابه الإمام : بأنه أقرَّ بالنبـوَّة ، وآمن بالله . وما دفعه الوصايا ، سوى الإقرار العملي...!

★٥★

وكتب أبان بن محمو ، إلى الإمام عليّ الرضا « عليه السلام » ، وقد كادت قولة الزور ، تزعزع منه الإيمان :

« جعلتُ فداك !. إني قد شككتُ في إسلام أبي طالبٍ » .

فما كان مِنَ الإمام إلا أن كتب إليه :

[وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُوْلَ ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ، وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيْلِ الْمُؤْمِنِيْنَ ، نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا . [1]

ـ وبعدها : إنك إن لم تقرَّ بإيمان أبي طالبٍ ، كان مصيرك إلى النار][2].

★ ★

(١) النساء ١١٥.

النهج ٣١١ : ٣، والحجة ١٦، والغدير ٣٨١ و ٣٩٦ : ٧ ـ مسنداً لمصادر عدةٍ ـ ومعجم القبور ١٨٩ : ٨، والأعيان ١٣٦ : ٣٩ ـ بدون ما بعد الآية .

ان جواب الإمام الرضا ، يدلُّ على أن الشك في إيمان أبي طالبٍ ، شيء يتنافى والإيمان بالرسول . فإن إيمان أبي طالبٍ ، مِنَ الوضوح والثبوت ، بحيث لا يتسرَّب إليه شكٌّ ... ومَنْ كان منه على شكٍّ فإنه مِنَ الإيمان على زعزعةٍ ، لأنه مشاقَّةٌ للرسول ، وتعامٍ عن الهدى ، بعد معرفةٍ منه به ...

ومَنْ يتعامى عن الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، فإنه قد خرج مِنْ دائرة الايمان ، وزلَّت به القدم ، عن منهج الحق الألحب ، وصراطه الأقوم ... وبذلك يكون مصيره إلى النار ، بعد ما سلك الطريق ، التي تذهب بسالكها ، إلى حمم الجحيم ...!

على أن هذا إيذاءٌ للرسول الأعظم (ص) ... وإيذاء الرسول ـ هو الآخر ـ ذنبٌ يستوجب النار ، لقوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِيْنَ يُؤْذُوْنَ اللهَ وَرَسُوْلَهُ ، لَعَنَهُمُ فِيْ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيْمًا » [1]

« وَالَّذِيْنَ يُؤْذُوْنَ رَسُوْلَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ »[2] .

وفي حديثٍ ، رُوي عنه :

« مَنْ آذى شعرةً مني ، فقد آذاني . ومَنْ آذاني ، فقد آذى الله »[3].

★٦★

وهذا الإمام العسكريُّ ـ الحسن بن عليّ « عليه السلام » يقول ، في حديثٍ طويلٍ ، يسنده لآبائه الأطهار :

[إن الله تبارك وتعالى ، أوحى إلى رسوله (ص) : إني قد أيَّدتك بشيعتين : شيعة تنصرك سرًّا ، وشيعة تنصرك علانيةً .

(١) الأحزاب ٥٧.(٢) التوبة ٦١.(٣) الصواعق ١١١.

فأمَّا التي تنصرك سرًا ، فسيّدهم وأفضلهم : عمك أبو طالب ، وأمَّا التي تنصرك علانيةً ، فسيّدهم وأفضلهم ابنه عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام] .

ثم قال : [وإن أبا طالبٍ كمؤمن آل فرعون ، يكتم إيمانه] (١).

يقول : إن الله نصر الرسول بشيعتين ...

وإن إحداهما : لا تقوم بالمهمة، إلا في الخفاء ، ما دام الجهر يتعذّر عليها، ولا تستطيع القيام بها ، إلا في السر ، لأمورٍ تحتم ذلك ... كنصرة الملائكة، في ما قصّه القرآن الكريم :

(وَأَنْزَلَ جُنُوْداً لَمْ تَرَوْهَا)(٢).(وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا)(٣).
(أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُنْزَلِيْنَ)(٤).
(يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِيْنَ)(٥)
(إِنِّيْ مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِيْنَ)(٦) .

إلى آخر ما هنالك مِنْ آياتٍ تتعلّق بهذا الموضوع .

... وكنصرة أبي طالبٍ الفعّالة ، وكانت في حكم السر ، ما دام يكتم إيمانه . فإن النصرة لم تكن لتتأتّى له ، لولا هذا الكتمان ...

وإن مثله ، كمثل مؤمن آل فرعون ، الذي نقرأ قصته في ما تتلوه مِنَ القرآن العظيم (٧) ... فإنه لولا كتمانه الإيمان ، لكان قد نفذتِ الفراعنة ما اعتزمته مِنْ قتل الكليم موسى ... ولكنه وقف موقفه الفعّال ذاك ،

---

(١) الحجة ١١٥ والغدير ٣٦٨ : ٧ مسنداً .
(٢) التوبة ٢٦ (٣) التوبة ٤٠ (٤)و(٥) آل عمران ١٢٤ و ١٢٥.
(٦) الأنفال ٩.
(٧) افتتحنا الكتاب ، بهذه الآيات الكريمة ، لشبهها ومساسها بالموضوع .

وقومه لا يعرفون منه : مؤمناً... وإنما يظنونه مثلهم... ولم يلقِ إليهم بهذه النصائح ، إلا لأنه متفقٌ معهم على المبدأ .

وكذلك كان موقف أبي طالبٍ ، مِنْ دعوة الرسول (ص) .

وإلى هذا يشير الإمام في ما قصّه مِنْ حديثٍ ، أسنده — عن آبائه الأطهار — إلى جدّه الرسول (ص) .

★ ★

وليس مَنْ يستطيع : أن يظن بأقوال العترة النبوية ، شيئاً غير الحق ، فيحمله على حمية النسب ، ورابطة الرحم ، بعد ما جاء القرآن بطهارتهم :
(إِنَّمَا يُرِيْدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ — أَهْلَ البَيْتِ — وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيْراً)(١) .

وهي آيةٌ تفصح لنا عن عصمة العترة الطاهرة ، رغم المواقف المخزية ، والتحذلق البغيض ، في تفسيرها ، مِنْ بعض المنحرفين ، عن أهل البيت « عليهم السلام » .

وأهل البيت : عدل القرآن — المعجزة الخالدة — وحبلٌ ممدودٌ ، بين : الأرض والسماء ... مَنْ أخذ به ، فإنه مرتفعٌ إلى القمة مِنَ الخلود ... ومَنْ لم يكن له منه نصيبٌ ، فهو في السفح ، لن يرتفع مِنَ الوهدة ، وقد أحاط به الهلاك والدمار :

[إني مخلّفٌ فيكم الثّقلين ... ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا : كتاب الله ، وعترتي أهل البيت ، لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض] .

وهذا الحديث — المجمع عليه بين المسلمين — شاهدٌ آخر على عصمتهم.

---

(١) الأحزاب ٣٣ .

فَمَنْ نال منهم بنقدٍ أو ذمٍّ، فإنه قد نال القرآن — وهم عِدله — ومَـنْ تخلّف عنهما ، فَمِنَ الهلاك وإليه …

هذا إلى أحاديث وأحاديث … وآياتٍ وآياتٍ … ليس مِنْ موضوعنا عرضها ، بله تقصّيها ، وكلّها شاهد صدقٍ على طهارة أهل البيت .

فليس يجوز أن يجانب الحق : مَنْ نيطت بالتمسك به ، نجاة العباد … وليس يقول غير الحق : مَنْ كان عدلاً للقرآن — وهو : الدستور الإلّهي ، والمعجزة الباقية .

وهم أَوْلى الناس بأن لا يخالفوا القرآن في ما سنّه مِنْ دستورٍ ، في ما جاء به ، مِنْ نهيٍ وأمرٍ …

وقد وقفنا عند تلك الآيات ، الناهية الزاجرة ، عن اتخـاذ أعداء الله أولياء ، وهو الذي ينافي الإيمان — فكيف بهم « عليهم السلام » ، يمدحـون لسببٍ ، أو نسبٍ … ويقولون في شخصٍ — ولو كان أباهم — غير الحق ، وينسبون إليه ، ما لم يصحّ منه ، أو يبرئونه ممّا هو به ألصق … ؟!

وإن القائل فيهم « عليه السلام » ، مثـل هذا القـول : متسوّرٌ على مقامهم الذي هو مقام رسول الله (ص) … ونائلٌ مِنْ قدس الرسالة المحمّدية ، وقداسة رسولها الكريم … !

على لسان الصحابة وآخرين

إننا لنجد ، بين الصحابة — مِمّنْ لم تعشِ عينيه الشهوات ، ولم تنحرف به الأغراض ، عن سويّ الطريق — مَنْ يشهد لأبي طالبٍ بالإيمان ، ويذكره خيرَ الذكر …

ولسنا نريد أن نتقصى جميع ما قالته الصحابة ، فنطيل البحث والعرض …

ولكننا نشير إلى قولاتٍ لبعضهم ، كدليلٍ على وجود ذلك بينهم ليس ، إلا …
فهذا الخليفة أبو بكرٍ الصديق، يقول :

[إن أبا طالبٍ ، ما مات ، حتى قال : لا إله إلا الله ، محمدٌ رسول الله](1).
وكذلك قال العباس ، بمثل ما قال أبو بكرٍ (2) .

★ ★

وهذا عبدالله بن العباس ، يسأله رجلٌ :
يا ابن عمّ رسول الله ! أخبرني عن أبي طالبٍ ، هل كان مسلماً ؟ .
فيجيبه : وكيف لم يكن مسلماً ، وهو القائل :

وقدْ علموا أنَّ ابننَا لاَ مكـذَّبٌ   لدينَا ، ولَا يعبأُ بقولِ الأباطلِ … ؟!

إن أبا طالبٍ ، كان مثله كمثل أصحاب الكهف ، حين أسرّوا الإيمان ، وأظهروا الشرك ، فآتاهمُ الله أجرهم مرّتين (3) .

★ ★

وهذا أبو ذرٍّ — وهو الصحابيُّ الجليل ، الذي لم يعشِ عينيه بريـق الذهب ، ولم يرهبه بطش معاوية ! — يقول :

[والله الذي لا إله إلّا هو ! . ما مات أبو طالبٍ — رضي الله عنه — حتى أسلم] — الخ (4) .

★ ★

(1) النهج ٣١٢ : ٣، وشيخ الابطح ٧١، والغدير ٣٧٠ و ٤٠١ : ٧ ، والأعيان ١٣٦ : ٣٩ .

(2) شيخ الأبطح ٧١ و ٧٣، والغـدير ٣٩٩ : ٧ مروياً عـن ابـن عباسٍ عن أبيه — و ص ٤٠١ : ٧، والأعيان ١٣٦ : ٣٩

(3) الحجة ٩٥ و ١١٥، والغدير ٣٩٧ : ٧ . (4) الغدير ٣٩٩ : ٧ .

وفي أبياتٍ لحسّان بن ثابتٍ :

فإذا ندبتُم هالكاً فابكُوا الوفيّ أخا الوفيّ

قال سبط بن الجوزيّ : « يعني : حمزة وأبا طالبٍ » .

★ ★

ما كانت هذه الشهادات ، لتختصّ بعصرٍ دون عصرٍ ، أو طبقةٍ دون غيرها . فإن كلّ مَنْ لم تفرض عليه الأغراض ، أن يقول ما يشاء — ولو حول هذا الموضوع ، بخاصّة — نجد لديه بصيصاً مِنْ نورٍ ، ينبعث في زحمة الظلام ، لينير الطريق السوّي ...

وهذه كلمة حقٍّ ، تنبعث مِنْ حنجرة الملك العباسي عبدالله المأمون — وهو هو ... ولكنها كلمة حقٍّ لابدّ وأن تنفلت مِنْ صدره ، حتى لو شاء أن يطول لها الحبس ... فقد كان يقول :

أسلم أبو طالبٍ — والله ! — بقوله :

نصرتُ الرسولَ رسولَ المليكِ م ببيضٍ تلالاً ، كلمع البروقْ
أذبّ وأحمي رسولَ الإلهِ حمايةَ حامٍ ، عليهِ شفيقْ
وما إنْ أدبّ لأعدائهِ دبيبَ البكارِ ، حذارَ الفنيقْ[1]
ولكنْ أزيرُ لهمْ سامياً كمَا زارَ ليثٌ بغيلٍ مضيقْ[2]

★ ★

(١) تذكرة الخواص ٣١ .

(٢) البِكار ، جمع بِكر : الفتيّ مِنَ الإبل . الفنيق : الفحل المكرّم ، لا يؤذى ولا يُركب ، لكرامته .

(٣) النهج الحديدي ٣١٤ : ٣ ، والغدير ٣٣٧ : ٧ ، والحجة ٥٤ ، وديوان أبي طالب ١٠ .

وهذا أبو جعفرٍ الإسكافي ، يذكر أبا طالبٍ — عرَضاً — وهو في سبيل « نقض العثمانيّة » — الرسالة التي يردّ ، فيها ، على رسالة الجاحظ : «العثمانيّة» — فلا يسعه حينئذٍ إلا أن يتحفه بالثناء ممّا يستحق ... فإنه ليقول:

[وكان أبو طالبٍ أباه — يعني: الرسول — في الحقيقة، وكافلَه وناصرَه والمحامي عنه ، ومَنْ لولاه لم تقم له قائمةٌ . ومع ذلك لم يُسلم — في أغلب الروايات][1]

ونحن نستغرب ، بل لا نظن أن أبا جعفرٍ قد قال هذا الذيل ، الذي ينقض مقدّمة كلامه ، مضافاً إلى أن أبا جعفرٍ ، مِنَ القائلين بإسلام أبي طالبٍ — كما سنشير إليه في الفصل الأخير .

وممّا يُضاعف الشك عندنا هو : أن مصدرنا في هذا ، هو خلاصة رسالته ، لا رسالته بالذات ، وجامعها هو: حسن السندوبي ، الذي وقفنا معه في مقدمة الكتاب : «على العتبة » .

ثم لو ثبت هذا الذيل له ، فهو لم يُوضح رأيه الذاتيّ ، في الموضوع ... وإنما أشار إلى أن مِنَ الروايات ، ما تميل إلى عدم إسلامه ...

وفي موضعٍ آخر ، حيث عرض لِمُنْ أسلم بحسن دعاء أبي طالبٍ ، وإقباله على الرسول الأعظم (ص) يقول حول ذلك :

(ولأجله — يعني : أبا طالبٍ — صبر بنو هاشم على نصرة رسول الله — صلى الله عليه « وآله » وسلم — بمكة . مِنْ بني مخزوم ، وبني سهم ، وبني جمح . ولأجله صبر بنو هاشم على الحصار في الشعب ... وبدعائه وإقباله على محمد صلى الله عليه «وآله» وسلم ، أسلمتِ امرأته فاطمة بنت أسد ، فهو أحسن رفقاً وأيمن نقيبةً مِنْ أبي بكرٍ ، وغيره . وما منعه عنِ الإسلام — إن ثبت أنه لم يسلم — إلا تقيةً][2].

(١) رسائل الجاحظ ٣٢ .

(٢) المصدر ص ٥١ .

وهذا الذيل ــ أو هذه الجملة الإعتراضية الدخيلة ، إن ثبتت منه ، كما قلنا ، ليست تعني قوله بعدم إسلامه ، بعد أن نقف على قوله بإسلامه ، كما يصرح بذلك تلميذه ابن أبي الحديد .

وقد تكون هذه القولة ــ إن كانت له ــ قبل جزمه بإسلامه ، حيث يجوز أنه كان في شكٍّ منه ، ثم بانت له الحقيقة ، بعد فحصها ، والبحث عنها ، فنطق ــ بعدئذٍ ــ بما بان له .

على أن كلمته هذه ، إن نفت شيئاً ، فإنما تنفي إعلانه بإسلامه ، حيث تقضي التقية بالكتمان .

★ ★

وإن الجاحظ ــ على موقفه المخزي والجاهل ، في رسالته : «العثمانية» ــ لم يستطع وقد ذكر أبا طالب ، ليحطَّ مِنْ قيمة سبْق عليٍّ للإسلام ، إلا أن يقول:

[أوَ ليستَ تعلم أن قريشاً خاصّة ، وأهل مكة عامة ، لم يقـدروا على أذى النبي صلى الله عليه «وآله» وسلم ، ما كان أبو طالبٍ حيّاً ؟!] (٢)

★ ★

وفي تذكرة الخواص ، بعد عرضٍ بالحديث لأبي طالبٍ ، في ثنايا الكلام عن الإمام عليٍّ « عليه السلام » ، وبعد ذكر شيءٍ مِنْ فعل أبي طالبٍ الحميد ، وقوله السافر عن المعتقد ، وذكْر الرسول (ص) له ، وترحُّمه عليه ...

إن فيها مثل هذه القولة :

[أقول : كون أبي طالبٍ مِنْ أهل الجنّة ما لا ينبغي التأمل فيه . وإن شواهده أكثر مِنْ أن تذكر : « اهتمامه » بكفالة النبيّ المختار، ونصرته له .
« واهتمامه » بدفع أذى الأشرار والكفار عنه ، وجزَع النبي (ص) عليه عند موته ، وتسمية عامه بعام الحزن لموته وموت خديجة ، وترحمه « واستغفاره له » خصوصاً في طول أيامٍ . ولا يُرتاب في استجابة دعائه .

(٢) المصدر ص ٥ .

لا سيما مع الاصرار] (١)

ثم نجد ــ في حديثٍ طويلٍ ــ الاستدلال على ذلك ، بذكر الأئمة الأطهار له ، وأقواله هو في الرسول ، وفي دينه ...

ومِنَ الخير : أن نأتي بهذا المقطع منه :

[وأيضاً لم يؤرِّخ أحدٌ مِنْ أعداه : استياء ولده بأن أباك مِنَ الكفار . هذا معاوية ، أعدى « أعدائه » ومنازعيه ، وهذا عمرو بن العاص ، وهذا عبد الله بن الزبير ، وهذا مروان ، وغيرهم ، مع قدحهم فيه عليه السلام ، وإسنادهم ورميهم إليه ما هو بريءٌ منه ــ وما عابوه ، وما شنّعوا عليه بذلك(٢) وهو عليه السلام يذكرهم بكفر الآباء والأمهات ، ورذالة النسب ، وما قابلوه بالمثل .

بل هذا أقوى شاهدٍ على إسلامه ، وعلى شدّة تعصُّب مَنْ أسند الكفر إليه مِنَ العامة .

فانظر ــ أيها المنصف ! ــ إلى سوء سريرة أشباه الخفافيش ، في عداوتهم لشمس الاسلام ونوره....!] (٣) .

وإنه لبرهانٌ نصيعٌ ، وحجةٌ دامغةٌ ، هذا القول المنطقيّ ، المستمدُّ مِنَ الواقع ... فلو كان هؤلاء ــ وهم مِنْ أعداء الإمام ــ لا يعرفون مِنْ أبي طالبٍ : ذلك المؤمنَ ــ بل لو يشكّون فيه ، فحسب ــ لما تركوا تنقُّص الإمام مِنْ هذا الجانب ، وهم الذين يرمونه بما هو منه بريءٌ ، ويلصقون به ما هو منه بعيدٌ... وليس مِنْ إيمانٍ ، أو إنسانيةٍ ، أو ضميرٍ ، يحدُّ مِنْ غلواء بغض

(١) تذكرة الخواص ص ١٠ ، ١١.
(٢) يعني : لم يعيبوا ولم يشنّعوا على عليٍّ: أن أباه كافرٌ .
(٣) تذكرة الخواص ص ١١ .

هؤلاء ، ولكن السبيل عليهم مقطوعٌ ...

★ ★

ولا بدّ لنا في هذا الفصل — مِنْ أن نأتي على هذه القولة الصريحة المجلجلة ، تنطلق مِنْ فم مسيحيٍّ ، عرف الحقّ ، فنصره ... ورأى النور ، فدلّ عليه ...

ونحن نأتي بها هنا ، ولا نرى أن نعلّق عليها بحرفٍ واحدٍ ، فتكفي الحقائق التي ضمّتها هذه السطور ، عن تعليقٍ أو توضيحٍ ...!

يقول الكاتب المؤرّخ عبد المسيح الأنطاكي :

[وقد اختلف المؤرّخون في إسلام أبي طالبٍ ، أو بقائه على الشرك . ولكلّ فريقٍ أدلّةٌ يرتكنون إليها ، وأحاديثُ نبويّةٌ يستشهدون بها . وليس لمثلي أن يبتّ في مثل هذا الأمر الخطير . وإنما الاستدلال مِنْ واقع الحال ، يرجّح قول الذين يقولون بإيمانه ، لأن الانسان مهما تعالى في صلة رحمه ، وفي حبّه لابنه ، أو ابن أخيه ، أو نسيبه ، لا يسعه أن يغضّ الطرف عن ذاك المنتسب إليه المحبوب منه ، إذا رآه يتعدّى على دِينه ، ويحاول أن يدكّ أركانه ، ويقيم في موضعه دينا آخر ، إذ لم يكن هو — أيضاً — معه في الاعتقاد ، لِمَا تعلم مِنْ تمسّك الناس بأديانهم ، ومبالغتهم بتقديسها ، وتفضيلهم لها على كلّ اعتبارٍ آخر ، حتى أن المؤمن ليقتل ابنه أو أباه ، إذا رآه يحقر دِينه ، ويستهين بمعبوده[1] . وإذا صدق هذا على عامّة الناس ، فبالأَوْلى : أن يصدق على خاصّتهم ، مثل أبي طالبٍ ، الذي كانت له المكانة العليا في قريشٍ ، فهو ملزمٌ مِنْ جهة نفسه ، وجهة مركزه ، أن يدافع عن الدِّين ، الذي يدين به ، هو وقومه ، كي لا تسقط مكانته مِنْ عيونهم ، وكي لا يعرّض

(١) دلّلنا على ذلك — مِنْ صفحات التأريخ — في إحدى حلقات هذا الفصل .

نفسه لغضب معبوداته ، فيخسر آخرته . وعلى هذا فأبو طالبٍ ، لابدّ وأن يكون قد آمَنَ برسالة ابن أخيه عليه « وآله » الصلاة والسلام ، في قلبه ؛ ولكنه لم يجهر بها ، لاعتباراتٍ تقتضيها الحكمة ، وتدعو إليها السياسة . فإنه لو جهر بإيمانه في بدء البعثة وفجر الدعوة ، لانقلبت عليه قريشٌ بجملتها ، وأسقطته مِنْ حالق مجده ، وعبثت بحرمته ... وحينئذٍ يعجز عن ردّ الأذى عن ابن أخيه ، وهو لا يزال ضعيفاً ... وهذا الذي جعله يكتم ما في نفسه مِنَ الإيمان ... وظاهر أعماله وقصائده وخطبه ، تظهره بأجلى بيانٍ ، إذ رأيناه يدافع عن المصطفى بنفوذه وجاهه ، ويمدحه بقصائده وخطبه ، حتى آخر لحظةٍ مِنْ حياته ، على ما رأيتَ مِنْ وصيّته . وعلى هذا فيكون أبو طالبٍ مِنْ خير الصحابة والأنصار ، بغير جدالٍ ، وحبّذا لو وفّق الله الإسلام — في عصر الناس هذا — إلى مَنْ يحمون ذماره ، ويعلون كلمته ، كما فعل أبو طالبٍ في فجر البعثة ، إذن لظلّ الإسلام في خيرٍ .

هذا هو أبو طالبٍ كفيل المصطفى وعمّه ، وحبيبه ونصيره ، ووالد سيدنا أمير المؤمنين ، يعسوب الدِّين ، أسد الله الغالب ، عليّ بن أبي طالبٍ . بل هذا هو الرجل العظيم ، الذي ربّى هذين النيّرين ، فأضاءا في سماء الدنيا والدِّين][1] .

ولا نرى حاجةً لتعليقٍ ، على هذه القولة الواضحة ، الناصعة الحجة ، والدامغة البرهان ... وإن مِنْ صفحات التأريخ — كما عرضنا نماذج منها ، في الحلقة الثانية ، مِنْ هذا الفصل — ما يُؤيّد ذلك ، ويدعمه في قوله : إن العاطفة الدينية أقوى وأمضى مِنَ العاطفة الدموية ... فإن هما كانتا في حلبة صراعٍ ، كانتِ الغلبة المحتومة للأُولى ، والخذلان للثانية ...

★ ★

(١) معجم القبور ١٩٤ ، ١٩٥ : ١ ، عن هامش شرح القصيدة العلوية ص ٥٨ .

ويقول الدكتور طه حسين :

[فعطف أبي طالب على النبي معروف ، وقيامه دونه يحميه ، ويحمي دينه مِنْ قريش ، مستفيضٌ][1] .

★ ★

وقد وضع الأستاذ المنصف عبدالعزيز سيّد الأهل كتاباً ، عن أبي طالب[2] ، وقد لاحظ عليه بعض القراء : أنه لم يقل بإسلام أبي طالب ... وأنا على النقيض منه ، فإني أرى الأستاذ قد اعترف ، أصرح ما يكون الاعتراف ، وأوضح وأجلى ما يكون الإيضاح : أن أبا طالب مِنَ المؤمنين الأول ، والمسلمين السبّق ، فله الفضل على الإسلام .

ولو لم يكن فيه ، سوى بضعةٍ ، مِنَ السطور الناصعة ، في مقدمته — لكانت خير دليلٍ ، وخير برهنةٍ ، على ما يراه ويكتُبه ، تجاه شيخ بني هاشم ...

ويجدر عرض بعضٍ ، مِنْ سطور هذه الصفحات النواصع :

[وليس مِنَ المحمود للناس ، في سبيل رجلٍ رعى النبيّ وحماه ، أكثر مِنْ أربعين عاماً : أن تقتضب أخباره ، كما اقتُضبت ، وأن تنثر وتبعثر كما نُثرت وبُعثرت ، وأن يقلّ رواتها ويضطربوا كما قلّوا واضطربوا ، ثم يُنسى فضله كلّه ، ويقف التأريخ منه ، في ساعة موته ، موقفاً واهناً عجيباً ، يتحدث عن الرجل الذي حمى النبوّة ، ونافح عنها بقوةٍ وتضحيةٍ وإيمانٍ ، وكأنما يتحدّث بلسانٍ خَلِقٍ مِنَ الهوى عن رجلٍ دخيلٍ ، أو عن وافدٍ غريبٍ .

أنفذ الرجل حياته كلّها في نصرة النبيّ ، وألزم أهله باتّباعه ، وأنفق

---

(١) الفتنة الكبرى : عثمان ص ١٥١ .

(٢) هناك العديد مِنَ الكتُب ، التي وُضعت في حق شيخ الأبطح ، مِنَ الشيعة ، وأهل السنة .

عليه جهده وحبه وماله ، وخاصم أعداءه وضربهم وقهرهم . وأعدّ مِنْ نفسه عزمةً صادقةً ، تخفّ إلى المستغيث بها ، في طريق الهموم .

وكان وجود أبي طالب ، لنصرة رسول الله ضرورةً مِنْ ضرورات الخلقة ، وسنداً لابدّ منه لظهور البعثة وانتشار الدعوة — كما تقول ابن خلدون في نظريته[1] — وتلك مشيئة الله ، فليس ينتصر رجلٌ ولا مبدأ ولا دينٌ ، ما لم يستند إلى ما يشدّ أزره ، وينصره مِنَ العصبية المهيبة ، كما ينتصر بالأتباع والأنصار ، إلا أن ذلك هو أوّل ، ولا بدّ منه ، ولولاه ما كان الأتباع والأنصار[2]] .

[وأبو طالب ، لم يفته أن يعرف الواجب الذي نيط به ، ولم يُثقله العبء الذي أُلقي عليه ، فنصر النبيّ وأيّده ، وخاصم الناس جميعاً فيه ، ولم تأخذه العزة بالإثم ، كما أخذت غيره مِنَ الكبراء ، الذين أضلّوا الناسَ السبيلَ . وقد كان أبو طالب — غير مدافع — سيد قريش ، جميعاً][3] .

[وبكى رسول الله لنعي عمه ، ومَن الذي يبكي رقّةً ورحمةً ووفاءً ، إذا لم يبكِ محمدٌ — وقد أحسن ربّه تأديبه — عمّاً ، كفله وربّاه ونصره ، وتقصّى عذره في التحمل ؛ فكان له أباً ، حين فقد الأب ؛ وكان له عضداً ، حين احتاج إلى النصير ؛ وكان له حزباً ، حين احتاج إلى حقٍّ قويٍّ ، يقهر الباطل ، ويمحق الطغيان !][4] .

لقد حاولنا أن لا نكثر مِنْ هذه الكلمات ، المبثوثة في الكتاب ... إلا أننا — رغم هذه المحاولة — لم نستطع إلا أن نأتي بما أتينا به ... وأن نسأل مثل ذلك القارىء الكريم : هل يجوز القول : بأننا لم نجد الكاتبَ

---

(١) كنّا نتمنّى لو أسند قولة ابن خلدون هذه !.

(٢) أبو طالب ، شيخ بني هاشم ص ٥ ، ٦ .

(٣) ص ٧٠ .   (٤) ص ٨٩ .

قد قال بإسلام شيخ بني هاشم ، بعد كلّ ما بثّه في كتابه ــ وما هذه سوى عيّنة لهــ منْ : قول واضح صريح ، وشهادة ، هي أرفع واحقّ ما تكون الشهادة الصادقة .. ؟!

★ ★

ونجد الأستاذ جورج جرداق ــ في كتابه الفذّ « الإمام عليٌّ صوت العدالة الإنسانية » ــ يتحف أبا طالبٍ بباقاتٍ ، منْ معطـــار الثنـــاء ، وعبارات الإجلال والتعظيم .

ومنَ المناسب جدّاً : أنْ نقتطف شيئاً ، منْ هذا الذكر العطر :

[ولمّا توفّي جدّه ــ يعني : عبد المطلب ، جدَّ الرسول ــ كفله عمه أبو طالبٍ ــ والد عليٍّ ــ فاستمرَّ الغلام يحيا في جوّ الحنان والدعة وحسن التربية ، الذي خلّفه الأب الراحل للإبن المقيم] (١) .

وبعد ان ذكر استخلاف عبد المطلب أبا طالبٍ ، لرعاية حفيده ، عقّب ذلك بقوله :

[وهو ما اختار أبا طالبٍ إلا استئناساً بما يعرف منْ أمره وما يدرك . فإن الحنان والعطف وإن كان لأكثر ولد عبد المطلب منهما نصيبٌ ، لم يبلغا في قلوبهم منَ القوة والبُعد ما بلغا في قلب أبي طالبٍ . وأثر الحنان والعطف في حسن الكفالة والرعاية أظهر منْ أثر المال . لذلك كلّه اختار أبا طالبٍ أبوه لرعاية محمّدٍ . أضف إلى هذا : أن أبا طالبٍ كان يُضمر منَ العطف على ابن أخيه ما يدفعه دفعاً إلى رعايته ، وإن لم يكلّفه ذلك أبوه . فكيف إذا اجتمع هذا العطف وهذا التكليف .

وممّا لا مراء فيه أن أبا طالبٍ شخصيةٌ جميلةٌ ومحبّبةٌ . شـــخصيةٌ جميلةٌ ، تطالعنا بحكمة الشيخ الطيّب الأمين المجرِّب ، الذي يضع كلّ ما أوتي

---

(١) ص ٣٤ (١٥٤ : ١) .

منْ : طيبةٍ ، وأمانةٍ ، وتجربةٍ ، موضع العمل والتنفيذ في كلِّ حالٍ] (١) .

ولنرهف السمع لهذه الكلمة الرائعة :

[حتى لكأنّ الله لمّا اختار رسوله منْ بني عبد المطلب ، اختار لتنشئته هذا العمَّ الكريم . وكأنَّ قوة الوجود الشاملة ، هيّأت لأبي طالبٍ : أنْ يعلم منْ أمر ابن أخيه ما لا يعلمه سواه] (٢) .

وكلمةٌ أُخرى ، لا تقلُّ عن هذه روعةً ، ووضوحَ أداءٍ في ما تحمله منْ تحليل شخصية أبي طالبٍ ، وما تحمله منَ المعاني الخيِّرة :

[فإذا ما بنفس أبي طالبٍ منْ معاني الطبيعة ، يشفُّ في نفس محمّــدٍ ، فاذا هي جزءٌ منْ ذاته يتكوّن وينمو تحت نظرة العمِّ المحبِّ] (٣) .

[وكان أبو طالبٍ أوّل مَنْ قال شعراً في الإسلام يفيض بالحب لمحمّـدٍ ويدعو إلى نصرته . وكان يكثر عليه كلُّ عملٍ أو قولٍ ، فيه بعض الأذى لابن أخيه] (٤) .

[ولم ينسَ أبو طالبٍ دقيقةً واحدةً ، في حياته ، أن محمداً إنما هو استمرار عبقرية الخُلُق ، التي يتميّز بهـــا بصورةٍ عفويّةٍ : هو ، وأخوه عبدالله ، وأبوهمـــا عبد المطلب] (٥) .

[ولمّا تُوفي أبو طالبٍ ، شعر النبيُّ بأنه فقد أعظم ركنٍ ، يستند إليه ، ويدفع عنه أذى قريشٍ . وما كان هذا الشعور إلا تدليلاً على تجاذب أسباب الخير بين : محمدٍ ، وعمه ربِّ البيت ، الذي نشأ فيه وسما خُلُقه !؟ وإذا كان منْ أسباب هذا الشعور بخسارة أبي طالبٍ : أن محمداً فقَدَ به نصيراً ، يفديه بدمه ، ويدفع عنه الأذى ، وملجأً حصيناً ضدَّ قريشٍ والمستبدّين الغلاة منْ بنيها ، حتى أنه

---

(١) ص ٥٤ ، ٥٥ : ١ . (٢) ص ٥٥ : ١ .

(٣) ص ٣٤ (٥٦ : ١) . (٤) ص ٣٥ (٥٨ : ١) .

(٥) ص ٣٦ (٥٩ : ١) .

قال : « ما نالني مِنْ قومي سوء، حتى مات عمي أُبو طالبٍ» ، فما تعليل هذا الحزن العميق، الذي غزا قلب محمَّدٍ بموت عمه ؟. وما علَّة هذه الكآبة، وما كان محمَّدٌ إلَّا صبوراً، حازماً، واثقاً بنصر رسالته، مهما كثر العدوُّ، وقلَّ الصديق، ومهما كان مِنْ شأن الأخيار والأشرار؟!. أجل ما علَّة هذه الكآبة، إن لم تكن الكارثة التي حلَّت بمحمدٍ، هي كارثة الإنسان بأعزِّ مَنْ يعطف عليه ويحميه ؟. وما تكون هذه الدموع الغزار، إن لم تكن شاهداً على أن النبيَّ — كرجلٍ — أحسَّ بأنه فقَد شيئاً مِنْ ذاته ، مِنْ حاضره وماضيه ؟] [1].

ثم يعود في فصلٍ آخر ، يعرض للصلات ، التي تتماسك في الأعماق ، على اتحاد الود بين: محمَّدٍ، وعليٍّ، كما كان بين: أبي طالبٍ، ومحمَّدٍ ، وكيف أثمر هذا الاتحاد الثمار الطيبة :

(وتستمرُّ صلات المودة والإخاء بين: محمَّدٍ، وعليٍّ، ويستمرُّ بينهما تعاطي الخير على إنجاح الرسالة ، هذا التعاطي، الذي يتماسك في أعماقه، ويتَّحد منذ أن عرف محمدٌ أبا طالبٍ ، ومنذ أن عرف عليٌّ محمَّداً ، ومنذ أن اجتمع الثلاثة في بيتٍ واحدٍ، قام على مزايا الشهامة . وما كانت خصائص البيت الطالبيِّ إلا حافزاً لأبي طالبٍ وابنه عليٍّ، على فهْم عبقرية محمَّدٍ، فهماً يتمثَّل لدى الأوَّل : شعوراً وتضحيةً ، ولدى الثاني : فكراً جبَّاراً، وشعوراً عميقاً شاملاً، وتضحيةً أشبه بصنع المعجزات !) [2].

★ ★

وقد يقول قارئٌ : أن ليس — في ما أتحف به الكاتبُ الكبيرُ شيخَ البطحاء — شيءٌ ، ينبيءُ عن قوله بإسلامه ، إذ ليس فيه سوى الإشادة بمزايا وخصائص أبي طالبٍ ، وتفانيه في حبِّ وخدمة الرسول ، والدعاية لنصرته ونصرته ...

---

(1) ص ٣٦ ، ٣٧ (٦٠ : ١) .

(2) ص ٤٦ (١:٧١) .

ونحن نكتفي بهذا ... فإن مفكراً — كجرداق — لا نحتاج منه لأن يقول لنا عن النور : إني ألمحه...! فإذا ما وصف الضوءَ ، وعرض لمزاياه ، ودلَّ عليه ... فإن هذا يُشعرنا بأن هذا المفكر ، يسير في دربه على هذا النور ، الذي يطري ويشيد ...

لذلك ... فإننا لا نحتاج لأن ندلَّ القارىء ، ونأخذ بيده ، فنضع النقط على الحروف — وهي موضوعة وضعاً فنياً — لنشير له عمَّا تزخر به هذه الكلمات القيمة — والتي شئنا أن نقتصر على أقلَّ ممَّا أتينا به ، فلم نستطع ، إذ أسرتنا بعلوِّ ما تهدف اليه ، مِنْ حقٍّ صريحٍ ...

هذه الكلمات التي تزخر ، بما شحنت به ، مِنْ صريح الإعتراف الواضح ، بإسلام أبي طالبٍ ...

ولكننا نُشير إلى ما أوضحه ، مِنْ ضرورة وجود أبي طالبٍ ، حيث هيأته قوَّة الوجود الشاملة ، لاكتشاف أمر ابن أخيه ...

وكيف يكون محمدٌ استمراراً لعبقرية الخُلُق الرفيع المتميِّز بها — بصورةٍ عفويةٍ — كلٌّ مِنْ : أبي طالبٍ ، وأخيه عبدالله ، وأبيهما عبد المطلب ... كيف يكون محمدٌ استمراراً لهؤلاء ، إذا كانوا مشركين — ومعاذ الحق !!؟.

ثم ما هذه النفس الجبارة ، التي تشفُّ في نفس محمَّدٍ ، لتنصهر ، وتمتزج النفسان ، لتكونا جزئين لشيءٍ واحدٍ ، ويكون أبو طالبٍ ومحمدٌ وعليٌّ كلاًّ ، لا يتجزأُ ...؟!

إن خصائص البيت الطالبي ، تكون الحافز القوي ، الذي يدفع الأب والولد ، على فهم عبقرية الرسول : فهماً عميقاً ، حتى أنه ليتمثَّل شعوراً وتضحيةً ، فيتماسك تعاطي الخير ، مِنْ أجل إنجاح هذه الرسالة — بكلِّ ما يتطلبه هذا الإنجاح ، مِنَ: الشعور العميق الشامل ، والفكر الجبَّار ، والتضحية الشبيهة بصنع المعجزات !.

وإن هذا الشعور السامي ، ليتَّحد بين : الرسول ، وعمِّه ، وابن عمه ،

منذ عرف محمدٌ عمَّه ، ثم عرفه ابنُ عمِّه ، ويجتمع [illegible] في وحدةٍ متماسكةٍ متراصّةٍ، لا فصْل بينها ، ولا تفرقة ، منذ اجتمع الثلاثة في بيتٍ ، ابتني على مزايا الشهامة ، وتدعَّم بخصائص الفضيلة والسمو ٠٠٠!

فما هو هذا الخير ، الذي يتجاذب أسبابَهُ محمدٌ ، وعمُّه ، وعليٌّ ٠٠٠؟

فهل يتجاذب محمَّدٌ أسباب خيرٍ ، يكون فيه المشركُ : الـطرفَ الثاني ، في تجاذب أسبابه ٠٠٠؟!

وهل يُرجى خيرٌ مِنْ مشركٍ عنيدٍ ٠٠٠؟! بل هل يمكن أن يكون فيـه أدنى خـيرٍ ، لا أن يكون شريكـاً ، في تجاذب أسبابـه ، لحامـل رسالـة التوحيد ٠٠٠؟!

إذن ٠٠٠ فطبيعيٌّ ـ أن يشعر النبيُّ ، بفقده عمَّه : أنه افتقد أعظم ركنٍ يستند إليه ، ويشدُّ أزره ، ويحمي دعوته ٠٠٠ وهو ربُّ البيت ، الذي نشأ فيه الرسول ، وسما خُلقه ٠٠٠

وطبيعـيّ ـ أيضاً ـ أن يغـزو الحزنُ العميقُ قلـب محمّد (ص) ويطفح أثره على وجهه ، بالرغم ممَّا تحفل به شخصيته مِنَ:الصبرِ والحزم ٠٠٠ وبالرغم مِن امتلاء قلبـه : ثقةً بربه ، المتكفّـل بنصر رسالته ، وإن تضاءلت أسباب النصر الظاهرية ، بكثرة العدوّ ، وقلّة الصديق ، أو ازداد عدد الأشرار، وتضاءل عدد الخيِّرين ٠٠٠

ولكنه الحزن ، الذي تبقيه كارثة الإنسان ، بأعزِّ مَنْ يعطف عليه ويحميه، حيث افتقد شيئاً ، هو جزءٌ مِنْ ذاته ، يمتدُّ مِنْ حاضره لماضيه ٠٠٠!

★ ★

إن كان ولا بدّ أنْ نقف عند حدّ ، مِنْ هذا الذكر العطر ـ بعدَ أن قدّمنا منه باقاتٍ ، تحفل بكلّ ما يضمُّه الزهر ، مِنْ : فوّاح الأريج ، ونضارة اللون، وفنّ التنضيد ٠٠٠

إن كان ذلك ٠٠٠ فعلينا أن نقف عند هذا الحدّ ، ونكتفي بما قدَّمنا ، بعد أنْ طفنا بعديد العصور والأزمان ، وقدَّمنـا شهادات العديد مِنَ الشخصيات ، التي قد تختلف في كثيرٍ مِنْ أسباب الاختلاف ، سواءً كانت : قيميةً ودينيةً ، أو زمنيةً ، أو في الهوى والمشرب ٠٠٠ ولكنها تجتمع عنـد نقطةٍ واحدةٍ ، تربط بينها كلّ الربطِ وتوثقها بكلّ الصلـة ، هي : نصرة الحق المهتضَم ، والكشف عن الحقيقة المستورة ، والجأر بالقول الصريح ، في الوسط المملوء بالجلبة الصاخبة الكاذبة ، والزعاق النـابح البغيض ، والفحيح مِنْ أنيابٍ زاعفة بالسم القتَّال ٠٠٠

ولكنه الحق الأبلج ، والحقيقة الناصعة٠٠٠ ولابدَّ أنْ يقيّض الله لهما مَنْ ينصرهما ، ويدلُّ عليهما ، ويُعلي مِنْ قيمتهما ، لئلا تتساوى الفضيلة والرذيلة، أو ينتصر الباطل المزخرف على الحق الصريح الواضح٠٠٠!

وقفة مع الحديدي

ذاك ... حديثٌ ، يطول بنا مداه ، وتتشعَّب منه الطرق والمسالك ، لو شئنا أن نتقصّى كلَّ كلمةٍ ، قيلت في الموضوع ، أو إشــــارةٍ أومأت نحوه ...

ولا بدَّ ـ كما قلنا ـ أن نقف منه ، عند هذا الحدِّ ، بعد أن أتينا على وفرٍ مِنَ الشهادات الصادقة الصادعة ، مِمَّنْ لا يشكُّ في صدق حديثهم مسلمٌ ، أقرَّ بالشهادتين ـ وهم : الرسول ، وعترته الطاهرة ، بنصِّ الكتاب المبين ـ وأقوال أُناسٍ لمحوا النور ، فدلُّوا عليه ، وعرفوا الحق ، فسلكوا منه لاحب الطريق .

ولكن لابدَّ لنا ـ وقد تناولنا ، مِنْ هذا الموضوع ، طرفاً على اتِّساع مدىً ـ أن نأتي على قولاتٍ لابن أبي الحديد ، عثرنا عليها عند التنقيب ، في شرحه لنهج البلاغة ، لنقف منه موقف المحاسب ، على قولةٍ له ـ أيضاً ـ حول الموضوع .

★ ★

يقول ، وقد عرض للأمة ، التي بُعث فيها الرسول « ص » ، وقسّمها إلى أقسامٍ ... فمنها : « المعطلة » ، وغير المعطلة ـ ومنَ المعطلة : مَنْ أنكر الخالق ،

ومَنْ يدين بالتناسخ ، وأرباب الهامة ، وعبدة الأصنام الخ ... حتى قال :

[فأمّا الذين ليسوا بمعطلةٍ مِنَ العرب ، فالقليل منهم ، وهم المتألّهون ، أصحاب الورع والتحرّج عن القبائح ، كعبدالله ، وعبدالمطلب ، وابنه أبي طالب] [1] •

فأنت تراه ــ هنا ــ يقول : إن أبا طالبٍ كان مِنَ المتألّهين ــ أي: الذين يقرّون بوحدانية الله ، ويؤمنون بوجود خالق الوجود ــ وذلك بعد أن عرض لِمَنْ ينكر وجود الخالق والبعث ، ومَنْ يعبد الأصنام ، وغيرهم ــ وأن أبا طالبٍ، كان مِنْ أصحاب الورع ، ومِمّنْ يتحرّج عن القبائح •••

وليس أقبح مِنْ أن يرى هديَ الرسول ، فلا يسلك لاحب منهجه•••!

★ ★

ويقول ، في تعداده لميزات الإمام عليٍّ« عليه السلام »،وعرضه لبعض خصائصه وفضائله :

[وما أقول في رجلٍ، أبوه أبو طالبٍ، سيّد البطحاء ، وشيخ قريشٍ، ورئيس مكة ؟!] •

إلى أن يقول :

[وأبو طالبٍ، هو الذي كفل رسول الله « ص »، صغيراً ، وحماه وحاطه كبيراً ، ومنعه مِنْ مشركي قريشٍ، ولقي لأجْله عنتاً عظيماً،وقاسى بلاءً شديداً،وصبر على نصره،والقيام بأمره••• وجاء في الخبر: أنه لمّا تُوفي أبو طالبٍ، أُوحي اليه عليه«وآله»السلام ، وقيل له:أخرج منها ،

(1) النهج ٣٩:ح١ ــ وقد أتينا على هذه الجملة ، في حديثنا عن عبد المطلب،ولكن الحاجة دعتنا ، لنعيدها •

فقد مات ناصرك [1]] •

فالحديديّ يعدّ الانتساب لأبي طالبٍ شرفاً ، وأن ذلك إحدى الميزات ، التي يمتاز بها الإمام الأعظم • أي:إنه يقول : إن للإمام مِنَ الشرف العظاميّ ثروةً ثرّةً ، وميراثاً ضخماً••• فمَنْ كان أبو طالبٍ أباه ، فإنه لضارب الجذر ، في الشرف العظامي ، نائلٌ منه بكلتا يديه !•

ثم ذكر ميزاتٍ فضلىٰ ، لأبي طالبٍ ، وهي : كفالته ، وحمايته ، وحياطته للرسول ، ومنعه له مِنْ أذى قريشٍ، حتى أن ذلك عرّضه لأن يلقى العنت العظيم ، ويقاسي البلاء الشديد،فصبر على ذلك ، وقام مقامه المحمود ، مع شدّة الحال ، وتأزّم الأمر••• وحتى أنه لم تقرّ بالرسول أرض مكة ،بعد ما افتقد مِنْ وجهها ظلّ عمه ، الحاني الظليل ، فجاءه الأمر صادعاً بالخروج ، مِنْ أرضٍ ، افتقد فيها : الحصن الواقي ، والجنّة المنيعة !•

وقد أشار لهذه النقطة ــ أي: الأمر للرسول بالخروج ــ مرّةً أخرىٰ ، بقوله :

(لما مات أبو طالب بمكة ، طمعت قريش في رسول الله « ص » ، ونالت منه ما لم تكن تناله ، في حياة أبي طالب . فخرج من مكة ، خائفاً على نفسه ، مهاجراً إلى ربه) (٢) .

ومِمّا يتناول هذه النقطة ــ أيضاً ــ هذه القولة :

[واعلم : أن علياً «عليه السلام» ، كان يدّعي التقدّمَ على الكلّ ، والشرف على الكلّ ، والنعمةَ على الكلّ ، بابن عمه « ص » ، وبنفسه ، وبأبيه أبي طالب « عليه السلام » . فإن مَنْ قرأ علوم السير ، عرف أن الإسلام ، لولا أبو طالب ، لم يكن شيئاً مذكوراً .

(١) النهج ص ٩ ، ١٠ : ١• (٢) المصدر نفسه ص ٣٢٢ : ٣ •

وليس لقائلٍ، أن يقول : كيف يقال هذا ، في دينٍ تكفّل الله تعالى بإظهاره ، سواء" كان أبو طالبٍ موجوداً ، أو معدوماً ؟ـ لأنّا نقول : فينبغي على هذا أن لا يمدح رسول الله « ص » ، ولا يقال : إنه هدى الناس منَ الضلالة ، وأنقذهم منَ الجهالة ، وأن له حقاً على المسلمين ، وأنه لولاه لَمَا عُبد الله تعالى في الأرض ...) .

إلى ان يقول :

[فإن قلتم في كلّ ذلك : إن هؤلاء يحمدون ، ويثنى عليهم لأن الله تعالى ، أجرى هذه الأمور على أيديهم ، ووفقهم لها ، والفاعل بذلك بالحقيقة هو الله تعالى ، وهؤلاء آلةٌ مستعملةٌ ، ووسائط تجري الأفعال على أيديهم ، فحمدهم والثناء عليهم ، والاعتراف لهم ، إنما هو باعتبار ذلك ــ قيل لكم في شأن أبي طالبٍ مثله...!][1] .

ولعل منَ الخير : أن نُشير إلى : أن قولة ابن أبي الحديد ــ هذه جاءت عند شرحه ، لخطبةٍ للإمام عليٍّ « عليه السلام » ، بعد انصرافه مِنْ صفين ، وبعد هذه الفقرات منها ، بخاصّة :

(لا يُقاس بآل محمدٍ « ص » ، منْ هذه الأمة ، أحدٌ ، ولا يسوّى بهم مَنْ جرت نعمته عليه أبداً . هم : أساس الدّين ، وعماد اليقين ، إليهم يفيءُ الغالي وبهم يلحق التالي ، ولهم خصائص حق الولاية ، وفيهم الوصية والوراثة).

وهل لنا أن نقف عند هذه النقاط ، التي جاءت في قولة ابن أبي الحديد تلك...؟

هل لنا : أن نضع النقط على الحروف ، عند قوله : إن علياً « عليه السلام » كان يدّعي التقدّم والشرف والنعمة على الكلّ ، بأبيه أبي طالبٍ ، كما يدّعيه بنفسه ، وكما يدّعيه بسيد الخلق الرسول الأعظم « ص »

(١) المصدر ٤٧ : ٠١

ولكننا نكتفي باسترعاء انتباه القارىء الكريم ، ليعيد الفكر فاحصاً ، في ما تحمله هذه الفقرة وما تُشير إليه مِنَ الوحدة ، التي تجمع بين الثلاثة ، في: التقدّم والشرف والنعمة على الكلّ...!

ولا نتقصّى ، فنُشير إلى قولة ابن أبي الحديد : « عليه السلام » ، بعد ذكره اسم أبي طالبٍ... فإن « السلام » على شخصٍ يدلّ على رأي القائل في هذا الشخص ، ومنزلته الرفيعة ، التي لا تكون ، إلا لِمَنْ هو في درجة : الرسالة ، أوِ الإمامة ، أوِ الوصاية ، أو مَنْ هو في عدادهم ، أو يتدنّى مِنْ درجتهم ، فإن كثيراً مِنَ الصحابة ، لا تُقال في حقهم هذه الكلمة...!

ولم يقل ابن أبي الحديد ، لأبي طالبٍ: « عليه السلام »، إلا لأنه هو العمد الوطيد ، في توطيد دعامة الإسلام ، وأن الاسلام ، لولاه ــ كما يقول ــ لم يكن شيئاً مذكوراً...!

وصوّر : أن هناك مَنْ سيعترض على هذا القول ، فردّ على هذا الاعتراض ، وهدّ منه بواقي البناء... إذ لو قدّر : أن لا فضل لأبي طالبٍ في نصرته للرسول ــ كما يقول هذا المعترض ــ لَمَا كان للرسول ذاته ، فضلٌ في ذلك ، وهو مبلّغ الرسالة ، ورافع مشعل الهداية والنور ...

وليس لنا : أن نطيل التعليق على هذه الفقرات ، مِنْ قولة الحديدي ، وهي مِنَ الجلاء والوضوح ــ في مانشير إليه وتعنيه ــ بمكانٍ ، لا يحلو معه قولٌ ، أو تعليقٌ...!

★ ★

وإني لم آتِ على هذه الفقرات المتفرقة ، مِنْ أقوال ابن أبي الحديد ــ في حق شيخ الأبطح ــ إلا لأقف معه ، فيما وقع فيه ، مِن اضطرابٍ

(١) أمانة التحقيق ، دعت « محمد أبو الفضل إبراهيم » ، إلى حذف هذه الكلمة منَ الأصل !ــ راجع ص ١٤٢ ج١ ، منْ تحقيقه لشرح النهج .

متلجلجٍ، وتناقضٍ مفضوحٍ، في ختام حديثه الطويل، عن أبي طالبٍ[1]، وقد أتى فيه على بضعٍ، منَ المفتريات البغيضة، في حق أبي طالبٍ: « الكافل والمحامي » ــ كما يقول الحديدي[2].

وهذه الفريات الواهية النسيج، لا تتجاوز أحد عشر سطراً[3]، من هذه الصفحات الطوال، التي تنضح كلُّ سطورها بالحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، التي تدلُّ على إيمانه، وتبرهن عن صحيح معتقده، مِنْ: فعلٍ حميدٍ، وأقوالٍ سافرة الوجه، عن إيمان قائلها، وشهاداتٍ مِمَّنْ لا تنالهمُ الظنون، لا يعلو إليهم شكٌّ، أو ريبٌ...

ولكنه شاء أن يختتم هذا الحديث، بهذه القولة المتداعية المتهافتة...!

ونود أن نتناول منها: فقراتٍ، فقراتٍ، لنقف وإيّاه موقف المحاسبة، ونُشير إلى النقاط المتداعية منها...

★ ★

يقول، بعد ذلك الحديث الطويل، وقد أتى فيه على دامغ الحجج، وسافر البراهين، إيمان أبي طالبٍ « عليه السلام »...

يقول بعد هذا : على

[قلتُ: فأمّا أنا فإن الحال ملتبسةٌ عندي، والأخبار متعارضةٌ، والله أعلم بحقيقة حاله، كيف كانت. ويقف في صدري رسالة النفس الزكية، إلى المنصور، وقوله فيها: فأنا ابن خير الأخيار، وأنا ابن شرِّ الأشرار، وأنا ابن سيِّد أهل الجنة، وأنا ابن سيِّد أهل النار، فإن هذه شهادةٌ منه على أبي طالبٍ بالكفر، وهو ابنه، غير متَّهمٍ عليه، وعهده قريبٌ منْ عهد النبي « ص »، لم يطل الزمان فيكون الخبر مفتعلاً] (1).

---

(1) النهج ٣٠٥ ــ ٣١٨. (٢) ٣١٠ : ٣. (٣) ٣١٠، ٣١١ : ٣.

★ ★

يقول: إن الحال ملتبسةٌ عنده لتعارض الأخبار! ــ ويريد بتعارض الأخبار: الأخبار التي أتى بوفرٍ منها، وكلّها تشهد على إيمان أبي طالبٍ، عن مصادر لا يتطرّق إليها الريب، فهي عن الرسول، وعترته الطاهرين، ممّا قد أتينا على الوفر منها... ومِنْ أقوال أبي طالبٍ وأفعاله نفسه، التي هي شاهد صدقٍ، على ذلك، أيضاً.

ولكنه يريد أن هذه الأخبار الثابتة، قد عارضتها تلك الأخبار المفتعلة المكذوبة، والتي اشتراها معاوية، ورواها المغيرة، ومَنْ إلى هذه السلسلة النتنة... وسوف نهدمُ منها واهي البناء في فصلٍ مختصٍّ ــ إن شاء الله!.

والتعارض بين حديثٍ وحديثٍ، لا يكون إلا إذا حصل بينهما تكافوءٌ، بأن تكون رواة الحديثين ثقاةً، لا يسقط واحدٌ، مِنَ السندين، في ميزان الرجال. بل ولا ترجح كفة جانبٍ على أُخرى، بأيِّ وجهٍ مِنْ أوجه الترجيح، لأنه إن رجحت إحداهما، عوِّل على الراجحة...

وهذا شيءٌ لا يحصل في موضوعنا، بحالٍ مِنَ الأحوال...!

فهل يتساوى حديثٌ، ترويه العترة المطهَّرة، عن الرسول الأعظم (ص)، مع حديثٍ يرويه المغيرة، ومَنْ إليه...؟!

وإذ ليس ثمة مِنْ تكافوءٍ، فإن التعارض معدومٌ...!

★ ★

ثم راح يتشبَّث برسالة: النفس الزكية ــ وهو محمدٌ بن عبدالله، بن الحسن، بن الإمام السبط الحسن «عليه السلام» ــ إلى المنصور الدوانيقي.

---

(1) النهج ٣١٧ : ٣.

وقد رجعنا لهذه الرسالة ، في مواطنها ، مِنْ كتُب التأْريخ ، فوجدنا فيها مِمَّا نقله الحديديُّ ، هذا المقطع :

[فما زال الله يختار ليَ الآباء والأمهات ، في الجاهلية والإسلام ، حتى اختار لي في « النار » .فأنا أرفع الناس درجةً في الجنــة ، وأهونهم عذاباً في النار . وأنا ابن خير الأخيار ، وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ، وابن خير أهل النار] — الخ [1] .

وقد قمنا بالبحث عن رواتها ، فلم نجد لهم — في « كامل ابن الأثير » — ذكراً .

ولكن صاحب « شيخ الأبطح » ذكر أن راويها هو: عثمان بن سعيد ، بن سعد ، المدني . وقال : [وهذا سعيد مِنْ مجاهيل الرواة] [2] .

وأمَّا الطبريُّ ، فقد ذكر لها إسناداً مبتوراً . ونحن نأتي به ، لنرى موضع هؤلاء الرواة ، المبتوري النسب :

[قال : وحدثني محمدُ بن يحيي ، قال : نسختُ هذه الرسائل ،مِنْ محمدٍ بن بشيرٍ ، وكان يصحِّحها ، وحدثنيها أبو عبد الرحمن ، مِنْ كتاب أهـــل العراق ، والحكم بن صدقة بن نزار ، وسمعتُ ابن أبي حربٍ يصحِّحها] [3] .

---

(١) الطبري ١٩٦ : ٦ — وتجدها في كامل ابن الأثير ٥ : ٥ ، وفيه بدل «النار» — الأولى المقوَّسة — «الأشرار» . وليس فيه : «وأنا ابن خير —الخ» .
وتجدها في « محاضرات تأْريخ الأُمم — الدولة العباسية » ٦٥ — وتختلف عن هذه الصورة .
أمَّا المبرد ، فلم يأتِ بشيءٍ مَّا ، مِنْ هذا المقطع ، عندما أتى على هذه الرسالة ، في كامله ص ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ : ٣ .

(٢) شيخ الابطح ٨١ .

(٣) الطبري ١٩٥ : ٦ .

وهــذا الإسناد — كما تراه — مبتور الصلة ، لا يستطيــع إنسانٌ أن يعوِّل عليه :

نجد في السند :

١ — محمد بن يحيى . ولا نعلم مَنْ جدُّه ؟ .

ولكننا اذا رجعنا إلى « ميزان الإعتدال » ، وبحثنا في مَنْ جاء على هذا الاسم ، فإننا لا نقف على واحدٍ منهم — وقد بلغوا سبعة عشر رجلاً ، عـلى هذا الاسم ، وعلى كنًى مختلفةٍ ...

لا نقف مِنْ بين هؤلاء ، إلا على متروكٍ ضعيفٍ ، وذي حديثٍ منكَرٍ ، وأحاديث مظلمةٍ منكرةٍ ، وضعيفٍ لا يجوز الاحتجاج بخبره ، ودجَّالٍ يضع الحديث [1] ، وذي أحاديث مفردةٍ ، ومَنْ لا يدري مَــنْ يروي عنه ، وراوي مناكيرَ ، وأحاديثَ موضوعةٍ ، ومَنْ ليس بثقةٍ ، ومَنْ يروي عن الضعفاء ، ومَنْ ليس بالمرضيِّ ، ومَنْ يحدِّث بما لم يسمع ، ومَنْ يزوِّر [2] .

٢ — ويوافينا ، بعد هذا : محمدُ بن بشيرٍ . ونجد شخصين على هذا الإسم :

أ ـ محمدُ بن بشيرٍ بن مروان الكندي الواعظ . وهو ليس بثقةٍ . وقــال الدارقطني : ليس بالقويِّ في حديثه .

ب ـ محمدُ بن بشيرٍ بن عبدالله القاص ، وهو — كما يقول ابن معين — ليس بثقــةٍ [3] .

---

(١) في الغدير — ٢٢٩ : ٥ — في « سلسلة الكذابين والوضاعين » : محمد بن يحيى بن رزين المصيصي : دجالٌ يضع الحديث . وكذا جاء في ميزان الاعتدال ١٤٧ : ٣ .

(٢) ميزان الاعتدال ١٤٦ — ١٤٨ : ٣ .

(٣) الميزان ٣١ : ٣ .

٣ ـ ولسنا ندري مَنْ هوذا « أبو عبد الرحمن » ، ولا مَنْ هو « ابن أبي حربٍ » .

٤ ـ ولم نجد ، في الميزان ، ذكراً ، للحكم بن صدقة هذا .

★ ★

وندع السند المبتور، ولا نقتل الوقت بحثاً عن حلقاته المتفكّكة ،وأجزائه المتباعدة ، لنعود فنبحث في ذات الكلمة ، الواقفة في صدر الحديدي ، مِنْ رسالة النفس الزكية .

ولسنا نقف عند هذا الاختلاف المعنوي ، في ما وقع مِنْ تغييرٍ ، بين : رواية ابن أبي الحديد ، ورواية:الطبري ، وابن الأثير والخضري [١].

ولكننا نقف مشدوهين ، عند هذا الفخر ! ، بأن ينتسب ـ مفتخراً ! ـ لشرّ الأشرار ، أو لخير الأشرار ـ وهل في الشرّ خيرٌ ، وبين الأشرار خيّرٌ ؟! ـ ولسيد أهل النار ـ وهل بين النار خيّرٌ ؟!.

أمّا ان يكون ابن سيد أهل النار ... فإن كانت في النار سيادةٌ لواحدٍ، فلن يحوزها ، إلا مَنْ كان شر الأشرار ، ومَنْ كان أشدَّهم عذاباً ... وهذامِمَّا يتنافى،والفرية المكذوبة على الرسول (ص) ، مِنْ أن أبا طالبٍ،أخفُّ أهل النار عذاباً ... وهذا لديهم ـ هو : ثمرة شفاعة الرسول لعمه...!

ويا لعظمة هذه الشفاعة ، التي يخجل منها أبخل وألأم الناس ! ـ فكيف بِمَنْ بُعث ليتمّم مكارم الأخلاق ؟!.

وهل يصدر ، إلا مِنْ غير عاقلٍ، مثل هذا الفخر ، الذي ليس هو غير اعترافٍ بالمنزلة المنحطة ، التي لا تتفق وموقف النفس الزكية ، مِنْ هذا

(١) ذكر الحديدي : « وأنا ابن الاشرار » . وذكر غيره : « وابن خير الاشرار » .

الفخر ، وهو يطلب الخلافة ، ويقاوم الملِكَ المتربّع على العرش ، فهو ـ بهذه الرسالة ـ يخصم نفسه...!

لذلك ... نجد ، فيما ذكروا مِنْ جواب المنصور ، على هذه الرسالة ، قوله حول هذه النقطة :

(وزعمتَ : أنك ابن أخفّ أهل النار عـذاباً ، وابن خير الأشرار ... وليس في الكفر بالله صغيرٌ ، ولا في عذاب الله خفيفٌ ولا يسيرٌ ، وليس في الشر خيارٌ ، ولا ينبغي لمؤمنٍ يؤمن بالله أن يفخر بالنار !،وسترد فتعلم ! « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ») [١].

وهذا الجواب ينطبق ـ أتمّ الإنطباق ـ على تلك الفقرة ، المنسوبة للنفس الزكية ، وهو الجواب الحتميّ والدامغ لها ، سواءٌ كان الأصل والجواب، قد قاله مَنْ نُسب إليهما ، أو وُضع على لسانهما ...!

★ ★

أمّا قول النفس الزكية : « وأنا ابن شرّ الأشرار » ـ على رواية ابن أبي الحديد ، الذي اضطرّنا أن نقف وإيّاه ، في نقاشٍ! ـ فهذا ما لا ينطبق ، بأيّ حالٍ، على أبي طالبٍ ! ، لأن مفاد معنى هذه القولة : أنْ ليس أشرَّ مِنْ أبي طالبٍ، في قومه،وفي عصره ـ على الأقل ...! وإلا فالمعنى يفيد الاستمرار... أي : إنه ابن أشر مَنْ ينتسب للشر ...!!!

وحتى لو خصصناه بانه ابن أشر أهل عصره وقومه ـ فهل هذا المعنيُّ، هو أبو طالبٍ...؟!

لم نجد واحداً مِنَ الكاذبين، والوضّاعين، والمفترين، مَنْ وصل إلى هذه

(١) الطبري ١٩٧ : ٦،والكامل ٦ : ٥،ومحاضرات الأمم ـ العباسية ٦٦، والكامل في اللغة ١٢٧٧ ، ٣ ـ في صورةٍ غير هذه .

الوهدة ، مِنَ الانحطاط... فلم يقل واحدٌ منهم : أن أبا طالبٍ كان مِنَ الأشرار — بله أشرّهم ! — وخيره يقطر بالنعماء ، ويفيض بالنماء ، ويؤتي خيّر الثمار ...

وهل يكون ابن شرّ الأشرار: ابن مَنْ كان العمد لبناء الاسلام ، ولولاه لما كان الاسلام شيئاً مذكوراً — كما نقلناه عن الحديدي ؟!.

وهل يجوز أن تكون يدٌ لرجلٍ عند الرسول (ص) ، وهو في هذه الدرجة مِنَ الشر — والرسول هو القائل : «اللّهمّ لا تجعلْ لفاجرٍ ولا لفاسقٍ عنديْ نعمةً» ، في الحديث الذي أتينا عليه ، في ما سبق ، عن الزمخشري ؟!.

وهل يكون أبو طالبٍ أشرّ من: أبي لهبٍ ، وأبي الجهل [1] — وهما اللذان ملآ الوجود شرّاً وفساداً ، وأنزلا بالرسول أنواع الأذى ، وأنماط الهوان ؟!.

اللّهمّ ! إلا أن تكون نصرة الرسول وحياطته شرّاً ، وأشرّ مِنَ النيل منه وأذاه ...!!!

إذن ... فكيف يجوز للنفس الزكية: أن يفخر بمثل هذا الذمّ المنتقص ، والعيب المخزي ، وهو في هذا الموقف الحرج الدقيق ؟!.

★ ★

ولنتنزّل ... فنسلّم صدور هذه الرسالة مِنَ النفس ، فنتساءل عن الدليل ، الذي دعى ابن أبي الحديد ، لأن يخصّ بـ «شر الأشرار» أبا طالبٍ ؟!.

أليس ذلك ، سوى الظن والتخمين ، إذا شئنا أن لا نجهر بالقول الحق الصراح ...؟ وإلا فليس ذلك ، سوى الغاية والغرض ...!

ولماذا لا يكون المعنيّ به : طلحةَ بن عبيد الله — وهو : والد أمّ إسحاق ، التي هي : جدّة النفس — أو عبد العزّى ، وهو : جدّه لأمّه ..؟ فأمّ

(١) هذا السؤال ، ليس سوى تنزّلٍ... وإلا فليس بين أبي طالبٍ ، وهذين مشاركةٌ في الشر ، حتى يصح التساؤل عن أيّهم أشرّ !.

النفس الزكية ، وهي: هند بنت أبي عبيدة ، بن عبدالله ، بن زمعة ، بن الأسود ، بن المطلب ، بن أسد ، بن عبد العزى [1] — وعبد العزى ، هذا ، كان علَماً بين كفرة قريشٍ !.

ونحن لا نقول إن أحد هذين هو المعنيّ ، مِنْ قولة النفس ، ليس إلّا... فما هو سوى الظن والتخمين ، اللذين دفعا ابن أبي الحديد ، لأن يخص بها أبا طالبٍ ، وحده !.

ونمضي في التنزّل... ونسلّم بأن النفس الزكية ، لم يعنِ بشرّ الأشرار ، سوى أبي طالبٍ...! فلماذا تقف هذه القولة — وهي هي ... في مجانبتها للحق ، في جميع نواحيها — في صدر الحديديّ ، ولا يقف في صدره شيءٌ ، مِنْ أقوال الإمام الصادق ، وقد عاش هو والنفس الزكية ، في رقعةٍ مِنَ الزمن واحدةٍ ، وقد وقف الحديديُّ على الكثير مِنْ أقواله ...؟!

وأين النفس مِنَ الصادق ، في أيّ منزلةٍ مِنَ العلم ، أوِ المعرفة ، أوِ الأمانة ، أوِ الصدق ، أو ملازمة الحق والجهر به !.

وهل بينهما ما يجيز النظر ، في المقارنة ، أوِ التفضيل لأيّهما ؟!.

ليس بينهما شيءٌ مِنْ هذا ... والحديديُّ يعلم بذلك ، ولا يجهله ... ولكن — مع هذا — وقفت في نفسه ، هذه الرسالة ... تقف في حلقه شعرةٌ مِنْ بعيرٍ ، ويبتلع الأباعر بأخفافها ، متى شاء ...! فحلقه مطّاطٌ ، يتّسع عند الحاجة ، فيبتلع ما يشاء ، ويضيق — عند الحاجة — حتى عن الشعرة ...!

ثم لماذا لا تقف في صدره ، شهادات ابنه الصلبي الإمام عليّ ، «عليه السلام» ، وولده مِنْ بعده ، مِنَ الأئمة المعصومين — وهم هم ... مَنْ لا ينفرد عنهم ، مَنْ وقفت رسالته في نفسه ، في فضيلةٍ ... وقد إنفردوا عنه بفضائل ، وتميّزوا بميزاتٍ ، لا تقع تحت الحصر !.

(١) نسب قريش ٥٣ و ٢٢٧ وشيخ الأبطح ٨٢ .

وإذا كان النفس الزكية ، ابناً لأبي طالبٍ ، « غير متّهمٍ عليه » ... فهل شهادات الإمام الأعظم ، وولده مِنَ الأئمة ، تكون مغرضةً ، لأنهم متهمون لأجله ، ليضيفوه إلى عداد المسلمين ، وهو في قائمة الكفار ...؟؟!

فهل النفس أكثر ورعاً ، وأصدق حديثاً ، مِنْ: عليٍّ والأئمة ، حتى يقول هذا : ما لا تتّهمه عليه ، ويقول أُولئك : ما لا يمتّ للحق بصلةٍ...؟!

أمّا أنا فلا أعتقد أن النفس ، قد قال تلك المقالة ، بعد ما المنا بالكثير مِنَ البراهين ، التي تمنع أن يقول مثل هذا ، حتى المعتوه والمجنون ...! [1].

وإنْ قالها ، فما كان بالذي يعني بها : « الكافل والمحامي »... وإنْ عناه بها ، فما نحن بالذين تتمسّك بها ، لنضرب صفحاً بأقوالٍ مسلّمةٍ ، مِمّنْ لا يُظَنّ فيهم مجانبة الحق ، في فعلٍ ، أو قولٍ ...!

★ ★

ويقول : إن « عهده قريبٌ مِنْ عهد النبي (ص) ، لم يطلِ الزمان ، فيكون الخبر مفتعلاً » .

فالحديديّ يأخذ بقولة شخصٍ بعد مضيّ ما يقارب قرناً ونصفاً ، على وفاة مَنْ قيلت فيه ــ كما حملها ــ ولا يأخذ بقولة إمامٍ ، يلازم الحق ، وقد عاش في كنف مَنْ شهد له ، وشاهد ظلّه ، واستظلّ بوريف ظِلاله .

ولا يحمل الخبر على الافتعال ، حيث لم يطلِ الزمن ! ، ولكنه يروي الوفر ، مِنْ مختلَق الحديث ، ومزوّر القول ، على عهد معاوية ، وهو الذي

(1) الواقع يشير إلى: أنُ الرسالة مفتعلةٌ ، أو على الأقل مدسوسٌ فيها ، مثل هذه الفقرات ، التي هي للتنقص ، لا للفخر ...! وليس داعٍ عليها ، سوى السياسة الغاشمة ... فهي مِنْ أنصار الملك العباسي قربانٌ وزلفى !.

ولد في عهد الرسول (ص) !.

فلو كان السبب هو: امتداد العهد وقصره ، لمّا كنّا نشاهد ذلك الزور في عهد معاوية !.

ولا أدري على مَ أحمل قولة الحديديّ هذه ؟ وما السبب الذي دفعه لتبنّي هذا الرأي ؟ وما الذي دعاه لأن تقف هذه القولة ــ دون غيرها ــ في صدره دون غيره ؟.

ولكنا لا نُسيء الظن به ! ما دامت « إساءة الظنّ بالمسلم حرامٌ » ، و « حرمته أعظم مِنْ حرمة الكعبة » كما يقول الغزالي ، فيما نقلناه عنه ، عند حديثنا « على العتبة » مِنْ هذا الكتاب !.

★ ★

وبعد سيرٍ في طريقٍ رجراجٍ ، سار عليه الحديديّ خطواتٍ هزيلةً ، عاد فناقضه بقوله :

[وصنّف بعض الطالبيين ، في هذا العصر ، كتاباً في إسلام أبي طالبٍ [1] وبعثه إليّ وسألني أن أكتب عليه بخطي ، نظماً أو نثراً ، أشهد فيه بصحة ذلك ، وبوثاقة الأدلة عليه ، فتحرّجت أن أُحكم بذلك ، حكماً قاطعاً ، لما عندي مِنَ التوقف فيه ... ولم أستجز أن أقعد عن تعظيم أبي طالبٍ ، فإني أعلم أنه لولاه لما قامت للإسلام دعامةٌ ، وأعلم أن حقه واجبٌ على كلّ مسلمٍ في الدنيا ، إلى أن تقوم الساعة ... فكتبتُ على ظهر المجلّد :

ولولاَ أبوْ طالبٍ وابنُهُ ... لمَا مُثّلَ الدّينُ شخصاً ، فقامَا
فذاكَ بمكةَ : آوىٰ وحامىٰ ... وهذَا بيثربَ جسّ الحِمامَا

(1) هو: كتاب « الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالبٍ » ، للسيد شمس الدين ، وهو أحد مراجعنا ، لهذا الكتاب .

تكفّلَ عبدُ منافٍ بأمــــرٍ وأودىٰ ، فكانَ عليٌّ تماماً
فقلْ: في ثبيرٍ مضىٰ ، بعدَ مَا قضىٰ مَا قضاهُ... وأبقىٰ شماماً
فللّهِ ذَا فاتحاً الهدىٰ ... ولِلّهِ ذَا للمعــاليْ ختامًا ...
وما ضرَّ مجـدَ أبيْ طالبٍ جهولٌ لغَا ، أوْ بصيرٌ تعامىٰ!
كمَا لَا يضرُّ آيــاتِ الصباحِ مَنْ ظنَّ ضوءَ النهارِ الظلامًا !

فوفّيْتُه حقَّه ، مِنَ التعظيم والإجلال ، ولم أجزم بأمرٍ ، عندي فيــه وقفــةٌ] (١) .

★ ★

وإننا لنجد التناقض صريحاً ، في الفقرة التي قبل أبياته . فهو يقول :

إنه تحرّج عن الحكم بإسلام أبي طالبٍ ، لتلك الوقفة في نفسه ...

ولكنه لم يستجز القعود عن تعظيم مَنْ كان السناد لبناء صرح الإسلام الشموخ ، ومَنْ لولاه لما كانت للإسلام دعامةٌ قائمةٌ ... وحقه واجبٌ على كلِّ مسلمٍ ، في الدنيا ، وُجد ، أو كان في عالم الإيجاد ، حتى فناء الدنيا ، وقيــام يــوم الدّيــن .

فهذان ضدّان لا يجتمعان : أبو طالبٍ كافرٌ ! ، ولكنه لو لم يكن ، لمــا كان للإسلام دعامةٌ ! . وبذلك له الحق المفروض ، في عنق كلِّ مَنْ يمتُّ للإسلام بسببٍ !. فأيُّ كافرٍ هذا...؟!

ومِنْ أين له هذا الحق الرجيح ؟! هل كان مِنْ كفره ؟ وكيف كان العضد والدعامة ، في بناء الاسلام ، ذلك الكافر...؟؟!

ولكنه ـــ بعد ذلك كلّه ـــ كتب على الكتاب ، تلك الأبيات ، التــي نطق الحق فيها ... فراح يعرض لِمَا قام به أبو طالبٍ ، وابنه الإمام ، مــن :

(١) النهج ٣١٧ ، ٣١٨ : ٣

رفيع العمل ، وفذّ النصرة ، وهم دعامتا الإسلام ، اللتان لولاهما ، لما مثــل الدّين ، وقامت له قائمةٌ .

فالأب : بدأ العمل الرفيع ، وأسّس دعامة البناء .
والولد : أتمّ العمل ، وزاد في البناء .
الأب : حاط الرسول ، ونصره .

والولد : لاقى الحِمام ، حتى جسّ منه الملمس ، في سبيله .

فالمهمة الفضلى ، التي تكفل بها الأب الكريم ، وأودى ، بعد أن لم تصل الغاية ... كان لها الإبن العظيم ، ذلك المتمِّم ، فكان تماماً للجهد ، الــذي قام به الأب .

فأبو طالبٍ ، هو الفاتح للهدى . وابنه : كان الختام للمعالي .

ما تقول في هذا : « فللّهِ ذَا فاتحاً للهدىٰ » ؟ . وما الهدى هذا ؟. أليس يعني هدى الإسلام ؟. فهل الفاتح لهدى الإسلام ، يكــون ذلك الكافــر الجاحد ؟! ـــ أستغفر الله !.

ولكنه ، وقد وفّاه حقّه مِنَ التعظيم والإجلال ـــ كما يقول ـــ لم يجزم بإسلامه ، وقد وقف في حلقه ما وقف ...! ولعله قد «شرق بالماء» أو قــد امتلأ به فوه ، فلم يستطع النطق ...!

ولكننا نقف عند قوله :

وما ضرَّ مجدَ أبيْ طالــــبٍ جهولٌ لغَا ، أو « بصيرٌ تعامىٰ »؟
كمَا لَا يضرُّ آياتِ الصباحِ ، مَــنْ ظــنَّ ضوءَ النهــارِ الظلامــا م!

فأيُّ ضررٍ على مجد أبي طالبٍ الأثيل ، وإيمانه الرسيخ ، وإسلامــه الثابت : أن يتعامى عنه ابن أبي الحديد ـــ وهو به ذلك البصير ـــ لأشياء... قد تكون فرضتْ عليه : أن يسلــك هــذا الطريــق المنئاد ، ويتجنب المهيع الأبلج ...؟!

افتـــراء وتزويـــر

آشرنا ــ في حديثنا « على العتبة » ــ إلى السوق السوداء ، التي أقامها معاوية ، وأنفق عليها ، مِنْ مال المسلمين ، إنفاق مَنْ لا يحسُّ بالمسؤولية ، ولا يخشى سوء مغبة العمل ، فكثر فيها زور الحديث ، وتأويل الآيات ، وتحريفها عما أنزل الله ••• ومضت هذه السوق ــ وقدِ احتشدت فيها البضائع الزائفة ــ تسجّل على جبين الدهر ، ما تسودُّ منه الصفحات ، بحروفها القاتمة ، حتى مسختِ الحقائق ، وشوهت وجه التأريخ •

وقد كان لأبي طالبٍ ــ وهو أبو عليٍّ البطل ــ نصيبٌ مِنْ ذلك الظلم الشنيع ، هو مِنْ طراز « جزاء سنمار » •••! فوُضعت في حقه الأراجيف ، لتنال مِنْ وضيىء إيمانه ، وتطفىءَ مِنْ لألآء معتقده ، وتتناسى صلابة جهاده••• بل إنها تريد أن تنتقم منه ••• مِنْ صلابة هذا الجهاد ، الذي حال بينها ، وبين خنْق الرسالة في مهدها ، يوم جاء بها ابن أخيه••• فراحت تختلق في حقه الأراجيف ، مِنَ الأحاديث المزوّرة ، وتحريف الآيات ، عمَّا أنزل الله •

فعلينا أن نطوف ــ في هذا الفصل ــ بهذا الزور مِنَ التهم ، التي حيكت حول أبي طالبٍ ، والأغراض التي افترت عليه ما هو منه براءٌ ، وما هو منه نقيٌّ الصفحة ، نصيع البياض ، طاهر الذيل •

علينا أن نطوف بهذا الزور المفتعَل ، والتأويل المختلق ، فنلقي عليه

النظرة الفاحصة ، ونضعه على مطرقة النقد ، وتحت مجهر التحليل ، لنرى ماذا هناك •••

الآية الاولى

﴿ وَمِنْهُمْ : مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً • وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ ، يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ــ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ، وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ، وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ • وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ، فَقَالُوا : يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ ، وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] •

★ ★

أنت تجد : أن هذه الآيات الثلاث ــ في سياقها المتَّصل ــ تعرض لناعمل بعض المشركين ، الذين يستمعون للرسول فيما هو يتلو الوحي ، الذي يتنزّل عليه بالقرآن الكريم ، ولكنهم لا يفقهون شيئاً ممَّا يتلو ، وقد جعل الله الأكنَّةَ على قلوبهم أن تعي ، والوقرَ في آذانهم أن تسمع ، فلا يؤمنون بهذه الآيات ، التي يرونها ، مِنَ الرسول « ص » • وهم ــ بعدذلك ــ يجادلون الرسول ، في هذه الآيات الوفيرة••• ويقولون مِنْ صلابة عنادهم : أن هذه الآيات ، ليست سوى أساطير الأوَّلين • فما هي سوى خرافاتٍ باطلةٍ ، وأكاذيبَ

---

(١) الأنعام ٢٥ ــ ٢٧.

مفتعلةٍ ــ فهي : غاية الكفر والضلال[1] .

وليس يقف عنادهم ، عند هذا الحد . بل يوغلون في عملهم المنكر ، فينهون الناس أن يستمعوا للقرآن الكريم ، لأنهم يخشون أن يسيطر عليهم بجلاله وهيبته ، ويستحوذ منهم على القلوب ، بعظمته وسلاسته... أو ينهون عن الرسول ، فلا يتبعه أحدٌ مِنَ المشركين ، فيؤمنَ بما يحمل مِنْ رســالةٍ ساميةٍ فيحولون بين هؤلاء وبين الإيمان ...وينأون عنه ــ والنــأي هو: البعد ــ فهم يتباعدون عن الرسول . وليسوا يبعدون إلاّ عن مصدر النور ، فيضلّون غيرهم بنهيهم ، ويضلّون أنفسهم بنأيهم... وما ذلك سوى الهلاك ، ولكنهم مِنَ الشعور على فقدان ....!

ولكنّ لهم وقفةً على النار ، يعضّون فيها الأنامل ، مِنَ الغيظ والألم ، ويندمون على ما فرط منهم ، مِنْ تكذيب الآيات الباهرة ، فيرجون عودةً، ليكونوا فيها مِنَ المؤمنين ، حتى ينجوا مِنْ أليم العذاب ...

★ ★

وأنت ترى مِنْ سياق الآيات الثلاث : أنها متّحدة الغرض، تعني موضوعاً

---

(١) يقول الزمخشري ــ في كشافه : ٤٤٧ : ١ (٢:١٠) ــ عند حديثه على هذه الآيات :

[روي : أنه اجتمع أبو سفيان ، والوليد ، والنضر ، وعتبة ، وشيبة ، وأبو جهل ، وأضرابهم ، يستمعون تلاوة رسول الله صلى الله عليه "وآله" وسلم، فقالوا للنضر : يا أبا قتيلة ! ما يقول محمد ؟فقال : والذي جعلها بيته ــ يعني:الكعبة ــ ما أدري ما يقول !، إلا أنه يحرّك لسانه ، ويقول : أساطير الأولين] .

إلى أن قال الزمخشري : « فنزلت » .

وقد ذكرها البيضاوي ، أيضاً ، في تفسيره ــ ١٨٤ : ٢ وذُكرت في مجمع البيان ٣٣ : ٧ .

واحداً ، وتناول عرض عمل بعض المشركين .

ولكنّ محرّفي الكلِم عن مواضعه،جاءوا،فتأوّلوا الآية الوسطى ــ مِنَ الثلاث ــ وحرّفوها عمّا أنزل الله .

فقد أخرج الطبريّ وغيره ، مِنْ طريق سفيان الثوري ، عن حبيب بن أبي ثابتٍ، عمّن سمع ابن عباسٍ، أنه قال : إنها نزلت في أبي طالبٍ، ينهى عن أذى رسول الله صلى الله عليه « وآله » وسلّمأن يؤذى ، وينأى أن يدخل في الاسلام[1] .

ونجمل ملاحظاتنا عليه في ما يلي :

أ ــ نجد في هذه السلسلة : سفيان الثوري . وقد كان يدلّس عن الضعفاء ويكتب عن الكذّابين[2] ، ويروي عن الضعفاء[3] .

قال ابن مبارك : حدّث سفيانُ بحديثٍ، فجئته وهو يدلّسه ، فلمّا رآني استحيى ، وقال : نرويه عنك[4]! . وقال ابن معين : مرسلات سفيان ، شبه الرّيح[5] .

ونقل عن الذهبيّ في تذكرة الحفاظ : أن الفرياني قال : سمعتُ سفيان يقول : لو أردنا أن نحدّثكم بالحديث ، كما سمعناه،ما حدّثناكم بحديثٍ واحدٍ[6] .

وسفيان هذا،يحدّث عن الصلت بن دينار الأزدي،والصلت هذا ، مِمَّنْ ينال عليّاً ويتنقّصه ، وهو مِمَّنْ طعن فيه أرباب الجرح والتعـديل . ومع هذا كلّه ، فسفيان يروي عنه ، ويقول إذا حدّث عنه : حدّثنا أبو شعيبٍ،

---

(١) تفسير ابن كثير ١٢٧ : ٢،والغدير ٣ : ٨ مسنداً له ولغيره .

(٢) ميزان الاعتدال ٣٩٨:١،ودلائل الصدق ٣٤ : ١ .

(٣) إسعاف المبطأ،ص ٣ ، ودلائل الصدق ٣٤ : ١.

(٤) دلائل الصدق ٣٤ : ١ ، وأعيان الشيعة ١٣٨ : ٣٥ .

(٥) و (٦) المصدر الأول ــ الدلائل .

ولا يسمّيه ، حتى قال شعبة : إذا حدّثكم سفيانُ عن رجلٍ لا تعرفونه ، فلا تقبلوا منه ، فإنما يحدّثكم عن مثل أبي شعيبٍ المجنون[1] .

وهناك مَنْ جعل سفيان هذا ، مِنْ عداد الشيعة . ونجدنا بين نقيضين : نسبته للتشيع ؛ وصحة رواية هذا الحديث عنه... فهما ضدّان لا يجتمعان : التشيع ؛ وتكفير أبي طالبٍ ، حيث أن اهل البيت « عليهمُ السلام » — وتتبعهم شيعتهم — مجمعون على إيمان أبي طالبٍ الثابت ، ومثلهم كلُّ عاقلٍ منصفٍ ، والخروج عن هذا الإجماع خروجٌ عن التشيع... فإن تثبت شيعيته ، تنتفي بذلك هذه الرواية عنه ...

وقد ترجم له الإمام الأمين — في أعيانه [2] — وذكر فيه التجريح والتعديل ، إلا أني أميل إلى التجريح ، لتعدّد جوانبه ، ولا سيما أن فيه كثيراً مِنَ الاعتراض ، على إمام المذهب الشيعي : جعفرٍ بن محمدٍ الصادق عليه السلام[3] .

وهناك قولٌ بتشيعه ، وعدوله عن ذلك [4] ، وقولٌ آخر ، بزيديّته [5] .

ب = إرسال الحديث ، بما بين : حبيبٍ ، وابن عباسٍ ! . وقطع الصلة بين الاثنين ، يكشف لنا السرّ الكمين ، ويفضح اللغز الخفيّ .

ج = يقول الأمينيُّ : إن هذا الحديث ، ممّا انفرد به حبيبٌ ، ولم يشاركه أحدٌ في ما روى ، وقد قال عنه ابن حبانٍ ، وابن خزيمة : إنه كان مدلّساً . وقال العقيلي : غمزه ابن عونٍ ، وله عن عطاء أحاديث ، لا يُتابع عليها .

---

(1) دلائل الصدق ص ٣٨ : ١ وقد جاء ذلك ، في ميزان الاعتدال ص ٤٦٨ : ١ في ترجمة الصلت .

(2) ص ١٣٧ — ١٤٨ : ٣٥ . (3) ص ١٤٢ — ١٤٨ : ٣٥ .

(4) ص ١٤١ : ٣٥ .

(5) ص ١٣٩ — ١٤١ : ٣٥ ، كما ذكر ضمن الزيدية في الفهرست ٢٥٣ .

وقال القطّان : له غير حديثٍ عن عطاء ، لا يُتابع عليه ، وليست بمحفوظةٍ . وقال الآجري ، عن أبي داوُود : ليس لحبيبٍ ، عن عاصم بن ضمرة ، شيءٌ يصح [1] .

وقال ابن جعفر النحاس : كما يقول : إذا حدثني رجلٌ عنك بحديثٍ ، ثم حدّثتُ به عنك ، كنتُ صادقاً[2] ،

أرأيت تساهل الرجل ، في روايته ؟ ، وهزءَه في حديثه ؟ .

د = إن القرطبي قال : معنى الآية عامٌّ في جميع الكفّار — أي : ينهون عن اتّباع محمدٍ ، وينأون عنه — عن ابن عباسٍ ، والحسن (3) .

في ما نقله الأميني ، عن الطبري ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، مِنْ طريق عليٍّ بن أبي طلحة ، والعوفي : إن الثابت عن ابن عباسٍ — عن هذه الطرق العديدة — يراها أنها في المشركين ، الذين كانوا ينهون الناس عن محمّدٍ ، أن يؤمنوا به ، وينأون عنه [4] .

ونقله الأميني أيضاً — مخرجاً ، عن عديد الطرق ، وكلّهم يرون في تفسير الآية : ينهون عن القرآن ، وعن النبي ؛ وينأون عنه : يتباعدون عنه [5] .

هـ = ليس بين هؤلاء مَنْ فسّرها على ما نقله سفيان الثوري ، عنه ، بعدما نقل عن ابن عباسٍ — مِنْ عديد الطرق ما يخالف ما رواه الثوري عنه ، في تفسير هذه الآية بالذات ، ، وفي رأيه حول عمّه أبي طالبٍ ، ولا سيما بعد صريح ما نقلناه مِنْ رأيه في عمّه ، في الفصل السابق [6] .

---

(1) الغدير ٤ عن تهذيب التهذيب ١٧٩ : ٢

(2) دلائل الصدق ٣٦ : ١ . (3) الغدير ٣ : ٨ .

(4) الغدير ٣ : ٨ . وذكر ذلك عن ابن عباس ، في المجمع ٣٥ : ٧ .

(5) الغدير ٣ : ٨ . (6) تحت عنوان على « لسان الصحابة وآخرين » .

و = إن ما نجده مِنْ سياق الآيات الثلاث ، واتّحادها في ما ترمي إليه ، يقف مانعاً ، أمام مَنْ يريد : أن يحرف مِنْ بينها الآية الثانية ، وهي متّصلة بما سبق وما لحق .

ز = إن تحريف معنى الآية الوسطى ـ في ذاتها ـ عن معناها ، يتنافى ووضوح ما ترمي إليه مِنْ معنىً ...

فبينما سياق الآية ـ كما فسّرها بذلك المفسرون ـ ينهون عن استماع القرآن ، والإصغاء للرسول ، ويتباعدون عنه ... وإذا بالنهي يخصّون به الحياطة ، ونصرة الرسول ـ أي: ينهون عن أذاه !.

فمِنْ أين نحصل على هذا المعنى ، مِنْ هذه الآية الكريمة ؟!.

ح = وليس أكذب مِنْ هذا التأويل ، إلا مَنْ خصّ بـه أبا طالبٍ وحده ! ـ كما قيل : هو خاصٌّ بأبي طالبٍ ، ينهى الكفّار عن أذى الرسول ، ويتباعدون عن الإيمان به (1) .

فإن الضمير في الآية ـ ضمير الجمع ، وهو : « ينهون وينأون » . ولو كان مختصاً بأبي طالبٍ ، لكُنّا نجد الخطاب ، خطاب المفرد ، لا الجمع .

ثم كيف يصحّ انطباق معنى « ينأون عنـه » على أبي طالبٍ ، وهو الذي لم ينأَ عنه طرفة عينٍ ؟!. فمتى كان هذا النأي ؟! أفي نصرته ، وحياطته ، والقرب منـه ، والدعاية له ولدينه ، والدفاع عنه ، وعن اتّباع دينه...؟! فكيف تجتمع هذه الأعمال منه ، مع نأيه عنه...؟!

ط = لعلّ مِنَ الخير : أن نأتي ـ هنا ـ على أقوال بعض المفسّرين ، في ما قالوه حول هذا الموضوع .

ونحن نأتي على هذا ، نقلاً عن الأميني ـ وهو الثقة الأمين ـ لتعذر

(1) الغدير ٣ : ٨.

بعض المصادر ، التي أخذ منها :

[وذكر الرازي في تفسيره ٤ : ٢٨ قولين : نزولها في المشركين الذين كانوا ينهون الناس عن اتّباع النبيّ والإقرار برسالته ، ونزولها في أبي طالبٍ خاصّةً ، فقال: والقول الأول أشبه ، لوجهين :

الأول : إن جميع الآيات المتقدمة على هذه الآية ، تقتضي ذمّ طريقتهم ، فكذلك قوله . وهم ينهون عنه ، ينبغي أن يكون محمولاً على أمرٍ مذمومٍ ، فلو حملناه على أن أبا طالبٍ كان ينهي عن إيذائه ، لمّا حصل هذا النظم .

والثاني : إنه تعالى قال بعد ذلك : وإن يهلكون إلا أنفسهم . يعني بـه ما تقدّم ذكره ، ولا يليق ذلك بأن يكون المراد مِنْ قوله : وهم ينهون عنـه ـ النهي عن أذيته ، لأن ذلك حسنٌ ، لا يوجب الهلاك .

فإن قيل : إن قوله : « وإن يهلكون إلا أنفسهم » ، يرجع إلى قوله : « وينأون عنه » ، لا إلى قوله : « ينهون عنه » ، لأن المراد بذلك : أنهم يبعدون عنه بمفارقة دينه ، وترك الموافقة له ، وذلك ذمٌّ ، فـلا يصحّ مـا رجحتم به هذا القول .

قلنا إن ظاهر قوله : « وإن يهلكون إلا أنفسهم » ، يرجع إلى كلّ مـا تقدّم ذكره ، لأنه بمنزلة أن يقال : إن فلاناً يبعد عن الشيء الفلاني ، وينفر عنه ، ولا يضرّ بذلك إلا نفسه ، فـلا يكون هـذا الضرر ، متعلّقاً بأحـد الأمرين ، دون الآخر ـ إ هـ .

وذكر ابن كثيرٍ في تفسيره ٢ : ١٢٧ : القول الأول نقلاً عن ابن الحنفية وقتادة ، ومجاهد ، والضحّاك ، وغيرِ واحدٍ ، فقال : وهذا القول أظهر ، والله أعلم ـ وهو اختيار ابن جرير (1) .

(1) كذلك وجدناه ، عند رجوعنا إليه ، في تفسير ابن كثير . ←

وذكر النسفي في تفسيره بهامش تفسير الخازن ٢ : ١ القول الأول • ثم قال : وقيل : عُني به أبو طالب — والأول أشبه •

وذكر الزمخشري في الكشاف ١ : ٤٤٨ ؛ (١) والشوكاني في تفسيره ٢ : ١٠٣ وغيرهما : القول الأول ، وعزوا القول الثاني إلى القيل : وجاء الآلوسي ، وفصّل القول الأول ، ثم ذكر الثاني ، وأردفه بقوله : ورده الإمام• ثم ذكر محصّل قول الرازي](٢) •

وهناك مَنْ عمّم هذه الآية، فرآها : نازلةً في عمومة النبي (ص) ، [وكانوا عشرةً ، فكانوا أشدّ الناس معه في العلانية وأشدّ الناس عليه في السرّ] (٣)•

وليس خفيّ أن مَنْ بين أعمام النبي (ص) : حمزة سيد الشهداء ، والعباس • ولك — بعد ذلك — أن تحكم ، فيما إذا كان هذان ممّنْ يقفون على النار ، فيقولون ما حكاه الله سبحانه ، عنهم ، في هذه الآية ، مِنْ إبداء الندم ، حيث لا ينفع فيه !• أم ماذا يتأول المهوسون المغرضون ؟!•

أما أنا فلا أستبعد وجود مَنْ يقول ذلك ، بعد أن عرضنا نماذج ، في الفصل الأول — «على العتبة» — مِنْ هذا الكتاب•ومنها ما حدّث به عروة، مِنْ أن العباس وعلياً ، مِنْ أهل النار !•

وما الحمزة بالذي يداني علياً في فضله ، وقد قيل فيه ما قيل !!!.

← وذكر هذا القول — في المجمع ٣٦ : ٧ — عن ابن عباس ، ومحمد بن الحنفية والحسن ، والسدّي ، وقتادة ، مجاهد ، واختاره الجبائي •

(١) ص ١٠ : ٢.

(٢) الغدير ٧ ، ٨ : ٨ •

(٣) أسباب النزول ٩٨ مخرجاً عن ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن أبي هلال • وتفسير ابن كثير ١٢٧ : ٢ مخرجاً عنهما •

ي = مِنْ هذا كلّه••• ينكشف لنا الستر المسدَل ، وتنفضح الغايات الدون ، مِنْ تحريف الآية ، وتحويلها مِنَ المشركين ، إلى أبي طالب ، المؤمن العميق ••• مِنْ حيث السند ، فهو واهٍ متهالكٌ ••• ومِنْ حيث المعنى ، فهو متصّلٌ متماسكٌ ، لا يفصل بينه شيءٌ ••• ومِنْ حيث آراه المفسّرين ، الذين عرضنا البعض مِنْ آرائهم••• ومِنْ حيث الثابت ، مِنْ سيرة أبي طالب — قولاً وعملاً — وشهادات الرسول وآله ، ممّا عرضنا •••

كلُّ هذه ••• تفرض علينا أن نصفع بذلك التأويل المحرّف ، عرض الجدار ، ولا نلتفت للافتئات المغرض ••• والذي نال بعضه ، في ما نال ، سيد الشهداء حمزة ، وأبا الفضل العباس !•

الآية الثانية والثالثة

١ — مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ، وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) (١)

٢ — (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (٢) •

★ ★

نودُّ هنا — حول حديثنا عن تأويل هاتين الآيتين الكريمتين ، وتحريفهما عمّا أنزل الله ، إلى النيل مِنْ أبي طالب — أن نأتي ، أولاً ، بالأقوال ، التي حرّفتهما ، وصرفتهما إليه ، لنناقش السند ، ونفضح الرواة ، واحداً بعد آخر •

---

(١) التوبة ١١٣ • (٢) القصص ٥٦ •

١ = [عن إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبدالرزاق ، أخبرنا معمّر ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيّب ، عن أبيه ، قال : لمّا حضرت أبا طالب الوفاة ، دخل عليه النبي صلى الله عليه «وآله» وسلم ، وعنده أبو جهل ، وعبدالله بن أبي أمية ، فقال النبي صلى الله عليه «وآله» وسلم : أي عمّ ! قل : لا إله إلا الله ، أحاج لك بها عند الله !. فقال أبو جهل ، وعبدالله بن أبي أمية : ياأبا طالب! أترغب عن ملّة عبد المطلب ؟ فقال النبي صلى الله عليه «وآله وسلم» : لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك ، فنزلت : ماكان للنبيّ والذين آمنوا — الآية] (١).

★ ★

٢ = [وعن أبي اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري ، قال : أخبرني سعيد بن المسيّب ، عن أبيه قال : لمّا حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله صلى الله عليه «وآله» وسلم فوجد عنده : أبا جهل ، وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة . فقال : أي عم ! قل : لاإله إلا الله ، كلمة أحاجّ لك بها عند الله ، فقال أبو جهل ، وعبدالله بن أبي أمية : أترغب عن ملّة عبد المطلب ؟ فلم يزل الرسول ﷺ يعرضها عليه ، ويعيدان بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم : على ملّة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله. قال : فقال رسول الله ﷺ : والله لأستغفرنّ لك ، ما لم أنه عنك ، فأنزل الله: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ . وأنزل الله في أبي طالب ، فقال لرسول الله ﷺ : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ] (٢) .

٣ = [وعن حرملة بن يحيى التجيبي ، أخبرنا عبدالله بن وهب ، قال : أخبرني يونس ، عن ابن شهاب ، قال : أخبرني سعيد بن المسيّب ، عن أبيه ،

(١) البخاري ٢٠١ : ٢، و ٨٧ : ٣ . (٢) المصدر ١٠٧ : ٣ .

قال : لمّا حضرت أبا طالب الوفاةُ ، جاء رسول الله — الخ] (١) .

★ ★

٤ = [عن محمد بن عبّاد ، وابن أبي عمر ، قالا : حدثنا مروان عن يزيد — وهو ابن كيسان — عن أبي حازم ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ لعمّه عند الموت : قل : لا إله إلا الله ، أشهد لك بها يوم القيامة . فأبى . فأنزل الله: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ] (٢).

★ ★

٥ = [عن محمد بن حاتم بن ميمون ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا يزيد بن كيسان ، عن أبي حازم الأشجعي ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ لعمّه قل : لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة . قال: لولا أن تعيرني قريش ، يقولون : إنما حمله على ذلك الجزع من الموت ، لاقررت بها عينك ، فأنزل الله : إنك لا تهدي — الآية] (٣) .

★ ★

رواة الأحاديث الثلاثة الأولى

نبدأ النظر في سلسلة الأحاديث ، بالثلاثة الأولى ، وهو من جوانب :

— ١ —

نجد في الحديث الأول ، من بين رواته :

أ — إسحاق بن إبراهيم : مبتور الاسم . ولا نعلم به هل هو الضعيف ؟،

(١) صحيح مسلم ٤٠ : ١ (٢) و (٣) المصدر ٤١ : ١ .

أو مَنْ شيخه ساقط ؟،أو مَنْ ليس بثقةٍ ؟،أو مَنْ لا يعرفه الذهبيّ ، وضعّفه الدارقطنيّ ؟،أو مَنْ كذّبه ابن عديٍّ،والأزديّ لوضعه الحديث ؟،أو مَنْ قال عنه الحاكم : ليس بالقويّ ، ومرّةً أُخرى : ضعيفٌ ، وقال الدارقطني : ليس بالقويّ ؟،ومَنْ قال عنه النسائيُّ : ليس بثقةٍ ، وأبو داوُد:ليس بشيءٍ ، وكذبه محدِّث حِمص : محمد بن عوف الطائي ؟،أو مَنْ روى الأحاديث المنكرة ؟،او مَنْ تُرِكَ الأخذ عنه ؟ (١).

ولكن فلعله إسحاق بن إبراهيم الدبري ، صاحب عبد الرزاق ، الذي قال عنه الذهبيّ : « ما كان الرجل صاحب حديثٍ » إلى قوله : « لـــكن روى عن عبد الرزاق أحاديثَ منكرةً ، فوقع التردد فيهـا : هل هي منـه ، فانفرد بها ؟،أو هي معروفةٌ مما تفرّد به عبد الرزاق ؟ » (٢).

ولكن صاحب شيخ الأبطح ـــ وقد عرض لهذا الحديث ـــ يقول : إنه إسحاق بن إبراهيم ، بن راهويه(٣) .

وهذا قد ذكره الذهبي ، فقال عنه :

[وقال أبو عبيد الآجري : سمعت أباداوُد يقول : إسحاق بن راهويه، تغيّر قبل أن يموت ، بخمسة أشهر ، وسمعتُ منه في تلك الأيام ، فرميتُ به] ـــ حتى يقول : [وذكر لشيخنا أبي الحجاج حديثٌ ، فقال : قيل : إسحاق اختلط في آخر عمره] .

ثم أورد عنه ، ما رآه مِنْ مناكير حديثه (٤) .

غير أنّا نُقرّبه بالدبري ، صاحب عبدالرزاق . ودليلنا على ذلك إسناده الحديث لعبد الرزاق .

---

(١) الميزان ٨٤ ـــ ٨٦ : ١. (٢) المصدر ٨٥ . ١.

(٣) ص ٧٠. (٤) الميزان ٨٦ : ١.

ب = ونجد ، بعدئذٍ،عبد الرزاق.ومَنْ عبد الرزاق هذا ؟،هل هو عبد الرزاق بن عمر الثقفي ، الذي قيل عنه : ضعيفٌ ليس بثقةٍ ، منكر الحديث، وقال عنه الدارقطني : هو ضعيفٌ مِنْ قِبَلِ أن كتابه ضاع . وقال أبو مسهر : ضاع كتابه عن الزهري ، فكان يتبعه بعد أن ذهب، فيأخذ عنه ما سواه ؟(١).

ولكن فلعلّه هو الذي قال عنه الذهبي ، في حديثه عن إسحاق بن إبراهيم، وهو ما نقلناه:« لكن روى عن عبد الزراق أحاديثَ منكرةً » ـــ إلخ .

وهو الراوي عشرة آلاف حديثٍ، عن معمر بن راشد ! (٢) .

ج = وكذلك نجد ما ذُكر ، مِن اسم معمرٍ . فليس غير الكذاب المجهول، راوي المناكير (٣).

و في ما نظن أن معمراً هذا ، وهو معمرُ بن راشد (٤) . وقد قال عنـه الذهبي : « وله أوهامٌ معروفةٌ ، احتُملت له . وقال أبو حاتم : وما حدَّث به ـــ بالبصرة ـــ ففيه أغاليط »(٥) .

وقد قال عبد الرزاق عنه ـــ وهو أحد حلقات السند ، الذي روى عنه إسحاقُ منكرَ الحديث ، الذي نحن بصدد رجاله الكذبة.« انه كتب عن معمرٍ عشرةَ آلاف حديثٍ »:(٦) .

أرأيتَ هذه الكثرة ؟! ربِّ زد وبارك !.

وهل رأيتَ ما في هذه الحلقات المفرغة مِنَ:الكذبِ،والافتراء... فما

---

(١) الميزان ١٢٦ : ٢.

(٢) الميزان ١٨٨ : ٣ ـــ وعبد الرزاق ، هذا ، كان ينال مِنْ عثمان ـــ كما في الغدير ٢٥٢ : ٥ .

(٤) إلى هذا ذهب شرف الدين ، في شيخ الأبطح ص ٧٠ .

(٣)(٥) و (٦) الميزان ١٨٨ : ٣ .

في حلقات سلسلة الحديث ، إلا عرىً متفصمةٌ (٦) .

- ٢ -

ويوافينا ــ في الحديث الثاني ــ هذا السند :

أ ــ وهكذا لا تنتهي سلسلة الأسماء البتراء !. فمَنْ أبو اليمان هذا ؟.

فإننا لا نجد ، سوى اسمٍ واحدٍ ، أرسل حديثاً (١) .

ب ــ والثاني فيهما ، هو: شعيب . ونجد ــ على هذا الاسم ــ سلسلةً، ليس فيها غير الوضّاع ، الكذوب ، الضعيف ، والراوي للمناكير ، والمجهول ، إلى آخر السلسلة (٢) .

- ٣ -

وهنــا ... تلتقي سلسلة الحديثين بالزهريّ . وإنها لعروةٌ مفكّكــةُ الأجزاء !.

ولا ندري ، فهل يؤخذ حديثٌ عن الزهريّ ، وهو الراوي ذلك الحديث المفتعل ، عن عليٍّ والعباس ــ فيما نقلناه ، في حديثنا « على العتبة » وهو حديث : إنّ عليّاً والعباس ، مِنْ أهل النار ، وأنهما يموتان على غير مـــلة

(٦) تفصّم: تصدّع .

(١) الميزان ٣٨٨ : ٣ .

(٢) المصدر ٤٤٧ ، ٤٤٨ : ١. وفي الغدير ٢٠٤ : ٥ : [شعيب به عمرو الطحان . قال الأزدي : كذابٌ] .

الرسول (١) .

فهل يؤخذ حديثٌ في أبي طالبٍ، يرويه هذا الطاعن في عليٍّ، القــائل الزورَ والإفكَ ، بكلّ قحّةٍ، وصلافة وجهٍ، وتقلّص إيمانٍ ؟!.

إن الباعث بارزٌ، أوضح مِنَ الشمس... وإنه لهو المنتظر منه... فمــا عسانا ننتظر منه أن يقــول عــن أبي طالبٍ، غير ما قال ، بعد أن قــال في عليٍّ، مثل هذا القول ، النابي ، والتهمة الفاحشة ...؟!

أليس يكفي أن يكون أبو طالبٍ أباً لعليٍّ، ليقول فيه أشدّ ممّا قال...؟!

ولسنا ــ بعد هذا ــ في حاجةٍ لأن نقول : إنه كان مِنَ المدلّسين (٢).

فيكفينــا عنــه هذان الحديثان ــ في عليٍّ والعباس ــ ليسقط ، عندنا ، مِــنْ ميزان الرجال .

ومِنَ الخير أن نشير إلى أنّ الحديث الأول ، الذي أتينا عليه ، والمفتعَل في حق أبي طالبٍ، والذي رواه عبد الرزاق ، عن معمرٍ ، عن الزهريّ ...

مِنَ الخير أن نشير إلى أنّ عبد الرزاق ومعمراً ــ هذين اللذين اجتمعا مع الزهري ، وشاركاه في نسج خيوط ذلك الحديث الكذوب ــ لم يستطيعا أن يسايرا الزهريّ في بهتانه ، إلى الشوط الأخير ... فإن النَّفَس قد قصر منهما، أن يمتد حتى نهاية الشوط ...

لذلك ... روى عبد الرزاق ، عن معمرٍ، فقال : كان عنــد الزهري حديثان ، عن عروة ، عن عائشة ، في عليٍّ « عليه السلام »،فسألتُه عنهمـــا يوماً ، فقال : ما تصنع بهما وبحديثهما ؟. الله أعلم بهما ! إني لأتهمهمـــا في بني هاشم (٣) .

(١) ذكرنا الحديثين ــ في حديثنا « على العتبة » ــ عن النهج ٣٥٨ : ١.

(٢) الميزان ١٢٦ : ٣ .

(٣) النهج ٣٥٨ : ١ .

يعني بذلك الزهريّ ، وعروة • ويعني بالحديثين ما اختلق في حقّ عليٍّ والعباس : بأنهما مِنْ أهل النار ، ويموتان على غير الدِّين الإسلامي الحنيف •

ولعلَّ مِنَ الخير أيضاً — أن نعرض عن الزهري ، هذه الحادثة :

شهد شاهدٌ مسجد المدينة ، فإذا الزهري ، وعروة بن الزبير ، جالسان يذكران علياً « عليه السلام » ، فنالا منه ، فبلغ ذلك علي بن الحسين « عليه السلام » ، فجاء حتى وقف عليهما ، فقال :

أما أنت — يا عروة ! — فإن أبي حاكم أباك ، فحُكم لأبي على أبيك ؛ وأما أنت — يا زهريّ ! — فلو كنتُ بمكة ، لأريتك بيت أبيك ! (١) •

— ٤ —

وفي سلسلة الحديث الثالث ، نجد بينها هذه الأسماء :

أ — حرملة بن يحيى التجيبي — أو التجيبي — انفرد بغرائب • قال أبو حاتم : لا يحتجّ به • وضعّفه عبدالله بن محمد الفرهاذان ، فيما نقل عنه ابن عدي، واشتهر عن حرملة أن « لديه ألف حديثٍ ، كلّها عن ابن وهبٍ » — وهذا الحديث ، الذي نحن بصدده ، رواه حرملة ، عن ابن وهب — فقد أخذ حرملة هذا ، حديث ابن وهبٍ كلّه ، ما عدا حديثين (٢).

ب — وهنا ••• تقع في البلبلة ، إذا قرأنا ما قيل ، عن عبدالله بن وهب — وهو الثاني في سلسلة الحديث المكذوب — فإنه قيل عنه: إنه صنّف مئة ألفٍ ، وعشرين ألف حديثٍ ، وحديثُه كلّه عند حرملة ، سوى حديثين (٣).

(١) النهج ٣٧١ : ١. (٢) الميزان ٢١٩ : ١ .

(٣) إذا أردنا الجمع بين القولين ، في ما قيل عن حرملة ، في ما قيل عن ابن وهب ، فإن الظاهر سقوط جملة « مئة ألف حديثٍ وعشرين » ، عند الكلام عن حرملة •

وسأل الإمامَ أحمد بن حنبل سائلٌ عنه: أليس يُسيء الأُخذ ؟ قال : بلى ! (١) •

أليس يكفي — لو قدّر صحة توثيق مَنْ وثّقه ! — أن يكون سيىء الأخذ، وأن ينفرد برواية مئةٍ وعشرين ألف حديثٍ ؟! ،

فما هذه الوفرة الهائلة ، والكثرة المتضخّمة ، مِنْ هذه الأحاديث ؟! .

فما عليه ، إلا أن يقول : حدثني ، وأخبرني ، وروى لي ، وقال لي ، حتى تتم هذه الوفرة ، وتتضاعف هذه الروايات ! .

ج — ولسنا نعرف يونس هذا • فإن بين هذا الاسم ، سلسلةً ، فيها: الكذوب، والسيء الحفظ ، والمنكر الحديث ••• وحتى أن فيهم مَنْ لقّب بـ «الكذوب»(٢).

د — وأما ابن شهاب ، فهو أكثر غموضاً ، وأعرق في الخفاء ، مِنْ أن نستطيع معرفة شيءٍ عنه ! •

— ٥ —

وهكذا تتّصل سلسلة الأحاديث الثلاثة : بسعيد بن المسيّب ، عن أبيه •

أ — ونحن لا نستطيع أن نأخذ بهذا الحديث ، بعدما وجدنا فيه ، ما وجدنا ••• ولا نستطيع أن نأخذ به ، وإن كان عن سعيد بن المسيّب ؛ حيث أنه قد اختلف في سعيد هذا ، اختلافاً كبيراً جدّاً ، بين: التعديل والتجريح ••• فمِنْ بين القادحين فيه ابن أبي الحديد ، حيث سلكه في عداد المنحرفين عن عليٍّ «عليه السلام » ، وأن في قلبه شيئاً منه (٣) ، وأنه مِنَ القالين

(١) الميزان ٨٦ : ٢ • (٢) الميزان ٣٣٦ — ٣٤٠ : ٣ •

(٣) كان سعيدٌ مِنَ المنحرفين عن الإمام « عليه السلام » — كما في النهج ٣٧٠ : ١ ، والغدير ٩ و ٥٦ : ٨

له ، القائلين فيه ، المبغضين إياه ...

ومتى ثبت بغضه لعليّ ، لا يسكن — بأيّ حالٍ — أخذ حديثٍ منه ، فكيف بحديثٍ في أبي طالبٍ — والد عليّ — لأن عليّاً هو محكّ الإيمان والنفاق ، إذ لا يحبه منافقٌ ، ولا يبغضه مؤمنٌ ... كما جاء في المستفيض من الأحاديث النبوية .

وعلينا أن ندرس بعض الحوادث ، والكلمات ، التي وقفنا عليها عنه... ونبدأ بتسجيل هذه المحاورة ، بينه وبين عمر بن عليّ — كما سجّلها ابن أبي الحديد :

[وجبهه عمر بن عليّ عليه السلام ، في وجهه ، بكلامٍ شديدٍ . روى عبد الرحمن بن الأسود ، عن أبي داود الهمداني ، قال : شهدتُ سعيد بن المسيّب ، وأقبل عمر بن عليّ ابن أبي طالبٍ عليه السلام ، فقال له سعيد : يا ابن أخي ! ما أراك تكثر غشيان مسجد رسول الله (ص) ، كما يفعل إخوتك ، وبنو أعمامك ؟! . فقال عمر : يا ابن المسيّب ! أكلما دخلت المسجد ، أجيءُ فأُشهدك ؟!. فقال سعيدٌ : ما أُحبُّ أن تغضب ! سمعتُ أباك يقول : إن لي مقاماً ، لهو خيرٌ لبني عبد المطلب ، ممّا على الأرض من شيءٍ . فقال : وأنا سمعت أبي يقول : ما كلمة حكمةٍ ، في قلب منافقٍ ، فيخرج من الدنيا ، إلا يتكلم بها . فقال سعيد : يا ابن أخي ؟ جعلتني منافقاً ؟!. فقال : هو ما أقول لك !. ثم انصرف] (١) .

وهكذا ... خرجتْ هذه الكلمة الحقة ، من قلب ابن المسيّب قبل أن يلفظ منه النفسَ الأخير ...

وهذه الشدّة في المقابلة ، والمخشنة في الحديث — من عمر بن عليّ ، مع ابن المسيّب ، قد تدلّ على موقف ابن المسيّب ، من عليّ ، وانحرافه عنه ، وبغضه له ، والوقيعة فيه ...!

---

(١) النهج ٣٧٠ : ١ ، والغدير ٩ : ٨ ، وأعيان الشيعة ٧٨ ، ٧٩ : ٣٥ .

وهذه حادثةٌ ، هي الأخرى تدل على انحرافٍ ، عن أهل البيت « عليهم السلام » :

فقد مرّ سعيدُ بن المسيّب هذا ، بجنازة الإمام السجاد ، عليّ بن الحسين عليهما السلام ، ولم يصلِّ عليها ، فجاء إليه ، مَن استنكر منه هذا العمل ، قائلا له :

— ألاَ تُصلّي على هذا الرجل الصالح ، من أهل البيت الصالحين ؟!.

فكان جوابه إليه ، هو هذا :

— صلاة ركعتين ، أحبُّ إليّ من الصلاة ، على الرجل الصالح ! (١) .

فكيف بنا نستطيع أن نأخذ حديثاً ، ضدّ عليّ ، من شخصٍ متّهمٍ عليه ؟!.

وإذا عرفنا أن سعيداً ، هو القائل :

[مَنْ مات محبّاً لأبي بكرٍ وعمر وعثمان وعليّ ، وشهد للعشرة بالجنة ، وترحّم على معاوية «؟!» كان حقاً على الله أن لا يناقشه الحساب] (٢).

— فحينئذٍ نعرف ، بعد ما أوضح موقفه من معاوية ، أيّ قيمةٍ لهذا الحديث ، يُوضع في حق شيخ الأبطح ...

وليس موقف ابن المسيّب من معاوية ، بمحلّ نكرانٍ ، بعد أن قال عن معاوية ، أيضاً :

[لقد رغب إلى مَنْ لا مرغوب إلا إليه ، وإني لأرجو أن لا يعذبه الله] (٣) .

وهل تعرف ما الذي دفعه لهذه القولة ، الجانية على الحق ، ودعته

---

(١) شيخ الأبطح ٦٦ والغدير ٩ : ٨ ، والأعيان ٧٢ ، ٧٣ : ٣٥ .
(٢) الغدير ١٣٨ : ١٠ ، عن تأريخ ابن كثير ٨ : ١٣٩ ، ١٤٠ .
(٣) أعيان الشيعة ٨٠ : ٣٥ .

لتناسي الدماء المهراقة ، والحقوق المغتصَبة والمضاعة ، وتجاهل كلّ الاعمال الشائنة والأفعال القباح التي يقوم بها معاوية...؟! إنه ليتعلّل بقولةٍ ، قالها معاوية ، عند احتضاره : حينما رأى أجنحة الموت تخيِّم عليه ، والمقامع مسددةً له ، ففاه بهذه القولة المائنة :

[اللّهمّ أقلِ العثرة ، واعفُ عن الزلّة ، وعُد بحلمك على مَنْ لم يرجُ غيرك ، ولم يثقْ إلا بك ، فإنك واسع المغفرة ، وليس لذي خطيئةٍ مهربٌ إلا إليك] (١) .

ولعلّ قولة معاوية هذه ، هي حجر الأُساس، في بدعة المرجئة. ومنها عُدَّ مِنْ أول المرجّئين .

والترجيىء يشيد مِنْ هذا البناء الظلوم ــ الذي أقامه معاوية ــ المبيح لاقتراف الجرائم والآثام ، وتقوية الرذيلة ، وإشاعة الظلم ... ثم ما على هذا الظلوم ، إلا لقلقةٌ باللسان ــ عند الاحتضار ــ يتمتم بها ، دون أن يقرّها قلبه ، ولم يعرفها عمله المباين لها ... ليجيء مِنْ بعده ، مَنْ يرجو : أن لا يعذب اللهُ هذا السفاحَ الإباحيَّ ، والوصوليَّ المتاجرَ ... ويحاول أن ينسى الله ــ واستغفره ! ــ ما نسيه هذا، أو ذاك، مِنْ أعمال هذا الظلوم ...!

ولعلّ مِنَ الخير ــ أيضاً ــ أن نقف مِنْ سعيد بن المسيَّب ، على مدى تقديره لمعاوية ، ومَنْ هو مِنْ سنخه ، مِنَ البيت الأُموي اللئيم ، حيث قيل له : مَنْ أبلغ الناس ؟. فقال : رسول الله (ص) فقيل له : ليس عن هذا نسألك !. عندئذٍ لم يرَ غير معاوية ، وابنه يزيد ، وسعيد بن العاص ، وابنه عمرو الأشدق (٢) .

ونحن ــ بهذا ــ نعرف فيه انحرافاً عن عليٍّ وأُهل بيته ...! إذ ما بلاغة

---

(١) أعيان الشيعة ٨٠ : ٣٥ .

(٢) البيان والتبيين ٣٠٢ : ١.

هؤلاء ؟!. وما هي ــ لو كانت ــ غير نقطةٍ متلاشيةٍ، إلى بحرٍ ثجّاجٍ . اللّهمّ ! إلا أن يُعتذر عنه بأن السائل لم يسأله عن هؤلاء ، حيث دلّ على رسول الله (ص) ، بجوابه الأول ، فعدل السائل ؛ لأن الرسول خارجٌ مِنَ السؤال بالدليل ــ كما يقولون ــ وهو وعليٌّ نفسٌ واحدةٌ .

ولكن هذا يأتي ، لو كان الجواب ، مِنْ غير مَنِ اتُّهم بالانحراف !.

وقدِ اختلف في سعيدٍ اختلافاً كبيراً، وتضاربتِ الآراء فيه ــ كما أشرنا.. ، فمنهم مَنْ يعدُّه شيعيّاً ، ومِنْ حواري عليٍّ بن الحسين « عليهما السلام » .

وهذا لا يكون مِنْ عدّة نواحٍ : لا نحاول بسطها ، هنا . وتكفينا هذه الروايات ، في حق أهل البيت ، وحق أبيهم العظيم شيخ الأبطح ، حيث يتناقض قول سعيد ، مع أقوالهم في حق أبي طالبٍ ، ومع قولة السجاد نفسه التي مرت في فصلٍ سابقٍ ، والذي عدّ هذا مِنْ حواريه ؟!. فان ثبتت شيعيته ، انتفت هذه الرواية عنه ،

ومنهم ــ كالمفيد ــ مَنْ يعدُّه ، مِمَّنْ لا يُدفع نُصْبُه . ومنهم ــ كمالكٍ ــ مَنْ يعدُّه مِنَ الخوارج الأُباضية (١) .

وعلى كلٍّ فإن تغلّب جانب التعديل على التجريح ــ في هذا الرجل ، وهو ما نودُّ ــ فإن هذه الرواية منتفيةٌ عنه قطعاً ...

ثم يكفي ما في هذه السلسلة ، مِنْ عرىً مفصّمةٍ ، هي التي وضعت الحديث ، على لسان سعيدٍ ــ إن كان مقطوعاً بصلاحه...!

ب ــ أما والد سعيدٍ ــ وهو المسيب بن حزَن ، هذا الاسم الذي ورث وليده منه « حزونةً وسوءَ خُلُقٍ (٢) » فما هو إلا مِنْ « مسلمة الفتح » (٣)

---

(١) أعيان الشيعة ٨٠ : ٣٥ ، (٢) نسب قريش ٣٤٥ .

(٣) الاصابة ٤٠١ : ٣ عن مصعب الزبيري .

فَمِنْ أين شهد احتضار أبي طالبٍ؟! وإن شهده ، فكيف يؤخذ قوله ، وهو يريد أن يكثّر المشركين ، الذين يجتمعون معه في الرأي ، تبريراً لموقفه المشرك...؟!

على أننا لم نقف عنه على توثيقٍ له • فأقلُّ ما يقال عن حديثه هذا : إن فيه انقطاعاً ، بالإضافة إلى تفصّم السلسلة ، ومعارضة الحديث بالأقوى •

رواة الحديثين الأخيرين

نخلص ــ الآن ــ للنظر في سلسلة رواة كلٍّ مِنَ : الحديث الرابع والخامس •

ــ ١ ــ

ننظر في سلسلة الحديث الرابع ، لنرى الأقوال فيها :

أ ــ محمد بن عبّادٍ ــ هذا ــ مَنْ هو ؟• فليس بين هذا الاسم ، غير المجهول الذي لا يُعرف ، وغير مَنْ لم يكن البصير بالحديث ، ومَنْ لم يُحمد عليه ، وفي أمره نظرٌ ، ومَنْ ضعّفه الدارقطني [1] •

ب ــ ابن أبي عمر ، مَنْ هو هذا •••؟ فلندعه في غمار المجهولين •

ج ــ ثم مَنْ مروان هذا ؟ فلدينا حفنةٌ من هذا الاسم ، فيهمُ : الكذوب ، والمجهول ، والضعيف ، وذو المنكر مِنَ الحديث ، والراوي عمّنْ هبّ ودبّ ، ومَنْ لا يُوثّق بحديثه ، ومَنْ لا يُحتجّ به [2] •

(١) الميزان ٧٧ : ٣ •

(٢) الميزان ١٥٩ ــ ١٦١ : ٣ •

ــ ٢ ــ

ننظر في سلسلة الحديث الخامس ، فما عسانا أن نرى فيها ؟!•

أ ــ محمد بن حاتم بن ميمونٍ ، القطيعي ــ المعروف بالسمين ــ قال ابن معينٍ ، وابن المديني : كذاب • وقال الفلاّس : ليس بشيءٍ [1] •

ب ــ يحيى بن سعيدٍ ، قال عنه البخاري وأبو حاتم : منكَر الحديث • وقال النسائي : يروي عن الزهري أحاديثَ موضوعةً • وقال ابن عدي وغيره : يروي عن الثقاة لبواطيلَ • وقال ابن حبّانٍ : كان مِمَّنْ يخطيء كثيراً [2] • وقال يحيى بن سعيدٍ القطان : يدلّس • وقال الدمياطي : يقال : إنه يدلّس [3] •

ويحيى بن سعيد ، هو الذي يقول : إن في نفسه شيئاً مِنْ جعفرٍ الصادق [4] •

ــ ٣ ــ

وهنا تتّصل سلسلة الحديثين ، بيزيد بن كيسان ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة :

أ ــ أما يزيد بن كيسان ، فقد ذكر الذهبيُّ ــ على هذا الإسم شخصين ــ فالأول منهما ، هو ما يعنينا أمره ، حيث أشار إلى أنه يروي عن أبي حازمٍ الأشجعي وغيره ، ويروي عنه يحيى القطان • ثم قال :

(١) الميزان ٣٧ : ٣ ، ودلائل الصدق ٥٩ : ١ •

(٢) الميزان ٢٨٩ : ٢ •

(٣) دلائل الصدق ٦٨ : ١ (٤) الغدير ٢٥٢ : ٥ •

[وقال أبو حاتم : لا يحتجُّ به • وقال يحيى بن سعيدٍ القطان ، وهو صالحٌ وسَط : ليس مِمَّنْ يُعتمد عليه] (١) •

ولا ندري هل يعني الذهبي بيحيى القطان ، الذي يروي عن يزيد : يحيى بن سعيدٍ ـ الطاعن فيه ـ أم غيره ؟.

ب ـ لم نعرفْ اسم أبي حازمٍ الأشجعي ، فلم نستطع أن نقف عنه ، على قولٍ •

ج ـ أما أبو هريرة ، فهذا الذي اختُلف في اسمه ، واسم أبيه ، ونسبه، حتى تكاد تظنُّ هذا اللقب ، لعديدٍ مِنَ الشخصيات ••• (٢) هذا المكثر مِنَ الحديث ، الذي أُجمع على أنه أكثر الرواة حديثاً (٣)، فقد وُجد له في مسندٍ واحدٍ ـ هو مسند تقيّ بن مخلدٍ ـ ما ينيف على خمسة آلافٍ ، وثلاثمائة حديثٍ (٤) •

هذا هو الذي كان يضع رداءه ـ فيما حدث هو بذلك ـ ويبسطه ، ليملأه مِنَ الأحاديث ، فيضمه إليه (٥) •

ولا ندري ما عسى أن تكون هذه الأحاديث ، التي يمتلىء بها الرداء ؟!• ولا ندري ماذا عساه أن ينطوي عليه الرداء ••• فيما هو يضمُّ إليه رداءه هذا المليء !.

ولست أظنُّ ، إلا أن هذا الحديث ـ المسند إليه ـ مِنْ بين تلك

---

(١) الميزان ٣١٨ : ٣.

(٢) ارجع لذلك لترجمته ، في كلٍّ مِنَ:الاصابة،والاستيعاب ـ ص ٢٠٠: ٤ ـ فإنك تجد فيهما أكثر مِنْ صفحتين ، في اختلاف اسمه ونسبه • وكذلك ترجمته في سير أعلام النبلاء ٤١٧ : ٢.

(٣) الاصابة ٢٠٢ : ٤.

(٤) المصدر ، والغدير ١١٥ : ٧،وسير أعلام النبلاء ٤٥٣ : ٢.

(٥) الإصابة ٢٠٥ : ٤ •

الأحاديث ، التي علقت بهذا الرداء •••! فرواه على أنه حديثٌ ، ولم يدرِ عنه : أنه مما علق بالرداء •••!!!

ونحن لا نقبل هذا الحديث منه،لأمورٍ عديدةٍ •••

فأبو هريرة ـ كما عرضنا لذلك ، في حديثنا « على العتبة » ـ كان مِنْ بين مَنِ استأجرهم معاوية ، لوضع الحديث في عليٍّ« عليه السلام » •

ونحن نأتي على النص الكامل ، الذي نقله الحديدي ، عن أبي جعفرٍ الإسكافي :

[إن معاوية وضع قوماً مِنَ الصحابة ، وقوماً مِنَ التابعين ، على رواية أخبارٍ قبيحةٍ في عليٍّ عليه السلام ، تقتضي الطعن فيه والبراءة منه ، وجعل على ذلك جُعْلاً يُرغب في مثله ، فاختلقوا ما أرضاه • منهم : أبو هريرة ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، ومِنَ التابعين : عروة بن الزبير] (١)•

فأنت ترى أبا هريرة ، مِمَّنِ استأجره معاوية ، لينال مِنْ عليٍّ، ويضع فيه الأخبار القبيحة ، التي تحمل بين حروفها : الطعن في عليٍّ، والبراءة منه !.

وكذلك وجدناه ••• فقد وضع ذلك الحديث ، الذي عرضنا له ـ أيضاً ـ في حديثنا « على العتبة » ، مِنْ أنه « يشهد بالله ! أن علياً أحدث »، بعد الرسول ، حدثاً ••• فاستوجب عليٌّ ـ بذلك ، على رأي أبي هريرة ـ لعنة الله ، والملائكة ، والناس أجمعين (٢) •

وهو لم يساير معاوية ، إلا طمعاً في مالٍ ، فقد كان [إذا أعطاه معاوية سكت ، فإذا أُمسك عنه تكلم (٣)] (٣).

---

(١) النهج ٣٥٨ : ١.

(٢) المصدر ٣٥٩ : ١ ـ وقد نقلنا الحديث كاملاً ، عند حديثنا « على العتبة » •

(٣) سير أعلام النبلاء ٤٤٢ : ٢.

ونودُّ قبل أن نعرض ـ هنا ـ بعض الأقوال عنه ، أن نشير لما حدث به هو نفسه ، عن الرسول (ص) ، حيث قال :

قال لي النبي ﷺ : ممن أنت ؟. قلت من دوس . قال : ما كنت أرى أن في دوس أحداً فيه خير [١] .

وهو لم يستثن أحداً ... فأبو هريرة ممن يشملهم هذا الحكم العام الشامل ...!

وهذه طائفة من الأقوال حوله :

قال أبو جعفر الإسكافي :

[وأبو هريرة مدخول عند شيوخنا ، غير مرضي الرواية ، ضربه عمر بالدرة ، وقال : قد أكثرت الرواية وأحر بك أن تكون كاذباً على رسول الله (ص) !] [٢] .

ومرة أخرى يقول له عمر ، أيضاً :

[لتتركن الحديث عن رسول الله ، أو لألحقنك بأرض دوس] [٣] ـ وهي ، من اليمن وطنه في جاهليته .

فماذا تقول في عمر ؟ فهل هو له ظالم ، حين ضربه ، أو هدده بالنفي ؟!.

أما أنا فأستغفر الله أن أظن بالخليفة شيئاً من هذا النوع . ولكنه ـ وهو الصليب الشديد ـ لم يرض ضميره : أن يجد هذه الكثرة من الأحاديث ، عند أبي هريرة ، عن الرسول ، وقد عرف فيها ما هو المنحول ! ، فأدمى ظهره بدرته ـ مرة ـ وهدده بالنفي ـ أخرى ـ لعله يقلع عن الخلق !.

وما هذه هي المرة الأولى ، التي يدمي فيها الفاروق ، ظهر أبي هريرة ،

(١) سير أعلام النبلاء ٤٢٥ : ٢ . (٢) النهج ٣٦٠ : ١.

(٣) سير أعلام النبلاء ٤٣٤ : ٢ والغدير ٢٩٥ : ٦ .

بدرته ... فقد أتى به من البحرين [١] وكان قد ولّاه عليها ، فقال له ـ كما حدث بذلك أبو هريرة ذاته :

يا عدو الله وعدو كتابه !. سرقت مال الله ؟! ـ إلى آخر الحادثة [٢] .

هذا ... ونحن نجده قد أكثر ، وهو على عهد الخليفة عمر ، وعمر هو الشديد الذي لا تأخذه ـ في موضوع كهذا ـ هوادة أو لين ... ويعرف منه ذلك أبو هريرة ، فهو يهابه ويخشاه ...

لذلك ... نجده ـ بعد عهد عمر ـ يجيب أبا سلمة ، وقد قال : أكنت تحدث في زمن عمر هكذا ؟ ، فقال :

(لو كنت أحدث في زمان عمر ، مثل ما أحدثكم لضربني بمخفقته) [٣] .

ويقول :

(١) البحرين ـ في معناها القديم ـ تعني : الساحل ، الممتد من البصرة إلى عمان . ويضم ـ حينذاك ، فيما يضم ـ القطيف ، التي اختصت بالخط ـ بفتح وكسر الخاء ، وأوال ، التي اختصت بالبحرين ؛ والأحساء ، التي اختصت بهجر ، وكل منها تضم مدناً وقرى كثيرة .
كما أن الخط ، وهجر ، كانتا تعنيان ، في القديم ، أيضاً ، ما تعنيه كلمة البحرين ، فهي أسماء ثلاثة ، لمسمى واحد ، قبل أن تختص كل ـ بعدئذ ـ باسم من الثلاثة الأسماء .

(٢) ارجع للحادثة إلى النهج ١٠٤ : ٣ ، وفتوح البلدان ١١٢ ـ ١١٤ ، وسير أعلام النبلاء ٤٤٠ : ٢ وإلى « ابو هريرة » ص ١٥ مسندة لمصادرها ، والغدير ٢٧١ : ٦ .

(٣) الغدير ٢٩٥ : ٦ ـ وفي سير أعلام النبلاء ٤٣٣ ، ٤٣٤ : ٢ ما يماثله .

[لقد حدثتكم بأحاديث ، لو حدثت بها زمن عمر بن الخطاب ، لضربني عمر بالدِّرَّة] [1] .

ولكن هذا كلّه ، لم يعصمه عن الخلْق والإكثار ، مِنَ الحديث ، حتى استراب منه عمر ، فنالت منه درته ، ونال ظهره منها ما أدماه !.

فكيف به على عهد معاوية ، وقد استمالة إليه ، وأعطاه « جُعْلاً » يُرغب في مثله ، وليس إلا مِنْ أجل الخلْق والوضع ...؟!

★ ★

وعن إبراهيم التيمي ، قال :

[كانوا لا يأخذون عن أبي هريرة ، إلا ما كان مِنْ ذكْر جنةٍ أو نارٍ] [2].

وهذا الحديث — والحمد لله ! — ليس مِنْ هذا،ولا ذاك ...

على أن الذي لا يُؤخذ منه شيءٌ في ناحيةٍ — لانعدام الثقة منه ! — كيف يُطمأن إليه ، في ناحيةٍ ثانيةٍ ، لم يُعرف نصيبها منه...؟![3] .

---

(١) الغدير ٢٩٥:٦ — وفي سِير أعلام النبلاء ٤٣٣ ، ٣٣٤ : ٢. ما يماثله .

(٢) النهج ٣٦٠:١،وسِير أعلام النبلاء ٤٣٨ : ٢.

(٣) أما أحاديثه ، التي مِنْ غير ذاك النوع ، فنحن نضرب منها مثلاً ، لنصل منه إلى دخلة الرجل ، فقد حدث — كما قال الشافعي ، فيما رواه الطبري :

[رأيتُ هنداً بمكة ، كأن وجهها فلقة قمرٍ ، وخلْفها مِنْ عجيزتها مثل الرجل الجالس ، ومعها صبيٌّ يلعب] — الخ — معاوية في الميزان ص ١٥٩ .

فماذا دفع به ، ليصف لنا بهاء وجهها وجماله ، وكبر عجيزتها الضخمة العالية ، وهو في معرض الحديث عن مستقبل معاوية ، وما كانوا يرون فيه ، مِنْ أنه سيسود قومه ، فتقول أمه هند : إن لم يسُد إلا قومه ، فأماته الله ؟! — أنا لا أدري ؟!.

وقال شعبة : كان أبو هريرة يدلّس [1] .

وليس يهمنا ما حاول أن يعلّق به الذهبيُّ — بعد هذا — حتى جاء بفرية « عدالة الصحابة » أجمعين،أكتعين،أبصعين ...!!!

وعن الأعمش ، قال :

[كان إبراهيم صحيح الحديث؛فكنتُ إذا سمعتُ الحديث ، أتيتُه ، فعرضتُه عليه ، فأتيتُه يوماً بأحاديث مِنْ حديث أبي صالح ، عن أبي هريرة ، فقال : دعني مِنْ أبي هريرة !؛إنهم يتركون كثيراً مِنْ حديثه][2] .

★ ★

وروي عن الإمام عليٍّ « عليه السلام » ، أنه قال : ألا إن أكذب الناس — أو قال : أكذب الأحياء — على رسول الله (ص) : أبو هريرة الدوسي[3] .

فما عسى أن تقول ؟.فقولة الإمام هذه ، هي : المدية التي تجهز على كلّ فريةٍ ، يفتريها الرجل ، أو افتئاتٍ ينتحله !.

فهل نكذب الإمام في قوله ، لنصدّق أبا هريرة ؟،أم نصدّق الإمام ، فيما قال ، وفيه القضاء على ما يفتئت أبو هريرة ؟!.

★ ★

وروى أبو يوسف ،قال :

قلتُ لأبي حنيفة : الخبر يجيء عن رسول الله (ص) ، يخالف قياسنا ، ما نصنع به ؟. قال : إذا جاءت به الرواة الثقاة ، عملنا به ، وتركنا الرأي .

---

(١) سِير أعلام النبلاء ٤٣٧ : ٢.

(٢) النهج ٣٦٠ : ١. وفي سِير أعلام النبلاء٤٣٨: ٢،مثله .

(٣) النهج ٣٦٠ : ١.

وطال بهما الحديث ، حتى قال أبو حنيفة : والصحابة كلُّهم عدولٌ ، ما عدا رجالاً — ثم عدَّ منهم : أبا هريرة ، وغيره[1] .

★ ★

وذكروا أن أبا هريرة ، وقد قدِم الكوفة ، في ركاب معاوية ، كان يجلس بالعشيات ، بباب كندة ، ويجلس الناس إليه ، فجاءه شابٌّ مِنَ الكوفة — قيل: إنه الأصبغ بن نباتة[2] — وجلس في مَنْ جلس إليه ، فقال له :

— يا أبا هريرة ! أنشدك الله أسمعت مِنْ رسول الله « ص » ، يقول لعليّ بن أبي طالب : اللّهمّ والِ مَنْ والاهُ ، وعادِ مَنْ عاداهُ ؟.

فقال : اللّهمّ نعم !.

قال : فأشهد بالله لقد واليتَ عدوّه ، وعاديت وليّه !.

ثم انصرف عنه[3] .

★ ★

ودخل أبو الأصبغ بن نباتة التميمي ، وهو يحمل كتاباً مِنَ الإمام عليّ « عليه السلام » ، إلى معاوية . وإذ دخل ، وهو محاطٌ برجال السوء ، وفيهم: عمرو بن العاص ، وذو الكلاع ، وحوشب ، وابن عامر ، والوليد بن عقبة ، وشرحبيل ، وأبو هريرة ، وأبو الدرداء ، وغيرهم .

إذ دخل... ودار الحديث ، بين: أبي الاصبغ، ومعاوية ، وأخشن لمعاوية في القول... التفت لأبي هريرة ، وهو يقول له :

أنت صاحب رسول الله « ص » : أقسم عليك بالله ، الذي لا إله إلا هو ،

---

(1) النهج ٣٦٠ : ١. (2) أبو هريرة ٣٩.

(3) النهج ٣٦٠ : ١ ، وأبو هريرة ٣٩ ، والغدير ٢٠٤ : ١.

وبحق رسوله ! هل سمعت رسول الله « ص » ، يقول يوم غدير خم ، في حقّ أمير المؤمنين : مَنْ كنتُ مولاه ، فعليّ مولاه ؟.

فأجابه : إي والله ! لقد سمعتُه يقول ذلك !.

فقال له أبو الأصبغ : فإذن أنتَ — يا أبا هريرة ! — واليتَ عدوّه ، وعاديت وليّه !.

ولم يزد أبو هريرة ، على أن تنفّس ، وقال :

إنا لله ، وإنا إليه راجعون![1].

★ ★

وهذا جارية بن قدامة السعدي ، يدخل المدينة ، بعد أعمال بسر الشنيعة فيها ، بأمر معاوية الطاغية ، وقد قام بالصلاة فيها أبو هريرة ، فهرب هذا خوفاً وفرَقاً ، حين ما وصل لسمعه قدوم جارية ، في جيشٍ موفدٍ ، مِنْ قِبَل الإمام عليّ « عليه السلام » ، فقال جارية :

والله لو أخذتُ أبا سنور ، لضربتُ عنقه! [2].

★ ★

وقالوا : إن أبا هريرة كان يسبّح ، كلّ يومٍ ، اثني عشر ألف تسبيحةٍ ، يقول : أُسبّح بقدْر ذنبي[3] .

ونحن لا نريد نقاش صحة هذا ، أو معقوليته ! ، وكيف يتّسع وقته للإكثار مِنَ التسبيح — الذي يعادل الذنب الكثير — والإكثار مِنَ الحديث ،

---

(1) تذكرة الخواص ٩١ و ٩٢ ، والغدير ٢٠٢ ، ٢٠٣ : ١ عن الأصبغ ، في بعض الاختلاف .

(2) الطبري ١٠٧ : ٤، والكامل في التاريخ ١٩٣ : ٣.

(3) سير أعلام النبلاء ٤٣٩ : ٢.

مع فقره وجوعه ـ في بدء حياته الإسلامية ـ وانشغاله بمسايرة معاوية ، ومَنْ إليه ـ في ختامها ...

إننا ندع هذا ، ولا نعلّق عليه . وإنما نشير إلى قوله : بأن تسبيحه بقدر ذنوبه...! فيا لهول هذه الذنوب...!! وترْك الذنب خيرٌ مِنَ الاستغفار !.

وهناك مَنْ جاء ـ أخيراً ـ يدعو للذنب ، بصورةٍ مستورةٍ ، إلا أنها شوهاء ، تستند على حديثٍ مكذوبٍ منكرٍ... ومَنْ يدري ، فلعلّ واضعه هذا المسبّح بقدر ذنبه !؟

[والذي نفسي بيده ، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، وجاء بقومٍ يذنبون ، فيستغفرون ، فيغفر لهم] .

ونشير إلى أن في طليعة هؤلاء المدافعين عن صحة مثل هذا الحديث : مثل الأستاذ خالد محمد خالد ، في بعض كتبه .

ولسنا في صدد نقاشه فيها ، إلا أنها اشارةٌ مِنَ الشاطيء ، دعا إليها الموضوع

★ ★

وكان أبو هريرة ضنك التفكير ، ضحل العقل ، فقدِ استخفّته الدرجة ، التي نالها عند معاوية... فرأى نفسه ظاهراً بعد خفاءٍ ، معروفاً بعدما كان مغموراً ، مقرّباً بعد أن كانت تنال منه الدرّة العمرية ، متى رأى فيه الخليفة عمر اعوجاجاً ، يحتاج إلى تقويمٍ...!

لذلك نجده ـ تارةً ـ يؤاكل الصبيان ، ويلعب معهم(1) .

ولا ندري ! فلعلّه يأتي لهم ، بأحاديث عن الرسول ، في لعبهم هـذا ، ليبرّر بها موقفه منهم !. ولا سيما بعد أن كثرت أحاديث الدعاية التجارية ، على لسان تجّار الحديث الزائف ، كحديث :

[مَنْ أكل مِنْ بصل عكة ، فكأنما قد زار مكة] !.

---

(1) النهج ٣٦٠ : ١ .

ـ الى آخر ما هنالك مِنْ مثل هذه الأحاديث ...

ومرّةً أُخرى : يخطب في المدينة بعد أن ولاه إياها معاوية(1) ، جـزاء" لما شهد به على عليٍّ ، بما أحدث بعد الرسول ، ممّا يستوجب لعنةً ، مِنَ الله ، والملائكة ، والناس أجمعين !!! .

عفوك ! يا ربِّ ! .

أقول : إنه كان يخطب في المدينة ، فكان يقول : الحمد لله الذي جعل الدّين قياماً ، وأبا هريرة إماماً ـ يُضحك بذلك الناس(2) ، بدلاً مِنْ أن تتناول خطبته شتّى النواحي ، التي تعود على المجتمع بالخير ، والأُمّة بالنفع ، بما أنه أميرهمُ الكريم ، وخطيبهمُ المصقع ! .

وثالثةً : ـ يمشي وهو الأمير أيضاً ـ في السوق ، حتى إذا انتهى إلى

---

(1) ليست توليته المدينة هذه ، بأوّل مرةٍ ، فقد سبق أن أمّره عليها بسر بن أرطاة ، يوم بعثه معاوية ، ليشنّ الغارات ، في خلافة الإمام عليٍّ « عليه السلام » ، فكان للمدينة منه : يومٌ مسودُّ الجبين ، سالت فيه الدماء ، وأُهدرت الكرامات ، وانحطّت القيم .

وفي هذا اليوم الفاحم ، غرست بذرةٌ مرّةُ المذاق ، كان مِنْ ثمارهـا « يوم الحرة » . ويزيد مِنْ معاوية : ثمرةٌ شجية الطعم ، مِنْ ثمـار معاوية الخبيثة .

وبعد فعل بسر الشنيع ، قال لهم : (وقدِ استخلفتُ عليكم أبا هريرة ، فإياكم وخلافه) .

إنظر شرح النهج ١١٨ : ١ ، وأبو هريرة ٢٥ ، والغدير ٢٤ : ١١ .
وإليها أُشير في : تأريخ الطبري ١٠٧ : ٤ ، والكامل ١٩٣ : ٣ ، في أحـداث سنة ٤٠ .

(2) النهج ٣٦٠ : ١ ، وسير أعلام النبلاء ٤٤٠ : ٢ .

رجلٍ ، يمشي أمامه ، ضرب برجليه الأرضَ وقال :
الطريق ! الطريق ! قد جاء الأمير ![1] •

★ ★

ويقول ابن أبي الحديد ـــ بعد عرضه لهذه النقاط ، مِنْ حياة أبي هريرة :
(قد ذكر ابن قتيبة هذا كلَّه ، في كتاب المعارف ، في ترجمة أبي هريرة • وقوله فيه حجةٌ ، لأنه غير متهمٍ عليه)[2] •

★ ★

وأبو هريرة ـــ هذا ـــ كان قدِ انحاز إلى معاوية ، منذ عرف : أن عنـــد معاوية ما يشبع نهمه الصيَّاح • فكان لمعاوية ذلك الظلَّ الملازم ، ينحني إذا انحنى ، ويعوجُّ اذا اعوجَّ •••!

حمَّل معاويةُ النعمانَ بن بشيرٍ : رسالةً إلى عليٍّ ـــ أشـرك فيها أبـا هريرة[3] ـــ ليسلِّم عليٌّ لمعاوية : قتلةَ عثمان ـــ ومعاوية بموقف عليٍّ ، مِنْ

---

(١) و (٢) النهج ٣٦٠ : ١.

(٣) بعض المصادر تشير إلى : أن رفيق أبي هريرة ، كان أبا الدرداء • ولعلَّ هذه الحادثة قد تكرَّرت ، فصحب أبو هريرة النعمانَ ـــ مرَّةً ـــ ـــ وأبا الدرداء ـــ أُخرى •

وتقول بعض المصادر: إن الصحابيَّ الفقيه عبدالرحمن بن غنم ، عاتب ابا هريرة وأبا الدرداء ، بحمص ، بعد منصرفهما مِنْ عليٍّ «عليه السلام»،رسولين له مِنْ معاوية ، فكان مِنْ قوله لهما :

[عجباً منكما ! كيف جاز عليكما ما جئتما به ، تدعوان علياً إلى : أن يجعلها شورى ، وقد علمتما أنه قد بايعه المهاجرون والأنصـار ، وأهل الحجاز والعراق ، وأن مَنْ رضيه خيرٌ مِمَّنْ كرهه ، ومَنْ بايعه خـيرٌ مِمَّنْ لم يبايعه ؟!.وأيُّ مدخل لمعـاوية في الشورى : وهو مِنَ الطلقاء ، الذين ←

هذه الطلبة الكاذبة ، ذلك يم••• وما هي سوى الواسطة ، لِمَا بيِّت مِنْ سوء النية ، فاختار هذين ، ليحملا رسالته ، ويعودا ، وهما لعليٍّ لائمان ، وله عاذران ، فينالا مِنْ عليٍّ أمام الطغام الشاميين•••!

وإذ وصل الرسولان لعليٍّ ، بدأ الكلامَ أبو هريرة ، فقال قولته ••• وثنَّى به النعمان بن بشير ، فأعرض الإمام عن أبي هريرة ، ووجَّه الحديث للنعمان ، فنصحه في دِينه ، دون أن يتناول كلام الإمام : رداً ، أو تعريضـاً لتلك الناحية ، التي قـــال عنها أبو هريرة ، ما قـال••• وقنـع النعمـان

→ لا تجوز لهمُ الخلافة ، وهو وأبوه مِنْ رؤوس الأحزاب] •
فندما على مسيرهما،وتابا منه بين يديه_الاستيعاب ٤١٧ : ٢،والغدير ٣١ و ٣٣١ : ١٠ مسنداً للاستيعاب،وأسد الغابة ٣ : ٣١٨.

ونحن لا نريد أن نناقش في هذه التوبة : أصحيحٌ وقوعها ؟ أم وهْمٌ وخيالٌ خلاَّقٌ ؟!.

ولكن نتساءل عمَّا وقع بين التوبة والحوبة ، مِنْ أخطاء وآثامٍ ، أقلُّها : الإنسياق في ركاب معاوية ، وتسخيره له ـــ والمقصود هنا : أبو هريرة ـــ وطاعة هذا له ، في جميع رغائبه وشهواته الجامحة •••

إن أقلَّ إرضاءٍ لهذه الشهوات ، هي : هذه الرحلات المتابعة ، يقوم بها أبو هريرة ، طالباً مِنْ عليٍّ هذا الطلبَ الأثيم المخزي : تسليم قتلة عثمان ، كمقدمةٍ للنتيجة ، التي هي : زحزحته عن منصبه الإلهي : الخلافـة ••• وهي : هذه الأحاديث المختلَقة ، ينتقَّص بهـا عليَّاً ، ومِنْ تمـامها : تنقص أبيه !.

أما أبو الدرداء ، فما لنا وله ـــ هنا ـــ مِنْ مجالٍ لحديثٍ ، إلا أننا نتذكر قولته : [إني لأستجمُّ نفسي بالشيء مِنَ الباطل ، ليكون أقوى لهـا على الحق !] ـــ الكامل للمبرد ٦٦٨ : ٢ •

ـ ظاهراً ـ بالبقاء مع الإمام ، وقد بطن الغدرة ، ليعود لصاحبه...!

أمّا أبو هريرة ، فكان أصرح مِنَ النعمان ـ في هذه الحادثة ـ فقد استحثّته الغاية ، وما للبقاء مِنْ حاجةٍ ، والغاية التي جاء مِنْ أجلها ، لا تتمّ ، حتى يعود لمعاوية ، ويخبر أهل الشام، بما رأى ، وما سمع...![1]

وإن احتاج للزيادة ، فلديه ـ مِنْ « أجربته الخمسة » ـ ما يكفي ،ويأتي بالغاية...!

ونحن لم نزد عليه ، بقولنا : « أجربته الخمسة »،فقد حدّث هو نفسه:

[حفظتُ مِنْ رسول الله خمسة جرُبٍ ، فأخرجتُ منها جرابين ؛ ولو أُخرجتُ الثالثَ ، لرجمتموني بالحجارة][2].

ولعلّه لمـا أخرج مِنْ هذين الجرابين ، قال : [كذّبتُ ، حتى رُميتُ بالقشع] ـ أي : كناسة الحمّام[3] .

ولو أُخرج الثالث ، لرُجم بالحجارة . ولو حدّثتكم بكلّ ما في كيسي لرميتموني بالبعر[4] .

---

(1) النهج ٢١٣ : ١،وأبو هريرة ٢٢ ، ٢٣ ـ فليرجع لها مَنْ أرادها بالتفصيل ؛ غير أننا ننقل قولة مؤلّف « أبو هريرة » ، سماحة الإمام ، تعليقاً على الحادثة :

[وإنما أعرض أمير المؤمنين عن أبي هريرة،فلم يكلّمه ، لكونه لم يرَه أهلاً لتزلّفه بدينه إلى معاوية . وعلم أمير المؤمنين ما أراده معاوية،مِنَ المكائد، إذ أرسلهما إليه يطلبان قتلة عثمان ، فلم يجبهما بشيءٍ سلباً ولا إيجاباً ؛ بل أعرض عن طلبهما ، وتكلّم مع النعمان ، في موضوعٍ آخر . وهـذا مِنْ قوّته في سياسته،عليه السلام] .

(2) أبو هريرة ٤٨ ، مسنداً لحلية أبي نعيم ص ٣٨١ . وفي سير أعلام النبلاء ٤٢٩ ، ٤٣٠ و ٤٤٣ : ٢ صورٌ مِنْ هذه .

(3) الكامل للمبرد ١٢٤١ : ٣ .   (4) سير أعلام النبلاء ٤٤٢ : ٢

فكيف به لو أُخرج الرابع والخامس...؟

ولعله أشار لذلك بقوله :

[حفظتُ مِنْ رسول الله صلى الله عليه « وآله » وسلم وعاءين : فأمّا أحدهما فبثثته ، وأما الآخر ، فلو بثثته لقطع هذا البلعوم][1] .

وقد تفنّن في عرضه لهذه النقطة ، التي تجعل مِنَ الأحاديث ، شيئاً ماديّاً، توضع في:الجرب،والأوعية ، والرداء، والنَّمِرة[2] ، حين يفرشها ، والقمل يدبّ عليها ، فيملؤها حديثاً ، ويضمّها إليه ، مع ما كان يدبّ عليها مِنَ القمل[3] ...!

ولا نرى حاجةً للمضيّ ، في عرض ذلك ، فنضاعف السير ، ونضخم الصفحات[4] .

★ ★

ونحن لا نريد أن نطيل هذا العرض ، عن أبي هريرة ، مِنْ جميع نواحيه، فقد قام بذلك سماحة الإمام الموسوي ، في كتابه الفذ « أبو هريرة » ، بحيث لم يبقَ للقوس منزعٌ ـ كما يقولون .

فهناك عرضٌ لنواحي حياته ، وتناول بالتحليل أكثر جوانبها ...وخصّ بالنقاش أربعين حديثاً ، كانت مفضوحة الافتراء ، تناول الخالقَ العظيمَ ـ مِنْ ناحيةٍ ـ ورسله الذين اصطفى ـ في الجانب الآخر ـ والنيلَ مِنْ أولياء الله الخ..

وكان مِنْ بين هذه الأربعين المكذوبة:هذا الحديث ، الذين عرضنا له .

إذن... ف[illegible] لا نقبل هذا الحديث ، مِنْ أبي هريرة ، مِنْ نواحٍ وفيرة ،

---

(1) سير أعلام النبلاء ٤٣٠ : ٢ .

(2) النَّمِرة : شملةٌ فيها خطوطٌ بيضٌ وسودٌ .

(3) سير أعلام النبلاء ٤٢٩ : ٢ .

(4) ارجع لـ « أبو هريرة » ولسيرة أعلام النبلاء .

العدد — كما قلتُ .

فأبو هريرة ، ليس مِمَّنْ يُرتضى في حديثٍ ، بعدما رأيتَ مِنْ أقوال أهل الحديث ، ومِنْ كثرة أحاديثه ، ونكرها ...

ولا نرضى منه هذا الحديث — بخاصَّة — مادام هو ذلك المنحرف عن إمام المتقين عليٍّ « عليه السلام » ... يضع في حقه الأراجيف ، وينال مِنْ قداسته ، السامقة الذرى ...

فكيف يرعوي مَنْ يقول : إن علياً ، أحدث بعد الرسول — ما يستوجب به اللعن — أن يضع في أبيه ، مثل هذا الحديث المكذوب ...!؟

★ ★

وأنت ترى صيغة الحديث ، الذي أتى به أبو هريرة ، يدلُّ على أنه شاهَدَ احتضارَ أبي طالبٍ... فهو يحدّث بحديثٍ، شهدته عيناه ، فكأنه حضر أبا طالبٍ، والرسول عنده ، فعرض عليه الرسولُ الشهادةَ ، فأباها شيخ البطحاء ، ونزلت الآية في حقه ...!

ألا ترى الحديث : عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله لعمِّه : قل لا إله إلا الله ... قال : لولا أنْ تعيِّرني قريشٌ — إلخ ؟!

ولكن أبا هريرة كان — يوم اختار اللهُ لأبي طالبٍ، دارَه الباقية — كان، حينذاك ، في اليمن ، وهي مسقط رأسه ، وبعدُ لم تقع عينه على شبح الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم تتفتّح عينه — ولا أقول : قلبه — على ضوء الرسالة الهادي ...

فكيف جاز له : أنْ يحدّث بحديثٍ، لو قدِّر له الوقوع ، لكان قبل ثلاثة أعوامٍ، مِنْ هِجرة الرسول (ص) ... في حين أن أبا هريرة ، لم تطأ له قدمٌ ، بأرض الإسلام ، إلا والرسول في خيبر[1] — أي : في العام

(١) الإصابة ٢٠٣ : ٤، وسير أعلام النبلاء ٦٤ و ٤٢٣ و ٤٢٥ و ٤٣٦ : ٢ .

السابع الهجري ...؟!

فمقدمه بعد عشر سنين — على أقلِّ تقديرٍ — مضت على وفاة أبي طالبٍ...

فمَنْ أين حضر وفاة أبي طالبٍ ليحدِّث بذلك الحديث ...؟! اللهمَّ ! إلا أنْ يكون في عالَم الحلُم والخيال — وهو عالَمٌ غير محدودٍ — لا في عالَم الواقع الرهين...!

نظرة في آية « ما كان للنبي »

أمَّا وقد عرضنا لمواضع الأخذ ، في السند ، ووضعنا النقطَ على الحروف، عند النقاط المتداعية ، وجوانب الضعف مِنَ السلسلة الكاذبة ، وكشفنا عنها الخبيء ... فإنه ليجدر بنا — الآن — أنْ نتناول بنظرةٍ فاحصةٍ ، ما يهدّ مِنْ هذا الحديث أُسّه المنهار :

— ١ —

تدلّنا رواية البخاري ، على أن الآيتين ، نزلتا عند احتضار أبي طالبٍ.

ولكنا إذا رجعنا إلى نزول الآيتين ، وجدنا أن الآية الأولى منهما ، مدنيّة.

فكلٌّ منَّا يعرف أين نزلت « براءة » ... وذلك بعد أن رست دعائم الإسلام . وقصة تبليغ براءة ، يعرفها كلٌّ منَّا — وهي آخر ما نزل مِنَ القرآن[1] .

(١) صحيح البخاري ٧٧ : ٣ ، والكشاف ٥٧٠ : ١ (٢٤٦ : ٢) — وتعليق شارح الكشاف ، أيضاً ١٨٨ : ٢ — وتفسير البيضاوي ٢٧٤ : ٢ ، ومجمع البيان ٥ : ١٠ ، وتفسير ابن كثير ٣٣١ : ٢ ، والاتقان ٢٧ : ١ — عن البراء بن عازب . وقد نقل — ص ٢٦ : ١ — القولَ بأنه لم ينزل بعدها مِنَ القرآن ، سوى خاتمته . وقد استغرب في ص ١٥ : ١ : ١ قول « ابن الفرس » (مدنيّة إلا آيتين « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ » الخ) ، فقال : (غريبٌ ←

فهناك طويل أمدٍ ، بين نزول الآيتين ، يقارب عشرة أعوامٍ ، أو يربو عليها .

- ٢ -

بهذا يتّضح أنّ الآية الأُولى « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ » — الخ — التي هي مِنْ سورة « براءة » ، كان نزولها بالمدينة ، بعد الفتح . فبين وفاة أبي طالبٍ ، ونزول هذه الآية ، ما ينوف على ثمانية أعوامٍ .

فمجرى الحديث ، يدل على استمرار استغفار الرسول (ص) لعمّه — وهو كذلك — ولم ينقطع طيلة هذه المدة عن الاستغفار . وذلك حسب ما نجده مِنَ القول ، الذي قيل على لسان الرسول (ص) « لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك » ، فاستمرّ الاستغفار ، ولم ينقطع — عندهم — إلا عند نزول هذه الآية : « مَا كَانَ للنبيِّ » .

وهنا ... نتساءل كيف جاز للرسول أن يستغفر لعمّه ، في الفترة ، التي بعد موته ، حتى نزول هذه الآية — كما يتكلّمون به — وكانت قد نزلت على الرسول آياتٌ زاجرةٌ ، تنهاه والمؤمنين : أن يوادّوا المشركين ، أو يستغفروا لهم ؛ أو يوالوا أعداء الله — قبل نزول هذه الآية ، بأمدٍ طويلٍ ، كالآيات التي عرضنا لها ، في فصلٍ سابقٍ ، ونأتي بالبعض منها هنا :

← كيف وقد ورد أنها آخر ما نزل ؟!) .

وفي الغدير ٨ : ١ . عن مصادر عدّةٍ ، ونقلاً عن ابن أبي شيبة ، والبخاري والنسائي ، وابن الضريس ، وابن المنذر ، والنحاس ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، عن طريق البراء .

آ — (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ) — الخ [١] .

فهذه الآية — في سورة المجادلة — نزلت بالمدينة ، قبل سورة براءة — التي فيها آية الاستغفار — بسبع سورٍ [٢] . وقيل : إنها نزلت على الرسول ، يوم بدر [٣] — أي : في العام الثاني مِنَ الهجرة .

وقيل : إنها نزلت في أُحد [٤] — أي : في السنة الثالثة .

كما أن هناك مَنْ قال : إنها ، أو بعضها ، مكيٌّ [٥] .

وعلى جميع الأقوال هذه ... فإن نزول « المجادلة » — بدون شكٍّ — قبل نزول « براءة » بسنين عدّةٍ .

ب — (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ؟!) [٦] .

فهذه الآية مكيةٌ ، على قول النحّاس ، كما قيل : إنها نزلت عند الهجرة [٧] .

---

(١) المجادله ٢٢ .

(٢) الغدير ١٠ : ٨ عن الاتقان ١٧ : ١ ، وقد وجدناه في نسختنا في ص ٢٦ : ١ ، وقد ذكر بين نزول السورتين ستّ سورٍ . وكذلك المنظومة التي أتى بها للبرهان الجعبري .

(٣) الغدير ١٠ : ٨ ، عن : أبي حاتم ، والحاكم ، وأبي نعيم ، والبيهقي ، وابن كثير — كما في : تفسيره ٣٢٩ : ٤ ، وتفسير الشوكاني ١٨٩ : ٥

(٤) الغدير .

(٥) أشار لذلك كثيرون مِنَ المفسرين .

(٦) النساء ١٤٤ .

(٧) الاتقان ١٢ : ١ .

وذهب أُناسٌ إلى أنها مدنيةٌ . ومستندُهم في ذلك : قول عائشة : « ما نزلت سورة النساء ، إلا وأنا عنده [1] . فيكون نزولها في أُوليات سني الهجرة[2].

وعلى كلٍّ ... فإن سورة النساء ، كان نزولها قبل سورة « براءة » — وهي ذات آية الاستغفار — بإحدى وعشرين سورةً [3].

ج—[الَّذِيْنَ يَتَّخِذُوْنَ الكَافِرِيْنَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنِ الْمُؤْمِنِيْنَ. أَيَبْتَغُوْنَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ ؟!] [4] .

وقد رأيتَ : أن سورة النساء ، كان نزولها ، قبل « براءة » .

د [لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُوْنَ الْكَافِرِيْنَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنِ الْمُؤْمِنِيْنَ . وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ ، فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِيْ شَيْءٍ ، إِلَّا أَنْ تَتَّقُوْا مِنْهُمْ تُقَاةً] [5] .

فهذه الآية في صدر آل عمران ، وقد نزل صدرها ، إلى بضعٍ وثمانين منها ، يوم وفد نجران [6] — وهي في أوائل الهجرة [7].

وذكروا : أن هذه الآية ، نزلت في يوم الأحزاب — وهو العام الخامس — في عبادة بن الصامت [8].

---

(1) الاتقان ٢ ١٢: ١ ، وصحيح البخاري ١٤١ : ٣، والغدير ١١ : ٨ .

(2) الغدير ١١: ٨ .

(3) الغدير، والاتقان ٢٦ : ١، في منظومة البرهان الجعبري .

(4) النساء : ١٣٩.

(5) آل عمران : ٢٨.

(6) السيرة الهشامية ٢٢٥ : ٢ ، وأسباب النزول ٤٣، وتفسير ابن كثير ٣٤٣ : ١ .

(7) و (8) الغدير ١١ : ٨ .

وعلى كلا الرأيين ... فآل عمران نزلت قبل « براءة » بأربعٍ وعشرين سورةً [1] .

هـ — [سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ، أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ ، أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ] [2] .

وقد نزلتِ السورة — التي فيها هذه الآية — في عام غزاة الرسول ، لبني المصطلق ، وهو العام السادس للهجرة . ونزلت قبل سورة « براءة » [3] .

إلى بضع آياتٍ أُخر ، كلُّها تنهى عن الموالاة للمشركين ، والاستغفار لهم، والمودَّة لهم .

☆ ☆

وأنت — كما رأيتَ — تجد الرسول ، يُواصل استغفاره لعمه ... وهذا غاية الموالاة والتوادد ... وحتى الحديث المكذوب ، يدلُّ على تواصل استغفار الرسول لعمه ، وأنه لم ينقطع ، إلا عندما نزلت هذه الآية « الناهية » — كما يقول الحديث .

فهل يجوز لنا — نحن المسلمين — أن ننسب للرسول عملاً ، ينهاه عنه الذي أرسله بالحق ؟!.

فهل يجوز مِنَ الرسول : أن يستغفر لعمه — لو كان ذلك المشرك —

---

(1) الغدير ١١ : ٨ ، عن الاتقان ١٧ : ١ . وقد وجدنا — في ص ٢٦ : ١ مِنَ الاتقان — أنه عدّ بين السورتين خمسة عشرة سورةً ، وفي منظومة البرهان الجعبري ، بينهما خمسة عشرون .

(2) المنافقون : ٦ .

(3) الغدير ١١ : ٨ ، عن الاتقان ١٧ : ١ — أي : ص٢٦ : ١، بنسختنا .

ولديه وفرةٌ مِنَ الآيات ، وكلّها ناهيةٌ زاجرةٌ ... فلا يأبَهُ لها ، ولا يمتنع عمّا تنهاه ، ولا يقلع عن عمله ، إلا عندما همس الوحي إليه ، بهذه الآية ، مِنْ سورة « التوبة » ؟! .

وكم ضمّت هذه السورة ، مِنْ آياتٍ ، تحمل مثل هذا الزجر والنهي؟!. ولكن الرسول ـ وأستغفر الله ! ـ لم يطع ربّه ، إلا عند تلقيه هـذه الآية ...؟!

ولا نعلم على مَ نحمل سابق استغفاره لعمه ، وفي كلّ حينٍ يتنزّل عليه الوحي ، بقطْع كلّ الصّلات ، بينه وبين المشركين ...؟!

اللّهمّ ! إن هذا لا يجوز على رسول الهدى والرحمة !. وليس هذا ، سوى نيلٍ مِنْ قداسة الرسول ، وتجاسرٍ على مقامه الأسمى ، وأذىً له...!

اللّهمّ ! إنّا نعوذ بك مِنْ أذى رسولك (ص) لئلا يحلّ علينا غضبك وعذابك ، الذي وعدتَ به مَنْ يؤذي منه شعرةً ـ كما نصّت على ذلك الآيات والأحاديث ، الوفيرة العدد ...؟

ـ ٣ ـ

إننا نبحث ، فنجد رواياتٍ وأقوالاً ، تنقض هذه الأحاديث ، التي أتينا عليها ، في وجه نزول الآية الكريمة .

وليس لنا ، إلا أن نوقف القارىء الكريم ، على جانبٍ منها :

أ ـ عن الإمام عليّ « عليه السلام » قال : سمعتُ رجلاً يستغفر لأبويه ، وهما مشركان ، فقلتُ: تستغفر لأبويك ، وهما مشركان ؟!. فقال : أوَ لم يستغفر إبراهيم ؟. فذكرتُ ذلك للنبي (ص) ، فنزلتْ :

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ـ إلى قوله تعالى : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ

إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ . فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ ، تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) (١) .

وهذا يدلّنا على أن النهي عن الاستغفار للمشركين ، معروفٌ بين المسلمين ... وإلّا فلولا ذلك ، لَمَا كان الإمام بالذي يعترض ، على هـذا المستغفر لأبويه ، حيث ليس له أن يستنكر منه عملاً ، لم يعرف فيه النهي !.

واستنكار عليّ لهذا المستغفر ، لا يتّفق واستغفار الرسول لعمّه ، مع الزعم بشركه ...!

ولو كان كذلك لوجدنا جواب الرجل لعليّ ، غير هذا الجواب ، ولكنّنا نراه : يحتجّ على عليّ ، باستغفار الرسول لعمه ، تبريراً لعمله ... ولـكنه احتجّ عليه باستغفار إبراهيم لأبيه ، فنزلتِ الآية ، لتُوضح الغاية مِن استغفار إبراهيم له ، فهي : موعدةٌ وعدها إياه ... ولمّا رأى ذلك لم يَجدِ معه ، تبرّأ منه . على أن استغفار إبراهيم لأبيه ، وهو على وجه الحياة ، يرجو منه

---

(١) براءة : ١١٣ ، ١١٤.

ارجع لهذا الصحيح للغدير ـ ١٢ : ٨ ـ ففيه : [صحيحةٌ أخرجها الطيالسي ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، والترمـذي ، والنسائي ، وأبو يعلىٰ ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حـاتم ، وأبو الشيـخ ، والحـاكم ـ وصحّحه ـ وابن مردويه ، والبيهقي في شُعب الإيمـان ، والضياء في المختارة] .

ولشيخ الأبطح ٦٧ ـ مخرجاً عن هؤلاء أيضاً ـ والإتقان ٣٤ : ١ـ عن الترمذي حسناً ـ والأعيان ١٥٨ : ٣٩ ، وأسباب النزول ١٢٧ ، وتفسير ابن كثير ٣٩٣ : ٢.

وذُكرت في الكشاف ٢٤٧ : ٢.

أما استغفار الرسول لعمه ، فهذا ما لا يجوز بحال ، لو لم يكن أبو طالب مؤمناً ... لأن الاستغفار والدعاء — بعد الموت — دليل على الإيمان . وليس فيه ما يحمل على طلب الهداية ، والتوجيه نحو الإقرار بالرسالة .

وقد قال زيني دحلان ، حول ما نقلناه عن الإمام علي « عليه السلام » :

[هذه الرواية صحيحة . وقد وجدنا لها شاهداً برواية صحيحة ، من حديث ابن عباس « رضي الله عنه » ، قال : كانوا يستغفرون لآبائهم ، حتى نزلت هذه الآية . فلمّا نزلت ، أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ، ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا . ثم أنزل الله تعالى : « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ » — الآية — يعني : استغفر له ما دام حيّاً ، فلمّا مات أمسك عن الاستغفار له . قال : وهذا شاهد صحيح . فحيث كانت هذه الرواية ، كان العمل بها أرجح . فالأرجح : أنها نزلت في استغفار أناس لآبائهم المشركين ، لا في أبي طالب] [1] .

ب — قال المسلمون للرسول (ص) . ألا نستغفر لآبائنا ، الذين ماتوا في الجاهلية ؟ ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية ، وبيّن أنه لا ينبغي لنبي ، ولا مؤمن ، أن يدعو لكافر ، ويستغفر له [2] .

ج — كان يقول المؤمنون : ألا نستغفر لآبائنا ، وقد استغفر إبراهيم لأبيه كافراً ؟ ، فأنزل الله : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ — الآية [3] .

---

(١) الغدير ١٣ : ٨ ، عن أسنى المطالب ١٧ — وشيخ الأبطح ٦٧ ، عنه أيضاً .

(٢) الأعيان ١٥٨ : ٣٩ ، ومجمع البيان ١٥٠ : ١٠ ، عن تفسير الحسن . ومثله ما في الأعيان — أيضاً — ٥٨ ، ١٩٥ : ٣٩ عن ابن عباس .

(٣) الأعيان ، وقريب منه : ما في تفسير ابن كثير ٣٩٤ : ٢ ، والكشاف ٥٧٠ : ١ [٣٤٦ : ٢] .

د — إن الرسول لمّا أقبل من غزوة تبوك ، اعتمر ، فجاء قبر أُمّه ، فاستأذن ربّه أن يستغفر لها ، ودعا الله أن يأذن له في شفاعتها ، يوم القيامة ، فأبى أن يأذن ، فنزلت الآية [1] .

هـ — إن الرسول لمّا قدم مكة ، وقف على قبر أُمّه ، حتى سخنت عليه الشمس ، رجاء أن يؤذن له ، فيستغفر لها ، حتى نزلت ، مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ — إلى قوله : تَبَرَّأَ مِنْهُ [2] .

و — إن الرسول (ص) أتى قبر أُمّه فبكى ، وأبكى مَنْ حوله . فقال (ص) : أستأذنت ربي ، في أن أستغفر لها ، فلم يأذن لي ... واستأذنته أن أزور قبرها ، فأذن لي ، فزوروا القبور ، فإنها تذكرة الآخرة [3] .

وهذا الحديث ، أُخرج عن أبي هريرة — أيضاً ! .

وهو إلى ذلك — كما ترى — يجيز البكاء على الأموات ، وزيارة القبور معاً ... رغم أن البعض — وهم ممّن يثق بأحاديث أبي هريرة — يشنّع على هاتين النقطتين ، وعلى مَنْ يقول بهما ... !

ز — إن الرسول مرّ بقبر أُمّه — عام الحُدَيْبِيَة — فاستأذن ربّه ، في أن يزور القبر ، فأذن له ، فزاره وأصلحه ، ومكث عنده حيناً . ثم

---

(١) الغدير ١٣ : ٨ ، عن الطبري ، والحاكم ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي — عن ابن مسعود ، وبريدة ، والطبراني ، وابن مردوية ، والطبري ، من طريق عكرمة ، عن ابن عباس .

(٢) الغدير ١٣ : ٨ ، عن الطبري في تفسيره ٣١ : ١ .

(٣) صحيح مسلم ٦٥ : ٣ ، والغدير ١٣ : ٨ ، عن : مسلم ، وأحمد في مسنده — وأبي داود في سننه — والنسائي ، وابن ماجة ، وقال : إنهم أخرجوها في سبب نزول آية الاستغفار .

وقريب من هذا : ما في تفسير ابن كثير ٣٩٣ : ٣ ، والسيرة النبوية ٧١ : ١ .

استأذن ربّه ، في أن يستغفر لأمّه ، فأبى عليه ، فانصرف عن القبر باكياً كئيباً ، وبكى المسلمون لبكائه ، واكتأب المسلمون لاكتئابه[1] .

ح ــ عن ابن مسعود : خرج رسول الله (ص) ــ يوماً ــ إلى المقابر ، فجلس إلى قبرٍ منها ، فناجاه طويلاً ، ثم بكى ، فبكيتُ لبكائه ، فقال : إن القبر ، الذي جلستُ عنده قبر أمّي ، وإني قد استأذنتُ ربي في الدعاء لها ، فلم يأذن لي ، فأنزل الله : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ[2] .

ط ــ عن بريدة : كنتُ مع النبي (ص) ، إذ وقف على عسفان ، فأبصر قبر أمّه ، فتوضّأ ، وصلّى ، وبكى ، ثم قال : إني استأذنتُ ربي أن أستغفر لها ، فنهيتُ ، فأنزل الله : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ[3] .

ي ــ وذكر الزمخشريُّ حديث نزولها في أبي طالبٍ ، ثم قال :

[وقيل : لمّا افتتح مكة ، سأل : أيُّ أبويه أحدث به عهداً ، فقيل : أمُّك آمنة ، فزار قبرها بالأبواء . ثم قام مستعبراً ، فقال : إني استأذنتُ ربي ، في زيارة قبر أمّي ، فأذن لي ، واستأذنتُه في الاستغفار لها ، فلم يأذن لي ، فنزلت . وهذا أصحُّ ، لأن موت أبي طالبٍ ، كان قبل الهجرة ، وهذا آخر ما نزل بالمدينة][1] .

ك ــ قال القسطلاني : [قد ثبت أن النبي (ص) أتى قبر أمّه ، لمّا اعتمر ، فاستأذن ربه أن يستغفر لها ، فنزلت هذه الآية ــ رواه الحاكم ، وابن أبي حاتم ــ عن ابن مسعود ــ والطبراني ــ عن ابن عباس ــ وفي ذلك دلالة على تأخُّر نزول الآية ، عن وفاة أبي طالبٍ ، والأصل : عدم تكرار النزول][2] .

ورأيُ القسطلاني ــ هنا ــ يتعارض ورأي السيوطي ، في الإتقان ، حيث حاول أن يجمع بين صحة الأحاديث المتعلقة ، والتي ينال بعضُها أبا طالبٍ ، وبعضُها أمَّ الرسول ، فحملها على جواز تعدُّد النزول وتكراره... رغم أن الاصل عدم التعدُّد والتكرار ...

ل ــ إن رجالاً من أصحاب الرسول (ص) قالوا : يا نبيَّ الله! إن مِنْ آبائنا مَنْ كان يحسن الجوار ، ويصل الرحم ، ويفكُّ العاني ، ويُوفي بالذمم ، أفلا نستغفر لهم ؟ فقال النبيُّ (ص) : والله ! لأستغفرنَّ لأبي ، كما استغفر إبراهيم لأبيه ، فأنزل الله : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ . ثم عذر الله إبراهيم « عليه السلام » فقال : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ــ إلى قوله : تَبَرَّأَ مِنْهُ[3] .

---

(1) على هامش السيرة ١٩٣ : ١ .

(2) أسباب النزول ١٢٧ ــ عن الحاكم والبيهقي ، وغيرهما ــ وتفسير ابن كثير ٣٩٣ : ٢ والسيرة النبوية ٧٢ : ١ والاتقان ٣٤ : ١ ، حيث استدلّ به ، بعد أن ذكر غيره ، لجواز الحمل على تعدُّد النزول وتكراره !. إلا أن الأصل عدم التكرار !.

أسباب النزول ١٢٧ ــ عن أحمد وابن مردويه ، وقال أيضاً :

[وأخرج الطبراني وابن مردويه نحوه ، مِنْ حديث ابن عباسٍ ، وأن ذلك بعد أن رجع مِنْ تبوك ، وسافر إلى مكّة معتمراً ، فهبط عند ثنية عسفان] .

وأورد مثل هذا تفسير ابن كثير ٣٩٣ ، ٣٩٤ : ٢ وعقّب عليه :

[وهذا حديثٌ غريبٌ ، وسياقٌ عجيبٌ] .

(3) ...

---

(1) الكشاف ٥٧٠ : ١ [٢٤٦ : ٢] . وقريبٌ منه ما تفسير البيضاوي ٢٩٨ : ٢ .

(2) الغدير ١٤ : ٨ عن إرشاد الساري ٢٧٠ : ٧ . وذكر مثل هذا الحديث في السيرة الحلبية ١٣٦ : ١ .

(3) الغدير ١٤ : ٨ عن تفسير الطبري ١٣١ : ١ ، مِنْ طريق قتادة ، وتفسير ابن كثير ٣٩٤ : ٢ ، عن قتادة أيضاً .

م ـــ إن النبي أراد أن يستغفر لأبيه ، فنهاه الله عن ذلك بقوله : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ـــ الآية ـــ قال : فإن إبراهيم قد استغفر لأبيه ، فنزلت : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ ـــ الآية[1] .

ن ـــ دخل النبيُّ مكة ، عام الفتح ، ظافراً منتصراً ، وبينما هو في بعض مواضعها ، رأى أصل قبرٍ فعطف عليه ، وأقام عنده ، واستأذن في الاستغفار لصاحب القبر ، فلم يُؤذن له ، فانصرف محزوناً كئيباً ، وبكى فبكى الناس ، وما رأى الناس يوماً باكياً ، أكثر مِنْ ذلك اليوم[2] .

وقد علّق طه حسين ، بعد هذا الحديث ، بقوله :

[واختلط أمر هذا القبر على الرواة ، فظنوه قبر أُمّه ... أُمّه في الأبواء . ومَنْ يدري ، لعلّه قبر جدّه الشيخ][3] ـــ ويريد به . عبد المطلب ..

ولا أدري ما قيمة « لعلّ » ـــ هنا ـــ ونحن في موضع حسابٍ تاريخيٍّ ، وحدثٍ له قيمته المعنوية ، في ميزان الأعمال ، وقيم الرجال ؟...!

وقد عرفنا طه حسين مشكّكاً ، يُنكر ضوء الشمس الباهر ، ببساطة قوله : لعل الشمس غير طالعةٍ ! . أمّا أن ينقلب تشكيكه ـــ فجأةً ـــ إلى خطرٍ معاكسٍ ، وإلى حدِّ إثبات المجهول ، ووصمة بِمَنْ هو منه بريءٌ ، فشيءٌ غريبٌ منه حقّاً ... ! وكان الأولى به ـــ ولا سيما على مبدئه المشكك ـــ أن يطعن القضية المزعومة مِنْ أصلها ، فينكر أمر هذا القبر المختلط ، مِنْ أساسه ؛ لأن الواقع ، في جانبه ، ولو أنكر ؟! .

وبمثل تلك البساطة ، التي تشعر بعدم المسؤولية ، مِنْ خلاف الواقع ،

---

(١) الغدير ١٤ : ٨ ، عن الدرّ المنثور ٢٨٣ : ٣ ، مِنْ طريق عطية .

(٢) على هامش السيرة ١٩٣ : ١ . وقريبٌ منه ما في تفسير ابن كثير ٣٩٣ : ٢ ، لولا أن هذا ذكر : أن صاحبة القبر أُمّ الرسول (ص) .

(٣) على هامش السيرة ١٩٣ : ١ .

أتبع تلك القولة ، بهذه الجملة ، التي يُعوزها الدليل ، وتنقصها البرهنة ، ولم تنجُ مِنِ اختلاطٍ ، مثلما رمى هو به المؤرخين :

[وعرض الإسلام على عمّه وألحّ عليه ، وكاد الرجل أن يقبل ، لولا حمية الجاهلية ، فلمّا مات قال ابن أخيه : لأستغفرنّ لك ، فلامه القرآن في ذلك لوماً عنيفاً « كذا ؟! »][1] .

ونحن لا يهمّنا كثيراً ، ما حاول أن يصمَ به عمَّ الرسول وكافله ، الذي « يحمي دِينه مِنْ قريشٍ » ـــ كما يقول طه حسين نفسه[2] ـــ ولكن الذي يهمنا هو هذا الاندفاع الجموح ، بلا ريثٍ ولا تأنٍّ ، حتى جعل الرسول عرضةً للّوم العنيف ، يوجّه عليه مِنَ القرآن الكريم ـــ ولا ندري برأي طه حسين ، حول القرآن ، رأيه العقائدي حوله ، بعد محاكمته على كتابه حول « الشعر الجاهلي » ، حيث أعلن إيمانه بعد تلك المحاكمة .

وكيف يُلام الرسول ، على عرْضه الإسلام على عمّه ، الذي حماه وحمى دِينه ، فيُلام الرسول اللّوم العنيف ، على هذا العرض ، أو على الإلحاح في العرض ؟! .

أليس مهمّة الرسالة ، هي هذا العرض ، حتى مع الإلحاح ؟ ثم ألم يأمره القرآن ذاته بإنذار عشيرته الأقربين ، في فجر الرسالة البكر ، قبل الإنذار العام ... ؟! فكيف يلومه ـــ بعد هذا ـــ على تنفيذ ما يتلقّى مِنْ أوامر ... ؟ فهل اختلط الأمران على القرآن ، كما اختلط أمر ذلك القبر المزعوم ، على المؤرخين ، وراح الدكتور طه حسين يدلّهم عليه ... ؟! فما هو ـــ عنده ـــ سوى قبر عبدالمطلب ! .

---

(١) على هامش السيرة ١٩٣ : ١ .

(٢) الفتنة الكبرى : عثمان ص ١٥١ ، وقد ذكرناها ، فيما مرّ مِنْ [ذكر عطر] ـــ ص ٢٧٦ .

وهو لا يقف في تعريض الرسول للوم القرآن العنيف ، عند تلك القولة فقط ؛ بل لا يكتفي ، حتى يضعه ، مع عدد المسلمين ، الذين يلومهم القرآن على عمل مخالف :

[هل ترى أبلغ في تصوير العدل الصارم الحازم ،الذي لا يقبل هوادة ، ولا يحتمل رفقاً ،لأنه ليس موضع هوادة ولا رفق ، من هذه الآية الكريمة ، التي يلام فيها النبي والمسلمون حين استغفروا لمن لا مطمع له في المغفرة :

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ... الخ][1] .

وبهذا يبين لنا ، كيف اختلط الحال على طه حسين ، دونه اختلاط المؤرخين ، الذي لم يزده إلا اختلاطاً ،على ذاك الاختلاط ،ولم يخرج من عتمة الشك ، فالظن يحوط به . والتقريب بـ « كاد » ، و « لعل » ، لا يغني عن الحق شيئاً .

ولقد قلنا : إنه لا يهمنا كثيراً ، ما حاول أن يصم به عم الرسول ، ونصير الإسلام ، ذلك أن هذا الكتاب ، قد وضع من أجل هذه التهم ، يهد منها الأسس الواهية ، المبنية على تراب ... وما هذه التهمة المتداعية ، لا يسندها دليل ، ولا يعضدها برهان ، سوى نقطة ممحوة ، من بين حروف تلك السطور السود ، التي وضعت في حق أبي طالب .

س ــ قال الطبري : قال آخرون : الاستغفار في هذا الموضوع : بمعنى الصلاة . ثم أخرج من طريق المثنى ، عن عطاء بن أبي رباح ، قال : ما كنت أدع الصلاة ، على أحد من أهل هذه القبلة ، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا ، لأني لم أسمع الله يحجب الصلاة ، إلا عن المشركين ، يقول الله : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ــ الآية[2] .

(١) على هامش السيرة ١٩٤ : ١ .

(٢) الغدير ١٤ ، ١٥ : ٨ ، عن تفسير الطبري ٣٣ : ١١ .

فأنت ترى : أن هناك من يفسر الاستغفار بصلاة الأموات . وقد مات أبو طالب وخديجة ، قبل أن تسن صلاة الأموات .

على أن صلاة الأموات ، قد شرعت عند موت المرء ... فهل نهى الله رسوله أن لا يصلي على عمه ، وقد مضى على موته ، ما ينيف على العقد ؟! .

إذن ... كيف يجتمع هذا الرأي ، مع فرية تحريفها لأبي طالب ، أو أم الرسول ، أو أبيه .

ع ــ عن علي : أخبرت الرسول (ص) بموت أبي طالب ، فبكى ، فقال : اذهب ، فغسله ، وكفنه ، وواره ، غفر الله له ورحمه . ففعلت . وجعل الرسول يستغفر له أياماً ، ولا يخرج من بيته ، حتى نزل جبريل «عليه السلام » بهذه الآية : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ــ الخ[1] .

فأنت ترى ــ هنا ، على هذا الرأي ، الذي صيغت نهايته ، وفق الهوى السياسي ــ أن نزول هذه الآية ، كان في العام ، الذي توفي فيه أبو طالب ، على أكبر تقدير ، إن لم نقل : في الشهر ، أو الأسبوع ، الذي توفي فيه ، لوجود كلمة « أياماً » ، مع أن نزول السورة ، التي فيها آية الاستغفار ، كان آخر ما نزل من القرآن ، وبعد وفاة أبي طالب بعشر سنين ، في أقل الصور ! .

ف ــ لما مات أبو طالب ، قال النبي (ص) : إن إبراهيم استغفر لأبيه ، وهو مشرك ، وأنا أستغفر لعمي ، حتى أبلغ ، فأنزل الله : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ــ الخ ــ يعني به : أبا طالب ! ، فاشتد على النبي (ص) ، فقال الله لنبيه : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ ــ الخ[2] .

(١) الغدير ١٥ : ٨ ، عن طبقات ابن سعد ١٠٥ : ١ ، والدر المنثور ٢٨٢ : ٣ عن ابني سعد وعساكر .

(٢) الغدير ١٥ : ٨ ، عن إسحاق بن بشر ، وابن عساكر ، في الدر المنثور ٣ : ٢٨٢ .

وهنا... على هذا الحديث... نستبين أن الآية ، نزلت عند وفاة عم الرسول ، ونصيره (ص) .

ص ـ لمّا مات أبو طالبٍ ، قال له رسول الله (ص) : رحمك الله ، وغفر لك ، لا أزال أستغفر لك ، حتى ينهاني الله . فأخذ المسلمون يستغفرون لموتاهم ، الذين ماتوا ، وهم مشركون ، فأنزل الله : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ(١) .

* *

هذه ثمانية عشر ، مما تُسمّى بالأحاديث... وكلّها رُويتْ سبباً في نزول هذه الآية .

ونحن لا نريد مناقشتها ، ووضْعها تحت مطرقة النقد... ففيها ما لا يمتّ لموضوع الكتاب بصلةٍ ، وإن كنّا لا نقرّ كلّ ما فيها ، ولا ندين بها كلّها .

ولكنّا سقناها ، على أن ثمة : أقوالاً متعارضةً ، وآراءً متناقضةً ، في نزول هذه الآية ـ أو الأصح : في تحريف بسبب نزولها... فهي ـ كما وجدتَها ـ يضرب بعضُها بعضاً ، وتتباين فيما بينها...

وأوّل ما يلفت النظر ، ويسترعي الانتباه ، لينكشف قِصَر نظر المحرّف : أن المحرّف ، يسند لمثل عليٍّ وابن عباس ، وغيرهما : القولين المختلفين ، والرأيين المتناقضين ، حول هذه الآية ذاتها ، في وقتٍ واحدٍ ، بالإضافة إلى أن ما أُسند لعليٍّ ، أو لابن عباسٍ ، حول أبي طالبٍ ، بالذات ، يتناقض مع الثابت عنهما ، حوله .

فما السبب في هذا التناقض ... وأيّها نأخذ ؟ وأيّها ندع ؟ فتارةً : يحرفونها لعمّ الرسول ! ، وأخرى لأبيه ! ، وثالثةً لأمّه ! .

(١) الغدير ١٥ : ٨ ، عن الدر المنثور ، أيضاً .

ولكن الواقع يدلّنا على أن البلاء قد جاء أمّ الرسول وأباه ، من تحريف هذه الآية إليهما... جاءهما هذا البلاء ، كرشحٍ ، ممّا وجّه لأبي طالبٍ ، ليتم لهم ما شاءوا في حق شيخ الأبطح !.

إلا أنها قد تتّفق ـ على اختلاف وجهات نظرها ، وتباين أهدافها ـ على شيءٍ واحدٍ ، هو أن الرسول ـ وعفوه عني ! ـ كان يستغفر لمشركين ، نهاه الله عن حبّهم ، وموالاتهم ، والاستغفار لهم ، في عديدٍ من المناسبات ، ووفرٍ من الآيات ، فما كان ليقلع عن عمله ، ويدع استغفاره ، لمن لم يرضَ الله له أن يستغفر لهم ، حتى نزلت هذه الآية !!!.

فهي ـ في النتيجة ـ تنحدر إلى وهدةٍ واحدةٍ ، وتهدف لغايةٍ واحدةٍ ، هي مسّ قداسة الرسول ، والتعدّي على حرمة الرسالة ...! وهي إلى ذلك : إيذاءٌ للرسول (ص) ، سواءٌ كان عن طريق عمّه ، أو أبيه ، أو أمّه...!

وإلا فإن الواقع يثبت إيمان آباء الرسول (ص) ، وأمهاته ، حتى تنتهي السلسلة إلى المؤمن الأول : آدم .

لذلك وقع الحلبي في حيرةٍ ، وقد ذكر بعض هذه الأحاديث المفتعلة ، والمحرّفة ، ورأى أن لابدّ من تصحيحها ، فبذل جهده في ذلك ، فلم يرَ سبيلاً إلا أن ينحي النار عن عبد الله ، لأبي طالبٍ ، لأن من بين هذه الأحاديث المكذوبة :

أن رجلاً ، سأل الرسول : أين أبي ؟ فقال له ـ وهو (ص) ، لم يقل هذا قطعاً : إن أبي وأباك في النار [كذا ؟!](١) .

وبعد سيرٍ رجراجٍ متعبٍ ، نال الحلبي فيه ما نال ، بغية التوجيه الصحيح ، لهذا الحديث المكذوب ـ قال ، وكأنه رأى نفسه قد وصل لشاطئ

(١) السيرة الحلبية ٦٠ : ١ ـ وذكر الحديث في صحيح مسلم ١٣٢ : ١.

الأمان ، بتصحيحه الحديث ، فالرسول لم يعنِ سوى عمه ، بقوله : « أبي » !(١) •

وهكذا ينجّي الحلبي مَنْ شاء ، مِنَ النار ، ليطعمها مَنْ يشاء•••!

ولا بدّ أن نُشير إلى أن هذه الأخبار ، أقلُّ ما يقال عنها: إنها متعارضةٌ• وكفى بهذا التعارض مسقطاً لها عن درجة التوثيق ، أوِ الاعتبار !.

وهذا التعارض ، نجده ، حتى في بعض الأحاديث المنحرفة ضد الشخص الواحد • فبعضها ، وإنِ اتّفق في التحريف ، لأبي طالبٍ ، او آمنة ، أو عبد الله ، إلا أنها ذاتها متناقضةٌ في نفسها •

ونظرةٌ يلقيها القاريءِ عليها ، يجد ذلك بأوضح ما يكون الوضوح !.

ثم هي مع هذا التعارض ، المسقِط لها عن درجة الاعتبار — بالإضافة إلى: تهالك السند ، وضعْف الرواة ، كما عرضنا الأقوال عنهم ، فيما حرّف لأبي طالبٍ ، وليس هؤلاء ، سوى نماذج لرواة أمثال هذه الأحاديث الكاذبة ؛ لأن استقاءها مِنْ عينِ آسنةٍ واحدة ...!

••• إنها مع هذا التعارض ، فيما بينها ، ومخالفتها لأصل عدم تعدُّد وتكرار سبب نزول الآية •••

إنها — مع ذلك كلّه — تتعارض بما هو أقوى منها دلالةً ، وأوضح سنداً، وتتصادم بالقرآن العظيم ، الذي أثبت طهارة نسب الرسول ، وطهارة أهل البيت أيضاً(٢) — وليس أدنس ، ولا أرجس مِنَ: الشرك والكفر — كما أنها تنال مِنْ قداسة الرسول ، الذي جعلته يخالف القرآن ، في نهيه عن موالاة

---

(١) السيرة الحلبية ٦٠ : ١.

(٢) إشارةً إلى آية « وتقلبك في الساجدين » ، و « إنما يريد الله » ، وغيرهما .

الكفار ، في آياتٍ ، سبقت هذه الآية ، في تنزّلها عليه ، بما أُوضحناه مِنْ قبل •

— ٤ —

إن الآية ، التي اختُلف في: تأويلها ، أو تفسيرها ، أو تحريفها••• تحمل معنى النفي ، لا معنى النهي — أي : إن الآية ، تنفي عنِ الرسول : أنه كان يستغفر للمشركين — وكذلك المؤمنون ، الذين هم لتعاليمه متّبعون — فهي تنفي صدور استغفارٍ، مِنَ الرسول ، لرجلٍ لم يقرّ في قلبه الإيمان، لا أنها تنهى الرسول عنِ الاستغفار ، لِمَنْ لا مطمع له فيه ، لأن الرسول مبرّأٌ ، مِنْ أن يقع في هذا•••!

فكل مَنْ وجدناه ، قدِ استغفر له الرسول ، فعلينا أن نقرَّ بإيمانه ، ولا يخالجنا فيه ذرةٌ مِنْ شكٍّ، أو غبارٌ مِنْ ريبةٍ — ما دمنا نقرُّ للرسول بالنبوة والعصمة ، والعمل الحق •

وليس في الآية شيءٌ ، ممّا يظنُّ أن الرسول ، كان يستغفر للمشركين ، فنهاه الله عنه ، لأن في حمل الآية على هذا التأويل ، مسّاً لقداسة الرسول ، ونيلاً مِنْ مقام النبوة••• ولا سيما بعدما وجدنا أن الرسول ، قد تلقّى مِنْ وحي ربه ، ما قد نهاه — قبل هذه الآية — أن يعمل مثل هذا•••!

وإننا نجد في هذه الآية ما يكشف عنِ السر في استغفار الرسول لعمه••• ومِنَ الجائز : أن هناك ، مَنْ لم يكن بإيمان أبي طالبٍ ، ذلك العليم، لتكتّمه [illegible] ، وقد رأى الرسول يستغفر له ، فظنّ جواز وإباحة الاستغفار ، لذوي قربى المسلمين ، مِنَ المشركين ، فجاءت هذه الآية ، لتقول لهم :

إن ذلك لا يجوز••• ولم يكن ليقع مثل هذا العمل مِنَ الرسول ••• وما استغفار الرسول لعمه ، وهو مشركٌ ، حتى يُجوّز للناس : أن يستغفروا

لآبائهمُ المشركين... ثم أُوضحت لهمُ الآية : موقف الخليل إبراهيم ...

على أنه فرقٌ ، بين: الاستغفار للحيِّ ، والاستغفار للميت ـــ كما أشرنا لذلك ، قبل خطواتٍ.

فالآية تنزِّه الرسول ـــ في استغفاره لعمه ، ومَنْ كان يستغفر له ـــ بأنه لا يستغفر لمشركٍ ، وهو الشديد في جنب الله ، وعلى أعدائه ...

وليس استغفار الرسول، لأيٍّ كان، إلا دليلاً ، مدعَّماً بالحجج والبراهين، على إيمان هذا الذي يستغفر له لرسول(ص) ...

وإن مقام النبوة ، وقداسة الرسالة ، لتأبيان عليه (ص) أن يستغفر لمشركٍ ، أو أن يخالف ما ينهاه الله عنه ، ويعمل ما لا يرضى الله به !.

وقد عرف الكثير ، مِن استغفار الرسول لعمه ، دليلاً على إيمانه... فلم يحتجُّوا بذلك ، لتبرير استغفارهم لآبائهمُ المشركين ...

فكذلك وجدنا الذي حاوره عليٌّ ، ونهاه ، بعدما وجده مستغفراً لأبويه المشركين ، ولم يحتجَّ إلا باستغفار إبراهيم ، لعدم إحاطته بالسر في ذلك... ـــ وقد سبق منَّا ذكْر الحادثة ، والقول حولها .

ـ ٥ ـ

إن هناك مَنْ يذكر بقيةً للحديث ، الذي نقلناه ، عن: البخاريِّ، ومسلمٍ ، وإن هناك مَنْ يقول :

[فلمَّا تقارب مِنْ أبي طالبٍ الموتُ ، نظَر إليه العباس ، فرآه يحرِّك سفتيه ، فأصغى إليه بأُذنه ، فقال : يا ابن أُخي ! والله لقد قال الكلمة ، التي أُمرتَه بها] (١) .

---

(١) السيرة النبوية ٨٣ : ١ ، والحلبية ٣٨٨ : ١ ، والهشامية ٥٩ : ٢ ، والبحار ٥٢٣ : ٦ ، والنهج ٣١٢ : ٣، وشيخ الأبطح ٧٣ ، والأعيان ١٣٦ :٣٩.

فمع التنزُّل بأن أبا طالبٍ، قال ما قيل على لسانه ، عند الاحتضار ، فإن هذه الشهادة ـــ مِنَ العباس ـــ تدلُّ على أن آخر ما فاهت به شفتا أبي طالبٍ، وآخر كلمة ، انفلت صداها مِنْ لسانه ، وهو عند حشرجة الاحتضار، هي : الشهادة ، التي أرادها منه الرسول ـــ كما يقول الحديث .

وعلى مَنْ يقول بصحة الحديث : أن يأخذ بنهايته وتمامه... وإلَّا فعليه، أن يرمي به كلِّه . إذ ليس له أن يأخذ ما يُوافق هواه ، ويترك ما يُخالفه...!

ـ ٦ ـ

وإننا إذا أسدلنا الستر ، على إقرار أبي طالبٍ، وأقواله وأعماله ، الناضجة بالإيمان... وتناسينا وصاياه ـــ عند الاحتضار ـــ على الملأ مِنْ قريشٍ... وأغفلنا استغفار الرسول وشهاداته ، وحبَّه والإخلاص له... وشهادات عِدل القرآن ، وأحد الثقلين اللذين خلَّفهما الرسول بعده : أهل البيت ...وشهادات الصحابة ، في حقه ـــ كأبي بكرٍ، وأبي ذرٍّ، وابن عباسٍ...

إننا إذا تركنا كلَّ هذا جانباً ، وجعلنا بيننا وبينه السدَّ المنيع، الذي يحجب الضوء ، وسلَّمنا ـــ تنزُّلاً ـــ بصحة الحديث ـــ وليس لنا أن نسلِّم به ، بعد قيام البراهين على دحضه ...

أقول : لو تركنا كلَّ هذا ، وتنزَّلنا ، فسلَّمنا بالحديث ـــ فإن قول أبي طالبٍ: « على ملَّة عبد المطلب » ، ليس سوى دليلٍ على إيمانه ...

فما ملَّة عبدالمطلب هذه ؟. أليست هي الحنيفية البيضاء ؟. أليس عبد المطلب على دِين الله ، الذي ارتضى ؟ . أليس مقرّاً بالإلَه الحق ، والمبدإ الأعلى ، ويوم الحساب ، وميقناً بالله باعث حفيده ، ليصدع برسالة ربه ، وتمنِّي ـــ وهو يحتضر ـــ أن يمتدَّ به العمر ، ليشهد انبعاث النور ، وإشراقة السنى...؟

ولكن هذا ـــ أيضاً ـــ ليس سوى رشحٍ ، مما وجِّه لابي طالبٍ...

فأصاب ــ مرّةً ــ أمَّ الرسول ، آمنة ، وأخرى : أباه ، عبــدَالله ، وتارةً : جدَّه ، عبد المطلب .

أو هو ــ بالأصح ــ رشحٌ ، ممّا وجّه لعليٍّ ، ليحطوا مِنْ قــدره ، لأن « متسافل الدرجات يحسد مَنْ علا » ــ كما يقول الشاعر ــ فنالوا منه عن طريق أبيه ، إلا أن هؤلاء لم ينجوا مِنْ هذا النيل ــ أيضًا ــ حتى ولو كان في كلِّ هذا ، نيلٌ للرسول (ص) وأذىً له ، ما دامتِ الغاية تبرّر الواسطة ، عند الوصوليين .

هذا... وليس منّا يختصُّ بموضوعنا إثبات إيمان عبدالمطلب... إن كان إيمانه يحتاج للإثبات ... على أنا قد أتينا على ما يبرهن على إيمانه ، في الفصل الذي عقدناه عنه ، مِنْ هذا الكتاب .

هذا... وفي الموضوع كتبٌ مختصَّةٌ ، تعرض جوانبه ... حتى عدَّ للسيوطي ستة كتبٍ ، كلّها حول إيمان آباء الرسول الأعظم (ص) (١) .

على أن أبا طالبٍ ، لم يتَّخذ ذلك الجواب ، بقوله: «على ملّة عبدالمطلب» ــ إن كان للحديث بالواقع صلةٌ ــ إلا ليعمّي موقفه على قريشٍ ، هؤلاء العتاة المحيطين به... وقدِ اتّخذ هذه السياسة ، في صالح: الدعوة ، ونبيِّ الإسلام ــ كما عرضنا لذلك ...

ولو لم يكن قدِ اتخذ مثل هذا الطريق لما تسنّى له أن يقوم بما قام به ، مِنْ جليل العمل ، ومؤزّر النصرة...!

نظرة في آية « انك لا تهدي »

أما الآية الثانية : « إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ » ــ الآية ــ فقد وضعنا

(١) ارجع لأسمائها ، للغدير ١٧ : ٨ بالهامش . وأُشير لها في السيرة [illegible] ٧٧ : ١ .
وقد وقفنا عليها ــ أخيراً ــ في طبعتها الثالثة ، طباعة حيدر آباد الدكن ــ [illegible] ــ عام ١٣٨٠ هـ ــ ١٩٦١ م ، وهي ــ على الظاهر ــ ذات منهج واحد ، وأسلوب متقاربٍ ، وتجانف ــ فيها ــ على واضح الحق الجلّي ، بشأن أبي طالبٍ ، ولم نر حاجة لفتح نقاشٍ خاصٍ معه ، لأنه تعدٍّ آثم ، وتجنٍّ جائرٌ ...!

يدلك على مكمن الداء الذي كان مِنْ أغراضه: تحريفُ هذه الآية ــ في ما حرِّف ــ نحو أبي طالبٍ ، وكشفنا الستر عن الخبيء ، مِنْ زيف هــذا التحريف ، ما دام الحديث يقول : إن هذه الآية ، نزلت وآية الاستغفار ، في هذه المناسبة ...

وما دام قدِ انهدَّت أُسس التُّهم ، التي شيدت في تحريفهم ، لتلك الآية ، فهي ــ هنا ــ أضعف مِنْ أن تبقى في الوجود ، لحظةً ، بل هي ــ [illegible] ــ بين تلك الأنقاض المهدَّمة .

ولكنا ــ مع هذا ــ رأينا أن نخصَّ تحريف هذه الآية ، بنظرةٍ عابرةٍ ، نوجزها في هذه النقاط :

ــ ١ ــ

إن هناك ، مَنْ وضع أحاديث ، خصَّها بهذه الآيــة ، غير تلك التي عرضناها ، عن: سعيد بن المسيب ، وأبي هريرة ، وناقشنا سندهما ، وكشفنا عمّا فيه مِنْ زيفٍ ، بحيث لا يبقى سببٌ مِنَ التشبث ، بما انطوت عليه هــذه الأحاديث مِنْ: كذبٍ ، وافتراءٍ ، وتزويرٍ...!

ونريد ــ الآن ــ أن نعرض لحديثين آخرين ، خُصَّا بهذه الآيــة ، ونناقش سندهما الواهي المتهالك ...

١ = عن طريق أبي سهلٍ السري بن سهلٍ ، عن عبد القدوس الدمشقي عن أبي صالح ، عن ابن عباسٍ ، قال : نزلتْ : إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ــ الآية ــ في أبي طالبٍ ، ألحَّ عليه النبي (ص) أن يُسلِم ، فأبى ، فأنزل الله : إِنَّكَ لاَ تَهْدِي(١) .

ونلاحظ على هذا :

(١) الغدير ٢٠ : ٨ عن الدر المنثور ١٣٣ : ٥ .

أ ــ السري : يقول عنه الذهبيُّ : « وهّاه ابن عدي • وقال : يسرق الحديث ، وكذّبه ابن خراش » •

ثم ذكر له أحاديث فيقول قبلها : ومِنْ بلاياه • ومِنْ مصائبه[1] •

وعدّه الأمينيُّ ، في سلسلة الكذابين ، عن كثيرٍ مِمّنْ ترجمه[2] •

ب ــ عبد القدوس الدمشقي : قال عبد الرزاق : ما رأيتُ ابن المبارك ، يفصح بقوله : « كذّاب » إلا لعبد القدوس • وقال الفلاس : أجمعوا على تَرْك حديثه • وقال النسائي : ليس بثقةٍ • وقال ابن عدي : أحاديثه منكرة الإسناد والمتن[3] •

وقال إسماعيل بن عيّاش : لا أشهد على أحدٍ بالكذب ، إلا على عبد القدوس[4] •

وقال عبد الله بن المبارك : لئن أُقطع الطريق أُحبُّ مِنْ أن أُروي عن عبد القدوس الشامي[5] •

ج ــ لا نعرف مَنْ هو أبو صالح ؟• وأُظنُّ الصاد ــ في كنيته ــ طاء!.

د ــ وإسناد الحديث لابن عباسٍ ، يفضح المؤامرة ، ويكشف الستر عن الكذبة •••!

فابن عباسٍ كان ميلاده في شِعب أبي طالبٍ ، حين حصر الرسول

(1) الميزان ٣٧٠ : ١.
(2) الغدير ٢٠٤ : ٥، و ٢٠ و ١٤٣ ، ١٤٤ : ٨ .
(3) الميزان ١٤٣ : ٢ .
(4) الغدير ٢٠٨ : ٥ ــ في سلسلة الكذابين ــ و ٢١ : ٨.
(5) الغدير ٩٠ : ١٠.

وبنو هاشم فيه ، في العام الثالث ، قبل الهجرة[1] ــ أي : في العام ، الذي توفي فيه أبو طالب !.

فَمِنْ أين رأى ابن عباسٍ ذلك ، ليروي هذا الحديث•••؟!

حاشا ابن عباس ! فإنه لم يقل شيئاً مِنْ هذا!••• بل رأيناه كيف يجيب مَنْ سأله ، عن إيمان أبي طالبٍ ــ فيما عرضنا؟ ، عند « ذكر عطر »[2] •

٢ = وعاد الكذوبان : السري ، وعبد القدوس ، فأسندا الحديث المفتعَل لابن عمر[3] • وقد كان ميلاد عبدالله بن عمر ، في العام الثالث ، مِنَ المبعث النبوي[4] • فهو في وفاة أبي طالبٍ ــ قد شارف السبعة الأعوام ، مِنْ عمره •

فليس مِنَ المعقول أن يشهد ــ وهو في هذه السن ــ احتضار أبي طالبٍ، وليس غير هذين الكذّابين ، اللذين اختلقا هذا الحديث ، فأسنداه ــ مرّةً ــ لابن عباسٍ، وأُخرى لابن عمر ــ وحاشاهما ! ــ لتتمّ للكذّابين الغاية السوء ، التي أرادوها !.

ـ ٢ ـ

أما الآية ــ فإننا نجدها بين آيتين ، هي وسطى بينهما :

[وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقَالُوا : لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ • إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ •

(1) الإصابة ٣٢٢ : ٢.	(2) ص ٢٦٩
(3) الغدير ٢١ : ٨، عن الدر المنثور ١٣٣ : ٥.
(4) الإصابة ٣٣٨ : ٢

وَقَالُوا : إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ ، نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ... أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ، رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ...؟ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ !](1) .

فالآية الأولى مختصّةٌ بالمؤمنين ، تصف عملهم ...

والثالثة : تصف الذين لم يؤمنوا ، مخافة أن يُتخطَّفوا مِنْ أرضهم — كما يزعمون ! — أي يستلبون !.

والآية المحرَّفة : وسطى بينهما . وهي خطاب للرسول (ص) . يقول الله له فيها : إن هداية أُولئك ، ليس لحبّك لهم ، فما أنت بالهادي لهم — بالمعنى الأصيل — أي إنهم لم يهتدوا لسماعهم الدعوة مِنَ الرسول ، فحسب؛ وإنما لإمداد الله ومشيئته ...

وليست هذه الآية الوحيدة ، في القرآن ، ممّا تحمل هذا المعنى — وهو نسبة الهداية لله — فهي كآياتٍ كثيرةٍ ، منها هذه الطائفة :

أ — لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ(2) .

ب — إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ(3) .

ج — أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ ؟(4).

د — أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ ، وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (5).

هـ — فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (6)

---

(1) القصص ٥٥ — ٥٧ .
(2) البقرة ٢٧٢ . (3) النحل ٣٧ . (4) النساء ٨٨ .
(5) يونس ٤٣ . (6) إبراهيم ٤ والمدثر ٣١.

و — مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا(1) .

وليس لنا أن نتقصى هذه الآيات — وهي على وفرة عددٍ ، وكلُّها تحمل المعنى ، الذي تحمله تلك الآية المحرفة . وهي كلّها تُشير إلى أن الهداية تكون بإمدادٍ مِنَ الله ، ولكن في حدود اختيار العبد ، لا أن تسلبه حرية الاختيار ...

ولذلك نجد آياتٍ أُخر ، تنسب الهداية والضلال للنفس ، كقوله تعالى: فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا(2) .

إلى آياتٍ وآياتٍ ، لا نريد تقصيها .

— ٣ —

ويجدر بنا أن نعرض بعض الوجوه ، التي رأوها في سبب نزول هذه الآية :

أ — إن الرسول (ص) ضُرب بحربةٍ في خدّه — يوم أُحد — فسقط إلى الأرض ، ثم قام ، وقد انكسرت رباعيته ، والدم يسيل على وجهه . فمسح وجهه ، ثم قال ، اللّهمّ اهدِ قومي ، فإنهم لا يعلمون، فأنزل الله: « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ » — الآية(3) .

---

(1) الكهف ١٧. (2) يونس ١٠٨.
(3) الحجة ٢٩، والأعيان ١٥٩ : ٣٩ . وقد جاء في الحجة « يوم حنين » — خطأ — والمقصود ، مِنْ سياق الحادثة وتأريخها : يوم أُحد .

ب ــ قيل: إن قوماً كانوا يظهرون الإسلام ، والإيمان بالرسول (ص)، وتأخّروا بعد هجرته ، وأقاموا بمكة ، مظهرين الكفر والصبوء إلى الدين ، الذي كانوا له معتنقين ...

وإذ وصل نبؤهم للرسول،ومَنْ معه مِنَ المؤمنين ، اختلفوا فيهم... فمنهم: مَنْ يرى إيمانهم ، ولا يرى « ظاهرهمْ » الذي اتخذوه ، سوى تقيةٍ لِمَنِ اضطرّ ، كما قال الله تعالى : « إلاّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً »...[1] ومنهم . مَنْ يراهم كفّاراً، إذ كان عليهم أن يهاجروا ، لو استحبّوا الإيمان ، والنجاة بالمبدأ ...

لذلك ... اجتمع هؤلاء وأُولئك ، إلى الرسول فأحبّ بعضهم أن يصدر الرسول فيهم حكمه بإيمانهم ، للأرحام الوشيجة ، التي تربط بين: هؤلاء الراغبين وأُولئك المقيمين .

ولكن الرسول أرجأ الحكم ، حتى ألقى الملاكُ في أُذنه :

« إنّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

وقالوا : إن معنى الآية : « إنك لا تحكم ، وتسمّي وتشهد بالإيمان لِمَنْ أحببت . لكن الله يحكم له ، ويسمّيه ، إذا كان مستحقاً له »[2] .

ج ــ قيل : إن هذه الآية ، نزلت في الحارث ، بن عثمان ، بن نوفل ، بن عبد مناف ، وقد كانت عند الرسول رغبةٌ في إسلامه ، وحبٌّ لذلك[3] .

ويقرب مِنْ هذا القول : قول بعض المفسرين ، بأن الآية التي بعد هـذه ــ وهي : « وَقَالُوا : إنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ » ، الخ،كان نزولها في

(١) آل عمران ٢٨.
(٣) الحجة ٣٠،والأعيان ٢٥٩ : ٣٩.
(٣) شيخ الأبطح ٦٩ ــ عن الحسن بن الفضل ، في كتاب « أسباب النزول »،لأبي المجد بن رشادة الواعظ الواسطي .

الحارث[1] .

وقد قيل : إن إجماع المسلمين ، على أن الآية الثانية ــ « وَقَالُوا ... » الخ ــ هي في الحارث[2] .

د ــ إن رسول قيصر ، جاء بكتابٍ للرسول (ص) فدفعه إليه ، فوضع الرسول الكتاب بحجره ، ثم قال : « مِمَّنِ الرجل ؟ » قال : مِنْ تنوخ . فقال الرسول :

« هل لكَ في دِين أبيك إبراهيم الحنيفية ؟ » .

قال رسول قيصر : إني رسول قومٍ وعلى دِينهم ، حتى أرجع إليهم . فضحك الرسول (ص) ، ونظر إلى أصحابه ، وقال « إنّكَ لاَ تَهْدِي »[3] .

* *

هذه أقوالٌ أربعةٌ ، قيلت في سبب نزول الآية ... والأصل ــ كما قدّمنا ــ عدم تكرار النزول ... فَمِنْ أين حرّفت لأبي طالبٍ ، لولا هؤلاء الكذبة ، الذين لا يخشون الكذب ، ولا يرقبون في مؤمنٍ إلاًّ ، ولا ذمةً ؟!.

(١) الكشاف ١٦٧ : ٢ [٣٣٣ : ٣]،ومجمع البيان ٣٠٩ : ٢٠،وأسباب النزول ١٦٩،عن النسائي ، عن ابن عباس ؛ وتفسير ابن كثير ٣٩٥ : ٣،وتفسير البيضاوي ٩ : ٤ .
(٢) شيخ الأبطح ٦٩ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣٩٥ : ٣.

— ٤ —

ونحن لو سلّمنا نزولها في أبي طالبٍ، فإنها ستكون سلاحاً ، في يد القائلين بإسلامه ، أكثر مِنْ أن تكون ضدَّهم :

أ ــ لأن مَنْ يصرفها لأبي طالبٍ، يقول بحبّ الرسول له : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ »... فمعناها عندهم : يا محمد ! إنك لا تهدي عمّك الذي تحبُّه ، ولكن الله يهديه !.

فحبُّ الرسول لرجلٍ هو ــ وحده ــ دليلٌ على إيمان هذا ، الذي يحبُّه الرسول (ص) ، لأن الرسول منهيٌّ ، عن حبّ غير المؤمنين .

وقد تكرَّرت الإشارة منَّا ، لهذه الناحية . فالإعادة ، ليست سوى تكريرٍ وتطويلٍ .

ب ــ ومِنْ ناحيةٍ ثانيةٍ : تكون دليلاً على رفعة إيمان أبي طالبٍ، لأن إيمانه يكون ــ حينئذٍ ــ بهدايةٍ مِنَ الله ، وليس بدعوة الرسول له ، فحسب.

بل إن هناك عنايةً إلٰهيةً ، اختصَّت أبا طالبٍ.

لذلك... خاطب اللهُ سبحانه ، رسولَه ، قائلاً له : إن هدايــة عمك ، ليست منك . وإنما الله هو الذي أمدَّه ، فهداه ، حيث اختصَّه ، فكان حامي دينك ، بعد أن رعاك وتحوطك ، وفداك ...

— ٥ —

بعد هذا... لا نجد حكماً مرتجلاً ، أوهى دليلاً ، مِنْ هذا الحكم ، يرسله الزجّاج ، حول هذه الآية ، فيدّعي : أن قد [أجمع المسلمون أنها نزلت في أبي طالبٍ][1] .

(١) الكشاف ٣٣٢ : ٣

فمن أين هذا الإجماع ، وما هو إلا في عالم الوهم ، والخيال الخلّاق ؟!.

وأيُّ دليلٍ، يعضد هذا الإدعاء الكاذب...؟! وكيف لم يخشَ مغبّة هــذه الدعوى الشائنة : ومسؤولية هذا الحكم الطائش ؟.

وأقلُّ ما فيه : إخراج أهل البيت ، وشيعتهم ، مِنَ المسلمين ، الذين يزعم إجماعهم على باطل هذه الدعوى... ويخرج ــ أيضاً ــ طائفةً مِنَ الصحابة ، وطائفةً مِمَّن اتَّبع صريح الحق ، وسار في مهيع المحجة ، فآمن بالأمر الواقع ، وأقرَّ بالثابت مِنْ إيمان بيضة البلد... لأنه إن لم يُخرجهم مِنْ عداد المسلمين ، انتقض عليه ادعاء الاجماع ، لأن أية قولةٍ لأحد هؤلاء، تقضي على مزعمته ، وادعائه للإجماع الذي لا وجود له !.

والغريب ــ وكم في هذا الموضوع ، مِنْ غريبٍ عجيبٍ !ــ إن دليله على هذا الاجتماع الموهوم حديثٌ كاذبٌ ــ لم يذكر له سنداً ، حتى نكشف عمّا فيه مِنْ كذّابٍ ووضّاع ــ ولكن لا شك في أن أصله بعض تلك الاحاديث ، التي زيفنا سندها الواهي المتهالك . وقد أضاف إليه ما شاء له الخيال ، الذي أوجد تلك مِنْ عدمٍ... والكذبة قد تُولد صغيرةً ، ثم تنمو...!

وإننا لنجد التناقض ظاهراً ، وروائح الخلْق تفوح ، بين سطور هذه الكلمات ، التي يقولها على لسان أبي طالبٍ :

(يا ابن أخي ! قد علمتُ أنك لصادقٌ : ولكني أكره أن يقال : خرع عند الموت[2]) ــ حتى يختمها : [ولكن سوف أموت على ملّة الأشياخ : عبد المطلب ، وهاشم ، وعبد مناف][3] .

ولا نريد : أن نعيد النقاش حول هذا ، أو أن ندلّ على التناقض ،

(٢) خرع ــ هنا ــ بمعنى : خار .
(٣) الكشاف ٣٣٢ و ٣٣٣ : ٣.

فيكفي رداً على ذلك: ما سبق حول مثل هذا القول المخلوق .

ولكن نُشير إلى أن القرطبي ، قد استكبر هـذه الدعوى الضخمة — دعوى الاجماع ! — فأراد أن يخفف مِنْ حدّة قبحها . فعقّب قائلا :

(والصواب أن يقال : أجمع جلّ المفسرين على: أنها نزلت في شأن أبي طالبٍ)(١) .

غير أنه لم ينجُ مِنْ مثل ما وقع فيه الزجاج ، مِنْ: تهويل الدعوى ، وتضخيم الادعاء... فالادعاءان ، لا يدعمهما دليلٌ ، ولا يقوّيهما برهانٌ ، ولا يعتمدان على قوةٍ مِنْ: منطقٍ، أو بيانٍ .

وشبيهٌ بهذا الحكم الطائش ، يرتجله الزجاج ، دون أن تتوافر فيه أيّ مقوّمات الحكم ، ما قاله ابن كثيرٍ حول هذه الآية :

(وقد ثبتَ في الصحيحين : أنها نزلت في أبي طالبٍ عمّ رسول الله (ص) ، وقد كان يحوطه وينصره ، ويقوم في صفّه، ويحبّه حباً شديداً طبيعيّاً لا شرعيّاً — كذا ؟!)(٢)

ثم استشهد بتلك الأحاديث، التي عرضنا ، وفكّكنا منها العرى المفصومة ...

فمِنْ أين هذا الثبوت ، الذي يرسل الحكم عنه ، في غير خوفٍ، مِنْ: مسؤوليةٍ، أو حسابٍ...؟! وهل يثبت مثل هذا التحريف ، بمثل هذه الأخبار التجارية ، التي يضعها هؤلاء...؟

ومضحكٌ أن ينقل حول أحد هذه الأحاديث: ما قاله الترمذي أنه (حسنٌ غريبٌ ، لا نعرفه إلا مِنْ حديث يزيد بن كيسان)(٣).

فقد اعترف بغرابته ، وانفراد يزيد به... هذا الذي لا يحتجّ به ، ولا يعتمد

(١) الغدير ٢٢ : ٨، عن تفسير القرطبي ١٣ : ٢٩٩ .

(٢) (٣) تفسير كثير ٣٩٤ : ٣ .

عليه — كما سبق أن رأينا ، عندما وقفنا عنده ، في ما مضى ، مِنْ تزييف السلسلة، التي افتعلت هذا الحديث(١) — فمِنْ أين هذا الحسن ، الذي جاز للترمذي أن يصفه به...؟!

ولا نريد نقاش ابن كثيرٍ في هذا الحبّ الذي حلا له أن يسمّيه بالطبعي، لا الشرعي ؛ حيث أن في تضاعيف الكتاب ما يقوم بالبرهنة ، على أن هذا الحبّ ؛ يمحضه أبو طالبٍ محمداً الرسول، لا ابنَ أخيه ...

* *

ومثيلٌ مِنْ هذا التخريف ، يُسمّى تفسيراً — تارةً — وتأريخاً — أخرى — وحديثاً — ثالثةً — قولُ مَنْ قال :

[إن أبا سعيدٍ بن رافع قال : سألتُ ابن عمر عن هذه الآية : إنّكَ لاتهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ — أفي أبي جهلٍ، وأبي طالب ؟. قال : نعم !](٢) .

ونحن وإن لم نقف على سند هذا القول، إلا انه ليس مِنَ الأهمية بمكانٍ، حتى ولو لم يكن في السند مغمزٌ، أو فضيحة؟، ما دام هذا ليس سوى رأيٍ منسوبٍ لابن عمر ، لا بصفته حديثاً .

ولكن كيف يقبل العقلُ هذا الرأيَ — حتى مع عدم ثبوت إيمان أبي طالبٍ — وهو يجمع بين: أبي طالبٍ ، وأبي الجهل ، في منزلةٍ واحدةٍ...!؟

فالاثنان — أبو طالبٍ، بحبه ودفاعه ، وتفانيه وكفالته للرسول ...وأبو الجهل، في الخط المعاكس لهذا الموقف ، أوضح ما يكون الخلاف — الاثنان عند الرسول ، في منزلةٍ واحدةٍ، يحبُّ هدايتهما وإسلامهما — ومَنْ يدري ، فلعلّ جانب حبّه هذا لأبي الجهل، هو الراجح! — ولكن الله لا يحبّ ذلك...! ألا فلتسقط القِيم ! ولتنعدم الكفاءات ! وليتساوَ الحسْن والقبْح :

(١) ص ٣٢٥

(٢) أسباب النزول ١٦٨ ، ١٦٩ .

إن هذا التهجّم القبيح ليس ضدّ أبي طالبٍ، فهو ليس سوى النيل مِنَ الرسول ، حيث يكون في منزلةٍ ظالمةٍ جائرةٍ يجانف العـدالة ، ويتجنّى على الحق !ـعفوك ، يا الله !.

ولا يقف التفسير بالرأي عند حدٍّ بل نجد كلاًّ يفسّر الآية بما يشتهي، حسب الهوى والعاطفة... إذ نجد مَنْ يرى تبعيض الآية ، بين: أبي طالب ، والعباس ؛ فيرى صدْرها لأبي طالبٍ، وذيْلها للعباس[1] . وبين وفـاة أبي طالبٍ، وإسلام العباس ، طويلُ أمدٍ ، كما أن العباس لم يسلمْ إلا بعـد نزول هذه الآية ، بعددٍ مِنَ السنين !.

* *

لقد تقدّمتِ الإشارة منّا ، لقولة سيدنا الوالد ، التي ترى : أن البلاء جاء أبا طالبٍ لكونه أباً للامام عليٍّ...وأن حملة الدعاية والتشويه والتحريف، لم تكن لتتوجّه ضدّه ، لو كان أبا لغير عليٍّ ، فهي لم توجّه إليه ، إلا بالواسطة، وإلا فالغاية منها ، هي: ابنه عليٌّ !.

وتجد بعض التحريف ــ حول هذه الآية ــ يسند هذا الرأي ويقوّيه: طلَب معاوية مِنْ سمرة ـ كما قدّمنا في [على العتبة][2] ــ أن يحرف آيةً ضدّ عليٍّ ، وآيةً لصالح ابن ملجم !.

ومقابلةً لذلك في أبي طالبٍ، جاء مَنْ قال :

إن آية [إنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ] في أبي طالبٍ، فإن النبي (ص) ، كان يحب إسلامه ، فنزلت الآية ؛ وكان يكره إسلام وحشي قاتل حمـزة ،

---

(١) الغدير ٢٢ : ٨ عن تفسير القرطبي ١٣ : ٢٩٩ والدر المنثور ٥: ١٣٣.
(٢) ص ٣١ ، وما بعدها .

فنزل فيه :

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ــ الآية[1] .

فلم يسلم أبو طالبٍ، واسلم وحشيٌّ[2] .

وتأكيداً لمزعمة هذا الرأي التفيه : أن يسند لابن عباسٍ، حتى يبين لنا مدى التناقض والتخبيط .

وهو ليس سوى رأيٍ، مِنْ بين تلك الآراء ، التي توضع ، لا تخـدم سوى الغاية ، التي وُضعت مِنْ أجلها... ولا يهمّ واضعها ـ بعد ذلك ـ أن تنال مَنْ وما تنال ، أو أن تتخطّى مِنَ القيم ما تتخطّى !.

فالرسول ــ على هذا الرأي ومثله ـ يخالف مَنْ أرسله ، في إرادته، فيحب ما لا تحبه الإرادة الإلّهية !. فالله سبحانه ــ وأستغفره ! ـ لم يرد إيمان أبي طالبٍ، ولعله لعداءٍ بينهما قديمٍ!، أو لعلّ سبب هذا العداء كفالته للرسول وتربيته ، وحماية دِينه ، ودفاعه عن المؤمنين به ! . ولكن الرسول أحبّ إيمانه ــ وفاءً له ، طبعاً ــ فتعارضتِ الإرادتان ، فغلبتِ الأقوى منهمـا ، فمضت فيه إرادة الله ، هذه الإرادة العدائية ، التي لم تدعْه يؤمن...!

أمّا وحشيٌّ ، فقد تعارضت إرادة المرسِل والرسول ــ أيضاً ــ ولكنهما اختلفتا عن تينك . فالرسول لم يحبّ إيمان وحشيٍّ ، لأن وحشياً قتل عمّـه حمزة ، فبقي الكره عميقاً ، ونما الحقد مريراً ، في نفس الرسول ، حتى كره له الإيمان...! ولكن المرسِل عطف على هذا المسرف على نفسه ، فاغتفر لـه دم حمزة المسفوح ظلماً ، في الجهاد في سبيله ، ولم يرعَ عاطفة رسوله الجموح، فأحبّ إيمان وحشيٍّ...! وفي اصطراع الارادتين ، غلبت إرادة الله التي جعلت مِنْ وحشيٍّ مؤمناً...!!!

---

(١) الزمر : ٥٣. (٢) مجمع البيان ٢٠٧ ، ٢٠٨ : ٢٠ .

وليتهم أضافوا : أن مِنْ تمام إيمانه في إدمانه للخمرة ، يعاقرها ، حتى خالطت روحَه ودمَه ، فلا يكاد يكون منها في ساعة صحوٍ ، حتى آخر رمقٍ مِنْ حياته ، المليئة بالسّكر والجرائم...![1] .

وكيف يصحّ نزول هذه الآية ، في وحشيٍّ ، وهي عامةٌ للمسلمين ، وقد نزلت بمكة ، ولم يتظاهر وحشيّ — الذي لم يفارقـه معنى اسمه — بالإسلام ، إلا بعدها بسنين عدةٍ...؟[2] .

وفي أشدّ مِنْ هذا... يقع مَنْ لا يحسب للمسؤولية وزناً ، فينساق وراء بهرج السراب ، أو يخبط في مدلهمّ الظلمة !.

ميراث أبي طالب

مِنْ بين المفتريات ، في حق شيخ البطحاء : ما يفترونه بأن علياً وجعفراً ، لم يأخذا مِنْ تركة أبيهما شيئاً ، لأنهما مسلمان ، وأباهما كافرٌ...![3] .

ونحن لم نعرف سند الفرية ، حتى نكشف الستر ، عمّا خلفه ، مِنْ خزيٍ وفضيحة...!

ولكن هذه الفرية ، لم يضعها ، غير جاهلٍ بشروط الميراث ، عند المسلمين. فكلُّ ما لديه مِنَ العلم ، هو حديث : « لا توارث بين ملّتين » .

ونحن نقول بصحة الحديث . ولكن معناه : إن الكافر ، لا يرث المسلم. وليس مانعاً أن يرث المسلمُ كافراً ، لأن الاسلام يرفع المسلم . كما أشارت لذلك الأحاديث المتصلة بهذا الموضوع ، كقوله (ص)

(1) راجع [على العتبة] — ص٥٩ — حيث أسندنا ذلك للإستيعاب ص٦١٠ : ٣ .
(2) مجمع البيان ١٦٤ : ٢٣ .
(3) السيرة الحلبية ٧٤ : ١ .
وقد ذكرنا في: الحجة ٣٢ ، وشيخ الأبطح ٧٨ ، مع الردّ عليه .

[الإسلام يعلو ، ولا يُعلى عليه] .

ومعنى « التوارث » لا يحصل ، إلا إذا كان ثمة تفاعلٌ — أي : أن يرث المسلمُ الكافرَ ، والكافرُ المسلمَ .

أما أن يرث المسلمُ الكافرَ فحسب ، فهو ليس مِنَ التوارث ، إذ ليس فيه شيءٌ مِنَ « التفاعل » .

ومِنْ هنا... تجد أن الإسلام ، لا يبيح للكافر أن يتزوج المسلمة ، — وهي أرفع منه وأعلى — بينما يجيز بعض العلماء : أن يتزوج المسلمُ الكافرةَ الكتابية ، بالزواج الدائم . وقد أجمعتِ الشيعة على ذلك ، بالزواج المنقطع — في ما أعلم .

فلو سلّمنا صحة هذه الفرية — وليس لنا أن نسلّم بها ، بعـد أن رأينا الأصل الإسلامي ينقضها — فما هي بدليلٍ ، على كفر شيخ الأبطح !؟ إذ لعليٍّ وجعفرٍ « المسلمَيْن » — اللذَيْن لا أظنّ مَنْ يشكّ في إسلامهما ؟! — أن يرثا أباهما ، حتى لو كان كافراً — كما يزعم المفترون ! — تمشياً ، مع الأصل والنص الاسلامي .

ولكن واضع هذه الفرية — كما قلنا — جاهلٌ بالإسلام وقوانينه...!

حديث الضحضاح

نرى أن نقدم للقارىء — أولاً — هذا الحديث ، في صُوَره التي وضعها الوضّاعون ، لنبدأ الحديث عنه ، بعدئذٍ :

— ١ —

عن عبيد الله بن عمر القواريري ، ومحمدٍ بن أبي بكر المقدمي ، ومحمدٍ

ابن عبد الملك الأُموي ، قالوا : حدثنا أبو عوانة ، عن عبد الملك بن عميرٍ ، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن العباس بن عبد المطلب ، أنه قال : يا رسول الله ! هل نفعتَ أبا طالبٍ بشيءٍ ، فإنه كان يحوطك ، ويغضب لك ؟ .

قال : نعم ! هو في ضحضاحٍ مِنْ نارٍ ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل مِنَ النار !(١) .

- ٢ -

عن ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن عبدالملك بن عمير ، عن عبدالله بن الحارث ، قال : سمعتُ العباس يقول : قلتُ : يا رسول الله ! إن أبا طالبٍ كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك ؟ قال : نعم ! وجدتُه في غمراتٍ مِنَ النار ، فأخرجته إلى ضحضاحٍ(٢) .

- ٣ ، ٤ -

عن محمد بن حاتم ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن سفيان ـ الخ(٣) .

عن أبي بكر بن أبي شيبة ، حدثنا وكيع عن سفيان ، كالحديث الأوّل (٤) .

- ٥ -

عن قتيبة بن سعيد ، حدثنا ليث ، عن ابن الهاد ، عن عبدالله بن خباب ،

(١) و(٢) و(٣) و(٤) صحيح مسلم ١٣٤ ، ١٣٥ : ١م[باب شفاعة النبي لأبي طالبٍ] الخ .

عن أبي سعيدٍ الخدري : إن رسول الله ﷺ ذُكر عنده عمه أبو طالبٍ ، فقال : لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة ، فيُجعل في ضحضاحٍ مِنْ نارٍ ، يبلغ كعبيه ، يغلي منه دماغه(١) .

- ٦ -

عن أبي بكرٍ بن أبي شيبة ، حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا ثابت ، عن أبي عثمان النهدي ، عن ابن عباس : إن رسول الله قال : أهون أهل النار عذاباً : أبو طالبٍ ، وهو منتعلٌ بنعلين ، يغلي ، منهما دماغه(٢) .

- ٧ -

عن مسدّد ، حدثنا يحيى ، عن سفيان ، حدثنا عبدالملك ، حدثنا عبدالله بن الحرث ، حدثنا العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، قال للنبي ﷺ : ما أغنيتَ عن عمك ، فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ . قال : هو في ضحضاحٍ مِنْ نارٍ ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل مِنَ النار !(٣) .

- ٨ ، ٩ -

عن عبدالله بن يوسف ، عن الليث ـ الخ ـ كما في الحديث الخامس(٤) .

(١) و (٢) صحيح مسلم ١٣٥ : ١ .
(٣) و (٤) صحيح البخاري ٢٠١ : ٢ [باب قصة أبي طالبٍ] .

عن إبراهيم بن حمزة ، حدثنا ابن أبي حازم ، والدراوردي ، عن يزيد ، بهذا ــ الحديث الخامس ــ وقال : تغلي منه أمُّ دماغه[1] .

☆ ☆

الرواة :

والآن نطوف بهذه الحلقات ، التي جاءت بمثل هذا الحديث ، لنتعرّف على مكانة الرواة ، مِنْ بين رجال الحديث ، وكفتهمُ الشائلة ، في ميزان الرجال :

ـ ١ ـ

ننظر في رواة الحديث الأوّل :

أ ــ لم نجد لعبيد الله القواريري أثراً في « الميزان » . وقد وقفنا على حديثٍ ــ في الغدير ــ مِنْ بين رواته عبيد الله هذا ، وقد عرض له المؤلف بالتزييف . فقال عن عبيد الله :

[وفي الإسناد عبيد الله القواريري : روى عنه البخاريُّ خمسةَ أحاديث فحسب ، ومسلمٌ أربعين حديثاً . وقد سمع منه أحمد بن يحيى مائة ألف حديثٍ ــ فما حكم ذلك الحوش الحائش ممّا جاء به القواريري بعدما لم يأخذ البخاريُّ ومسلمٌ منه إلا عدة أحاديث ، وضربا عن كلّ ذلك صفحاً ؟ ومِنَ المستبعد جدّاً عدم وقوفهما عليها][2] .

ب ــ وكذلك محمدٌ بن أبي بكر المقدمي ، لم نجد له ذكراً ، سوى ذكرٍ

(١) صحيح البخاري ٢٠١ : ١ .
(٢) الغدير ٢٩٥ : ٩ ، مسنداً ما ذكره ، لتهذيب التهذيب ٧ : ٤١ .

لمحمدٍ بن أبي بكرٍ ، بأنه مجهولٌ[1] .

وقد جاء في الغدير : حديثٌ ، زُيّف هناك ، ومِنْ رواته : محمد بن أبي بكرٍ المقدمي[2] .

ج ــ أما محمدٌ بن عبد الملك الأُمويُّ ، فيكفينا أن يكون أُمويّاً ، ليضع مثل هذا الحديث ، أو يروي ما يماثله ، في حق شيخ الأبطح .

وإن يكن هو محمدٌ بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، فيكفينا : أن يكون أبوه هذا الطاغية ، وجداه هذين الملعونين على لسان الرسول ، وهما الوزغان ــ في تعبيره (ص) ــ والحكم هو : الملعون ، وما أنتج ، وهو طريد الرسول . ومروان ، ليس سوى فضضٍ مِنْ لعنة رسول الله ــ كما عبّرت السيدة عائشة .

وأمّا محمدٌ هذا ، فقد قال عنه أبو داؤود : « لم يكن بمحكَم العقل »[3]

د ــ ولندع أبا عوانة خفيّاً في غموضه .

هـ ــ عبدالملك بن عمير : وليَ قضاء الكوفة ، بعد الشّعبيّ ، فطال عمره ، وساء حفظه ــ كما يقول الذهبيُّ ــ وقد قال عنه أبو حاتم : ليس بحافظٍ ، تغيَّر حفْظه . وقال الإمام أحمد : ضعيفٌ يغلط . وقال ابن معين : مخلّطٌ . وقال ابن خراش : كان شعبة لا يرضاه . وذكر الكوسج عن أحمد : أنه ضعيفٌ جدّاً[4] . وقال ابن حبان : كان مدلّساً[5] .

ومِنْ فضائل هذا القاضي السيِّء ــ وما أكثر بلايا الأُمّة ، مِنْ فضلة السوء هؤلاء ! ــ أنه مر بعبدالله بن بقطر وقد ألقاه ابن زياد الطاغية ، مِنْ عالي

(١) ميزان الاعتدال ٩٦ : ٣ .
(٢) الغدير ٢٧٠ : ٩ .
(٣) الميزان ٩٦ : ٣ .
(٤) الميزان ١٥١ : ٢ .
(٥) دلائل الصدق ٤٥ : ١ ــ مع بعضٍ مِنَ الأقوال السابقة .

القصر ، وبه نَفَسٌ، فأجهز عليه حضرة القاضي « الرحيم » بمدينته[1] .

وهذه حادثةٌ ، لهذا القاضي — وما هو سوى صورةٍ للقضاة البُطل !؟ الذين يصدرون أحكامهم ، مستمدةً مِنَ العاطفة ، مسيَّرةً بالشهوة ! — فقد تقدَّمت له كلثم بنت سريع حينما كان على قضاءِ الكوفة — مخاصمةً أهلَها ، فما إن قضى لها عليهم ، حتى ظُنَّ في حكمه ، وحامت حوله الرِّيَبُ والشبهات، فانطلق لسان الشعر ، يجسِّد هذه التهم ، ويصوِّر خطوطها ؛ فقال هذيل بن عبدالله الأشجعي :

أتاهُ وليدٌ بالشهودِ يقودُهُمْ — على مَا ادَّعَى مِنْ صامتِ المالِ والخوَلْ
وجاءتْ إليهِ كلثمٌ ، وكلامُهَا — شفاءٌ مِنَ الداءِ المخامرِ والخبَلْ
فأدلَى وليدٌ عندَ ذاكَ بحقِّه، — وكانَ وليدٌ ذَا مراءٍ وذَا جدَلْ
وكانَ لهَا دَلٌّ وعينٌ كحيلةٌ — فأدلتْ بحسنِ الدَّلِّ منهَا وبالكَحَلْ
ففتنتِ القبطيَّ حتَّى قضَى لهَا — بغيرِ قضاءِ اللهِ فِي السوَرِ الطوَلْ
فلوْ كانَ مَنْ بالقصرِ يعلمُ علمَهُ — لَمَا استعملَ القبطيَّ فينَا علَى عمَلْ[2]
لهُ حينَ يقضِي للنساءِ تخاوصٌ — وكانَ ومَا فيهِ التخاوصُ والحوَلْ[3]
إذَا ذاتُ دلٍّ كلَّمتْهُ بحاجةٍ — فهمَّ بأنْ يقضِي تنحنحَ أوْ سعَلْ
وبرَّقَ عينيهِ ولاكَ لسانَهُ — يرَى كلَّ شيءٍ مَا خلَا شخصَهَا جلَلْ[4]

---

(١) أعيان الشيعة ص ٢٢٢ ج ق ١.

(٢) عُرف عبد الملك بن عمير ، بالقبطيِّ ،لفرسٍ له ، كان اسمه قبطي — الميزان ١٥١ : ٢ .

(٣) تخاوص : غضَّ مِنْ بصره وهو — مع ذلك يحدِّق النظر ! وهو يعني هنا : أنه يسارق النساء اللحظات المشبوهة .

(٤) الجلَل مِنَ الأضداد . وهو — هنا — الهيِّن اليسير .

ارجع للحادثة والشعر للبيان والتبيين ٢٧١ : ٣ .

— ٢ —

وننتقل لرواة الحديث الثاني:

أ — تبدأُ سلسلة الحديث ، حسب العادة ، بهذا الغامض : ابن أبي عمر؟.

ب — وبعده سفيان الثوري، وهو الذي سبق أَن تعرَّفنا عليه ، في أول حديثنا ، عمَّا حُرِّف في حق أبي طالبٍ — فوجدناه كذَّاباً مدلِّساً[1] .

— ٣ —

أمَّا سلسلة الحديث الثالث ، فقد سبق أن وقفنا عند أفرادها ، كمحمدٍ ابن حاتم ، ويحيى بن سعيد[2] وسفيان (١) .

— ٤ —

ويوافينا في الحديث الرابع :

أ — أبو بكرٍ بن أبي شيبة : عدَّه الذهبيُّ مِنْ مجاهيل الإسم[3].

ب — ولسنا نعلم مَنْ وكيع هذا ؟.

فإن يكن هو وكيع بن الجراح . فقد قال ابن المديني : كان وكيع يلحن، ولو حدَّثت بلفظه لكانت عجباً ، كان يقول : حدثنا الشعبي عن عائشة . وسئل أحمد بن حنبل : إذا اختلف وكيع وعبدالرحمن بن مهدي ، بقولٍ، بمَنْ نأخذ ؟ فقال : عبدالرحمن يوافق أكثر ، وخاصَّة في سفيان —

---

(١) ص ٣٠٥ و ٣٠٦ (٢) ص ٣٢٥.

(٣) ميزان الاعتدال ٣٩٥: ٣ .

والحديث هذا ، يُروى عن وكيع ، عن سفيان .

ورأى الذهبيُّ أن يتمّ فيه حلقة القدح ، فقال فيه ، عن ابْن المديني ، في التهذيب : « كان فيه تشيّعٌ قليلٌ » .

وهذه النغمة ـ مِنَ الذهبيِّ ـ معروفةٌ ، تعبّر عن طائفيته البغيضة المقيتة... فهو إذا شاء أن يبالغ في قدحه لشخصٍ ، نسبهُ للتشيّع ، الذي هو ـ لديه ـ فوق الكفر والزندقة .

ونحن لسنا في مجال حسابه عن هذا... ولكن مِنْ فمه أدينه .

فإذا كان ليس ثقةً ، لتشيّعه ـ فلماذا يُؤخذ منه حديثٌ ، لو صحّ تشيعه ، لا تفي عزو الحديث إليه ، لأنه يخالف عقيدته الحقة ، في شيخ الأبطح...؟

وعلى كلٍّ ، فنحن لا يهمّنا كونه شيعيًّا ، أم لم يكن . ولكن يهمّنا : أن الرجل غير مقبولٍ ، عند مَنْ يتشبّث بحديث الضحضاح !.

- ٥ -

وهذا ما ضمّه الحديث الخامس :

أ ـ قتيبة بن سعيد يقول عنه الذهبيّ : لا يدري من هو ؟ [١].

ب ـ الليث : هناك حفنةٌ ، ليس بينهم سوى المجهول ، والضعيف ، والمنكر ، ومضطرب الحديث ـ الخ ..

فإن يكن هو الليث بن سعد ـ كما يقول صاحب شيخ الأبطح[٢] ـ فقد قال عنه يحيى بن معين : إنه كان يتساهل في الشيوخ والسماع . وذكره النباتي في تذييله على الكامل[٣] ـ وهو « كتابٌ في الضعفاء »[٤] .

(١) الميزان ٣٤٥ : ٢ . (٢) ص ٧٥ .
(٣) الميزان ٣٦١ : ١ . (٤) شيخ الأبطح ٧٥ .

ج ـ أما ابن الهاد ـ وهو : يزيد بن عبدالله بن الهاد ـ فقد أورده أبو عبدالله بن الحذاء ، في « باب مَنْ ذكر بجرحٍ مِنْ رجال الموطأ » .

وقال عنه ابن معين : يروي عن كلِّ أحدٍ[١] .

د ـ وأما عبدالله بن خباب ، فقد قال عنه الجوزجاني : لا يعرفونه[٢].

- ٦ -

وفي الحديث السادس

أ ـ أبو بكر بن أبي شيبة . وقد وقفنا عنده في رقم «٤» .

ب ـ ومَنْ عفان هذا ؟ .

والظاهر : إنه عفان بن مسلم ، حيث أن إسناد الحديث عنه ، لحماد بن سلمة ، لثابتٍ ، يُوافق ما ذكر الذهبي مِنْ حديثٍ ، عنه ، في ترجمته له .

وهو الذي قال ابن عديّ عنه ، بعد كلامٍ : والله ! لو جهد جهده أن يضبط في شعبة حديثاً واحداً ، ما قدر . كان بطيئاً رديء الحفظ ، بطيء الفهم[٣].

وقال أبو خيثمة : أنكرنا عفان قبل موته بأيامٍ[٤] .

ج ـ حماد بن سلمة : له أوهامٌ ـ كما يقول الذهبي ـ وقال ابن المديني: كان عند يحيى بن الضرير ، عن حماد ، عشرة آلاف حديثٍ . وقال عمرو ابن سلمة : كتبتُ عن حماد بن سلمة ، بضعة عشر ألف حديثٍ[٥] .

هل رأيتَ هذه الكثرة ...؟! فعند واحد عنه : عشرة آلافٍ !. وعند

(١) ميزان الاعتدال ٣١٤ : ٣ .
(٢) المصدر ٣٣ : ٢ . (٣) المصدر ٢٠٢ : ٢
(٤) المصدر ٢٠٣ : ٢ . (٥) ٢٧٧ : ١ .

الآخر : بضعة عشر ألف !• ولا تسل : هل عند غيرهما ، مثل هذين الرقمين : أم لا ؟.

ثم إنهم قالوا : كان حماد بن سلمة ، لا يُعرف بهذه الأحاديث ــ أي : التي في الصفات ــ حتى خرج ، مرّةً ، إلى عبادان ، فجاء وهو يرويها، فلا أحسب ــ أي : القائل ــ إلا شيطاناً خرج إليه مِنَ البحر ، فألقاها إليه • قال ابن الثلجي: فسمعتُ عباد بن صهيب يقول : إن حماداً كان لا يحفظ ، وكانوا يقولون : إنها [دسّت](1) في كتبه • وقد قيل: إن ابن أبي العوجاء كان ربيبه(2) فكان [يدرس](1) في كتبه(3)

ويكفينا لنقض تفضيل وتوثيق مَنِ ادّعى ذلك له : أن الذهبيّ أورد له، بعد دفاعه ، عنه ، ومدحه له : أحاديثَ ، تنال الخالقَ العظيم نفسه ؛ إذ جسَّمه، كأبشع وأقبح ما يكون التجسيم ــ تنزّه الله سبحانه ، عمّا يفترون ، وتعالى علوّاً كبيراً...!

فقد حدَّث حماد هذا ، عن ثابت ، عن أنس : أن النبي ﷺ ، قرأ : فلمّا تجلّى ربُّه للجبل ، قال : أخرج طرف خنصره، وضرب على إبهامه ، فساخ الجبل • فقال حميد الطويل لثابت : تُحدِّث بمثل هذا ؟.قال : فضرب في صدر حميد ، وقال: يقول أنس ، ويقوله رسول الله ﷺ ، وأكتمه أنا...؟ رواه جماعةٌ عن حماد ، وصحّحه الترمذي(4)

فهل مِنْ قيمةٍ ــ بعد هذا ــ لحديثٍ يوصف بالصحة...؟ وهل مِنْ حديثٍ ــ بعد هذا ــ لا ينال مثل هذه الصفة...؟!

وحماد ــ أيضاً ــ هو الذي يروي مرفوعاً : رأيتُ ربّي ــ وهو ربُّ حماد ، لا ربنا العظيم ! ــ جعداً أمرد ، عليه حلّةٌ خضراء...! وأنه رآه في صورة شابٍّ أمرد ، دونه سترٌ مِنْ لؤلؤ قدميه ورجليه في خضرةٍ [كذا ؟!](1) •

حتى أن الذهبي ، نسي مدحه السالف فيه، فعقَّب على مثل هذه الأحاديث بقوله :

[فهذا مِنْ أنكر ما أُتي به حماد بن سلمة • وهذه الرؤية رؤية منامٍ ، إن صحّت](2) •

ثم ذكر : إن ابن عديٍّ ساق لحماد جملةً، ممّا ينفرد به متناً ، أو إسناداً(3). وذكر : أن البخاري قد تحايده(4) ــ أي : لم يروِ عنه شيئاً •

د ــ ثابت • لاندري مَنْ هذا ؟ • فهناك حفنةٌ بهذا الإسم ، فيهمُ : الكذوب ، الضعيف المجهول ، ومنكر الحديث(5) • ولا ندري بمكانه ، مِنْ بين هذه الصفات •

ولعلهوهو ثابت بن أبي ثابت ــ فيكون أخاً لحبيب بن أبي ثابت ، أول مَنْ وقفنا عنده ، حول هذا التحريف والتزوير ، في حق شيخ الأبطح(6) • فإن يكن هو ــ فقد عدَّه الذهبي : مجهولاً(7) •

ولكنه ــ طبعاً ــ هو ما يروي عنه حماد بن سلمة • ويكفينا منه أن يتفق مع حماد في الحديث السابق ، عن تجسيم الخالق الأعظم •

وإن كان ذاك الحديث مِنْ نُكر حماد ، فإن المتجرىء على الله سبحانه ، لا يرتدع عن عباده الذين اصطفى •

هـ ــ أبو عثمان النهدي : ليس مِمَّنْ يُعرف(8) •

---

(1) كذا وجدناها • ولعل الصحة : دُسَّت ويَدُسُّ •
(2) في الطبعة الأخرى : « ربيبه » ، ولعلها الأصح ، أو الصحيحة . وبهذا وجدناها مصححةً في طبعة جديدة ، لدار إحياء الكتب العربية بمصر ، عام ١٣٨٢ هـ ــ ١٩٦٢ م •
(3) الميزان ٤٧٨ : ١ • (4) الميزان ٤٧٨ : ١ •

(1) و (2) و (3) الميزان ٢٢٨ : ١.
(4) المصدر ٢٧٩ : ١. (5) المصدر ١٦٨ ــ ١٧٢ : ١. (6) ص ٣٠٦.
(7) الميزان ١٦٨ : ١. (8) الميزان ٣٧٠ : ٣.

- ٧ -

وقد ضمّ الحديث السابع :

أ ـ مسدد : لم نعرفه مَنْ هو ؟. فما هناك ـ في الميزان ـ سوى المسدد بن عليّ، وفيه تساهل[1]. ولكن لا نعلم هل هو هذا؟أم غيره ؟.

ب ـ أما بقية السلسلة ـ وهي : يحيى ، وسفيان ، وعبد الملك ـ فقد وقفنا عند كلّ واحدٍ منها ، وعرفنا قيمته بين الرجال .

- ٨ -

أُما الحديث الثامن ، ففيه :

أ ـ عبدالله بن يوسف . إن يكن هو : عبدالله بن يوسف التنيسي ـ كما يقول صاحب شيخ الأبطح[2]ـ فقد عدّه ابن عديّ، في الكامل : في الضعفاء[3] .

وإن يكن هو : عبدالله بن سليمان بن يوسف ، الذي يروي عن الليث وهو ما أظنه، لأن الحديث الذي نحن بصدده ، قد رواه عبدالله،عن الليث ـ فإنه ليس بمعتمد[4] ، وفيه شيءٌ[5] . وقد رُوي له حديث في الفضائل ، أُنكره الذهبي[6] ـ وكذلك ينكره كلُّ ذي فكرٍ.

(١) الميزان ١٦٢ : ٣. (٢) ص ٧٤ .
(٣) شيخ الأبطح ، والميزان ٨٩ : ٢ .
(٤) الميزان ٨٩ : ٢ . (٥) و (٦) الميزان ٤٢ : ٢ .

ب ـ وهكذا تتّصل سلسلة الحديث بالليث،إلى آخر السلسلة ، التي عرضنا لها ، في الحديث الخامس .

- ٩ -

ونجد بين رواة الحديث التاسع :

أ ـ إبراهيم بن حمزة . وندعه ، ما دمنا لم نقف عنه على أثر! .

ب ـ ابن أبي حازم ، واسمه : عبدالعزيز : ليّنه ابن سيد الناس،كما ذكره ، قبله،العقيلي في كتابه ـ ومجرى الكلام يدل على : أن الكتاب في الضعفاء ـ وهم يرونه : سمع مِنْ أبيه . وأما هذه الكتب،التي عنده لغير أبيه ، فيقولون : إن كتب سليمان بن بلال صارت إليه ، ولا يدري بأنه يدلّسها . وقال الفلاس : ما رأيتُ ابن مهدي حدّث عن ابن أبي حازم بحديث. وقال أحمد : لم يكن يُعرف بطلب الحديث وقيل: إنه ضعيفٌ إلا في حديث أبيه . وقال ابن المديني : كان حاتم بن إسماعيل يطعن عليه في أُحاديث ، رواها عن أبيه ، قال لي حاتم : نهيتُه عنها ، فلم ينته [1] .

ج ـ الدراوردي ، وهو عبدالعزيز بن محمدٍ[2] ، قال عنه الإمام أُحمد : إذا حدّث مِنْ حفظه يهِمُ . ليس هو بشيءٍ،وإذا حدّث جاء ببواطيل . وقال أبو حاتم : لا يحتجُّ به . وقال أبو زرعة : سيّء الحفظ[3] .

د ـ أمّا يزيد ، فلا ندري به مَنْ هو ؟ فإن يكن يزيد بن كيسان ، فقد عرفناه مِمّنْ لا يحتجُّ به ، أو يعتمَد عليه[4] .

(١) الميزان ١٣٥ : ٢.
(٢) شيخ الأبطح ٧٥.
(٣) الميزان ١٣٧ ، ١٣٩ : ٢.
(٤) ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

هذه الجولة ، التي قمنا بها في صفوف رواة الحديث ، لم تبقِ فينا مكاناً لثقةٍ ، لنتقبّل ما يروي هؤلاء...! فإننا وجدنا في كلِّ سندٍ : حفنةً مِنَ الكَذَبة ، الضعفاء والخبثاء — بله المجهولين ، والذين لم نقف عنهم على أثرٍ !.

ولو لم نجد في سلسلة الحديث ، إلا مغمزاً في أحد رواته ، فحسب ، لَمَا اطمأننا إليه ، ولم نثق بما جاء به في أدنى الأمور ... فكيف بهذه السلسلة المفككة ، والحديث حول إيمان رجلٍ ، نصر الاسلام ورعاه...؟!

على أن هناك جوانب أُخرى تدعنا أن نطمئن لهذا الحديث ، وأن نضرب به عرض الجدار ، حتى لو كان رواته من الثقاة ... وكيف بهم ، وهم من المجاهيل الكذبة ، والحديث مِنَ البواطيل...؟!

ويجدر بنا : أن نتناول بالعرض ، بعضَ جوانبه المنهارة :

— ١ —

هناك تضاربٌ في متن الحديث يختلف به المعنى...

ففي بعض الروايات، نجد الجواب المزعوم على الرسول (ص) هو:

[نعمْ ! هو في ضحضاحٍ مِنْ نارٍ . ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل مِنَ النار] .

وتفيدنا هذه الصورة : أن شفاعة الرسول معجّلةٌ له ، وأنها قد وقعت فعلاً... ويتّضح ذلك أكثر ، في الحديث الثاني الذي جاء فيه :

[نعمْ ! وجدتُه في غمرات النار ، فأخرجتُه إلى ضحضاحٍ] .

ولا ندري لماذا لم يتمّ الرسولُ نعمتَه على عمّه ، فيخرجه مِنَ النار ، بعد أن كانت له القوة والنفوذ على إخراجه مِنْ غمرات النار ، فيدعه في هذا الضحضاح ، دون أن يتمّ نعمته... بل يدعها ناقصةً مبتورةً ، حتى ينضوي تحت خطاب المتنبي ، أخيراً :

ولمْ أرَ في عيوبِ الناسِ شيئاً كنقْصِ القادرينَ على التمام...!

في حين أنه (ص) لنسخة الكاملة للبشرية والإنسانية، وهو الذي بعث ليتمّ مكارم الأخلاق ، وهو الذي أدّبه ربه ، فأحسن تأديبه...!

أما بعض الصور الأُخرى للحديث . فهي : « لعلّه تنفعه شفاعتي ، يوم القيامة » — الخ ...

وهذه الصورة لا تحمل سوى الدعاء — فلعلّ ، كما يعبّر النحويون، تحمل معنى « الترجّي » — فهو يرجو له الشفاعة ، فقد تناله ، وقد لا تناله ...وإن قدر لها أن تناله ، فهي مؤجلةٌ له ، إلى يوم القيامة !.

وفي بعضها الآخر : أنه « أهون أهل النار عذاباً ، وهو منتعلٌ بنعلين ، يغلي منهما دماغه » .

وهذا لا يشير إلى أنه كان أخفّ أهل النار عذاباً مِنْ أجل شفيعٍ شفع له ، أو لأنه أقلُّ المعذّبين استحقاقاً للعذاب ...وكيف يجوز أن يكونَ الكافر أهون أهل النار عذاباً ؟. فهل الكافر أهون ذنباً من العاصي ، أو المذنب ، حتى يكون ذاك ، أهون عذاباً من هذا ...؟!.

ثم هل هذا هو أهون عذاب أهل النار؟ وماذا فيه مِنَ الراحة والتخفيف ؟.

وهل أعظم مِنْ هذا العذاب — نعوذ بالله منه ! — ولاسيما ما زيد فيها :«حتى يسيل — أي : دماغه — على قدميه » ؟(١) .

---

(١) السيرة النبوية ٨٤ : ١ .

وهذا ما يتنافى ، وقول مَنْ علّل هذا العذاب ، بأن الله سلّط العذاب على قدميه خاصة ، لتثبيته إياهما على تلك الملّة ، فيكون مِنْ مشاكلة الجزاء للعمل(١) .

فإن يكن العذاب على القدمين خاصةً فما بال دماغه يغلي؟ ولِمَ يسيل حتى يتدفّق ، أو يتدفّق حتى يسيل ؟ وهل الدماغ عينٌ لا تنضب ، كلما فاضت بما يتدفّق منها ، نبعَ مِنَ الأعماق ما لا يجفّ ؟!.

اللّهمّ ! إنا نعوذ بك مِنَ السخف والخرافات !.

- ٢ -

وكيف يشفع الرسول لعمه ، وهو الذي لم يقرّ في قلبه الإيمان — كما يقولون — وقد نهى الرسول عن أقل مِنْ ذلك ، فيما رأينا مِنَ الآيات ، لأن الشفاعة فوق الموالاة ، وفوق المودّة ، وفوق الرفق ، بدرجات ودرجاتٍ...؟! وهو — كما رأينا — منهيٌّ عما دونها ، فكيف عنها...؟ !

وهذه الشفاعة مِنَ الرسول لعمّه — كما يقولون — ما الداعي لها ؟. هل هو العمل ، الذي قام به، في نصرة الرسول(ص) ، ومؤازرة الرسالة؟. فما الذي دفعه لهذا العمل ؟. وما الذي دعا الرسول ، لقبول هذه اليد منه — إن كانت مِنْ كافرٍ! — وهو القائل ، في ما نقلناه عنه : « اللّهمّ! لا تجعل لفاجرٍ ، ولا لفاسقٍ » — الخ — وهل الفسق ، إلا دون الكفر... ؟

أقول: ما الذي دفع الرسول ، لأن يشفع لعمه ، فيخفّف عنه العذاب — إن كان كافراً — وهناك آيات تنصّ على أن الكافر مخلّدٌ في النار ، لا تُرجى له رحمة الله ، ولا يُرجى له أن يُخفف عنه العذاب ، ولا تنفعه شفاعة الشافعين .

(١) السيرة النبوية ٨٤ : ١. وقد نسب هذا الزعم للسهيلي — في قولة متناقضة.

وهذه بعض تلك الآيات :

أ — خَالِدِيْنَ فِيْهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ ، وَلاَ هُمْ يُنْظَرُوْنَ(١) .

ب — أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ، فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ، وَلاَ هُمْ يُنْصَرُوْنَ(٢) .

ج — وَذَرِ الَّذِيْنَ اتَّخَذُوْا دِيْنَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً ، وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ، لَيْسَ لَهَا مِنْ دُوْنِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيْعٌ . وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا . أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ أُبْسِلُوْا بِمَا كَسَبُوْا ، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيْمٍ ، وَعَذَابٌ أَلِيْمٌ بِمَا كَانُوْا يَكْفُرُوْنَ(٣) .

د — وَإِذَا رَأَى الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا الْعَذَابَ... فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُوْنَ(٤) .

هـ — وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ، لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوْتُوْا ، وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ، كَذَلِكَ نَجْزِيْ كُلَّ كَفُوْرٍ(٥) .

و — وَقَالَ الَّذِيْنَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ : ادْعُوْا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ ، قَالُوْا : أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيْكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ؟.

(١) البقرة : ١٦٢ وآل عمران : ٨٨.
(٢) البقرة : ٨٦. (٣) الأنعام : ٧٠.
(٤) النحل : ٨٥. (٥) فاطر : ٣٦.

قالوا : بلى!. قالوا : فادعوا ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال(١) .

ز ـ في جنات يتساءلون عن المجرمين : ما سلككم في سقر قالوا : لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ـ فما تنفعهم شفاعة الشافعين(٢) .

ح ـ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع(٣) .

ط ـ وجاء في الحديث : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقوم مؤذن بينهم : يا أهل النار ! لا موت !. ويا أهل الجنة ! لا موت ! ، خلود ...(٤)

ي ـ وآخر جاء فيه : يقال لأهل الجنة : خلود لا موت !. ولأهل النار : يا أهل النار ! خلود لا موت(٥) .

فهذه الآيات ـ ومثلها ما في الحديث ـ كلها تنص على تخليد الكافرين في العذاب المهين . وإن العذاب لا يخفف عن الكافر ، حتى ساعة من نهار ، لأن الشفاعة ليست مما تناله .

---

(١) غافر : ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) المدثر : ٤٠ ـ ٤٨ .

(٣) غافر : ١٨ .

(٤) و (٥) صحيح البخاري ٨٤ : ٤ .

- ٣ -

وهذا الحديث ـ بالإضافة إلى تناقض الرواة في متنه ، وتضاربها ، وإلى تعارضه مع صريح الآيات ، التي لا تجيز الشفاعة للكافر ، ولا يصله أثرها ـ يتعارض بالحديث الذي وضع في أبي طالب ، بخاصة ، حديث الاحتضار ، الذي ناقشناه : سنداً ، ومتناً .

فحديث الضحضاح ، وحديث الاحتضار ، يتناقضان ويتعارضان ، فهما على طرفي نقيض ، لا يمكن الأخذ بهما ـ حتى لو كانا عن طريق الثقاة .

وبالرغم من هذا ، فإننا نجد بعض رجال حديث الاحتضار ، بين رجال حديث الضحضاح ، وفي صورته التي تفيد معجّل الشفاعة لأبي طالب . وهي أظهر تناقضاً ، وأصرح تعارضاً ، مع ذلك الحديث ـ فكيف جاز لهم رواية حديثين متعارضين : متناً ، ومعنىً ؟

لقد نسي كلٌّ من : ابن أبي عمر ، ومحمد بن حاتم ، ويحيى بن سعيد... نسي هؤلاء عند روايتهم أحد الحديثين ، ما كانوا قد خلقوه من الحديث الأول... ونسي هؤلاء بأن على الكذاب : أن يكون على قسط محترم من الذاكرة ، لئلا يقع في مثل ما وقعوا فيه ، من الكذب المتناقض ، فتنفضح غايتهم ودخلتهم السوداء...! ولكن فهذه نهاية كلّ باطل وافتراء .

لقد ذكروا ـ في حديث الاختصار ـ أن الرسول (ص) ، طلب من عمه كلمة ـ وهي الشهادة ـ له بها عند الله ، ويحاجّ له بها عنده ، ويستحلّ له بها الشفاعة(١) ويقولون : إنه لم يقلها .

---

(١) الغدير ٣٧٠ ، ٣٧١ : ٧ ـ مسنداً لمصدرين ـ وص ٢٤ : ٨ عن ستة مصادر ، مع تصحيح الحاكم والذهبي له .

فهو ــ في هذا المحكيّ على لسان الرسول ــ قد علّق استحلال الشفاعة على النطق بالشهادة ، حيث لا يحلّ له ذلك بدونها... لذلك لم يقولوا فيه : إنه شفع له ، وإنما استغفر له ، حتى نهاه الله عنه ، وأعلمه بخطأ استغفاره ــ ذلك الوقت الطويل ــ رغم ما نزلت عليه مِنْ آياتٍ ناهيةٍ فلم ينتهِ بها...!

ثم يقولون ــ هنا ــ إن الرسول شفع لعمّه شفاعةً معجلةً ، صدرت قبل نطقه بهذه القولة .

[نعم ! وجدتُه في غمراتٍ مِنَ النار ، فأخرجتُه إلى الضحضاح] .

فكيف شفع له ــ في هـــذا الحديث ــ إذا كان قـــد علّق الشفاعـــة على النطق بالشهادة ، وهو لم يتفوّه بها...؟ فهل قالهـــا أبو طـــالبٍ ؟، أم لم يقلها ؟.

فإن لم يكن قد نطق بها ــ كما يقولون في حديث الاحتضار ــ فقدرأينا الشفاعة ــ أيّاً كان نوعها ــ لا تنال الكافر ، في الآيات التي ذكرنا بعضها ، حتى بتخفيف العذاب عنه...؟ كما أنها لا تناله بالذات ، على رأي أصحاب الحديث الأوّل ، الذي علّق الشفاعة على نطق تلك الكلمةـ وحلقـــة بعض الرواة فيهما واحدةٌ .

وهو إن نطق بها، فإن مفهوم الكلام والحوار ــ في حديث الاحتضار ــ لا يقصر على تخفيف العذاب ، مِنَ الغمرات إلى الضحضاح...! وهل الرسول مِنَ البخل إلى هذا الحد ، بحيث لا يشفع لِمَنْ نصره وربّاه ، وكفلـــه ، إلا بتخفيف العذاب...؟!

وماذا خفّف عليه مِنَ العذاب ، بعد فيض دماغه ، وتدفقه على قدميه ؟!.

وهو إن نطقها ، ولم يستحلّ الرسول له الشفاعة ، إلا بعد التفوّه بها...

فإن هذا الحديث ــ في تحديده الشفاعة، بتخفيف العذاب ــ يتعارض، مع بعض الأحاديث الأُخرى ، الموجودة في الصحاح ، التي تعتبر الناطق بالشهادة ، مِنْ أهل الجنة، لا مِنْ أهل النار :

« مَنْ مات، وهو يعلم أنه لا إله إلا الله ، دخل الجنة »(١) .

[لا يدخل النار أحدٌ يقول : لا إله الا الله](٢) .

ثم إن حديث الضحضاح ، يتعارض ــ أيضاً ــ في تعجيله الشفاعة ، بأحاديث أُخرى، تتّصل بموضوع الشفاعة ، ونرى مِنَ الخير استعراض جانبٍ منها :

[قيل لي : سَلْ، فإن كلّ نبيٍّ قد سأل . فأخّرتُ مسألتي إلى يوم القيامة، فهي لكم لِمَنْ شهد أنْ لا إله إلا الله(٣)] .

فهذا الحديث يفيد : أن الشفاعة مِنَ الرسول ، لا تنـــال مَنْ لم يؤدِّ الشهادة . ومثله هذه الأحاديث :

[أُعطيتُ الشفاعة ، وهي نائلةٌ مِنْ أُمّتي مَنْ لا يشرك بالله شيئاً](٤) .

[إن شفاعتي لكلّ مسلمٍ](٥) .

[أوحى الله إلى جبريل عليه السلام : أن اذهب إلى محمدٍ ، فقل له : ارفع رأسك ، سلْ تُعطَ ، واشفعْ تُشفّعْ ــ إلى قوله: أَخرِجوا مِنْ

---

(١) صحيح مسلم ٤١ : ١ ــ وفي الغدير ٦٤ : ٦٥ : ٩، و١١٩ ، ١٢٠ : ١٠، بضعةٌ مِنَ الأحاديث ، التي تتّصل بهذا المعنى .

(٢) سِير أعلام النبلاء ٢٩٥ : ٢ .

(٣) الغدير ٢٤ : ٨، عن الحافظ المنـــذري ــ في الترغيب والترهيب ص ١٥٠ ــ ١٥٨ : ٤ ــ مِنْ طريق عبدالله بن عمر . وقال : رواه أحمد بإسنادٍ صحيحٍ .

(٤) المصدر ــ عن أبي ذر ، قال : رواه البزار ، وإسناده جيّدٌ ، إلا أن فيه انقطاعاً .

(٥) المصدر ، عن عوف بن مالك الأشجعي ، وقـــال رواه الطبري بأسانيد، أُحدها جيّدٌ .

خلق الله مَنْ شهد أن لا إله الا الله يوماً واحداً مخلصاً ومات على ذلك](1) .

فالشفاعة ــ في هذه الأحاديث ــ لا ينالها ، إلا كلُّ مَنْ لفظ الشهادة .

وهي وإن لم تحدِّد الشفاعة ، إلا أنها تحتم علينا أن نرى ، مِمَّا تدلُّ عليه كلمة « الشفاعة » : أن المشفوع له ، لا تمسّه النار ــ ولا سيما مع وجود الحديثين ، اللذين يوجبان الجنة ، ويحرّمان النار ، على مَنْ تفوّه بالشهادة .

ثم إنها مؤجلةٌ له ، إلى يوم القيامة ، حيث لم يسأل الرسول (ص) مسألته ، التي أمره الله أن يبديها ، فأجلها إلى يوم القيامة . فهو : « أول شافعٍ ومشفّعٍ »(2) .

فكيف شفع الرسول لعمه ــ وهو الكافر ، كما يدَّعون ــ وهو الذي لا يشفع إلا لِمَنْ أدّى الشهادة ، وأسلم مخلصاً ...؟!

وكيف حدّدوا الشفاعة ، وهي مؤجّلةٌ لذلك اليوم ...؟ !

إذن ... فهذا الحديث ليس متناقضاً ، مع حديث الأ[illegible] ، فقط ، بل مع عدّة أحاديث أُخرى .

وكفى بهذا التعارض والتناقض مسقطاً للحديثين المكذوبين ، حتى لو لم تسقط رجالهما الكذبة في موازين الرجال ، فكيف بهم مِنَ الكذبة والمدلّسين ، والتناقض صادرٌ مِنْ رواةٍ بعينهم ...؟

★ ★

وهناك أحاديث ، مِنْ نوعٍ آخر ، يجدر عرض جانبٍ منها :

(1) المصدر عن أنس . وقال المنذري : رواه أحمد ، ورواته محتجٌّ بهم في الصحيح .

(2) صحيح مسلم ٥٩ : ٧ .

أ ــ يدخل الجنةَ مِنْ أُمتي سبعون ألفا بغير حسابٍ(1) .

ــ وفي بعضها : « سبعون ألفاً ، أو سبعمائة ألفٍ ــ لا يدري أبو حازمٍ أيهما(2) ــ وأبو حازمٍ أحد رواة حديث الاحتضار ...

ب ــ يُبعث مِنْ هذه المقبرة ــ البقيع الفرقد ــ سبعون ألفاً ، يدخلون الجنة بغير حسابٍ(3) .

ج ــ ليدخلنَّ الجنة مِنْ أُمتي سبعون ألفاً ، لا حساب عليهم ، ولا عذاب ، مع كلِّ ألفٍ سبعون ألفاً(4) .

د ــ إني وجدتُ ربي ماجداً كريماً ، أعطاني مع كلِّ واحدٍ ، مِنَ السبعين الألف ، الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ ، سبعين ألفاً(5) .

الى سلسلةٍ طويلةٍ ، مِنْ هذه الأحاديث ، ذات الأرقام الهائلة ، ولسنا نريد أن نشغل فكر القارىء ، بالإكثار منها ، فيروح يضرب السبعين

(1) صحيح مسلم ١٣٦ : ١ ، والبخاري ٨٤ : ٤ ، والغدير ٢٨٣ : ٥ ــ وفيها طائفة شبيهة بهذا .

(2) صحيح مسلم ١٣٧ : ١ ، والبخاري ٨٤ : ٤ .

(3) الغدير ٢٨٣ : ٥ مخرجاً عن الطبراني في الكبير ١٣ : ٤ ، وفي الغدير أحاديث أُخرى ، ترى دخول أعدادٍ ــ كهذه ــ للجنة بغير حسابٍ ، مِنْ بعض المدن الأُخرى ، فمِنْ بين حائطي حمص والزيتون سبعون ألفاً ، ومِنْ ظهر الكوفة كذلك ، ومِنْ حمص سبعون ألفاً !.

(4) الغدير ــ عن : أحمد ، والطبراني ، والبزار ــ وفيه ص ١٢٠ : ١٠ عن مجمع الزوائد ١٠ : ٤٠٥ ــ ٤١١ مثل هذا ، أيضاً .

(5) الغدير ٢٨٣ : ٥ . وقال : أخرجه الطبراني بسندٍ ، رجاله رجال الصحيح ، غير شيخه .

الألف،في السبعين الألف،ليرى ما سيصفّبه الحساب •
ولكن فهل استعرض واضع حديث الضحضاح ، هؤلاء السبعين الألف،
والسبعين الألف ، التي مع كلّ واحدٍ مِنْ أولئك السبعين الألف...؟!
هل دخل في هذه الزمرة الهائلة ، فلم يجد بينهم أبا طالبٍ ، ودخـــل
النار ، فوجده في الضحضاح ، يتدفّق دماغه على قدميه...؟!
ونُشير إلى : أننا لا نلتزم بكثيرٍ مِنْ هذه الأحاديث ، التي أتينا عليها ،
في ما تحدّثنا به ، عن « حديث الضحضاح » • وليس مِنْ موضوعنا :تناولها ،
أو العرض لها •

وإنما رأينا : أن نحاجج بها واضع حديث الضحضاح ، ليس إلا...!
ذلك أنها جميعها واردةٌ في الصحاح ، وتستقي جميعها مِنْ مصدرٍ واحدٍ ،
وتلتقي عند أكثر مِنْ غرضٍ...!

ونرى : أن نقف عند قولة رجلٍ مِنَ الأنصار : كان آخر مَنْ أقامـــه
معاوية ــ مِنَ الخطباء ــ للعْن عليّ « عليه السلام » يقال له : أنيس ، فحمد
الله وأثنى عليه ، ثم قال :

[إنكم قد أكثرتم ــ اليوم ــ في سبّ هذا الرجل وشتمه ، وإني أقسم
بالله ! إني سمعتُ رسول الله (ص) يقول : لأشفع ، يوم القيامة ،
لأكثر ممّا على الأرض ، مِنْ مدرٍ وشجرٍ ، وأقسم بالله ! ما أحدٌ أوصل لرحمه
منه...! ، أفترون شفاعته تصل إليكم ، وتعجز عن أهل بيته...؟!(1)] •

يا لروعة هذه الكلمة ؟ حتى أنه لا يحلو معها قولٌ أو تعليقٌ ! .

---

(1) الغدير ٣٦١ : ١٠،عن أُسد الغابة ١ : ١٣٤ • وذُكر في الاصابـــة ١ : ٨٩ ، إلا أنه لم يشر فيها ، إلى أن معاوية ، هو المقيم لهـــذا اليوم ، الأدكن . وأشير للحديث ــ الذي رواه أنيس عن الرسول (ص) ــ في الاستيعاب ١:٣٧

— ٤ —

رأينا أنّ حديث الضحضاح ، يفيد الشفاعة ، مِنَ الرسول لعمه ، وهي:
إما أن تكون ، بعد أداء أبي طالبٍ للشهادة ، فهي تنفي عنه النار ، لأحاديث
الشفاعة ، التي عرضنا لها •

وإما أن تكون للشفاعة له ، قبل أدائه الشهادة ، فهي ساقطةٌ بما نوّهت
به الآيات الشديدة •

إذا لحظنا أعمال أبي طالب، وأقواله ••• ولحظنا شهادات الرســـول
وعترته ••• ونظرنا سقوط ميزان الرواة للحديث ••• رأيناه ساقطاً •••
بالإضافة إلى أنه يعارض صريح القرآن .

وحديثٌ يعارض صريح القرآن ـــ حتى مع وثاقة الرواة ـــ ليس له سوى
الجدار ، يُصفع به ، إن لم يمكن تأويله على محملٍ صحيح... فكيف ـــ مع
معارضة القرآن ، وسقوط الرواة ـــ ثمة وفرةٌ مِنَ الدلائل ، تناقضه وتمحوه،
وتجهز عليه ...؟!

— ٥ —

إنّ الحديث مسندٌ للعباس ـــ وحاشاه !ـ وهو معارضٌ بحـــديث
الاحتضار ، المنقول عن العباس ـــ أيضاً ـــ حيث جاء فيه : إنه سمع أبا طالبٍ
ـــ في نفَسه الأخير ـــ يردّد الشهادة ، التي أرادها الرسول ، منه،ليستحلّ له
بها الشفاعة ، فقال له :

« لقد قال الكلمة ، التي أردتها منه » •
وقد قلنا ، في التعليق على حديث الاحتضار :

إنَّ على مَنْ يقول بصحته : أن يأخذ به ، حتى نهايته ، وإلا فيرمي به بكامله ، لا أن يأخذ ما يحقّق الشهوة ، ويترك ما ينافي الغرض ...

ثم إنَّ مَنْ يسلّم بصحة الحديثين ـــ الاحتضار ، والضحضاح ـــ يقع في التعارض والتناقض بينهما ، حسبما أشرنا لذلك في الرقم الثالث ، مِنْ هذا التعليق[1] .

ومَنْ رفض أحدهما ، لزمه رفض الآخر ، لاتّحاد بعض الرواة ، في الحديثين... فَمَنْ يُرفض منه حديثْ ، لا يُؤخذ منه آخر...!

- ٦ -

كيف لا تصل شفاعة الرسول (ص) لعمه ، بأن تأخذ بيده ، مِنْ ضحضاح النار ، إلى ظلال الجنة ـــ بعد أن أخذ بيده مِنْ غمرات النار ، إلى الضحضاح ، كما يفترون ـــ فيتم نعمته ، وهو القادر على التمام...؟! في الحين ، الذي نجد حديثاً ، في فضائل الخليفة عثمان ، يقول :

« ليدخلنَّ بشفاعة عثمان ، سبعون ألفاً ـــ كلّهم قدِ استوجبوا النار ـــ الجنّة بغير حسابٍ »[2] .

لاحظ هذا الرقم ، السبعين الألف ، الذي يكاد يسم هذه الأحاديث ، التي تريد إدخال هذا العدد الثابت للجنة ، بغير حسابٍ ، مع أنهم يستوجبون النار...؟!

ثم تساءل : هلِ الخليفة أكرم عند الله ، مِنْ محمدٍ...؟ ولم تكن للخليفة

---

(١) ص ٣٩٥ .

(٢) الصواعق ٦٥ ، الغدير ٢٤٨ : ٩ ـــ عن « الفتوحات الإسلامية » لدحلان ـــ وفي الغدير ، أيضاً ، ص ٣٠٣ : ٩ « انه يشفع في عدد ربيعة ومضر » ! . وقد بسط علله !.

هذه المنزلة ـــ لو يصحُّ الحديث! ، وتتحقّق الأماني والرجاوات! ـــ إلا لدخوله في الإسلام ، وصحبته لصاحب الرسالة...!

أقول : أليس للرسول مِنْ قيمةٍ عند الله ، تساوي واحداً ، مِنْ سبعين ألفاً ، مِنَ الكرامة والقيمة ، التي للخليفة الثالث ، عند الله...؟

أفلا يشفّعه الله في عمه ، إذا كان مستحقاً للنار ـــ كما يفترون ـــ وقد أسدى الرسول الأياديَ الجسام ، التي طوّق بها عنق كلّ مسلمٍ ، فيدخله الجنة ـــ في الحين الذي نجد ما يقول : إن الله مشفعٌ عثمان في سبعين ألفاً ، وكلهم قدِ استوجبوا النار ، فتشملهم رحمة الله ، ويدخلهمُ الجنة... بشفاعة الخليفة ... ولا تشمل هذه الرحمة الواسعة ، بل تضيق عمَّنْ نصر دِينه وآزر رسالته ، وكفل رسوله وتحوّطه ، فلا تنفعه شفاعة الرسول ، إلا بتخفيف العذاب ، فحسب...؟! وما هو هذا التخفيف المزعوم...؟!

صحيحٌ ! إنَّ أبا طالبٍ مِمَّنْ يدخل الجنة ، باستحقاق عمله ، وهو لا يحتاج أو يتوقف دخوله لها ، على شفاعة شفيعٍ ، لأن عدالة الله تحتم بدخوله ، جزاء عمله ... وإلا فَلِمَنِ الجنة ، إن لم تكن لمثل أبي طالبٍ...؟!

أما الشفاعة ، فهي لِمَنْ لا يستحق الجنة جزاء العمل ، إذ لا يستحقها ـــ حينذاك ـــ بالعدالة ، وإنما بالعفو والمغفرة ، ولا يغفر الله لِمَنْ يشرك به ـــ كذا قضتِ العدالة ـــ ولكنه يغفر ما دون ذلك لِمَنْ يشاء ـــ وكذا قضتِ المغفرة والعفو !.

وما مثل هذا الحديث ـــ في أبي طالبٍ ـــ إلا بباعث البغض للرجال الخيِّرين ، والكفران بالقيم والإحسان...!

اللّهمَّ ! إنا نعوذ بك أن ينسج البغض لأوليائك ، على أعيننا ، غشاوةً ، نضلُّ بها الصوى ، ونعمى عنِ المنهاج الألحب ، والصراط الأقوم ، ونخبط في مزالق الأخطار ، ومهاوي الضلال...!

المؤمـــن

الإيمان : كلمةٌ ، تعني ــ في اللغة ــ التصديق . فآمنتُ بقولك ، تعني : إني صدّقتُ به . وهي ــ بعد ذلك ــ كلمةٌ ، خُصّصت للإيمان ، الذي هو ضد الكفر . فالمؤمن : ضدُّ الكافر !.

إذن... فكلمة « إيمان » ، صارت ذات صبغةٍ دينيّةٍ ، لها تعريفها الخاص . فالإيمان ــ بالتعريف الدينيّ ــ هو : اعتقادٌ بالقلب ، وتصديقٌ باللسان ، بما أنزل الله ، على رسوله الأعظم (ص) ، والمؤمنُ هو : الذي نجد فيه توافر هذين الشرطين ، مع ما يترتّب عليهما ، ممّا يتطلّبانه مِنَ القيام بالأركان .

أمّا الاعتقاد بالقلب ... فهذا شيءٌ ، ليس مِنْ سبيلٍ للعباد ، إلى معرفته . فهو عائدٌ للخالق العظيم . إذ هو ــ وحده العليم برواسب الضمير ، وعقيدة الإنسان المكنونة في الخفايا ...

ولكن الناس تحكم بالظواهر ــ ما دامت غير قادرةٍ ، على معرفة الباطن ــ فمتى رأت ظاهر إنسانٍ ، تلوح عليه لمحات الإيمان ، فليس لأحدٍ أن ينال منه ، ويتطاول عليه ... فإن مَنْ يفعل ذلك ، فإنه لَمِنَ المبهتين ، يُقام عليه حدُّ القذف .

« وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ ، لَسْتَ مُؤْمِنًا »(1)

(1) النساء : ٩٤.

فإن الله سبحانه ، قد نهى أن يقال للملقي بالسلام ، بأنه ليس بالمؤمن...
فكيف بِمَنْ يقرّ بالإيمان في كلّ لحظاته ، ويرعى بذرته الأُوْلى...؟!

وإذا شاء إنسانٌ أن يعرف إيمان شخصٍ، فإنه ليس بمستطيعه ، إلا أن يعرف ذلك مِنْ أقوال الشخص... فإنه ــ حينئذٍ ــ يحكم له بالإيمان،ويحكم له بالجنة ــ أيضاً ــ إن كان الظاهر والباطن صورةً واحدةً ...

ويحكم له بالإيمان ــ أيضاً ــ إذا شهد له بذلك الرسول ، أو أحد الذين تتوافر فيهمُ العصمة بالمعنى الدقيق عندنا ــ لأن الرسول لا ينطق عن الهوى ، وإنما هو الوحيُ الذي يكشف له عن الواقع الرهين ... والمعصوم ، يبلّغ عن الرسول الموحى إليه ، فليس ــ ثمة ــ زيفٌ أو تحريفٌ ، ولا تخمينٌ أو حدسٌ ، ولا يصدر عن هوىً أو عاطفةٍ ...

لذلك ... نستطيع الحكم الباتّ ، بإيمان أبي طالبٍ مِنَ الناحيتين .

فأقوال أبي طالبٍ كلّها ، تشهد له بالإيمان ، ويتبعها ذلك العمل الصحيح، والجهاد السافر... ويتبع هذا وذاك:سيلٌ مِنْ شهادات الرسول (ص) والأئمة مِنْ آل محمّدٍ(ص)

وقد وقفنا على ثروةٍ ، مِنْ أقواله ، المضمّخة بعطر الإيمان الصميم ، وصفحاتٍ نواصع ، مِنْ جهاده الخالد ، الطويل الشاق ... وطائفة مِن الشهادات ، تنطلق مِنْ فم الرسول الأقدس ، وعترته الطاهرة ...

* *

وقد نرى مِنَ الخير : أن نأتي ــ هنا ــ على شيءٍ مِنْ أقواله، التي تتّصل بهذا العنوان ...

إنه هو القائل :

مليكُ الناسِ ليسَ لهُ شريكٌ   هوَ الوهّابُ والمبدي المعيدُ

ومَنْ تحتَ السماءِ لهُ بحقٍّ   ومَنْ فوقَ السماءِ لهُ عبيدُ(١)

فهذان البيتان ، هما شاهدا صدقٍ، على أن قائلهما مِنَ الموحّدين للخالق العظيم ، توحيداً لا يخالطه شيءٌ مِنْ شركٍ، أو ذرةٌ مِنْ جحودٍ...

فهو يعبر عن الخالق بـ « مليك الناس » ، وهو تعبيرٌ إسلاميٌّ قرآنيٌّ : « ملك الناس »(٢) . وهو ينفي عنه الشركة : « ليس له شريك » .

ثم يأتي بشيءٍ مِنْ صفاته عز وجل... فهو : « الوهّاب » ، الذي بيده مفاتيح الأرزاق ، فيهب ويمنع... وهو : « المبدي » ، الذي بدأ الخلق ، ولم يك شيئاً ... وهو : « المعيد » ، الذي سيُعيد ما خلق ، بعد الموت...

فهو إقرارٌ باليوم الأكبر : يوم المعاد ، الذي يُنصب فيه ميزان العدالة ، حيث لا ظلم ، ولا بخس ، ولا حيف ...

ثم يقول ــ في البيت الثاني ــ إن جميع المخلوقات ، هي عبيدٌ لله ، سواءٌ مَنْ أظلته السماء ، أو مَنْ كان فوقها ...

فهل التوحيد ، أكثر مِنْ هذا...؟ وهل أبقى لقائلٍ أو مرتابٍ ، ذرةً مِنْ شكٍّ، لم يجلها لألاء اليقين ...؟

وهل تعبر قولتنا : « لا إله إلا الله » ــ في معناها التوحيدي ــ أكثر مما عبّر هذان البيتان ...؟

* *

ويقول :

يا شاهدَ اللهِ ! عليَّ فاشهدِ   إنّي على دينِ النبيِّ أحمدِ

(١) إيمان أبي طالبٍ ٢٠،وديوان أبي طالبٍ ١١ ، والحجة ٨٠ ، وشيخ الأبطح ٨٥ .
(٢) الناس : ٢ .

مَنْ ضلَّ في الدِّين ، فإنِّي مهتدي[1]

فهو ــ هنا ــ يشهد على نفسه ، بأنه على دِين ابن أخيه . ثم يقول : إن الذي لا يتبع هذا الدِّين ، ليس إلا تيَّاهاً في الضلال . وإنه هو المهتــدي ، حين اتَّبع هذا الدِّين القويم .

فبربِّكَ قل لي :أليست هذه المقولة ، أعظم أداءً مِنْ قولك : إني مسلمٌ ؟.

فلو جاء لك مَنْ يقول : إني مسلمٌ ــ أليس قد حصن بها : دمُه ، ومالُه ، وعرضه ، فكان كأحد المسلمين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم...؟

فما بالنا نجد إسلام هذا الصارخ ، بملء فيه ، ليشهد عليه شاهدَ الله ، بأنه قدِ اهتدى ، بسنى دين ابن أخيه ، وننكر عليه ذلك ...؟

أليس سوى الضلال ، الذي يسدل على العيون ، بغشاوته ، فيضلُّ عن الدِّين مَنْ يضلُّ ، ويهتدي مَنْ يهتدي ... ولكن الضالَّ ، وقــد نظر للرجل الرشيد ، بمنظار نفسه ، يظن هداية ذلك : ضلالاً ــ وهو في الضلال ، ذلك الخبَّاط ؟.

* *

(1) النهج ٣١٥ : ٣ ، والحجة ٨١ ، وشيخ الأبطح ٨٠ .

وقد ذكرها المبرد ــ في كامله ص ٩١٩ : ٣ ــ على أنها مِنْ شعر أمــير المؤمنين عليٍّ « عليه السلام » الذي لا اختلاف فيه ، وأنه كان يردِّدها . ولكنه حكمٌ مرتجلٌ... ككثيرٍ مِنَ الأحكام المرتجلة ، التي يرمي بها المبرد ، في كامله.

وقد يكون هذا الحكم ، جاء نتيجة ترديد عليٍّ «عليه السلام» لها ، وهو شيءٌ منتظرٌ ومعقولٌ ، مِنْ عدَّة نواحٍ :

بعضها : يتَّصل بموضوع الشعر ، الناطق بصريح الإيمان ، والمعبِّر عن كامن العقيدة ... وبعضها : يتَّصل بتجديد ذكرى الوالد الحدب ، الناطق بهذا الشعر الإيمانيِّ الصريح .

ومِنْ شعره :

لقدْ أكرمَ اللهُ النبيَّ محمَّداً ... فأكرمُ خلْقِ اللهِ في الناسِ أحمدُ

وشقَّ لهُ مِنْ إسمه ، ليجلَّهُ ... فذو العرشِ محمودٌ،وهذامحمدُ[1]

فهذان البيتان ، فيهما الشيء الكثير ، مِنَ التوحيد ، والإقرار بالنبوة ، للرسول الأعظم (ص) .

أمَّا ما يتعلق بالإقرار بنبوة الرسول... فهناك جانبٌ كبيرٌ . وقد وجدنا منه الشيء الكثير ، في ما مرَّ بنا ، بين تضاعيف هذا الكتاب .

ولكن فهذه حفنةٌ ، مِنْ بيتٍ وبيتٍ ، وقد يكون مِنْ بينها ما قدَّمناه للقارىء في ما مضى مِنَ الفصول :

انتَ الرسولُ ، رســولُ اللهِ نعلمُهُ ... عليــكَ نُزِّلَ مِنْ ذي العزةِ الكتبُ

ألمْ تعلمُوا : أنَّــا وجدنَا محمَّــداً ... نبيّاً،كموسىٰ،صحَّ ذلكَ في الكتبِ!

أنتَ ابنُ آمنــةَ النبيءُ محمَّــدُ ... الخ

نبيٌّ أتاهُ الوحيُ مِنْ عندِ ربّــهِ ... الخ

أنتَ النبيءُ محمَّـــــدُ ... الخ

ألاَ إنَّ أحمــدَ قَــدْ جــاءَهُمْ ... بحــقٍّ ، ولــمْ يأتِهِمْ بالــكذبْ

أوْ يؤمنُوا بكتــابٍ منــزَلٍ عجَبٍ ... على نبيٍّ، كموسىٰ ، أوْ كذِي النُّونِ

لقدْ علمُوا : أن ابنَنَــا لاَ مكذَّبٌ ... لدينَا ، ولاَ نعبــأ بقولِ الأباطــلِ

وممَّا يثير السخرية ، ولكنه ممَّا يكشف ، عن سوء النية : أن القرافي يقول بعد هذا البيت :

(1) النهج ٣١٥ : ٣ ، والحجة ٧٥ ، ومعجم القبور ١٩٧ : ١ ، والغدير ٣٣٥ : ٧ ، وديوان ابي طالب ١٢ ، والأعيان ١٤٧ : ٣٩ .

(تصريحٌ باللسان ، واعتقادٌ بالجَنان ، غير أنه لم يذعن)(١) .

وأنا لا أعلم هل عند هذا المغرض ، تعريفٌ آخر للإيمان ...؟ أم أن الشعور الباطن ، أو تداعي الخواطر ، هو الذي دعاه لأن ينحرف عن المسلك الأقوم...؟

* *

هذه حفنةٌ ، وإلى جانبها حفناتٌ وحفناتٌ ...وكلّها اعترافٌ سافرٌ بالرسالة المحمديّة... وكلّها دعايةٌ لرسالته... وكلّها تدلّ على التبعية منه ، لابن أخيه ...

وفي هذه التبعية ، منه لابن أخيه ، وهذا الإطراء له : أعظم شاهدٍ،وأكبر دليلٍ على إيمانه برسالته ...

وإلا فما الذي يدعوه ، وهو الزعيم المسوّد ، وشيخ مكة ، وسيد قريش : أن يتصاغر أمام ابن أخيه ، هذا اليتيم ، الذي في كنفه ربي ؛ وتحت جناحه ترعرع ؛ وبعطفه ورعايته صلب منه العود...؟! فهو منه كالولد ، أو الحفيد ... فهو لا يعدو التابع له ــ على أيّ التقديرين .

فما الذي يدعوه ــ لولا الإيمان برسالته ــ أن يسوده عليه ، ويتصاغر أمامه ، ويدعوه : « سيدي ! » فيما رأينا ــ ويخاطبه بهذا المديح ، وهذه العبارات ، التي تحمل التقدير والتعظيم ، والإكبار والتقديس...؟!

فلو لم يكن هو الإيمان ، لَمَا تصاغر له ، حتى أصبح أمامه ــ وهو : المتبوع ، والسيد ، والزعيم ــ كأحد التابعين للرسول ...!

أللعمومة والرحم...؟

فلماذا لا يقف أبو لهبٍ ،بعض هذا الموقف ، ولا نسمع منه،حتى بعض

(١) السيرة النبوية ٨٥ : ١.

المقاطع ، مِنْ مثل هذا الفيض،مِنْ أبي طالبٍ... بل لا نسمع منه ، سوى الموقف البغيض ، والكلام الدنيء ؟!.

وهل عاطفة الرحم ، بالتي تقف أمام العاطفة الدينية ، وهي التي تبتُّ بحديد شفرتها ، كلّ العواطف الأُخرى،ولا يقف في وجهها شيءٌ ، مهما طغى، وصلب ، واشتد...؟

وقد رأينا كيف تكتسح العاطفةُ الدينية،عاطفةَ الأُبوة والبنوة ،كموقف عبد الله بن عبدالله بن أُبي ، وكموقف عدي بن حاتم ، مِن ابنه زيد،حيث شاء أن يسلمه بيده ، إلى يد مَنْ يقتصُّ منه ... ولما أفلت منه ، شيَّعه بوابلٍ مِنَ الدعاء الحار ، لأن يرميه الله ، بما يقصف منه الحياة ...وغيرهما كثير ...

فالعاطفة الدينية ــ ولا سيما عند مثل هذا الشيخ الزعيم ــ ليست بالتي تضمحل وتتلاشى ، في قرارة شيخ الأُبطح ، حتى يتناسى وجودها... فينصر ابن أخيه ، فحسب ــ وابن اخيه،هو : الداعي لدينٍ غير الدين ،الذي ينسبه المغرضون لشيخ البطحاء ... بل هو ثورة ومعولٌ ،يهدُّ مِنَ الدِّين المزعوم ، أُسُسه المنهارة ...

إن هذا شيءٌ ، لا يقرُّ في قلبٍ، يسيره قليلٌ مِنْ عقلٍ !.

* *

فهل العاطفة النسبية ــ وحدها ــ هي التي دعت أبا طالبٍ أن يزجي للرسول هذه الآيات ، مِنَ المدح والإطراء ، وهذه الأقوال والدعايات... لكسب الصفوف إلى جانبه ، والحضّ على اتباعه ونصرته :

أعوذُ بربِّ البيتِ مِنْ كلِّ طاعنٍ ... علينا بسوءٍ أو يلوحُ بباطلِ(١)

ومِنْ فاجرٍ يغتابنا بمغيبةٍ ... ومِنْ ملحقٍ في الدِّينِ ما لمْ نحاولِ(٢)

(١) في السيرة : ملح ــ بدل : يلوح .

(٢) في السيرة : [ومِنْ كاشحٍ يسعَى لنا بمعيبةٍ] .

كذبتمْ ــ وبيتِ اللهِ! ــ نبزى محمّداً ... ولمّا نطاعنْ دونَهُ ، ونناضلِ (1)

ونسلمهُ ، حتّى نصرّعَ حولَهُ ... ونذهلَ عنْ أبنائنا والحلائلِ !

وحتّى نرى ذَا الردعِ ، يركبُ ردعَهُ ... مِنَ الطعنِ ، فعلَ الأنكبِ المتحصّلِ (2)

وينهضُ قومٌ في الحديدِ ــ إليكمْ ... نهوضَ الروايَا ، مِنْ طريقِ جلاجلِ (3)

وإنّا ــ وبيتِ اللهِ ــ إنْ جدَّ مَا أرى ... لتلتبسَنْ أسيافُنا بالأماثلِ (4)

بكلِّ فتىً ، مثلِ الشهابِ ، سميدعٍ ... أخي ثقةٍ ، عندَ الحفيظةِ باسلِ (5)

ومَا تركُ قومٍ لَا أبَا لكَ ! ــ سيداً ... يحوطُ الذمارُ ، غيرَ نكسٍ مواكلِ (6)

وأبيضُ يستسقى الغمامُ بوجههِ ... ثمالُ اليتامى ، عصمةٌ للأراملِ

يلوذُ بهِ الهلاكُ مِنْ آلِ هاشمٍ ... فهمْ ــ عندَهُ ــ في نعمةٍ وفواضلِ

وميزانِ صدقٍ ، لا يخيسُ شعيرةً ... ووزّانِ صدقٍ ، وزنُهُ غيرُ عائلِ (7)

---

(1) نبزى محمداً : نسلَبه ونقهر عليه .

(2) ركب البعير ردعه : إذا سقط ، فدخل عنقه في جوفه . وفي السيرة: الضغن ، بدل الردع .

(3) الروايا ــ جمع راويةٍ: الدابة يُستسقى عليها . جلاجل ــ ويروى: حلاحل ــ موضعٌ على الأظهر . ويروى : « تحت ذات الصلاصل » . وهي : المزادات ، لها صوتٌ مِنْ بقية الماء ، حين مسير الإبل .

(4) في السيرة : « وإنّا ــ لعمر الله ! ــ انْ جدّ ما أرى » .

(5) السميدع : السيد . وفي السيرة : « حامي الحقيقة باسل » .

(6) الذمار : ما يلزمك أن تحميه . النكس : الدنيء الذي لا خير فيه. المواكل : الذي يكل أمره لغيره ، حيث لا جدَّ عنده . وفي روايةٍ : ذرْب . والذرَب ــ محرّكاً ــ بذاء اللسان ، والمرض الذي لا يبرأ .

(7) خاس بالعهد : نكث وغدر . وبالوعد : أخلف . عال في الميزان : خان . عال الميزان : نقص .

←

ألَمْ تعلمُوا : أنَّ ابننَا لَا مكذَّبٌ ... لدينَا ، ولَا نعبأ بقولِ الأباطلِ (1)

لعمرِي ! لقدْ كُلِّفتُ وجْداً بأحمدٍ ... وأحببتُهُ حبَّ الحبيبِ المواصلِ

وجدتُ بنفسِي دونَهُ ، فحميتُهُ ... ودافعتُ عنهُ بالذرى والكواهلِ (2)

فلاَ زالَ للدنيا جمالاً لأهلِهَا ، ... وشيناً لِمَنْ عادَى ، وزينَ المحافلِ

فَمَنْ مثلُهُ فِي الناسِ أيُّ مؤملٍ ... إذَا قاسَهُ الحكّامُ ، عندَ التفاضلِ ؟!

حليمٌ ، رشيدٌ ، عادلٌ غيرُ طائشٍ ... يوالِي إلاهاً ، ليسَ عنهُ بغافلِ !

وأيّدَهُ ربُّ العبادِ بنصرِهِ ... وأظهرَ ديناً ، حقُّهُ غيرُ باطلِ (3)

☆ ☆

← ويروى هذا البيت ، بهذه الصورة .

بميزانِ قسطٍ لا يخسّ شعيرةً ... لهُ شاهدٌ مِنْ نفسِهِ غيرُ عائلِ

وخسّ في الوزن : نقص . يريد : أنه لا ينقص الحق ، ولا بمقدار شعيرةٍ ، وهي أدنى ما تكون .

(1) يروى : لقد علموا ... الخ ، ولا يُعنى ... الخ .

(2) الذرى ــ جمع ذِروةٍ: العلوّ ، والمكان المرتفع. والكواهل ــ جمع كاهل : أعلى الظهر ، ممّا يلي العنق .

(3) النهج ٣١٥ ، ٣١٦ : ٣ ، وديوان أبي طالبٍ ١ــ٦ ، وإيمان أبي طالبٍ ٦ــ٨ ، والحجة ٨١ــ٩٥ ، والسيرة الشامية ٢٩١ــ٢٩٩ : ١ ، في ٩٤ بيتاً . وقال ابن هشام : « وهذا ما صحّ لي مِنْ هذه القصيدة » . وشيخ الأبطح ٣٤ ، ٣٥ ، وهاشم وأمية ١٧٤ ، ١٧٥ ، والغدير ٣٣٨ ــ ٣٤٠ : ٧ ، والأعيان ١٤٩ ، ١٥٠ : ٣٩ .

وقدِ اقتصرنا ــ منها ــ على هذه الأبيات ، وهي ــ هنا ــ غير متصلةٍ على أن هناك بعض اختلافٍ ــ بين الروايات ــ في بعض الكلمات : وقد أشرنا لبعضها .

ولا نريد : أن نقف عند هذه الرائعة ، فنتطاول على روعتها ، إذا تناولناها ببسطٍ ، أو عرضٍ ، أو تحليل... فليأخذِ القارئ منها مايستطيع ، فإنها لسوف تأخذ بمجامع قلبه ، وتدع فيه أثراً ، بعيداً كلّ البعد ، عميقاً كلّ العمق ... ففيها مِنَ: الطراوة ، والقوة ، والعذوبة ، ما تأتسر به القلوب...

وهو ليس بالذي يقول القول فحسب !. ولكن القول مدعَّمٌ بالعمل...

فقد حاط الرسول ونصره ، ورعى الإسلام وحماه ، ولم يستطع جحدانه ، حتى العدوُّ البهّات ، الذي وضع في حقه : تلك الأراجيف المبطلة...!

* *

فخلاصة القول : في إيمان أبي طالب :

إن إيمانه مِنَ الثبوت ، بحيث لا يحتاج إلى سَوق دليل... اللّهمّ ! إلا كما تؤكّد لِمَن افتقد الباصرة : بأن الشمس تحبو في كبد السماء ، وأنها ترسل الشعاع النيّر ، وأن النهار مبصرٌ ... وما إلى ذلك مِنَ الأشياء المستطيلة ، القائمة بنفسها — كما يقول أبو الطيب — التي لا تحتاج إلى سَوق دليل...

ولكن ، فيبرهن لنا على إيمانه : هذه الأقوال ، التي يرسلها مِنْ فيه ، وكلّها تنضح بالتوحيد ، والإقرار بالرسالة... وهذا الجهاد الموصول ، الذي قام به ، فقام الإسلام ... وهذه الشهادات مِنَ: الرسول ، وآله المطهرين ، بنصّ الكتاب — إذا كنّا مسلمين... — ومِنَ الصحابة ، الذين لم ينحرفوا عن المنهج ، ولم تعمِ الأغراضُ منهم القلوبَ ...

* *

ولأجل ذلك ، وقد قامتِ الدلائل والبراهين على إيمانه .. فقد جزمت به الشيعة — وليس لها إلا ذلك — وقالت به : قولاً ، لا تخالجه الريبة ، ولا يعتوره الشك... وأجمعت عليه ، فلم يشذّ منها واحدٌ ، إذ أن الشاذّ منها ، عن هذا القول ، ليس بشيعيٍّ ، بعد أن جاء ما يدعّم إيمانه مِنْ أقوال

الأئمة ، مِمّنْ تدين الشيعة لله بإمامتهم ؛ ولا سيما قولة الإمام الرضا « عليه السلام » — فيما مرّ بنا عند « ذكر عفر »(١) — فالتشيّع ، والقول بكفر أبي طالب ، لا يجتمعان : لأن القول به : تكذيبٌ للأئمة ، الذين يقولون برجحان إيمانه ؟. وكيف يكون شيعيّاً ، مَنْ يخالف أئمة المذهب ؟.

لذلك فإن إيمان أبي طالب ، يُعتبر مِنَ الضرورات المذهبية .

وتبع الشيعةَ الإمامية في قولها : الأكثرُ مِنَ الزيدية(٢) . وقال بهذا القول بعض الأكابر ، مِنَ المعتزلة(٣) . ومنهم: الشيخ أبو القاسم البلخي ، وأبو جعفر الإسكافي(٤) .

كما أن كثيراً مِنَ الأولياء ، العارفين أرباب الكشف ، قد ثبت عندهم إسلامه(٥) ، وقالوا بنجاته . منهم: القرطبيّ ، والسبكيّ ، والشعرانيّ ، وخلائق كثيرون ، وقالوا : هذا الذي نعتقده ، وندين الله به(٦) .

وقد قال الإمام أحمد بن الحسين الموصليّ الحنفيّ ، المشهور بابن وحشي : « إن بغض أبي طالب كفرٌ »(٧) ؛ كما نصّ على ذلك الأجهوريّ في فتاويه ، وهو مِنَ الأئمة المالكية(٨) .

---

(١) ص ٢٦٤ .

(٢) و (٣) الشرح الحديدي ٣١٠ : ٣ ، وشيخ الأبطح ٥٥ ، وأعيان الشيعة ١٣٥ : ٣٩ .

(٤) النهج ٣١٠ : ٣ ، والأعيان ١٣٥ : ٣٩ .

(٥) السيرة النبوية ٨٧ : ١ ، والغدير ٣٨٣ : ٧ ، والأعيان ١٣٥ : ٣٩.

(٦) الغدير ٣٨٣ : ٧.

(٧) المصدر ٣٨٢ : ٧ ، عن شرحه على « شهاب الأخبار » لمحمد بن سلامة القضاعي .

(٨) المصدر ٣٨٣ : ٧ .

وقال التلمساني ، عند ذكر أبي طالبٍ: لا ينبغي أن يُذكر إلا بحماية النبيّ ، لأنه حماه ونصره ، بقوله وفعله ، وفي ذكره بمكروهٍ أذية للنبيّ (ص)، ومؤذي النبيّ كافرٌ ، والكافر يُقتَل[1] .

وقال أبو طاهرٍ: مَنْ أبغض أبا طالبٍ فهو كافرٌ[2] .

وقال دحلان : فقول هؤلاء الأئمة بنجاته أسلم للعبد عند الله تعـالى، لاسيما مع قيام هذه الدلائل والبراهين التي أثبتها البرزنجي[3] .

وللسيوطيّ ــ في هذا الموضوع ــ كتابٌ بعنوان :«بغية الطالب لإيمان أبي طالبٍ»[4] ، ويكفينا عنوان كتابه ، لنستشفّ رأيه ، مِنْ بين سـطوره .

ولزيني دحلان كتاب « اسنى المطالب » . وقد أشرنا له في فصلٍ سابقٍ .

ولسنا نريد أن تتقصّى المؤلفين ، في هذا الموضوع ، وأسماء كتبهم ، وهي مِنَ الكثرة ، بحيث لا تحصى .

* *

أمّا القائل بكفره ــ وأستغفر الله ! ــ وهو بين مَنْ تعامى عن الحق ، فوضع تلك التهم ، وافترى ذلك الكذب ، وقال ذلك الزور ، وتقاضى على ذلك أجره العاجل ، ليتبوأ مقاعد مِنَ النار ، في جهنم ، فيعرف ــ حينذاك ــ « الدركَ الأسفل مِنَ النار » لِمَنْ...؟

وبين مَنْ جاء ، وقد رأى هذا الزور ، فلم يهتدِ للجوانب المنهارة منه ، ولم يكشف عنه الغطاء المسدول ... ولو كشفه لكشف عن جيفةٍ منتنةٍ... وقد رأينا ذلك ، بعد ما كشفناه في الفصل السابق... فلم تبقَ للقـائل بكفره ــ وأستغفر الله ! ــ حجةٌ عليها يعتمد ، أو ركيزةٌ عليها يعتضد ...

---

(١) و (٢) الغدير ٣٨٢ : ٧ (٣) المصدر ٣٨٣ : ٧ . (٤) المصدر ٣٨٤ : ٧ .

وقد أشرنا ــ في الهامش ١ ، ص ٣٦٢ ــ إلى تجانف السيوطي ، على أبي طالب، في كتُبه عن آباء النبيّ (ص) . ولعلّ هذا مثل ما وقع لدحلان ، في السيرة النبوية، حيث تناقض في ما بين الكتابين

وإن العجب ليأخذ منّا غايته : أن نجحد إسلام وإيمان أبي طـالبٍ ــ والشواهد تعضد ذلك ، والدلائل تقوم عليه ، والبراهين تسفر عنه ، في الحين الذي نجد مثل هذا الحديث :

عن الشريد ، قال : ردفتُ رسول الله ﷺ ــ يوماً ، فقال : هل معك مِنْ شعر أُميّة بن أبي الصلت شيءٌ؟ قلتُ : نعم !. قال : هيه !. فأنشدته بيتاً . فقال : هيه !. ثم أنشدته بيتاً . فقال : هيـه !. حتى أنشدته مئـة بيتٍ . فقال : إن كاد ليسلم !. أو قال : فلقد كاد يسلم في شعره ![1] .

وهذا زيدٌ بن عمروٍ، وقد خرج يطلب الحنيفية: دين إبراهيم ، حتى أخذ طريقه إلى الشام ، ومنها إلى مكة . ولكنه مات في طريقه إليها ، فيروون عن عائشة : أن الرسول ، قال : دخلتُ الجنة ، فوجـدتُ لزيدٍ بن عمروٍ دوحتين[2] .

ويروون : أن سعيداً بن زيدٍ بن عمروٍ بن نفيل ، وعمر بن الخطاب ــ وهو ابن عمه ــ قالا لرسول الله (ص) : « استغفر لزيدٍ بن عمروٍ!». قال : « نعم ! فإنه يبعث أُمّةً وحده ! »[3] .

ويروون عنه (ص) قوله : رحم الله قسّاً ــ قسّ بن ساعدة ــ يُحشر يوم القيامة ، أُمّةً واحدةً ، أو وحده ![4] .

فما هذا التناقض...؟!

---

(١) صحيح مسلم ٤٨ ، ٤٩ : ١ .

(٢) السيرة النبوية ٩٦ : ١ .

(٣) على هامش السيرة ١٣٦ : ١ ــ عن ابن إسحاق ــ وأُشير إليه ، في السيرة النبوية ٧٣ و٧٦ و٩٥ : ١ .

(٤) البحار ٥٧ : ٦ ، وفي السيرة النبوية ٧٣ و ٧٦ : ١ ، ما يماثله.. كما أن في مروج الذهب ٦٩ ، ٧٠ : ١ ، إشارةً لذلك ، في قصةٍ طويلةٍ .

وما بال كرم الرسول — وهو معدن الجود والسخاء — يتدفّق هنا ، على البُعداء ، الذين لم تمتدَّ منهم إليه يدٌ بمعروفٍ ، وتنقبض يده ، عن أن تمتدَّ ، ليردَّ على أبي طالبٍ شيئاً مِنْ آياديه الحسان ، ويجازيه بالإحسان إحساناً ، وقد أمره الله بذلك :

« هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ ؟ »(1) .

فلا يجازيه بالإحسان ، إلا سوءاً — وحاشا الرسول الأعظم !.

☆ ☆

بعد هذا... نجد : أن أقلَّ ما ينتج عن بهت أبي طالبٍ بالكفر : أنه إيذاءٌ للرسول الأقدس (ص) ... وكفى بهذا ذنباً عظيماً ، وجريمةً لا تُغتفر :

[والَّذِيْنَ يُؤْذُوْنَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ](2) .

[وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُوْلَ اللهِ](3) .

[إِنَّ الَّذِيْنَ يُؤْذُوْنَ اللهَ وَرَسُوْلَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِيْ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابَاً مُهِيْنَاً] .

ومِنْ هنا... رأينا التلمسانيَّ ، كيف أشار لذلك ، فيما قاله عن أبي طالبٍ — كما وقفنا عنده ، قبل سطورٍ — إذ حكم بقتل القائل بكفر شيخ الأبطح ، لأنه إيذاءٌ للرسول ، ومؤذي النبيّ يجب قتله ، فالقائل بكفره يجب قتله !.

وقتل مؤذي النبيّ ، مسألةٌ يكاديجمع عليها المسلمون ، لصريح الآيات ،

(1) الرحمن ٦٠ .
(2) التوبة ٦١.
(3) الاحزاب ٥٣ .
(4) الاحزاب ٥٧.

بتخليد مؤذيه في النار .

وليس أذىً لرسول الله ، كأذى النيل مِنْ عمه ونصيره ، ببهته بالكفر ، وهو المؤمنُ العميق ، والنصير الفذ .

وإذا كانوا يقولون : إن سبيعة بنت أبي لهبٍ — تبَّتْ يداه ! — جاءت للرسول شاكيةً ، مِنْ قول الناس لها : أنتِ بنتُ حطب النار ...!

— وبذلك وصف القرآن أُمَّها اللعينة ، وأباها المنكود — فيقوم الرسول ، وهو مغضبٌ ، ليصيح بهم :

« ما بال أقوامٍ يؤذونني في قرابتي ؟! مَنْ آذاني ، فقد آذى الله ! »(1) .

وأيُّ قرابةٍ ، بقيت له ، مع أبي لهبٍ ، هذا الذي بتَّ كلَّ قرابةٍ ، وقطع كلَّ وشيجةٍ ، وبتر كلَّ صلةٍ...؟

وإذا كانوا يروون عن الرسول: لا تسبُّوا الأموات ، فتؤذوا الأحياء(2) .

وبذلك حكموا : « أن أذى النبيّ كفرٌ ، يُقتل فاعله ، إن لم يتب »(3) .

ورأتِ المالكية قتْله ، وإن تاب(4) .

إذا كان هذا كلُّه... أفليس بهت أبي طالبٍ بالكفر أذىً للنبيّ — على أقلِّ تقديرٍ — وكفى به ذنباً ، يُحكم بقتل مرتكبه — عقاباً دنيوياً — وتعذيبه بالعذاب الأليم المهين — عقاباً أخروياً — ولعنة الله تلاحق ظلَّه في: الدنيا والآخرة...!

ومِنْ أجل هذا... قال السيوطي ، حول أبوي الرسول ، فيما دار حولهما مِنْ بهتٍ ، كان نصيبهما منه ، كالسهم الخاطيء عن القصد ، إذ الهدف هو : عليٌّ في شخص أبيه... فكان أن أخطأ ، فأصاب الرسول في شخص أبويه :

(1) السيرة النبوية ٧٧ : ١ ، عن ابن مندة .
(2) السيرة النبوية ٧٧ : ١ مرويا عن الطبراني ، واحمد ، والترمذي .
(3) و (4) المصدر .

عبدالله وآمنة ، وجده عبدالمطلب •

وعلى كلٍّ ، فالرسول وعليٌّ : نفسٌ واحدةٌ • وأبو طالبٍ للرسول ، كعبد الله • كما كانت فاطمة له — في الأمومة — كآمنة •

قال السيوطي :

[إني لم أدَّعِ : أن مسألة الأبوين إجماعيةٌ ، بل هي مسألةٌ اختلافية[1]، فحكمها حكم سائر المسائل المختلَف فيها ، غير أني اخترتُ أقوال القائلين بالنجاة،لأنهُ الأنسب بهذا المقام•والحذرَ الحذرَ ! مِنْ ذكرهما بما فيه نقصٌ• فإن ذلك قد يؤذي النبي ﷺ [2] ، لأن العرف جارٍ بأنه إذا ذُكر أبو الشخص بما يُنقصه ، أو وُصف بوصفٍ قائمٍ به،وذلك الوصف فيه نقصٌ، تأذّى ولده بذكْر ذلك له ، عند المخاطبة][3] •

وإذا كان مما ينقص الرسول : أن يكون واحدٌ مِنْ آبائه مشركاً ، فإنه — ولا شكَّ — لمَّا ينقصه أن يتربى ، في بيت مشركٍ[4] ، ويرعاه ،

---

(١) لا نرى : أن هذه المسألة خلافيةٌ ، بعد أن يقوم البرهان النصيع ، مدعَّماً بالقرآن ، إلى جانب القائلين بإيمان آباء الرسول ، إلى المؤمن الأول : آدم • إذ لا تبقى قيمةٌ — بعدئذٍ — لقول المخالفين ، بحيث يجوز أن تعتبر المسألة خلافيةً ، ما دام قول المخالف يناقض القرآن ، ويناهض الأدلة •

(٢) لا شكَّ أن هذا يؤذي الرسول•وليس مِنْ أجل العلة ، التي بسطها السيوطي ، فحسب ! ، وإنما لتجنّيها — بغير حقٍّ — على مؤمنين ، هم:نبعة الإيمان ، في ظمإ الشرك ، وظِلال التوحيد ، في صحراء الكفر !•

(٣) السيرة النبوية ٧٦ : ١•

(٤) لا شكَّ أن للتربية أثرها الفعَّال ، في توجيه الإنسان ، نحو الخلال: طيِّبها وسيئها ، لقابلية الطفل واستعداده للتأثر الشديد السريع بمربّيه ، وتطلّعه له ، في احتذاء أعماله وأقواله •

وينصره ، ويحميه ويحمي دينه وأتباعه ذلك المشرك ، فيكون مديناً لمشركٍ نحو هذه الحقوق — وما أرفعها شأناً ! وأعظمها قيمةً ! — ومِنْ هنا قال الرسول : « اللهم لا تجعل لفاجرٍ أو فاسقٍ عندي نعمةً » — كما سبق أن ذكرناه •

وإذا كان الأب المشرك ، ينقص شرف الإبن المؤمن ، فإن شرك أبي طالبٍ ، ينقص ابنه علياً — وهو لم يُتهم بالشرك ، إلا تنقّصًا لعليٍّ ، في سبيل لَلمة بعض خصائصه ومزاياه ، التي انفرد بها ، وميّزته على غيره مِنْ جميع الصحابة ، إذ لم يؤمن أحدٌ مِنْ آبائهم ، ولم يرتفعوا عن وهدة النسب المشرك ، ولم يضربوا في الإيمان بعميق الجذور •

ومِنْ هنا••• رأينا كيف حاولوا ، فوضعوا بعض الأحاديث ، التي تدَّعي نسبة البعض ، مِنْ آباء الصحابة ، للإسلام ، وتزعم لهم ذلك • وهم قد وضعوا هذه الأحاديث ، في قبالة وضع حديث شرك أبي طالبٍ ، لتخفَّ كفّة عليٍّ ، وترجح عليه كفة غيره ، نحو هذه الخصيصة •

ولو صحّت أحاديث إسلام أولئك ، لمَا تساوتِ الكفتان ، في حالٍ مِنَ الأحوال••• ذلك أن آباءهم لا شكَّ في أنهم كانوا مشركين ، فأسلموا — إن صحَّ إسلامهم •••

أما أبو طالبٍ ، فلم يدرِ ما الشرك ، وما أظلم قلبه يوماً بسواد الشرك ، بل كان ذلك المتفتح المشرق — دائماً — بسنى التوحيد ، ونور الإيمان •

وشبيهٌ بهذا : ما دار حول سبْق عليٍّ للإيمان بالرسول (ص)
فوضعوا حول ذلك ما وضعوا ، حتى جاء مَنْ لم يستطع جحدان الحقيقة ، جهراً ، فحاول تلبيسها — ولكن على الغُفل — بقوله :

أوَّل مَنْ آمَنَ مِنَ الصبيان : عليٌّ ، ومِنَ الرجال : أبو بكرٍ ، ومِنَ النساء خديجة •

وإذا صحَّ أن يقال لشخصٍ : أسلم،فلأنه كان كافراً فأسلم،وهذا لا يصحّ

في حقّ عليّ، الذي لم يكن كافراً، في لحظةٍ مِنْ حياته، وما انحنى منه الهام لصنمٍ أو وثنٍ، بل كان ذلك المرفوع الرأس، ينظر لعظمة الله الخالق العظيم، فهو مؤمنٌ مِنْ يومه الأوّل، لم يمرّ بطور الكفر، فالإيمان، ولم يسجد لسوى الله ...

ولهذا... فالنقاش في موضوع: أيّ واحدٍ سبق للإيمان، لا يصحّ في حقّ عليّ« عليه السلام ».

إذا كان هذا ـ كفر الأب ـ مما ينقص الإبن، فكفر أبي طالبٍ، ممّا ينقص علياً ... وهو، بعد هذا ـ بل في ذات الوقت ـ لما ينقص الرسول، أيضاً، ما دام محمدٌ وعليٌّ نفساً واحدةً، تجمع بينهما خصائص البيت، الضارب الجذر في الإيمان البعيد العميق.

ولا بد أن يكون محمدٌ وعليٌّ، في درجةٍ، مِنَ المزايا والخصائص، واحدةٍ ـ عدا ميزة النبوة، التي تخصّص محمداً عن عليّ ـ حتى يتّحدا في نفسٍ واحدةٍ...

لذلك فلا بدّ أن يكون أبو طالبٍ كعبدِ الله، وآمنةُ كفاطمةَ، إيماناً وكفراً، حتى يتّحد الآباء كما اتّحد الولدان، فكان عليٌّ نفسَ محمدٍ (ص).

وإذا كان الرسول يؤذيه أن يقال لسبيعة: أنتِ بنت حطب النار ـ وقد نزل القرآن، في أمّها: حمالة الحطب، وأبيها: أبي لهبٍ، بما نزل... ـ فكيف به يرضى ببهْت عمه، وقذفه بما هو منه بريءٌ... أفلا يؤذيه هذا، أشد الأذى، لأنه قذفٌ بالباطل، وتجنٍّ على الحق، ينال شخصاً، هو أقرب له قربى: إنْ مِنْ حيث الرحم، وإنْ مِنْ حيث النصرة، وكلّها تستحقّ منه الوفاء، والتأذي ممّا يؤذي: هذا المؤمن، والقريب، والنصير...؟!

وهو ـ أيضاً ـ أذىً له، ما دام يؤذي نفسه علياً، ومَنْ آذى نفسه، فقد آذاه، ومؤذيه مؤذٍ لله ـ كما جاء في لسان الحديث، الثابت عنه.

وإذا كانت الشفاعة، تنال مَنْ تنال، مِنْ تلك الأعداد الكثر، والأرقام الضخام، التي تأبى الحصر... فهلّا تسع عمّه، لو لم يكن مؤمناً، كما يزعمون، في ما يحلو يحلو لهم مِنْ بهْت الرجل المؤمن، والتجنّي على حقه، والتعدّي على طهر قداسته، ونصيع إيمانه...؟!

وإذا لم يكن أحدٌ أوصلُ لرحمه، مِنَ الرسول الأعظم (ص) ـ كما أقسم بذلك أنيس، ويقرّه على قسمه كلُّ مَنْ عرف محمداً الرحيم ـ أفتصل شفاعته، لمثل تلك الأعداد والأرقام، وتعجز عن عمه، الذي كان له كأبيه ـ تربيةً، ونصرةً فذّةً ـ وهو، مع ذلك، أبو نفسه عليٍّ عليه السلام...؟!

ولكن أبا طالبٍ ـ كما قلنا، ويوافقنا عليه كلُّ منصفٍ، يرى الحق، فيتبعه ـ مِمّنْ يدخل الجنة، باستحقاق عمله، دون حاجةٍ للشفاعة، التي يحتاجها مَنْ لم ينهض به عمله، لاستحقاق الجنة، التي لا توجبها له العدالة، لأنه لم يعمل ما يجب عليه نحوها.

ومَنْ قام بواجبه، بدون نقصٍ، فإن العدالة، توجب له على الله الجنة، بلا حاجةٍ لشفاعة شفيعٍ، فهي له حقٌّ...

وإذا لم يدخل الجنةَ، مثلُ أبي طالبٍ، فلِمَنْ خُلقتْ إذن...؟ بل هي لِمَنْ إن لم يتصدّرها مثل أبي طالبٍ ـ وهي جزاء عمله...

وإن دخل أبو طالبٍ النار ـ كما يرجفون ـ فَمَنْ ذا ينجو منها، حتى الأنبياء المرسلون ـ فالنار لا تخاف، ولا تخشى، حينئذٍ ـ إذ تنعدم القيم، ولا يكون الجزاء مِنْ جنس العمل، وتنمحي العدالة، ويجور الحكم ـ وحاشا لله!.

[وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا](1).

---

(1) الأحزاب ٥٨.

مراجع الكتاب

أرجعنا ـ في ثنايا الكتاب ـ كلَّ موضوعٍ لمصادره : صفحةً وجزءاً .
ونسلسل ـ هنا ـ أسماء المصادر التي رجعنا لها ، مع ذكر مؤلّفيها ، وطباعتها ، رامزين للمطبعة بـ « م » وللطبعة بـ « ط » مرتّبين الأول فالأول ، ممّا رجعنا إليه .

●

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد ـ ج٣ـ م دار الكتب العربية الكبرى ـ مصر ١٣٢٩ هـ .

٣ ، ٤ ـ البيان والتبيين ج ١ ، ٢ـ للجاحظ ـ شرح حسن السندوبي ـ م الاستقامة بالقاهرة ـ ط ٣ـ ١٣٦٦هـ .

٥ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ج١ـ م الميمنية ـ مصر : ١٣١٣هـ .

٦ـ تأريخ الأُمم والملوك ج٤ـ لابن جرير الطبري ـ م الاستقامة ـ ١٣٥٧ هـ ١٩٣٩ م .

٧ـ الكامل في التأريخ ج٣ـ لابن الأثير الشيباني الجزري ـ مصر . ١٣٥٦ هـ .

٨ـ الغدير في الكتاب والسنة والأدب ج ١١ ـ للشيخ عبدالحسين الأميني ط ١ ـ م الحيدري طهران : ١٣٧٢ هـ .

٩ ـ النهج ج ١ .

١٠ ـ الغدير ج٢ـط٢ـم الحيدري ـ طهران : ١٣٧٢ هـ.

١١ـ صحيح مسلم ج١ـم محمد علي صبيح ـ مصر : ١٣٢٤ هـ .

١٢ ـ معاوية بن أبي سفيان في الميزان ـ لعباس العقاد ـ العدد الـ ٥٨، من سلسلة « كتاب الهلال » ـ جمادى ١ :١٣٧٥هـ يناير ١٩٥٦م القاهرة.

١٣ـ رسائل الجاحظ ـ جمع السندوبي ـم الرحمانية بمصر : ١٣٥٢هـ . وقد رجعنا منها الى هذه الرسائل :١ـ رسالة في بني أمية. ٢ـ نقض العثمانية للإسكافي. ٣ـ فضل هاشم على عبد شمس .

١٤، ١٥ ـ الغدير ج٥و١٠ ـ ط ١ ـ م الزهراء بالنجف ١٣٦٧هـ و م الحيدري بطهران ١٣٧٢ هـ.

١٦ ـ صلح الحسن «ع» ـ للشيخ راضي آل ياسين ـ م الزهراء ـ بغداد: ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣ م.

١٧ـ الحسن بن علي ع لكامل سليمان ـ بيروت ١٣٧٣هـ.

١٨ـ الدعوة الإسلامية إلى وحدة أهل السنة والإمامية ج١ـ للشيخ علي أبو الحسن الخنيزي ـ م الاقبال ـ بيروت : ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٦م.

١٩ ـ الكامل في: اللغة، والأدب، والنحو، والتصريف ج٢ـ للمبرد ـ م البابي ـ مصر ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧م .

٢٠ ـ اعيان الشيعة ج٣٥ـ للسيد محسن الأمين ـط١ـم الإنصاف ـ بيروت : ١٣٧٠هـ ١٩٥١م.

٢١ ـ لباب النقول في أسباب النزول ـ للسيوطي ـ ط٢ـم البابي ـ مصر :١٣٧٣هـ ١٩٥٤م.

٢٢ ـ مجمع البيان في تفسير القرآن ج٥ـ للطبرسي ـ بيروت: ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م .

٢٣ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ج١ـ للزمخشري ـط٢ـم الاستقامة ـ مصر ١٣٧٣ هـ ـ١٩٥٣م محمد مصطفى ١٣٠٨ هـ .

٢٤ـ السيرة الحلبية ج١ـ للحلبي ـط٣ـم الأزهرية ـ مصر ١٣٥١هـ ١٩٣٢م.

٢٥ـ إحياء علوم الدين ج٣ـ للغزالي ـ م البابي ـ مصر:١٣٥٨هـ ١٩٣٩م.

٢٦ـ سر العالمين وكشف ما في الدارين للغزالي ـم الحجر بومبي ١٣١٤هـ .

٢٧ـ الاستيعاب في أسماء الأصحاب ج٣ـ ليوسف النمري القرطبي ـ م مصطفى محمد ـ مصر ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م [بهامش الإصابة]

٢٨ ـ شرح النهج ٤ ـ لابن أبي الحديد .

٢٩ـ مقدمة ابن خلدون ـ م مصطفى محمد ـ مصر .

٣٠ـ ينابيع المودة ـ للشيخ سليمان الحسيني ـ ط٢ـ م العرفان ـ صيدا ـ وم بمبي ١٣١١ هـ .

٣١ـ فصل الحاكم في النزاع والتخاصم ، فيما بني أمية وبني هاشم ـ لمحمد بن عقيل ـم العرفان ـ صيدا : ١٣٤٣هـ.

٣٢ـ كشف الأستار عن وجه الغائب عن الأبصار ـ لميرزا حسين النوري ـ م أحمد آقا ـ ١٣١٨ هـ .

٣٣ـ أبو هريرة ـ للسيد عبدالحسين شرف الدين ـ م العرفان ـ صيدا : ١٣٦٥ هـ .

٣٤ ـ الغدير ج ٨ ـ م الزهراء بالنجف : ١٣٧٠هـ.

٣٥ ـ السيرة النبوية والآثار المحمدية ج١ـ للسيد أحمد زيني دحلان ـ بهامش (السيرة الحلبية) .

٣٦ ـ الاستيعاب ج ٤ .

٣٧ـ الغدير ج٣ـ ط ١ ـ م الغري النجف ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م.

٣٨ـ الاصابة في تمييز الصحابة ج٢ ـ لابن حجر العسقلاني [مطبوعة مع الاستيعاب] .

٣٩، ٤٠ ـ الإمام علي صوت العدالة ج١ لجورج جرداق ١٩٥٦م ـ وج٤ـ م الجهاد ، بيروت .

٤١ـ الإمام علي بن أبي طالب ج١ ـ لعبدالفتاح عبدالمقصود ـ ط٢ ـ دار الكتاب العربي ـ مصر ١٣٦٦هـ.

٤٢ـ معجم القبور ـ للسيد محمد مهدي الموسوي ـ م النجاح ـ بغداد ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م.

٤٣ـ أصل الشيعة وأصولها ـ للشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء ـ ط ٢ ـ م العرفان ١٣٥٥هـ ـ١٩٥٨م.

٤٤ـ مروج الذهب ـ لابي الحسين علي المسعودي ـ ط ٣ ـ م السعادة بمصر ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨م .

٤٥ ـ بحار الأنوار ج٦ ـ لمحمد باقر المجلسي ـ م خورشيد طهران ـ ١٣٢٣هـ

٤٦ـ العباس بن أمير المؤمنين ـ للسيد عبدالرزاق المقرّم ـ م الحيدرية بالنجف .

٤٧ـ الكامل في التأريخ ج٣ ـ لابن الأثير ـ ١٣٤٩هـ.

٤٨ ـ حليف مخزوم ـ للسيد صدرالدين شرف الدين ـ ط ١ ـ م العرفان : ١٣٧٣هـ ـ١٩٥٤م.

٤٩ـ الكامل في التأريخ ج ـ ١٣٤٨ هـ.

٥٠ـ الغدير ج٧ ـ م الزهراء بالنجف ١٣٦٩هـ.

٥١ـ اعيان الشيعة ج٢ ـ ط ٣ ـ م الانصاف بيروت : ١٣٧٠هـ ـ١٩٥٠م.

٥٢ـ السيرة النبوية ج١ ـ لابن هشام ـ م البابي ـ مصر . ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م

٥٣ـ على هامش السيرة ج١ ـ لطه حسين ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٢م

٥٤ـ المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية ج٤ ـ للسيد محسن الأمين ـ ط ٢ ـ م ابن زيدون ـ دمشق ١٣٦٣ هـ .

٥٥ ـ تذكرة الخواص ـ لسبط ابن الجوزي ـ م العلمية بالنجف ١٣٦٩هـ.

٥٦ـ الاستيعاب ج ١. ٥٧ـ شرح النهج ـ لابن أبي الحديد ـ ج٢ .

٥٨ـ إثبات الوصية ـ للمسعودي « صاحب المروج » ـ ط ٣ ـ م الحيدرية بالنجف .

٥٩ ، ٦٠ ـ أعيان الشيعة ج٣ ق١ ط ٢ ، م الإتقان دمشق ١٣٦٦ و ج٣٩ ط ١ ، م الإنصاف ـ بيروت ١٣٧٥هـ

٦١ـ عمدة الطالب في أنساب آل ابي طالب ـ لأحمد بن علي الداودي ـ ط١ ـ المطبع الجعفري ـ لكنوء .

٦٢ـ مناقب آل أبي طالب ج١ ـ لابن شهر اشوب المازندراني ـ بمبي.

٦٣ـ الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب ـ السيد شمس الدين فخار بن معد ـ م العلوية ـ النجف : ١٣٥١هـ.

٦٤ـ الإمام علي صوت العدالة ج١ ، م الجهاد بيروت .

٦٥ـ مجالس ثعلب ق ١ ـ لأبي العباس أحمد ثعلب ـ دار المعارف بمصر : ١٣٤٨هـ.

٦٦ـ أبو طالب شيخ بني هاشم ـ لعبدالعزيز سيد الأهل ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٥١م ـ ط ١ .

٦٧ ـ هاشم وأمية ـ في الجاهلية « ١ » ـ للسيد صدرالدين ـ بغداد : ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٥م.

٦٨ـ صحيح البخاري ج٢ ـ م الميمنية للبابي ـ مصر .

٦٩ ـ شيخ الأبطح أو أبو طالب ـ للسيد محمد علي شرف الدين ـ م دار السلام ـ بغداد : ١٣٤٩هـ .

٧٠ـ معجم البلدان ج٥ ـ لياقوت الحموي ـ بيروت : ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م

٧١ ، ٧٢ ـ فاطمة بنت محمد ، ومحمد النبي العربي ـ لعمر أبو النصر ـ

م الوطنية ـ بيروت ١٩٥٣م.

٧٣ـ على هامش السيرة ج٢ .

٧٤ـ تاريخ الأمم والملوك ج٢ .

٧٥ـ قصص العرب ج١ـ لمحمد جاد المولى وصاحبيه ط ٢ـ مصر ١٣٦٧هـ

٧٦ـ إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني ـ دار المعارف بمصر .

٧٧ـ الكامل في اللغة ج٣ ـ ط ١.

٧٨ـ غاية المرام الخ ـ للسيد هاشم البحراني ـ ايران ١٢٧٢ هـ .

٧٩ـ الاصابة ج٤ .

٨٠ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة ـ للمحب الطبري ـ ط ١ ، م الحسينية ١٣٢٧هـ .

٨١ـ أعيان الشيعة ج١٦ ـ ط ١ ـ م ابن زيدون ـ دمشق ١٣٥٩هـ.

٨٢ـ تفسير علي بن إبراهيم ـ إيران ١٣٦٣هـ.

٨٣ـ ديوان أبي طالب ـ م فيض رسان ـ بمبي ١٣٢٦هـ.

٨٤ـ إيمان أبي طالب ـ للشيخ المفيد [ضمن المجموعة الأولى من « نفائس المخطوطات »] ـ م الحيدرية ـ النجف : ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م.

٨٥ـ مجمع البيان ج٧ .

٨٦ـ ثمرات الاوراق في المحاضرات ج٢ـ لتقي الدين بن حجة الحموي ـ بهامش المستطرف ـ م المشهد الحسيني ١٣٦٨هـ.

٨٧ ـ الكشاف ج٢ ط٢ ـ م الاستقامة بالقاهرة ١٣٧٣هـ.

٨٨ـ السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ .

٨٩ ، ٩٠ ـ معجم البلدان ج٥ ط١، م السعادة مصر ١٣٢٤هـ ـ وج ٣

بيروت : ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.

٩١ ـ على هامش السيرة ج٣ ـ عام ٤٦ م .

٩٢ ـ الاستيعاب ج ٢ .

٩٣ ـ نسب قريش ـ لمصعب الزبيري ـ دار المعارف للطباعة والنشر ١٩٥٣م

٩٤ ـ الأغاني ج ١٧ ـ لأبي الفرج الاصبهاني ـ م التقدم ـ مصر .

٩٥ ـ الغدير ج١ ـ ط٢ ـ م الحيدري طهران : ١٣٧٢هـ.

٩٦ ، ٩٧ ـ الكشاف ج٢ م محمد مصطفى ١٣٠٨هـ ـ وج٤ ط٢ ـ م الاستقامة بالقاهرة ١٣٧٣هـ.

٩٨ ـ تفسير القرآن العظيم ج٤ ـ لأبي الفداء بن كثير ـ دار إحياء الكتب العربية بمصر .

٩٩ ـ ١٠٢ ـ مجمع البيان ج٢٨ ط٢ ـ دار الشمالي بحريصا ـ وج١٠ و٦ و٢٦ ـ بيروت ١٣٧٦هـ و١٣٧٤هـ

١٠٣ ـ الكشاف ج٣ ـ م محمد مصطفى ١٣٠٨ هـ .

١٠٤ ـ وقعة صفين ـ لنصر بن مزاحم ـ ط١ ـ القاهرة : ١٣٦٥هـ.

١٠٥ ـ الصواعق المحرقة ـ لأحمد بن حجر الهيتمي ـ م الميمنية ـ مصر : ١٣١٢ هـ .

١٠٦ ـ الفتنة الكبرى «١» عثمان ـ لطه حسين ـ دار المعارف بمصر ١٩٤٧ م.

١٠٧ ـ تأريخ الأمم والملوك ج٦ ـ ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م.

١٠٨ ـ الكامل في التأريخ ج٥ عام ١٣٥٧ هـ.

١٠٩ ـ محاضرات تأريخ الأمم الإسلامية ـ الدولة العباسية ـ للشيخ محمد الخضري ـ ط٥ ـ م الإستقامة ـ القاهرة ١٣٦٤هـ ١٩٤٥م.

١١٠ ــ ميزان الاعتدال في نقد الرجال ج٣ لمحمد الذهبي ــ ط ١ ــ م السعادة بمصر ١٣٢٥ هـ •

١١١ ــ تفسير البيضاوي ج٢ ــ م مصطفى محمد ــ مصر •

١١٢ ــ تفسير القرآن ج٢ ، لابن كثير •

١١٣ ــ ميزان الإعتدال ج١.

١١٤ ــ دلائل الصدق ج ١ ــ للشيخ محمد حسن المظفر ــ جاب تابان ١٣٧٩ هـ •

١١٥ ــ إسعاف المبطأ برجال الموطأ ــ لجلال الدين السيوطي ــ م مصطفى محمد ١٣٥٨هـ [في نهاية الموطأ] •

١١٦ ــ الفهرست لابن النديم ــ م الرحمانية ــ مصر ١٣٤٨هـ.

١١٧ ــ صحيح البخاري ج٣ •

١١٨ ــ ميزان الاعتدال ٢.

١١٩ ــ الإصابة ج٣.

١٢٠ ــ سير أعلام النبلاء ج٢ ــ لمحمد الذهبي ــ دار المعارف بمصر : ١٩٥٧ م •

١٢١ ــ الغدير ج٦ ط ٢ ــ م الحيدري ــ طهران : ١٣٧٢ هـ •

١٢٢ ــ فتوح البلدان ــ لأبي العباس البلاذري ــ دار النشر للجامعيين: ١٣٧٧هـ ــ ١٩٥٧م •

١٢٣ ــ الإتقان في علوم القرآن ــ لجلال الدين السيوطي ــ م حجازي بالقاهرة ١٣٦٨ هـ •

١٢٤ ــ تفسير القرآن ج٣ لابن كثير •

١٢٥ ــ صحيح مسلم ج٣ •

١٢٦ ــ الكشاف ج ٣ ــ ط ٢ ــ م الاستقامة بالقاهرة : ١٣٧٣هـ.

١٢٧ ــ مجمع البيان ج ٢٠ عام ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م.

١٢٨ ــ تفسير البيضاوي ج ٤ •

١٢٩ ــ مجمع البيان ٢٣ ــ عام ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م.

١٣٠ ــ صحيح البخاري ج ١.

١٣١ ــ الغدير ج٩ ــ م الحيدرية ، النجف ١٣٧١هـ.

١٣٢ ــ أعيان الشيعة ج٤ ق١ ط ٢ ــ م الإنصاف ــ بيروت ١٣٦٨هـ ــ ١٩٤٨م.

محتويات الكتاب

آثار المؤلف

(ا) المطبوع :

١ – ذكرى الإمام الخُنيزي .

ترجمة لحياة والده ، وباكورة إنتاجه – المطبعة الحيدرية – النجف الأشرف : ١٣٧٠ هـ – ١٩٥١ م .

٢ – ذكرى الزعيم الخُنيزي .

ترجمة لحياة ابن عمّه – المطبعة العلميّة – النجف الأشرف : ١٣٧٣ هـ – ١٩٥٤ م .

٣ – أبو طالبٍ مؤمن قريشٍ – (دراسة وتحليل) – (هذا الكتاب) .

(ا) الطبعة الأولى – منشورات مكتبة الحياة – بيروت : ١٣٨١ هـ – ١٩٦١ م .

(ب) الطبعة الثانية – منشورات مكتبة الحياة – بيروت : ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م .

(ج) الطبعة الثالثة – منشورات المؤسّسة الثقافية للنشر والتأليف : ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م .

وقد ذُكر أن هذه الطبعة الثانية – وهي الثالثة .

والطبعتان الأخيرتان ، بدون إذن المؤلّف .

(د) وقد ترجم للأوردو – منشورات مكتبة تعمير أدب بوسط بكس ٢٤٥ – لاهور – (بدون إذن المؤلّف أيضاً) .

هذا في حدود ما وقف عليه المؤلّف من: إعادة

(هـ) الطبعة الرابعة – منشورات دار التعارف للمطبوعات – بيروت ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م .

٤ – أدواؤنا منشورات مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة – مطبعة الكيلاني : ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م .

٥ – نسيمٌ وزوبعةٌ ، في جزءين – منشورات مكتبة الأنجلو المصرية – بالقاهرة – مطبعة الكيلاني : ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م .

٦ – ضوءٌ في الظل – منشورات مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة – مطبعة الكيلاني : ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م .

(ب) المخطوط المعدّ للطبع :

٧ – زهراتٌ – مجموعةٌ شعريةٌ ، وشعرٌ منثورٌ .

٨ – مجموعةٌ قصصيةٌ .

٩ – صُورٌ من الحياة – كلماتٌ قصارٌ .

(ج) المخطوط قيْد الإكمال :

١٠ – ابنُ المقرّب : الشاعر الثوريّ .

١١ – الحركات الفكريّة في القطيف .

١٢ – لا إكراه ...

١٣ – المرأة بنظرةٍ إسلاميةٍ .

١٤ – مجموعة دراسات ، ومقالات متنوّعة ، لم يُجمع شتاتها في عقْدٍ بعدُ .

عدا تحقيق بعض مؤلّفات والده – كـ « دلائل الأحكام » : الدورة الفقهية في شرح « شرائع الإسلام » .

وعدا فكرة وضع كتابٍ ، عن (قيس ابن سعد) ، وضع مقدّمته ، منذ أعوامٍ ، وصُرف عنه .

هـذا الكتاب

لقد أحسن المؤلف إذ أبرز شخصية سيد البطحاء - ابن شيبة الحمد - فجلاها ، ثم بسطها على فصول الكتاب جميعًا فنما فضل كفيل الرسول ومربيه وحاميه ، بنمو الرسول نفسه ، فكان ان اليتيم استظل في كنف عمه صبيًا ويافعا - فلما بزغت شمس اليتيم مشى العم في نورها ، وفاءَ الى ظل ابن عبدالله مجاهدًا يفديه بماله ونفسه وولده .

ومن الانصاف للسيد الخنيزي ، قولنا : إنَّه بارع في التحليل ، وليس أدل على ذلك من وقفته على الابيات التي تثبت ايمان أبي طالب .

... وأحسب أنه لو أمتهن المحاماة لما جاء في الرعيل الاخير ، فان له من خصائص الاستدلال والقياس والخلوص من المقدمات الى النتائج ما يكفل له النجاح .

بولس سلامة
(من المقدمة)